
@ketab_n
11.9.2014
الغصن الذهبي
سير/جيمس جورج فريزر
@ketab_n
ترجمة
محمد زياد كبة
kutub-pdf.net

الغصن الذهبي المصور

دراسة في السحر والدين

تأليف:

سير/ جيمس جورج فريزر

ترجمة:

أ. د. محمد زياد كبة

مراجعة:

أ.د. سعد البازعي

تلخيص:

روبرت ك. ج. تمبل



الغصن الذهبي المصور



الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

BL310 .F7212 2011
Frazer, James George, Sir, 1854 - 1941.
الغصن الذهبي المصور : دراسة في السحر و الدين / تأليف جيمس
جورج فريزر ؛ ترجمة محمد زياد كبة ؛ مراجعة سعد البازعي - أبو ظبي :
هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2011.
ص. 218 ؛ 27.5X22سم.
تدمك: 978-9948-01-752-3
ترجمة كتاب: The golden bough.
١-الأساطير. ٢- السحر. ٣-الخرافات.
أ-كبة، محمد زياد. ب-بازعي، سعد.

الغصن الذهبي
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
James George Frazer
The Illustrated Golden Bough



www.kalima.com
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات



مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين. طلب المعرفة فريضة على الإنسان يلتمسها على اختلاف صنوفها وتنوع مصادرها، فيتفق مع بعضها ويعارض بعضها الأخر. فإذا كانت المعرفة تتعلق بمعتقداته الدينية كانت المسألة أصعب ومعالجتها أعقد. وكتاب الغصن الذهبي يندرج تحت هذا النوع من الكتب إذ يتناول ما يرى المؤلف أنه تطور مسيرة الفكر البشري منذ أقدم العصور حتى الآن، فيصنفه في مراحل ثلاث هي مرحلة السحر، ومرحلة الدين، ومرحلة العلم فيسلط الضوء على كل واحدة منها، ويدرسها بالتفصيل مدعماً آراءه بأمثلة وحكايات من مختلف القبائل والشعوب البدائية.

ويفرد المؤلف مساحة شاسعة من الكتاب لدراسة العلاقة بين السحر والدين عند البدائيين، ويبين أن هناك نقاطاً مشتركة بينهما لاسيما في محاولة تفسير الظواهر الطبيعية والسيطرة عليها. فالساحر الذي يستسقي لقبيلته ويحاول التحكم بأحوال الطقس يؤدي طقوساً وابتهالات يصفها المؤلف بأنها خليط بين الشعوذة والدين، مثلها مثل القرابين التي تقدم على مذابح الآلهة طلباً لتحقيق الأماني، وأعياد النار التي ما زالت كثير من الجماعات البشرية تحتفل بها حتى يومنا هذا في العديد من أنحاء العالم.

ويعزو المؤلف كثيراً من الممارسات الدينية والاجتماعية الحالية إلى عادات وثنية مغرقة في القدم نراها مثلاً في إشعال النيران يومي الانقلاب الشمسي في الصيف والشتاء. ويسوق كثيراً من الأمثلة التي يستفاد منها أن النار تمثل الشمس، وأن العجلات المحترقة تمثل حركتها الدائرية. ويبين أن عيد الميلاد عند المسيحيين كان في الأصل احتفالاً وثنياً بالانقلاب الشمسي الشتوي الذي يوافق الخامس من يناير كل عام، وأن عادة تقديم القرابين هي في الواقع عادات وثنية تقوم على إحراق قرابين حية من الحيوانات، وأحياناً من البشر، تقرباً من إله معين أو طمعاً في تحقيق غاية معينة.

ويتحدث الكاتب عن مفهوم الروح بإسهاب عند البدائيين والفراعنة في مصر القديمة، ويقول إن الروح في اعتقادهم تخرج من الجسم وتعود إليه كما يحلو لها، وأن من الممكن الفصل بينهما بشكل مؤقت دون أن يؤدي ذلك إلى موت الجسم. أما إذا كان الانفصال أبديا فعندئذ تحدث الوفاة. ويفرد المؤلف حيزاً كبيراً لمناقشة فكرة تقمص الروح لأجساد البشر أو الشجر أو أشياء جامدة كالحجر في بعض الثقافات. ويسوق كثيراً من الحكايات الشعبية المتداولة عند بعض القبائل البدائية في آسيا وإفريقيا وقبائل الهنود الحمر في أمريكا.

ومن المهم أن ينظر القارئ إلى النتيجة التي خلص إليها المؤلف باهتمام شديد وأن يحاول تفنيدها ودحضها من منظور إسلامي بحت. فنحن نؤمن أن ديننا الإسلامي لا يتعارض مع العلم، ونؤكد أن العلم يدعم الإيمان. فادعاء المؤلف أن الدين حل محل السحر في تفسير الظواهر الطبيعية والقوى الخارقة التي تتحكم بها، وأن العلم حل محل الدين في مرحلة لاحقة من التاريخ الإنساني هو مجرد ادعاء يمكن تفنيده. وهذا ما حدث بالفعل، إذ إن كثيراً ممن قرؤوا الكتاب الأصل خالفوا المؤلف وانتقدوا آراءه.

لكن الكتاب على أية حال جدير بالقراءة من الناحيتين الأكاديمية والثقافية، ويعد مرجعاً مهماً في علم الأنثروبولوجيا لأنه يتناول قطاعاً واسعاً من تطور الفكر البشري والتاريخ الإنساني، كما أنه يسلط الضوء على أصل كثير من العادات المتبعة بين مختلف الشعوب في عصرنا الحاضر. إنه كتاب غني بالمعلومات ويستحق قراءة متأنية ودقيقة للاطلاع على جانب مهم من تاريخ الإنسان وثقافته ما زال غامضاً بالنسبة إلى الكثيرين.

والله من وراء القصد.

محمد زياد كبة

مقدمة المراجع

منذ نشره في طبعته الأولى عام 1890 التي جاءت في جزأين و«الغصن الذهبي» للأنثروبولوجي السير جيمس فريزر وللكتاب تأثير غير عادي على اللغات التي حل بها، ومنها اللغة العربية. فقد جاء الكتاب بأطروحة تلقاها القراء في الغرب بمواقف متباينة ولكنها عميقة التأثير، بعضهم استاء واضطر المؤلف لتعديل النص في طبعاته اللاحقة، والبعض تلقف الكتاب بإعجاب وتأثر به تأثراً عميقاً. الفئة الأولى تضمن جمهرة القراء ممن استاؤوا من موقف الكتاب تجاه الديانة المسيحية، والأديان السماوية عموماً بالضرورة، حين تناولها من زاوية أسطورية وحدت بعض معتقداتها الأساسية بما تضمنته الأساطير اليونانية والرومانية وغيرها في ثقافات عدد من الشعوب والقبائل في مختلف أصقاع العالم.

لكن بقيت فئة أخرى منحت «الغصن الذهبي» مكانته الهامة في المشهد الثقافي الغربي منذ بداية القرن العشرين، فنحن هنا إزاء كتاب حفر عميقاً في الشعر والرواية والنقد الغربي، وبالطبع في كثير من الرؤى الفكرية/الفلسفية وتوجهات البحث في الأنثروبولوجيا وما يتصل بها من مباحث. الكتاب والأعمال التي حملت ذلك الأثر أطول من أن تقتبس هنا، لكنها تشمل أعمالاً لبعض عمالقة الأدب الغربي من مثل: وليم ييتس، ت. س. إليوت، عزرا باوند، جيمس جويس، د. ه. لورنس، إرنست هيمنغواي. والأعمال الأدبية تقع في القمة بين ما أنتجه الغربيون في القرن العشرين.

إن كتاباً بهذه الأهمية خليق به أن يترجم لا للتأثر به بالضرورة وإنما للتعرف على التشكل الحضاري والثقافي الغربي الذي يمارس تأثيره العالمي اليوم في كل مكان. وقد أدرك اثنان من الكتاب العرب، هما الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا (توفي 1994) وعلي أحمد سعيد (أدونيس) أهمية الكتاب فترجما جزءاً صغيراً منه عام 1957 لم يلبث هو الآخر أن ترك أثره على الشعر العربي الحديث، كما في أعمال بدر شاكر السياب وغيره ممن اهتموا بالأسطورة في الأدب.

من هنا تأتي أهمية تقديم هذه الترجمة للنسخة المختصرة من «الغصن الذهبي» فهي تملأ فراغاً واضحاً في معرفتنا بالثقافة الغربية لأن ما سبقت ترجمته أقل بكثير مما تضمنته هذه الطبعة، هذا على الرغم من أنها تظل أقل مما تحتويه الاثنا عشر جزءاً التي نشرها السير جيمس فريزر في الطبعة الثالثة من الكتاب ما بين عام 1906 و 1915م. قد نختلف في أهمية الكتاب كاملاً، لكننا لن نختلف في ترجمة طبعة مختصرة تضم خلاصة ما تضمنه الكتاب، فهي حل عملي يسهل التعرف على الكتاب بشكل أكثر شمولية مما سبق نشره أو ترجمته، وإن نقصت بعض التفاصيل.

سعد البازعي

مقدمة المؤلف

«الغصن الذهبي» من أبعد الكتب أثراً في الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي ظهرت حتى الآن. ويعد كتاب السير جيمس فريزر الرائع بأجزائه الإثني عشر علامة بارزة على طريق دراسة السحر وأصل الأديان لأنه صدر والمفكرون يفتشون في حقائق الماضي ويسعون نحو تفسير الأفكار والمعتقدات البشرية. فما كان في البداية مجرد بحث في معنى كهنة ديانا Diana الغريبة القاتلة في حديقة نمي Nemi المقدسة اتسع ليصبح وصفاً شاملاً ومفصلاً للعادات والتقاليد والطقوس في سائر أنحاء العالم. وقد حمله عمله هذا على الاعتقاد بأن الدين محاولة يبذلها الإنسان لإرضاء القوى التي يقول فريزر إنها «تسيطر على مسار الطبيعة وتتحكم بحياة البشر».

لقد ترك كتاب فريزر أعمق الأثر في ثقافة العالم إلى حد تجاوز قراءه بأشواط بعيدة. فاكتشافاته فيما يخص تطور المعتقدات يدخل في تيارات التغيرات الاجتماعية التي التفت حول نظرية داروين Darwin [1] ونظرية عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية تايلور Taylor وغيرهما من أصدقائه المفكرين المحدثين. كانت نظرة فريزر إلى تاريخ المعتقدات البشرية تطورية ونفسية بصفة أساس. فهو يتحدث عن الإنسان في انتقاله من إيمانه بالسحر وسيلة للسيطرة على بيئته إلى الإيمان الديني الذي يسعى إلى استرضاء الآلهة والأرواح. أما المرحلة الثالثة المنطقية في هذه العملية كما يراها فريزر فهي الفكر العلمي، فقد بين كتابه للمرة الأولى أن أهمية المسائل المتعلقة بالمعتقدات البشرية لا تنبع من محتوياتها بل من مدلولاتها النفسية.

كان فريزر أول من شرح ظاهرة الطوطمية، وأول كاتب حديث يتناول موضوع المحرمات بصورة جدية. فبعد اثنتين وعشرين سنة على صدور الطبعة الأولى من الغصن الذهبي، نشر سيجموند فرويد [2] كتابه الطوطم والمحرم، كما اعتمد كارل يونج فيما بعد على اهتمامات فريزر بالتقاليد وتاريخ المعتقدات في تعريفه للنماذج الجماعية التي رأى أنها تقف وراء الخبرات الإنسانية. أما كتّاب القرن العشرين مثل إليوت

(1) تشارلز داروين (1809-1882) عالم طبيعة بريطاني صاحب النظرية الداروينية. من أشهر كتبه «أصل الأنواع» (1859) «المترجم».

(2) سيجموند فرويد (1856-1939) طبيب أمراض عصبية نمساوي ومؤسس طريقة التحليل النفسي «المترجم».



ولورنس فاستمدوا أفكارهم من الأوصاف والأفكار الغزيرة التي يحفل بها الغصن الذهبي.

ينحدر فريزر من أسرة واسعة الثراء (1854-1941) عاشت في مدينة غلاسكو باسكتلندة، وتلقى تعليمه في جامعة غلاسكو أولا حين كانت نظريات تشارلز داروين رائجة، والفكر ينعم بالتحرر، ودرس العلوم الكلاسيكية وهي الفلسفة والفلسفة الطبيعية، ثم تابع دراسته في جامعة كامبريج، فدرس القانون في ميدل تمبل في لندن Middle Temple. وفي عام 1907 قبل أن يتولى منصب رئيس قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة ليفربول، لكنه ما لبث أن تخلى عنه. وقد استوحى فريزر من أعمال صديقه وليم روبرتسون سميث الرائدة عن الأديان القديمة فكرة نشر مقالات عن العادات الشعبية (الفولكلور) والأنثروبولوجيا، وكرس وقته للبحث المعمق، فكتب مقالات

للطبعة التاسعة من الموسوعة البريطانية، اثنتين منها عن المحرمات والطوطمية. وقد احتلت هاتان المقالتان مكانة بارزة في عمله الضخم.

شرع فريزر بعدئذ في تأليف كتاب بعنوان الغصن الذهبي الذي نشر عام 1890 في جزأين، ولم يكن الكتاب ذاك سوى مسودة عمل يحمل العنوان عينه أنجزه عام 1915 مع أجزاء إضافية ظهرت تباعاً حتى عام 1939. وفي الموضوع ذاته، وضع فريزر كتاباً صغيراً بعنوان مهمة النفس Psyche's Task خلص فيه إلى أن الإيمان بالخرافات الذي وصفه بأنه «رأي كاذب» ساعد البشرية بتشجيع احترام السلطة، وأدى بالتالي إلى منع كثير من أشكال العنف.

صحيح أن تفسيرات فريزر لم تنل رضا أقرانه دوما، إلا أن عمله لقي شهرة واسعة وهو على قيد الحياة، فمنح درجة الدكتوراه الفخرية من العديد من الجامعات العالمية. وفي عام 1914 نال فريزر لقب سير وكان من القلائل الذين منحوا لقب زميل الأكاديمية البريطانية والجمعية الملكية، كما أسهم في الثورة الفكرية التي حررت العقل الغربي من قيود المعتقدات المتحجرة حول الطبيعة ودور الإيمان في ثقافة بني البشر. تبنى فريزر النظرة العريضة، واستعرض تاريخ البشرية بأكمله مستمداً أفكاره من غزارة المادة الإثنوجرافية ومن معرفته الكلاسيكية الهائلة، وكانت له ميزتان مثاليتان، فهو لم يتوان عن تغيير أية فرضية إذا ثبت خطؤها، وكان يتجنب المغالاة في التخصص.

وبالرغم من ذيوع صيت كتاب الغصن الذهبي فإن ضخامة حجمه جعلت جمهور قرائه يقتصر في الغالب على المتخصصين. وكان أول من سارع إلى تدارك هذه الناحية زوجته ليلي Lilly ففي عام 1924 نشرت ليلي كتاب أوراق من الغصن الذهبي Leaves from the Golden Bough وكان موجها إلى الأطفال ومزوداً بالصور، حذفت منه كل الأجزاء النظرية وركزت على الجوانب الشعبية. وفي السنة التالية نشر فريزر ذاته ملخصا لكتابه في جزء واحد يقع في 750 صفحة وبحروف صغيرة، وهو الكتاب الذي لخصته أنا بدوري.

كان فريزر بالدرجة الأولى من مفكري القرن التاسع عشر، وقد تغيرت مناهج دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ ذلك الحين. لذا فإن تقييمه لألوان الفكر البدائي قد يبدو لنا قاسياً أحياناً، كما أن بعض آرائه لم تعد تلائم الفكر الحديث، لكن الغصن الذهبي يظل مع ذلك جزءاً ثميناً من تاريخنا الثقافي، فهو عمل أدبي وسجل فريد، يتمتع بأسلوب قصصي ممتاز يُسر له القارئ. وآمل من خلال تقديم الكتاب للقارئ العادي، وتزويده بالصور في أن يستفيد من حكمته أكبر عدد من القراء الذين كان وما زال جديراً بهم.

روبرت تمبل



الفصل الأول

ملك الغابة

لعل عشاق الفن يعرفون لوحة الفنان تيرنر Turner [3] المعروفة باسم الغصن الذهبي. فالمنظر الذي يغمره بريق الخيال الذهبي الذي صور فيه تيرنر المبدع أجمل المناظر الطبيعية وأحاطها بهالة من الجلال يمثل انطباعاً أشبه بالأحلام لبحيرة نمي Nemi الصغيرة في أعماق الغابة التي عرفها الأقدمون باسم «مرآة ديانا». ولا يمكن لكل من رأى ذلك الماء الساكن وتلال أولبان Alban الخضر تحيط به من كل جانب أن ينساه أبداً. أما القريتان الإيطاليتان المتميزتان الهاجعتان على ضفافه، والقصر الإيطالي بحدائقه المتدرجة على المنحدر نحو البحيرة فلا تكاد تكسر الصمت، ولا حتى العزلة في المنظر. ولعل ديانا بالذات تجوب أنحاء هذا الشاطئ المنعزل، وما زالت تتجول في هذه الغابات الحراجية.

وقد ورد في الكتب القديمة أن هذه البقعة الحراجية شهدت مأساة غريبة متكررة. فعلى شاطئ البحيرة الشمالي، وبالتحديد تحت الجرف الصخري الشاهق حيث قرية نمي الحديثة، تقع خميلة ديانا نيمورينسيس Diana Nemorensis ومحميتها، التي تعرف أحياناً باسم ديانا ابنة الغابة. أما البحيرة والخميلة فيطلق عليهما أحياناً اسم بحيرة أريشيا Aricia وخميلتها. لكن مدينة أريشيا تبعد ثلاثة أميال عن سفح جبل أولبان، ويفصلها عن البحيرة جرف شديد الانحدار يقع في تجويف يشبه الفالق الصخري على كتف الجبل.

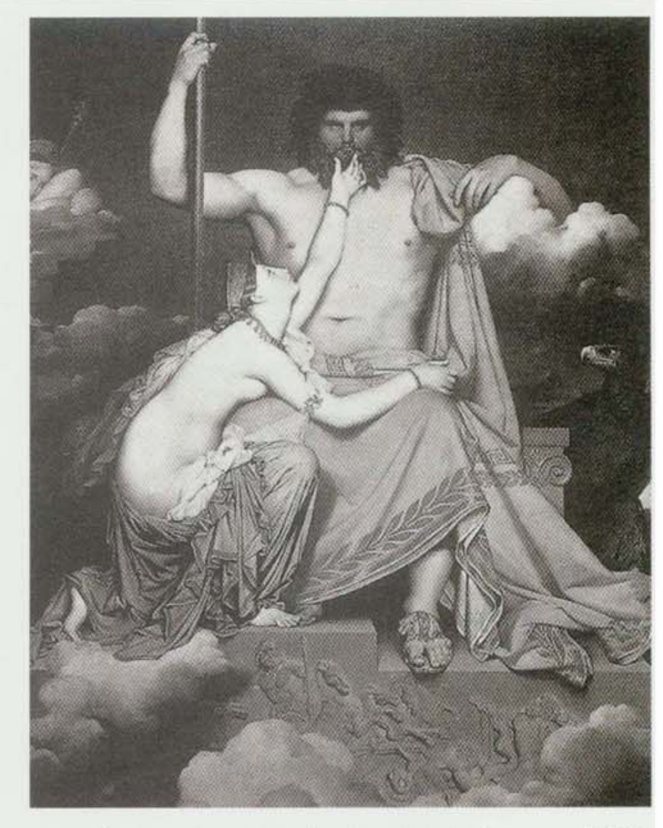
في الخميلة المقدسة تلك شجرة معينة وشبح قاتم اللون لا يكف عن الدوران حولها طوال النهار حتى الهزيع الأخير من الليل أيضاً، سيفه مشهر بيده على الدوام، ولا يكاد ينقطع عن التلفت حوله بمنتهى الحذر كما لو أن عدواً يوشك أن ينقض عليه في أية لحظة. فهو كاهن وقاتل في الوقت ذاته. أما خصمه فسوف يقتله إن عاجلاً أم آجلاً ليحل محله في منصب الكاهن. هذا هو حكم المحمية. فمن يطمح للفوز بمنصب الكاهن لا يمكن أن يحقق طموحه إلا بقتل الكاهن الحالي، وعندها يحتفظ بمنصبه حتى يأتي رجل آخر أشد منه بأساً ودهاء فيقتله.



في الأعلى: الإلهة اليونانية أرتميس، وتبدو هنا ربة للحيوانات ولها أجنحة وتصحبها الأسود. في العهد الروماني عرفت باسم ديانا. وهي تمثل القمر، أما أخوها أبولو فيمثل الشمس. جزء من عقد ذهبي من رودس، القرن السابع ق.م. المتحف البريطاني، لندن.

في الطرف المقابل: عرض جوزيف مولارد تيرنر «الغصن الذهبي» للمرة الأولى عام 1834. ويبين هذا الجزء العرافة كومي Cumae وهي ترفع بيديها الغصن الذهبي الذي سيمكن إينياس من دخول عالم الأرواح. في الخلفية تظهر حديقة نمي وبحيرتها. تيت غاليري، لندن.

(3) جوزيف مالورد وليم تيرنر (1775-1851) رسام بريطاني من المدرسة الرومانتيكية «المترجم».



في الأعلى: جوبيتر، إله البرق والرعد الصارم مع ثيتيس، إحدى عشيقاته من بني البشر وهي أم آخيل. كان يعتقد أن آلهة أوليمبوس ضخام الأجسام مقارنة بالحوريات والبشر. جين بابتيست دومينيك. إنغرس، متحف غرانت، آكس أو برفنس.

في الطرف المقابل: ديانا العذراء الشجاعة تجوب الغابات و بيدها قوسها وتصحبها كلاب الصيد السريعة. كانت تصيد الغزلان، والحيوانات المفترسة والبشر الذين يغيظونها. لوحة من القرن السادس عشر من مدرسة فونتنبلو. متحف اللوفر، باريس.

أما المنصب الذي يشغله في هذه الفترة العصيبة فيتضمن لقب الملك. لكن من المؤكد أنه ليس ثمة رأس متوج يعاني من القلق وتؤرقه الكوابيس أكثر من رأسه. فعلى مر السنين، سواء في الصيف أو الشتاء، كان عليه البقاء متيقظاً في وحدته، وكلما أخذته سنة من النوم، تعرضت حياته للخطر؛ فأقل استرخاء في يقظته، أو تراخ في قوة أطرافه أو مهاراته القتالية تشكل مجازفة ربما تودي بحياته. فالشعر الأشيب قد يمهر وثيقة وفاته بخاتمه. أما بالنسبة إلى الحجاج الطيبين الأتقياء عند الضريح فإن رؤيته تعكر صفاء المنظر الجميل بأكمله كما لو أن سحابة حجبت ضوء الشمس فجأة في نهار صحو. فزرقة السماء الإيطالية الحالمة، وظلال غابات الصيف المرقطة، ولمعان الأمواج في أشعة الشمس لم تكن تنذر إلا بالشر بالنسبة إلى ذلك الشبح الشرير غليظ القلب. لكننا سنتخيل المنظر كما يراه عابر سبيل متأخر في ليلة خريفية موحشة تتساقط فيها أوراق الأشجار الميتة ويتراكم بعضها فوق بعض والرياح تنشد ترنيمة جنائزية في رثاء السنة المحتضرة.

وليس في التاريخ الكلاسيكي ما يشبه هذه القاعدة الكهنوتية، وليس فيه ما يفسرها. فلكي نفهم هذه العادة الغريبة سأورد أولا بعض الحقائق والأساطير التي تناهت إلى مسامعنا حول هذا الموضوع، ثم نعود بعد ذلك إلى أسطورة بولدر Balder حتى نرى العلاقة الوثيقة بين الحالتين اللتين هما في الواقع جانبان لتراث مشترك. وفي قلب ذلك كله تكمن طبيعة الغصن الذهبي.

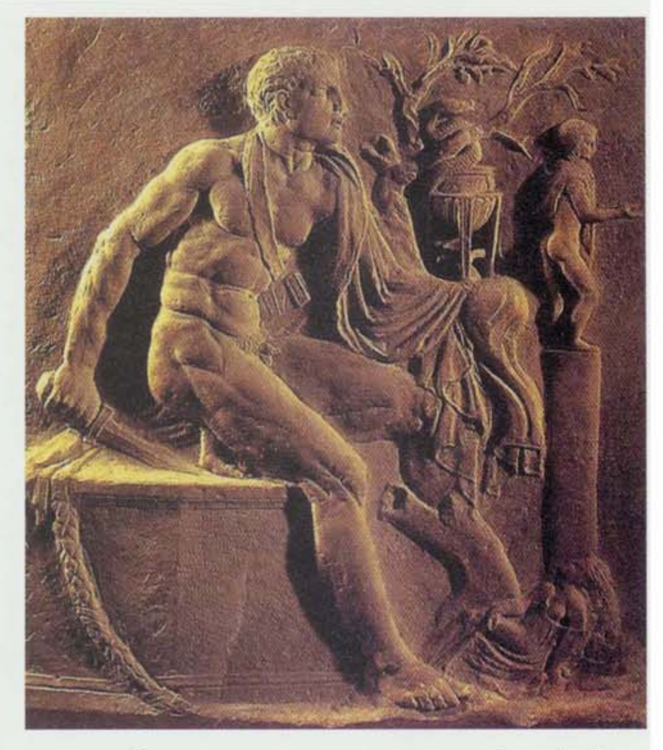
لكن قبل كل شيء دعونا نستعرض القصص التي حفظها قدماء المؤلفين حول أصل الممارسات الغريبة في نمي. فإحدى هذه القصص تروي لنا أن عبادة ديانا في نمي بدأها أوريستيس Orestes الذي هرب إلى إيطاليا مع أخته بعد أن قتل ثوس Thos ملك شبه جزيرة القرم مصطحبا معه صورة ديانا القرمية مخبأة في حزمة من العصي. وبعد وفاته نقلت عظامه من أريشيا إلى روما حيث دفنت أمام معبد ساترن على منحدر الكابيتول بجوار معبد كونكورد.

أما الطقوس الدامية التي ربطتها الأسطورة بديانا القرمية فتروي أن كل غريب نزل على الشاطئ كان يقدم قربانا على مذبحها. ويذكر المؤرخ ديودوروس سيكولوس Diodorus Siculus العديد من الأمثلة عن كيفية أسر الغرباء الذين يبحرون في البحر الأسود لدى نزولهم إلى الشاطئ بحثاً عن مياه الشرب وإعدامهم لأهداف دينية. وتقول المصادر القديمة: يجازف بحياته كل من يبحر في مياه البحر الأسود!

لكن الطقوس حين انتقلت إلى إيطاليا اعتدلت وخفت حدتها، فقد نمت شجرة خاصة يحظر كسر أي غصن من أغصانها، ولم يكن يسمح بذلك إلا للعبد الآبق إن استطاع إلى كسره سبيلاً. فنجاحه في محاولته يخوله قتال الكاهن في جولة واحدة، فإذا صرعه حل محله في الحكم ومنح لقب ملك الغابة Rex Nemorensis. وتبعاً للرأي العام السائد لدى القدماء فإن الغصن المميت هو الغصن الذهبي الذي انتزعه إينياس Aeneas [4] تلبية لرغبة العرافة قبل انطلاقه في

(4) إينياس بطل طروادي في الأساطير الإغريقية والرومانية. كان الرومانيون يعتقدون بأنه سليل لمؤسسي روما الأسطوريين رومولوس وريموس. وقد احتفى الشاعر الروماني فيرجيل بمغامرات إينياس في قصيدته الملحمية الإنيادة «المترجم».





في الأعلى: أوريستيس في دلفي مع إرينيس نائم، وتمثال أبولو، ومنصب العرافة ثلاثي القوائم. ويقال إن هربه من القرم إلى نمي بتمثال الإلهة ديانا كان السبب في عبادتها في أريشيا. مجسم روماني من الرخام. القرن الأول ق. م. من هيركيلانوم. متحف الآثار الوطني، نابولي.

الطرف المقابل (في الأعلى): موت هيبوليتوس. تروي الأسطورة أن هيبوليتوس كان فيربيوس، وهو كبير كهنة ديانا المعروف بملك الغابة. لوحة للفنان بيتر بول روبنس، 1611. متحف فيتزوليم، كامبريج، إنجلترة.

رحلته المحفوفة بالمخاطر إلى عالم الموتى.

أما معركة العبد فقد قيل إنها تمثل نجاة أوريستيس لأن معركته مع الكاهن هي من بقايا القرابين البشرية التي كانت في قديم الزمان تقدم إلى ديانا القرمية. فقاعدة انتزاع الحكم بحد السيف معروفة منذ عصر الإمبراطورية. ومن الطفرات الأخرى حوله نجد أن كاليغولا Caligula استأجر أحد عتاة المجرمين لقتل كاهن نمي لأنه رأى أن فترة حكمه طالت أكثر مما ينبغي. كما أن رحالة يونانيا زار إيطاليا في عهد الأنطونيين Antonines ذكر أن الكهنوتية كانت تعد حتى زمانه جائزة النصر في معركة واحدة.

وما زال بوسعنا أن نعرف بعض السمات البارزة من عبادة ديانا في نمي. فمن القرابين التي كانت تقدم وفاء للنذور والتي عثر عليها في الموقع يبدو لنا أن صورتها كما تخيلها الناس هي صورة صيادة، وأنها تمنح الرجال والنساء بركة الذرية، وتخفف عن الحوامل آلام المخاض. ويبدو لنا أيضاً أن للنار دوراً مهماً في طقوسها. ففي عيدها السنوي الذي يصادف اليوم الثالث عشر من أغسطس، أي في أشد أيام السنة حرارة، يضاء بستانها بالمشاعل التي تنعكس أضواؤها الحمر على صفحة مياه البحيرة، كما تجري الاحتفالات المقدسة طوال اليوم قرب المواقد المنزلية في طول إيطاليا وعرضها.

أما التماثيل البرونزية التي عثر عليها في منطقتها فتمثل الإلهة ذاتها وهي ترفع شعلة بيدها اليمنى، والنساء اللائي أجابت دعاءهن قادمات إلى المحمية وعلى رؤوسهن الأكاليل ويحملن المشاعل وفاء لنذورهن. وقد أهدى مجهول شعلة لا تنطفئ في ضريح صغير في نمي من أجل سلامة الإمبراطور كلوديوس Claudius[5] وأسرته . أما المصابيح الطينية (التراكوتا) التي عثر عليها في الخميلة فربما كانت تستخدم من قبل البسطاء للسبب عينه. ولو صح ذلك لأصبح الشبه بين هذه العادات وبين إشعال الشموع المقدسة في الكنائس عند الكاثوليك واضحاً. كما أن في لقب فيستا، أي ربة النار، الذي تحمله ديانا في نمي إشارة واضحة إلى وجود نار مقدسة أبدية في محميتها. وهناك قبو واسع مستدير عند الزاوية الشمالية الشرقية من المعبد يرتفع ثلاث درجات يحمل بقايا فسيفساء ربما كان يدعم معبداً دائرياً من معابد ديانا وهي في شخصية ربة النار مثل معبد فيستا الدائري في ملعب روما. من هنا نتبين أن عذارى فيستا كن يعتنين بالنار المقدسة، حيث عثر على رأس فيستاوي من الطين في تلك البقعة، ويبدو أن عبادة النار الأبدية التي تمارسها الفتيات المقدسات كانت شائعة في بلاد الرومان منذ أقدم العصور. أضف إلى ذلك أنه في عيد الإلهة السنوي كانت الأكاليل توضع على رؤوس كلاب الصيد، ولم يكن أحد يتعرض للحيوانات البرية بسوء إذ يخضع الشبان لطقوس التطهر على شرفها، وتوزع الخمر على الناس. أما الوليمة فتتألف من لحم الحمَل والفطائر الساخنة التي تقدم على أطباق من أوراق الشجر والتفاح الذي يقدم على شكل عناقيد على الأغصان.

(5) طيبريوس كلوديوس قيصر اوغسطس جرمانيكوس Tiberius Claudius Caesar Augustus Germanicus من (1 اغسطس 10 قبل الميلاد -إلى- 13 أكتوبر 54)الامبراطور الروماني الرابع من سلالة – خوليوكلاوديان، حكم خلال الفترة من 24 يناير 41 إلى وفاته في 54. ولد في لوغدنم في بلاد الغال (ليون، فرنسا) ،من درسس وانتونيا مينور، وكان أول امبراطور روماني مولود خارج إيطاليا «المترجم».

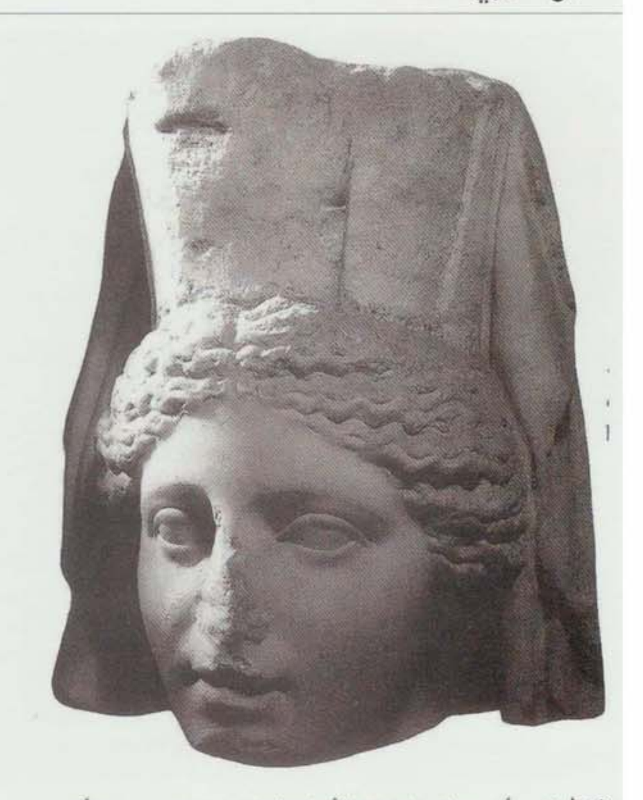
لكن ديانا لم تنفرد في حكم خميلة نمي. فقد كان هناك إلهتان أقل منها شأناً تشاركانها حكم الخميلة المحمية. الأولى إيجيريا Egeria، وهي إلهة الماء الصافي الذي يتدفق من الصخور البازلتة على شكل شلالات جميلة تنحدر نحو البحيرة عند قصر المول Le Mole. فقد بنيت هنا مصانع قرية نمي الحديثة. وذكر أوفيد [6] تلألؤ ماء الجدول فوق الحصى، وقال إنه كثيراً ما شرب منه. أما النسوة فقد اعتدن وأطفالهن تقديم القرابين إلى إيجيريا نظراً إلى إيمانهن بقدرتها على تخفيف آلام المخاض عند الحوامل مثلها مثل ديانا. وتروي لنا الحكايات أن الحورية كانت زوجة الملك الحكيم نوما Numa أو عشيقته، وبأنه كان يعاشرها في خبايا الخميلة المقدسة، وأن القانون الذي قدمه إلى الرومان كان نتيجة التواصل معها. ويقارن بلوتارك Plutarch هذه الأسطورة بحكايات أخرى عن عشق الإلاهات لرجال من البشر مثل سيبيل Cybele والقمر للشابين أتيس Attis واندميون Endymion.

في الأسفل: شجيرة الهدال (فيسكوم ألبوم) (الغصن الذهبي) في الأسطورة، مع الطحالب والطقسوس. حفر من القرن التاسع عشر.



ويرى بعضهم أن مكان اللقاء بين العاشقين لم يكن غابات نمي، بل في خميلة في ظاهر بورتا كابينا الندية في روما حيث تتدفق مياه نبع مقدس آخر من ينابيع إيجيريا من كهف مظلم. وفي كل

(6) بيليوس أوفيديوس ناسو (Publius Ovidius Naso؛ 43 ق.م. - 17 م)، المعروف بلقب أوفيد، شاعر روماني قديم، من أشهر أعماله «التحولات» (Metamorphoses) بعام 8 م، والتي كانت عن الميثولوجيا الإغريقية والرومانية. وعرف بكتابته حول استكشاف الحب مثل قصيدة «فن الحب» (Ars Amatoria) التي كتبها في السنة الأولى قبل الميلاد «المترجم».



في الأعلى: رأس روماني للإلهة - الأم اليونانية سيبيل، وهي عشيقة أتيس الإنسان المولعة بالانتقام التي راودها الشك في أنه يخونها فأفقدته عقله. انتقلت عبادتها إلى روما من فريجيا في آسيا الصغرى في القرن الثاني ق. م. المتحف الوطني الروماني، روما.

في الطرف المقابل: سيريس (المعروفة في الأساطير الإغريقية باسم ديميتر) تشرف على المحاصيل والحصاد. أخذ هيديز ابنتها بيرسفون إلى عالم الأرواح تحت الأرض، لكن سمح لها بالعودة إلى الأرض كل سنة من الربيع إلى الخريف كرمز للتجدد والولادة الجديدة. لوحة من القرن السابع عشر للفنان بيترو بيانشي.

يوم يأتي الفيستاليون الرومان بالماء من هذا النبع ليغسلوا معبد فيستا فيحملونه على رؤوسهم في آنية فخارية. وفي زمن جوفينال Juvenal كانت الصخور الطبيعية تكسى بالرخام، لكن عصابات اليهود الفقراء المشردين في الخميلة كالغجر أتلفت البقعة المقدسة. وبوسعنا الافتراض بأن الينبوع الذي يتدفق إلى بحيرة نمي كان إيجيريا الحقيقية الأصلية، وأنه حين نزل المستوطنون الأوائل من تلال أولبان إلى ضفاف التيبر جلبوا معهم الحورية وأوجدوا لها بيتاً جديداً في الخميلة خارج الأسوار. وتشير بقايا الحمامات التي عثر عليها في المحمية المقدسة والعديد من التماثيل الطينية للجسم البشري إلى أن مياه إيجيريا كانت تستخدم في شفاء المرضى الذين كانوا يعبرون عن أملهم أو يؤكدون امتنانهم من خلال تقديم تماثيل تشبه المرضى إلى الآلهة وذلك جرياً على عادة ما زالت متبعة في كثير من البلاد الأوروبية. ويبدو أن الينبوع ما زال يحتفظ بمزاياه الطبية حتى يومنا هذا.

أما الإله الثانوي الآخر فهو فيربيوس. وتقول الأساطير إن فيربيوس البطل هو اليوناني الشاب هيبوليتوس Hippolytus العفيف الوسيم الذي أتقن فن الصيد على يد القنطور شيرون وكان يقضي جل أيامه في الغابات الخضر يطارد الحيوانات البرية مع الصيادة العذراء أرتميس Artemis (وهي نظيرة ديانا اليونانية) رفيقته الوحيدة. وقد عزف فيربيوس عن حب النساء بسبب إعجابه بمجتمع أرتميس الألوهي، وكان في هذا هلاكه. فأفروديات التي آلمها احتقاره لها أوحت إلى زوجة أبيه فيدرا Phaedra بأن تعشقه، ولما عبر لها عن كراهيته لعروضها الماكرة اتهمته ظلماً عند والده ثيزيوس Thesius، فصدق الوالد وشايتها ودعا أباه بوسايدون Posidon ليثأر له من هذه الفعلة الكاذبة. وهكذا أرسل إله البحر ثوراً شرساً من الأمواج حين كان هيبوليتوس يقود عربته على شاطئ خليج سارونيك، فجفلت الخيل وقذفت بهيبوليتوس من العربة وسحبته بسنابكها إلى حتفه. لكن ديانا، وبسبب حبها لهيبوليتوس، أقنعت الطبيب إسكولابيوس Aesculapius بإعادة صيادها الشاب الوسيم إلى الحياة مستعيناً بمهاراته الطبية في الأعشاب. لكن جوبيتر الذي ساءه أن يعود إنسان من بوابات الموت ألقى بالطبيب ذاته في عالم الموتى جزاء ما اقترفت يداه. أما ديانا فخبأت عشيقها من الإله الغاضب داخل سحابة كثيفة وأخفت ملامحه بأن أضافت سنوات إلى عمره، ثم حملته بعيداً إلى أودية نمي حيث عهدت به إلى الحورية إيجيريا ليعيش هناك وحيداً لا يعرفه أحد تحت اسم فيربيوس في أعماق الغابة الإيطالية. وفي أودية نمي مارس فيربيوس الحكم بصفته ملكاً، وخصص محمية لديانا، ورزق بولد حسن الطلعة اسمه فيربيوس الذي لم يتعظ بمصير والده فقاد فريقا من الجياد الجامحة لينضم إلى اللاتين في حربهم على إينياس والطرواديين. وكان فيربيوس يُعبد بصفته إلها لا في نمي وحسب، بل في أماكن أخرى أيضا، فنحن نسمع عن كاهن في كامبانيا Campania نذر نفسه لخدمته.

ولما كانت الخيل هي التي قتلت هيبوليتوس فقد استبعدت من خميلة أريشيا ومحميتها. وكان محرما المساس بصورته. وظن بعضهم أنه الشمس لكن سرفيوس يقول «الحق هو أنه إله يرتبط اسمه بديانا مثلما يرتبط اسم أتيس باسم والدة الآلهة،

وإريكثونيوس Erichthonius باسم منيرفا Minerva، وأدونيس Adonis باسم فينوس Venus». أما طبيعة ذلك الارتباط فهذا ما سنبحثه الآن.

من الجدير بالملاحظة في هذا المقام أن هذه الشخصية الأسطورية أظهرت تمسكاً شديداً بالحياة خلال حياتها الطويلة الحافلة بالأحداث. ولا يخامرنا أدنى شك في أن القديس هيبوليتوس في التقويم الروماني الذي سحبته الخيل إلى حتفه في الثالث عشر من أغسطس، وهو عيد ديانا بالذات، ما هو سوى البطل الإغريقي الذي يحمل الاسم ذاته والذي أعيد إلى الحياة بوصفه قديسا مسيحياً بعد مماته مرتين كآثم وثني.

ولا حاجة بنا إلى عرض دقيق لكي نقتنع بأن الحكايات التي وصلتنا حول تفسير عبادة ديانا في نمي لا صلة لها بالواقع. فمن الواضح أنها تنتمي إلى تلك الطائفة الواسعة من الأساطير التي وضعت لتفسر أصل طقس ديني بعينه، ولا أساس لها باستثناء التشابه سواء أكان حقيقياً أم وهمياً، الذي يمكن ملاحظته بينها وبين طقس غريب محدد. فعدم انسجام أساطير نمي هذه باد لنا بالفعل على اعتبار أن أساس العبادة يمكن تتبعه مرة إلى أوريستيس ومرة إلى هيبوليتوس تبعا لهذا الجزء من الطقس أو ذاك الذي نريد تفسيره. أما القيمة الحقيقية لمثل هذه الحكايات فتكمن في فائدتها في تفسير طبيعة العبادة من خلال تقديم معيار يمكن أن تقارن به. أضف إلى ذلك أنها تشهد بصورة غير مباشرة على زمانها العظيم من خلال تبيان أن الأصل الحقيقي ضاع في ضباب ماض أسطوري. وفي هذا الجانب الأخير نرى أنه ربما كان بإمكاننا أن نثق بأساطير نمي هذه أكثر مما نثق بالرواية التاريخية الظاهرية التي يؤكدها لنا كاتو Cato الكبير. وتقول هذه الرواية إن يوجيريوس بيبيوس Egerius Baebius أو ليفيوس التسكلماني Laevius of Tusculum – وهو دكتاتور لاتيني – منح الخميلة المقدسة لديانا بالنيابة عن سكان تسكولوم وأريشيا ولورنتوم وكورا وتيبر وبوميشيا وأندريا. فهذه الرواية التاريخية تتحدث عن زمن المحمية العظيم لأنها تبين لنا أن تاريخ تأسيسها يعود إلى ما قبل 495 ق. م. وهي سنة اجتياح الرومان لبوميشيا واختفائها من وجه التاريخ. لكن لا يسعنا الافتراض بأن قاعدة وحشية مثل قاعدة الكهنوتية الأريشية وضعت عمداً من قبل فئة من المجتمعات المتحضرة مثل المدن اللاتينية التي لا يشك في تحضرها. ولا بد من أنها انتقلت عبر الزمان من مرحلة من الماضي السحيق حين كانت إيطاليا أكثر تخلفاً مما عرف عنها في التاريخ.

وتهتز مصداقية الرواية أكثر مما تثبت بقصة أخرى تعزو تأسيس المحمية إلى شخصية تدعى مانيوس إجيريوس Manius Egerius الذي ينسب إليه المثل الشهير «في أريشيا الكثير من ماني». ويفسر بعضهم هذا المثل بأن مانيوس إجيريوس كان جداً لذرية طويلة ومتميزة، في حين يفسره آخرون بأنه دلالة على وجود الكثير من المشوهين والدميمين في أريشيا، وينسبون كلمة مانيوس إلى مانيا Mania وهو البعبع أو الغول الذي يخيف الأطفال. ويستخدم أحد الساخرين الرومان اسم مانيوس بوصفه اسماً شائعاً للمتسولين الذين ينتظرون الحجاج على منحدرات أريشيا. فالاختلاف في الرأي والتناقض بين مانيوس إجريوس الأريشي وإجريوس ليفيوس التسكلماني والتشابه بين اسميهما مع إجريوس الأسطوري يثير شكوكنا. أما رواية كاتو فما هي إلا قرينة لا يؤخذ بها، ويحظى متبنيها باحترام يمنعنا من استبعادها بوصفها خيالاً لا أساس له من الصحة. لكن لا بأس من الافتراض بأنها تخص عملية ترميم قديمة أو إعادة بناء للمحمية قامت به الدولة الاتحادية. على أية حال فإنها تدعم الاعتقاد بأن الخميلة كانت من أقدم العصور مكاناً عاماً للتعبد بالنسبة إلى كثير من المدن القديمة في البلاد إن لم نقل بالنسبة إلى الاتحاد اللاتيني بأكمله. فللأساطير الأريشية حول أوريستيس وهيبوليتوس قيمة معينة رغم تفاهتها من الناحية التاريخية على اعتبار أنها تساعدنا على فهم أفضل للعبادة في نمي من خلال مقارنتها بالطقوس والأساطير في المحميات الأخرى. ولا بد لنا من أن نتساءل عن السبب الذي دعا المؤلف إلى اختيار أوريستيس وهيبوليتوس لكي يفسر فيربيوس وملك الغابة. أما بالنسبة إلى أوريستيس فالسبب واضح، فقد ورد ذكره مع صورة ديانا القرمية التي لا يشفي غليلها سوى دماء البشر لكي نفهم القاعدة الإجرامية المتبعة في تقلد منصب الكاهن



في الأعلى: كانت ديانا الحامية القوية للصبايا وعذريتهم، وكانت عقوبة إيذاء تواضع أتباعها قاسية. ويبين هذا الجزء ديانا وحورياتها حين فاجأهن أكتيون. لوحة للفنان تيشان، 1556-59. متحف اسكتلندة الوطني.

في الطرف المقابل: تمثال يوناني تذكاري لأرتميس الإفيسوسية العظيمة يعود إلى حوالي 150م. عبدت أرتميس في تركيا بوصفها إلهة الخصوبة. وتبدو هنا بعدة أثداء وهي ترتدي معطفا مزينا بجلود الحيوانات. متحف الآثار في إفيسوس، تركيا.

في أريشيا. أما بالنسبة إلى هيبوليتوس فالأمر غامض إلى حد ما، فطريقة موته تعطينا على الفور سببا لاستبعاد الخيل من الخميلة. لكن هذا في حد ذاته لا يبدو كافيا لتفسير عملية المطابقة. ولا بد لنا من الغوص إلى الأعماق من خلال النظر في العبادة بالإضافة إلى أسطورة هيبوليتوس.

كانت له في وطن أجداده تروزن Troezen محمية شهيرة تقع على خليج خلاب تحيط به اليابسة من جميع أطرافه تقريباً وتنمو فيه بساتين البرتقال والليمون وأشجار السرو التي تتطاول قاماتها مثل أبراج قائمة فوق بستان هسبر ايديس Hesperides وتغلف الشريط الساحلي الخصب عند سفوح الجبال الوعرة. وأمام المياه الزرقاء في الخليج الهادئ الذي تحميه من البحر ترتفع جزيرة بوسايدون المقدسة فتحجب قممها أشجار الصنوبر الخضر الداكنة. كان هيبوليتوس يتعبد على هذا الساحل الآسر.

محميته معبد يضم تمثالاً قديماً، وفيه كاهن يتولى إقامة القداس ويحتفظ بمنصبه مدى الحياة. وفي كل عام يقام احتفال يخصص لتقديم القرابين على شرفه، كما يحتفل بالذكرى السنوية لموته وهو في ريعان الشباب فتنتحب الفتيات وينشدن الترانيم الجنائزية. ويقدم الشباب والصبايا ضفائر من الشعر إلى معبده قبل الزواج، أما ضريحه فهو في تروزن، لكن الناس لا يسمحون برؤيته. وقيل، وفي هذا القول نصيب وافر من الصحة، إن قصة هيبوليتوس الوسيم، عشيق أرتميس الذي لقي حتفه وهو في ريعان الصبا والذي تبكيه الفتيات كل عام، واحدة من قصص عشاق الآلهة من بني البشر الذين تحدثنا عنهم الأديان القديمة وأشهرهم أدونيس. فالمنافسة بين أرتميس وفيدرا على حب هيبوليتوس يعيد كما يقال تحت أسماء مختلفة المنافسة بين أفروديت وبروزباين



على حب أدونيس، لأن فيدرا ليست سوى نظيرة أفروديت. وربما لا تحق هذه النظرية الحق بالنسبة إلى هيبوليتوس أو أرتميس. فأرتميس كانت في الأصل إلهة الخصب، وبحسب مبادئ الدين القديم فإنها المسؤولة عن إخصاب الطبيعة، ويجب أن تكون هي ذاتها قادرة على الإنجاب، وحتى تكون كذلك، لابد لها من اتخاذ رفيق يعاشرها. وتبعا لهذا الرأي فإن هيبوليتوس هو رفيق أرتميس في تروزن، كما أن خصل الشعر التي يقدمها شباب تروزن وشاباتها تقربا قبل الزواج تهدف إلى تقوية اتحاده مع الإلهة لزيادة خصوبة الأرض والحيوانات والبشر.

ومما يدعم هذا الرأي أن الناس كانوا يعبدون إلهتين داميا Damia وأوكسيسيا Auxisia ضمن منطقة هيبوليتوس في تروزن وعلاقة كلتيهما بخصوبة الأرض لا يرقى إليها الشك. فحين حل القحط بإبيدوروس Epidaurus نحت سكانها، امتثالاً لأمر أحد الكهنة، تمثالين لداميا وأوكسيسيا من خشب الزيتون المقدس، وما إن فعلوا ونصبوا التمثالين حتى عادت الأرض إلى طرح ثمارها من جديد. زد على ذلك أنه في تروزن ذاتها، وعلى ما يبدو داخل

في الأسفل: الرحلة الأسطورية للبطل اليوناني أوديسيوس (المعروف أيضا باسم أوليس) أخذته إلى كثير من البلاد الغريبة. لوحة جدارية للفنان أليساندرو ألوري برونزينو.1580. بلازو سلفياتي، فلورنسا.



منطقة هيبوليتوس، أقيم حفل غريب لقذف الحجارة على شرف تلك الصبايا كما يحلو للسكان تسميتهن. ومن السهولة بمكان أن نبين وجود عادات مشابهة في مناطق عدة تهدف إلى ضمان وفرة الغلال.

ويمكننا أن نلمس في قصة موت الشاب هيبوليتوس المأساوية مقاربة مع قصص مشابهة لشبان على قدر من الوسامة ومن بني البشر دفعوا حياتهم ثمنا لعشق إلهة خالدة. وربما لم يكن أولئك الشبان التعساء مجرد شبان دائماً، كما أن الأساطير التي تتتبع دمهم المراق في زهور البنفسج الأرجوانية، وفي لون شقائق النعمان الأحمر، أو لون الورود القرمزي لم تكن مجرد عبارات شعرية جوفاء تعبر عن شباب وجمال عابرين مثل زهور الصيف. ففي تلك الحكايات فلسفة أعمق عن العلاقة بين حياة الإنسان وحياة الطبيعة – وهي فلسفة حزينة ولدت ممارسة مأساوية ألا وهي القرابين البشرية.

ولعلنا ندرك الآن سبب المماثلة عند الأقدمين بين هيبوليتوس رفيق أرتميس وفيربيوس الذي كان بحسب رواية سيرفيوس بالنسبة إلى ديانا مثل أدونيس بالنسبة إلى فينوس، أو أتيس إلى أم الآلهة. فديانا، مثلها مثل أرتميس، كانت إلهة الخصب بصفة عامة، وإلهة الولادة بصفة خاصة مما جعلها بحاجة إلى رفيق من بني البشر على غرار نظيرتها الإغريقية. ولو صح كلام سيرفيوس لكان ذلك الرفيق فيربيوس. فعلى اعتبار أنه كان مؤسس الخميلة المقدسة وأول ملوك نمي فإن فيربيوس هو الجد المجهول، أو الجد الأكبر لسلالة الكهنة الذين يرعون ديانا تحت اسم ملوك الغابة والذين لقوا الواحد تلو الآخر نهاية مؤلمة شبيهة بنهايته. لذلك نرى أن من الطبيعي أن نستنتج أن علاقتهم بإلهة الخميلة الجميلة هي ذاتها القائمة بينها وبين فيربيوس. وباختصار فإن ملك الغابة من بني البشر اتخذ ديانا بالذات لتكون ملكته. ولو كانت الشجرة المقدسة التي يستميت في حراستها تجسيدا لها بصفة خاصة لما اكتفى بعبادتها بصفتها إلهته، بل لعانقها بصفتها زوجته أيضاً. وليس في هذا الافتراض سخافة على الأقل، فحتى في زمن بليني Pliny كان أحد نبلاء روما يعامل شجرة خوخ جميلة تنمو على الشاطئ في خميلة مقدسة أخرى لديانا على تلال أولبان بالطريقة ذاتها، فكان يعانقها ويقبلها ويستلقي في ظلها، ويسكب الخمر على جذعها. ومن الواضح أنه كان يتخذها إلها. فإذا كانت عادة تزويج الرجال والنساء فعلاً إلى الأشجار ما زالت متبعة في الهند وفي

أجزاء أخرى من الشرق فما المانع من حدوثها في البلاد اللاتينية القديمة؟

وإذا ما استعرضنا الدليل بأكمله رأينا أن عبادة ديانا في خميلتها المقدسة في نمي أمر بالغ الأهمية وتراث خالد، وأنها كانت تحظى بالتبجيل بصفتها ربة الغابات والحيوانات البرية وربما الحيوانات الأليفة أيضا والثمار، ويعتقد أنها تبارك الرجال والنساء بالذرية وتعين الحوامل على الولادة، وأن نارها الوحيدة التي تعتني بها العذارى العفيفات تشتعل أبداً في معبد دائري داخل المنطقة، وأن من رفيقاتها حورية الماء إجيريا التي تؤدي إحدى وظائفها وهي مساعدة النسوة في أثناء المخاض، والتي يفترض كما يظن الكثيرون أنها عاشرت ملكاً رومانياً قديماً في الخميلة المقدسة. زد على ذلك أن ديانا إلهة الغابة بالذات كان لها رفيق اسمه فيربيوس هو بالنسبة إليها مثل أدونيس بالنسبة إلى فينوس، وأتيس إلى سيبيل؛ وأخيراً أن فيربيوس الأسطوري هذا مثل في غابر الزمن بسلالة من الكهنة يعرفون باسم ملوك الغابة ويقتلون بسيوف خلفائهم، وارتبطت حياتهم بشجرة معينة من أشجار الخميلة؛ فسلامتهم منوطة بسلامتها.

لكن هذه الاستنتاجات غير كافية في حد ذاتها لتفسير التقاليد الخاصة بالتعاقب على منصب الكهنوتية. ولعل استعراض مجال أوسع يحملنا على التفكير بأن حل المشكلة كامن فيها. لذلك علينا الآن إجراء عملية المسح الواسعة هذه. وهي رغم طولها، تحتوي على شيء من الاهتمام والسحر لرحلة اكتشاف نزور خلالها أراضي غريبة فيها سكان أغراب لهم عادات غريبة أيضاً. إن الرياح في حبال السارية، فدعونا نفرد أشرعتنا للريح ونبحر إلى خارج ساحل إيطاليا مدة من الزمن.



الفصل الثاني

سحـــر التماثل

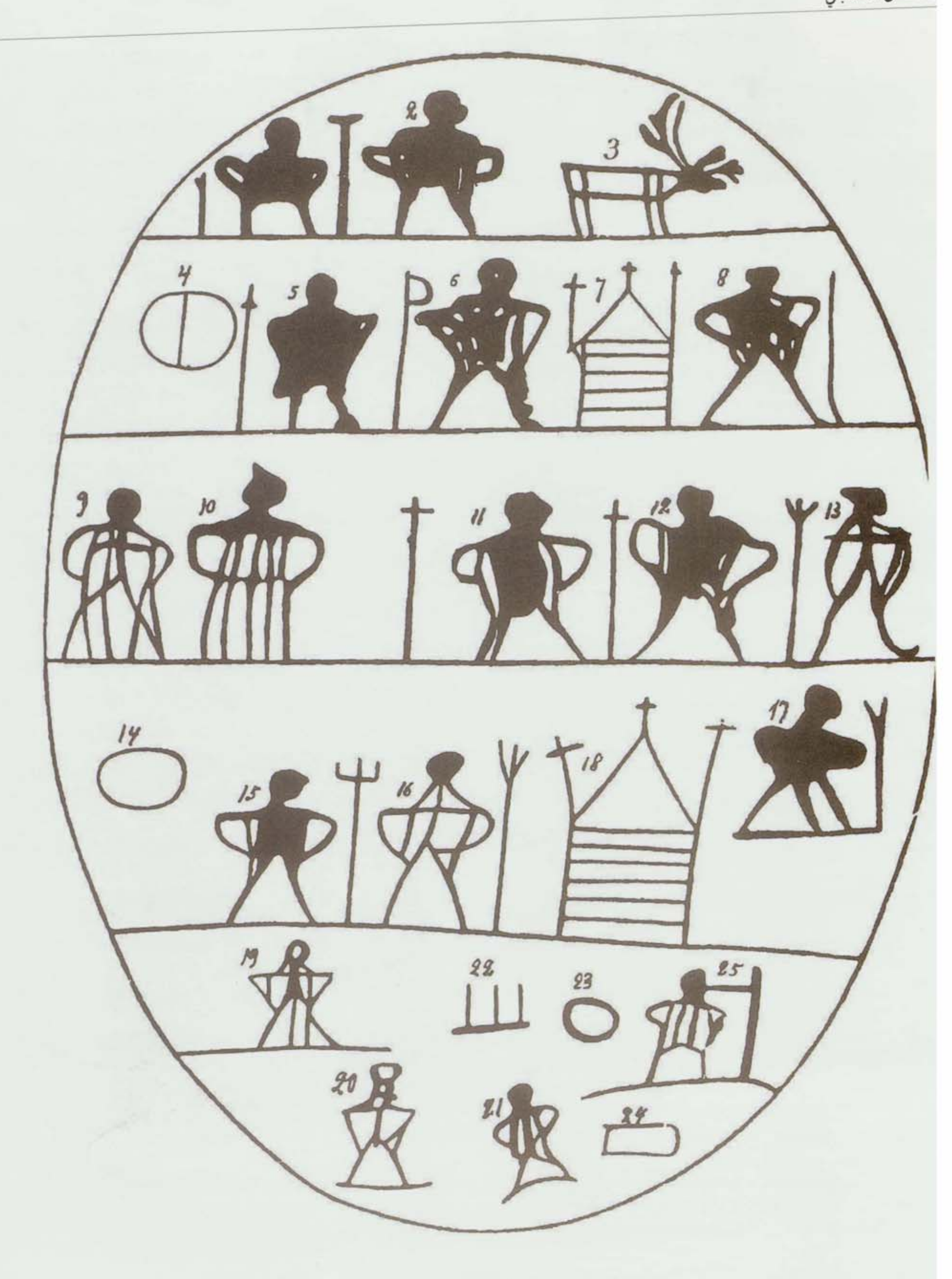
إذا حللنا مبادئ الفكر التي يقوم عليها السحر وجدنا أنها تنقسم إلى نوعين: الأول أن المتشابهات تولد المتشابهات أيضاً أو أن تأثيراً معيناً يشبه مسببه، والثاني هو أن الأشياء التي يتصل بعضها ببعض يبقى تأثيرها المتبادل مستمرا من بعيد بعد انقطاع الاتصال المادي بينها. ويطلق على المبدأ الأول اسم قانون التشابه، وعلى الثاني اسم قانون الاتصال أو التجاور. فمن القـانون الأول، أي قانون التشابه، يستنتج الساحر أن باستطاعته أن يحدث التأثير الذي يريد من خلال محاكاته وحسب. ومن الثاني يستـنتج أن ما يفعله بجسم مادي سيحدث التأثير ذاته في الشخص الذي كان الجسم على اتصال به في السابق سواء أكان جزءاً من جسمه أم لا.

السحر نظام زائف من القوانين الطبيعية ودليل خاطئ للتعامل. إنه علم زائف وفن مبتسر. فإذا نظرنا إليه على أنه نظام من القوانين الطبيعية، أي بيان بالقواعد التي تحدد تتابع الأحداث في العالم، أمكننا تسميته بالسحر النظري. أما إذا نظرنا إليه على أنه مجموعة من المبادئ التي يطبقها البشر بهدف تحقيق أهدافهم، أمكننا تسميته بالسحر العملي. وفي الوقت ذاته لا بد من أن نأخذ في الحسبان أن الساحر البدائي لا يعرف من السحر إلا الجانب العملي منه؛ فهو لا يقوم بتحليل العمليات العقلية التي تقوم عليها ممارساته، ولا يفكر على الإطلاق بالمبادئ المجردة التي تدخل في أعماله. فالمنطق بالنسبة إليه، كما هي الحال بالنسبة إلى معظم الرجال، كامن وليس صريحاً. فهو يفكر بالطريقة نفسها التي يهضم بها طعامه أي في جهل مطبق بالعمليات الفكرية والفيزيائية الضرورية لهذه العملية أو تلك. وباختصار، فإن السحر عنده فن على الدوام، وليس علماً على الإطلاق. وفكرة العلم في حد ذاتها لا وجود لها في عقله المتخلف. ومن واجب طالب الفلسفة أن يتتبع سلسلة الأفكار التي تقف وراء ممارسات الساحر، وأن يستخلص الخيوط البسيطة القليلة التي تتشكل منها هذه الشلة المتشابكة، وأن يستخلص المبادئ المجردة من تطبيقاتها العملية؛ وباختصار أن يتبين العلم الزائف الذي يكمن وراء الفن غير الشرعي.



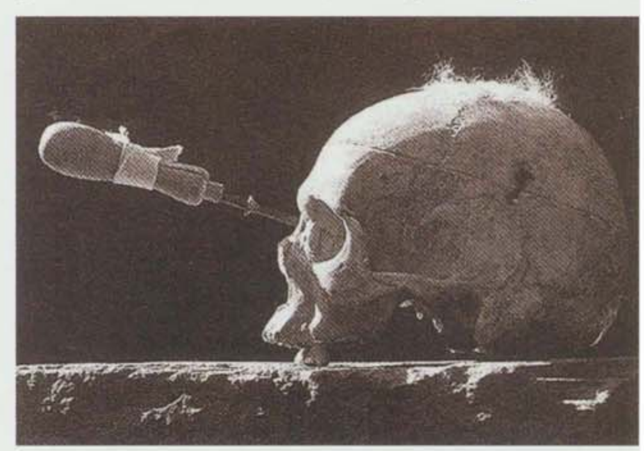
في الأعلى: اجتمع العلم والسحر في دراسة السيمياء في العصور الوسطى. وتبين هذه اللوحة المختبر الغامض لسيميائي. جيوفاني ستراندو، 1570. بلازو فيتشيو، فلورنسا.

في الطرف المقابل: طبيب دجال بنزاري من قبيلة دينكا في جنوب السودان.


2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25

ولو صح تحليلي لمنطق الساحر لوجدنا أن المبدأين الكبيرين ما هما إلا تطبيقين مختلفين خاطئين لترابط الأفكار. فالأول هو الترابط بالتماثل، والثاني الترابط بالتجاور. فالأول يخطئ في افتراضه أن الأشياء التي تشبه بعضها بعضاً متماثلة، في حين أن الثاني يخطئ حين يفترض أن الأشياء التي كان بعضها متصل ببعض تبقى على اتصال دائم. فسلسلتا التفكير كلتاهما بدائية ومغرقة في البساطة في واقع الأمر، ولا يمكن أن يكون الأمر عكس ذلك، على اعتبار أنهما معروفان بالشكل المادي المحسوس، لا بالشكل المجرد، بالنسبة إلى الذكاء الفطري لا عند البدائيين وحسب، بل عند الجهلة والبلهاء في كل مكان. ويفترض كلا فرعي السحر أن الأشياء يؤثر بعضها في بعض من بعيد من خلال تناغم سري؛ فالنبض ينتقل من واحد إلى الآخر من خلال ما يمكننا أن نتصور أنه نوع من الأثير غير المرئي يشبه ذلك الذي يفترضه العلم الحديث لهدف مماثل تماماً، ألا وهو تفسير تأثير بعض الأشياء ببعضها مادياً عبر فضاء يخيل إلينا أنه فارغ.

ولعل أكثر التطبيقات المعروفة لدينا للمبدأ الذي ينص على أن المتشابهات تولد المتشابهات هي محاولة الكثيرين في مختلف العصور إلحاق الأذى بالعدو أو القضاء عليه من خلال أذية صورته أو تدميرها، اعتقاداً منهم أن الرجل يتألم كما تتألم الصورة، وأنه حين تتعرض صورة الرجل للتلف فإنه يفارق الحياة بالتأكيد. وهكذا نسمع بأن الهنود في أمريكا الشمالية يعتقدون أنه من خلال رسم صورة شخص في الرمال أو الرماد أو الصلصال، أو من خلال افتراض شيء معين أنه جسمه ثم طعنه بعصا حادة أو إلحاق أذية أخرى به فإنهم يلحقون أذية مماثلة بالشخص الذي يمثله. فعلى سبيل المثال إذا أراد أحد الهنود من قبيلة أوهيبواي Ojebway[7] إلحاق الضرر بأحدهم، صنع دمية خشبية صغيرة لعدوه ثم غرز إبرة في رأسها أو قلبها، أو أصابها بسهم لاعتقاده أن عدوه سيشعر بألم حاد في جسده في مكان غرزة الإبرة في الدمية أو أصابتها بالسهم. أما إذا كان يريد أن يقتل عدوه لجأ إلى إحراق الدمية أو دفنها في الرمال وهو يتمتم بكلمات معينة. أما هنود البيرو فيصنعون صورا من الدهون المزوجة بالحبوب لتمثل الشخص الذي يكرهون أو يخشون ثم يحرقون الدمية في الطريق الذي يتوقع من الضحية المطلوبة أن تمر فيه. وهذا ما يدعونه بإحراق روحه.



في الأعلى: في السحر الأسود يمكن أن يصاب المرء بلعنة تودي بحياته من خلال غرز الطرف المدبب لآلة حادة في جمجمة عليها اسم الضحية.

في الطرف المقابل: رسم على طبل يعود لجماعة تورن لاب. كان الشعب الفيني – الأغري، لاسيما جماعة اللاب، مشهورين بممارسة السحر والشعوذة. وكان الطبل المقدس جزءا قويا من معدات الشعوذة وظل يستخدم حتى نهاية القرن التاسع عشر. من علم أساطير الأعراق، ج 4، لندن، 1925.

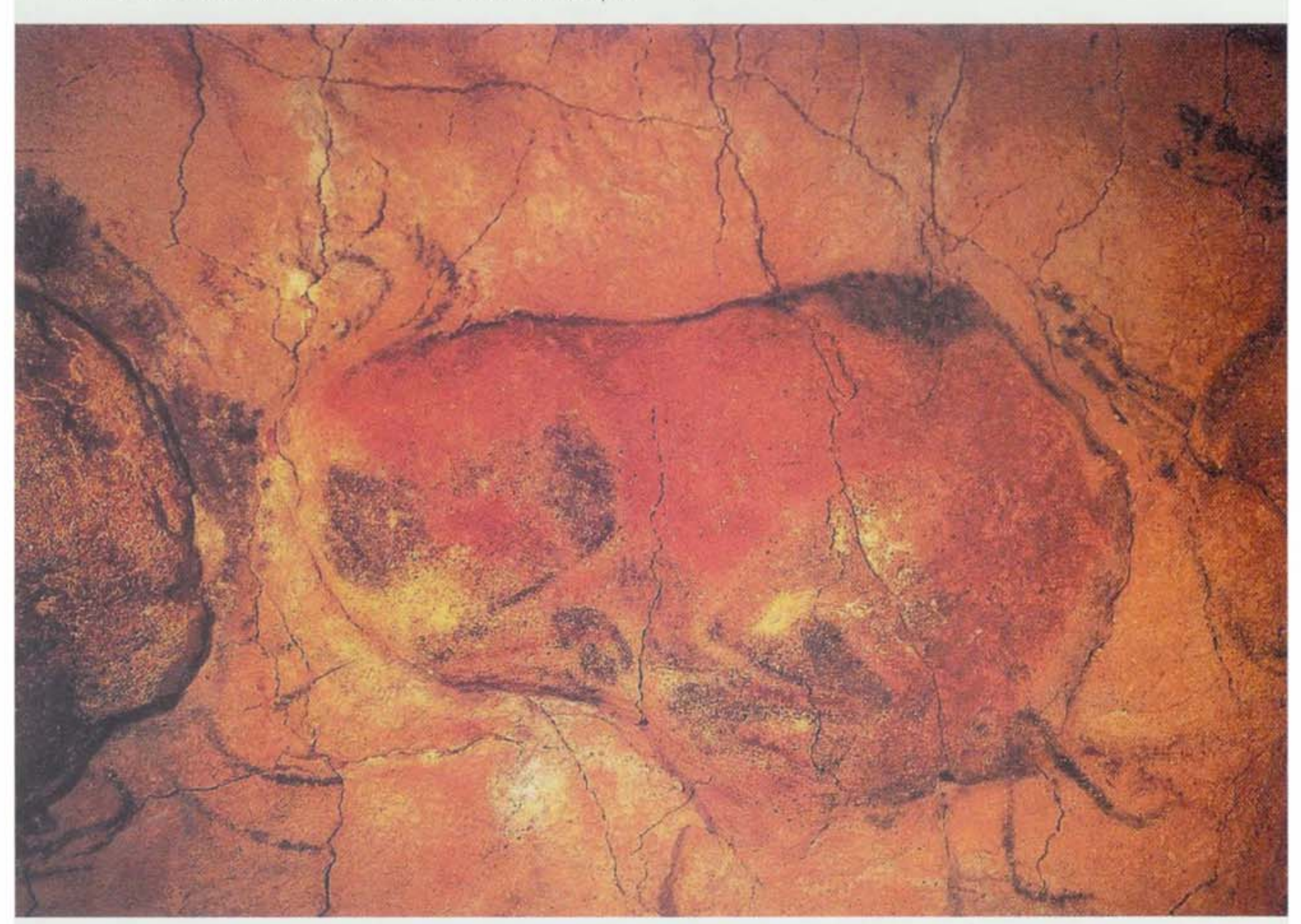
(7) الأوهيبواي من أكبر قبائل الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين في شمال المكسيك «المترجم».

إذا كان سحر التماثل، أي العمل من خلال الدمى والصور، يمارس عادة لتحقيق هدف شرير وهو التخلص من المشاكسين فإنه استخدم أيضاً ليحقق نوايا طيبة مثل مساعدة الآخرين، أي إنه استعمل لتسهيل عملية الولادة وفي مساعدة العاقر على الإنجاب. وهكذا نرى أن العاقر في قبيلة الباتك Batak [8] في سومطرة التي ترغب في الإنجاب تصنع دمية من الخشب على هيئة طفل وتحتضنها اعتقادا منها أن هذا سيحقق رغبتها. أما في أرخبيل بابار، فإن المرأة التي ترغب في الإنجاب تدعو رجلاً هو في الحقيقة أب لأسرة كبيرة لكي يتوسل بالنيابة عنها إلى أوبوليرو Upulero الذي يمثل روح الشمس. فتصنع المرأة دمية من القطن الأحمر ثم تمسك بها بذراعيها كما لو أنها تريد إرضاعها. ثم يمسك أب الأسرة الكبيرة بطائر من ساقيه ويقربه من رأس المرأة وهو يقول: «يا أوبوليرو، استخدم الطير، دع الطفل يخرج، دع الطفل ينزل، أتوسل إليك، دع الطفل ينزل في يدي وفي أحضاني».

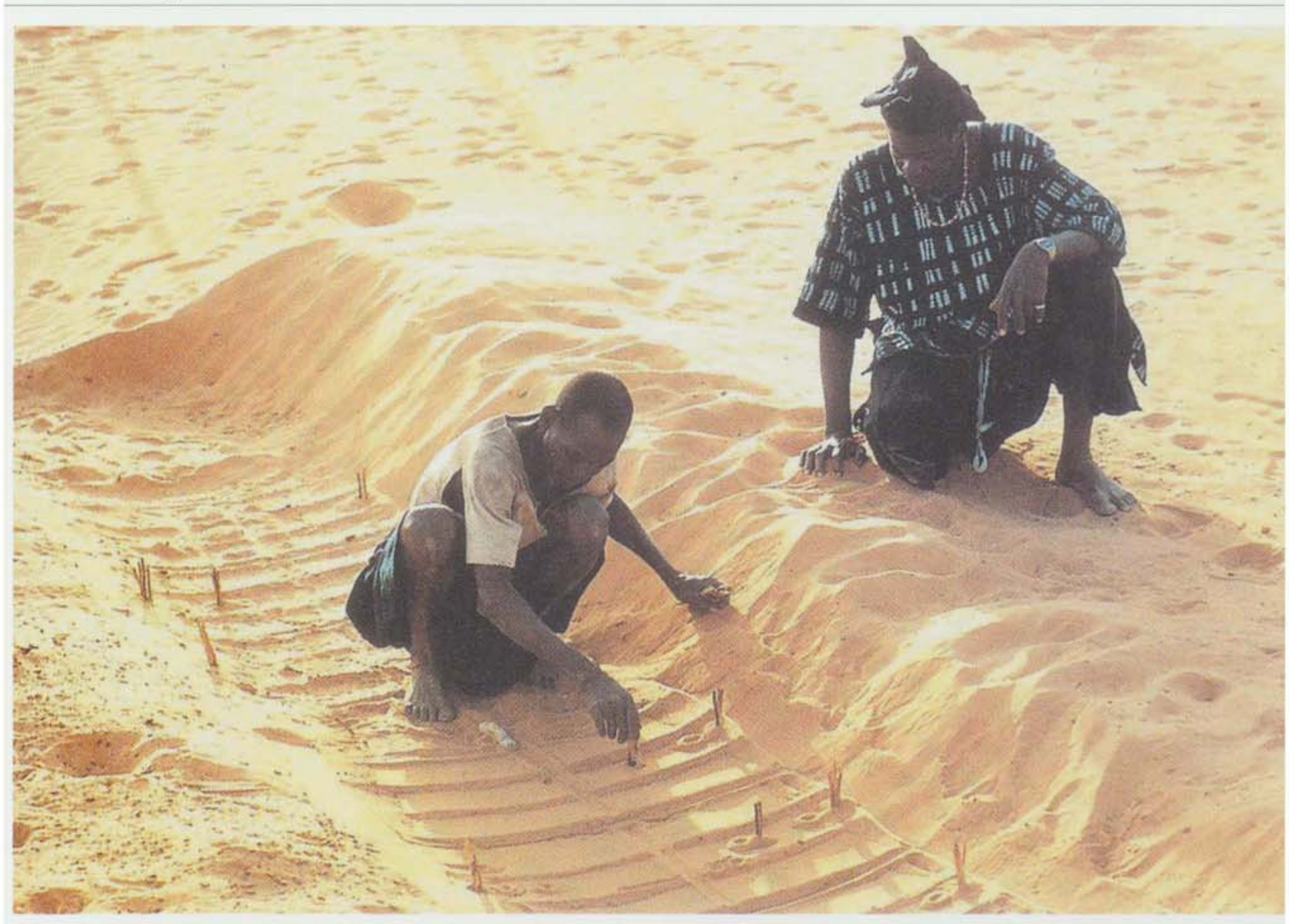
ثم يسأل المرأة: «هل جاء الطفل؟» فتجيب «أجل، وهو يرضع الآن». بعد ذلك يقرب الرجل الطائر من رأس الزوج ويتمتم بضع كلمات. وأخيرا يذبح الطائر ثم يوضع على المذبح مع بعض التنبول (نبات متسلق). وما أن ينتهي الحفل حتى ينتشر الخبر في القرية بأن المرأة أخذت إلى السرير، فتأتي صديقاتها لتهنئتها. هنا نرى أن التظاهر بولادة الطفل ما هو إلا أحد طقوس السحر التي صممت لكي يولد طفل في الواقع من خلال المحاكاة والتقليد. لكن هناك محاولة لتعزيز فعالية هذه الطقوس من خلال الدعاء وتقديم الأضحية. بعبارة أخرى فإن السحر هنا يمتزج ويتعزز بالدين.

في الطرف المقابل: عراف من قبيلة دوغون في مالي بغرب إفريقيا يرسم جدول العرافة في الرمل. وفي الليل سيأتي الثعلب ويمر عبر مختلف الجداول تاركا آثار قوائمه وهذه الآثار تدل على المستقبل.

في الأسفل: رسم لجاموس على جدران كهف يعود تاريخه إلى 15000 عام ق.م. من كهوف ألتاميرا في إسبانيا يعد مثالا على سحر التماثل في الصيد.



(8) قبائل الباتك مجموعة عرقية تسكن المرتفعات شمالي سومطرة بإندونيسيا «المترجم».



أدى مبدأ التخيل ذاته المحبب جدا لدى الأطفال بشعوب أخرى إلى استخدام تمثيل الولادة كشكل من أشكال التبني، وحتى كوسيلة لإرجاع الأموات إلى الحياة. فإذا تظاهرت بأنك رزقت بمولود ذكر، أو حتى برجل له لحية ليس في عروقه نقطة دم واحدة من دمك، كان ذلك الولد أو الرجل في نظر الفلسفة والقانون البدائيين ابنك فعليا مهما كانت الأهداف والنوايا. وهكذا يخبرنا ديودوروس أن زيوس حين أقنع زوجته الغيورة هيرا بتبني هيركليس استلقت الإلهة في السرير وضمت بطلها الضخم إلى صدرها، ثم دفعت به تحت ملابسها وتركته يسقط على الأرض لتحاكي الولادة الحقيقية؛ ويضيف المؤرخ أن البرابرة في زمانه كانوا يتبعون طريقة تبني الأطفال ذاتها. أما اليوم فيقال إنها ما زالت تتبع في بلغاريا وعند الأتراك البوسنيين. فالمرأة التي ترغب في تبني طفل تأخذه وتسحبه أو تدفعه من تحت ملابسها؛ بعد ذلك يعد ذلك الطفل كما لو كان طفلها الحقيقي ويرث كامل أملاك أبويه بالتبني.

ولسحر التماثل دور كبير في الإجراءات التي يتخذها الصيادون للحصول على صيد وفير. فبحسب مبدأ أن المتشابهات تولد المتشابهات يقوم الصياد وأصدقاؤه بكثير من الأفعال التي تحاكي النتيجة التي يسعى إلى تحقيقها. لكنهم من ناحية أخرى يحرصون على الابتعاد عن كثير من الأشياء الأخرى لأنها تشبه إلى حد ما أشياء تجلب الهلاك.

فالهنود في كولومبيا البريطانية يعيشون على الأسماك التي تكثر في البحار والأنهار. فإذا لم تأت الأسماك في الموسم المحدد، عانى الهنود من الجوع، فيقوم ساحر في قبيلة نوتكا Nootka بصنع صورة لسمكة تسبح ثم يضعها في الماء بالاتجاه الذي تأتي منه الأسماك عادة.

فهذه الطقوس مع ما يصحبها من دعاء تجعل الأسماك تأتي في الحال. أما سكان جزر مضائق توريس فيستخدمون نماذج من الأطوم والسلاحف لجذب الأطوم والسلاحف الحقيقية إلى حتفها.

أما التوراجا سكان جزر سيليبس الوسطى Central Celebes (أي سولاويزي اليوم – المترجم) فيعتقدون أن الأشياء المتماثلة في النوع تجتذب بعضها بعضاً من خلال أرواحها الداخلية

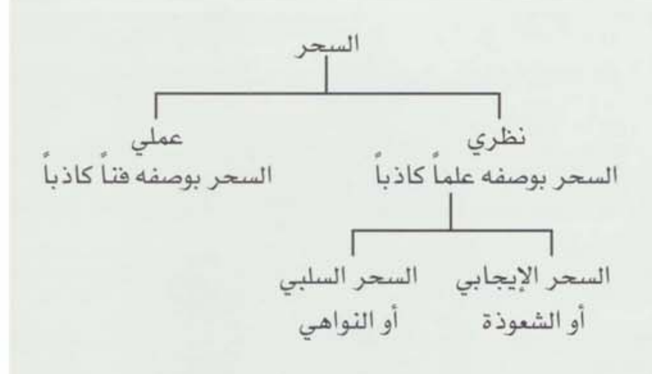
المكونة من الأثير الحيوي. ولهذا يعلقون عظام فك الغزلان أو الخنازير البرية في منازلهم اعتقاداً منهم بأن الأرواح التي تهب الحياة لهذه العظام تجتذب الحيوانات الحية من النوع ذاته إلى طريق الصيادين.

وفي جزيرة نياس Nias (9) حين يسقط خنزير في الحفرة المعدة لاصطياده، يؤخذ الحيوان ويدلك ظهره بتسع من أوراق الشجر الساقطة لاعتقادهم أن هذا سيجعل تسعة خنازير أخرى تسقط في الحفرة، كما سقطت الأوراق التسع من الشجرة.

ولا يقتصر نظام سحر التماثل على المبادئ الإيجابية وحسب، بل يضم أيضاً عدداً كبيراً جداً من المبادئ السلبية، أي النواهي. فهو لا يأمرك بالواجبات، بل يحدد لك النواهي. فالمبادئ الإيجابية هي ممارسة السحر charms، وأما السلبية فهي النواهي. فعقيدة النواهي بأكملها، أو جزء كبير منها، تبدو في واقع الأمر تطبيقاً خاصاً من السحر التماثلي بقاعدتيه الكبيرتين وهما التشابه والاتصال.

تعد النواهي تطبيقا سلبيا للسحر العملي. فالسحر الإيجابي أو الشعوذة يقول: «افعل هذا يحدث ذاك». أما السحر السلبي فيقول: «لا تفعل هذا لكي لا يحدث ذاك». فهدف السحر الإيجابي أو الشعوذة هو إحداث أثر مرغوب؛ أما هدف السحر السلبي أو النواهي فهو تجنب أثر غير مرغوب. لكن يفترض أن تحدث النتيجتان كلتاهما المرغوبة وغير المرغوبة تبعا لقاعدتي التشابه والاتصال.

فلو أن الشر المفترض نتج بالضرورة عن ارتكاب أحد النواهي، فإن المنهي عنه لن يكون منهياً عنه، بل أحد المبادئ الأخلاقية أو العقلانية. فلا ضير في أن تقول: «لا تضع يدك في النار» فهذه من قواعد العقل، لأن العمل المحرم يستدعي وجود شر حقيقي لا خيالي. وباختصار، فإن هذه المبادئ السلبية التي نسميها بالنواهي لا تقل عبثية وسخفاً عن المبادئ الإيجابية التي ندعوها بالشعوذة. فالأمران يمثلان طرفين أو قطبين لفكرة خاطئة مدمرة واحدة، أي مفهوم خاطئ للترابط تكون فيها الشعوذة القطب الإيجابي والنواهي القطب السلبي. فإذا أطلقنا اسم السحر العام على النظام الخاطئ بأكمله، النظري والعملي، أمكن تعريف النواهي على أنها الطرف السلبي من السحر العملي. ويمكننا تمثيل ذلك بالشكل التالي:

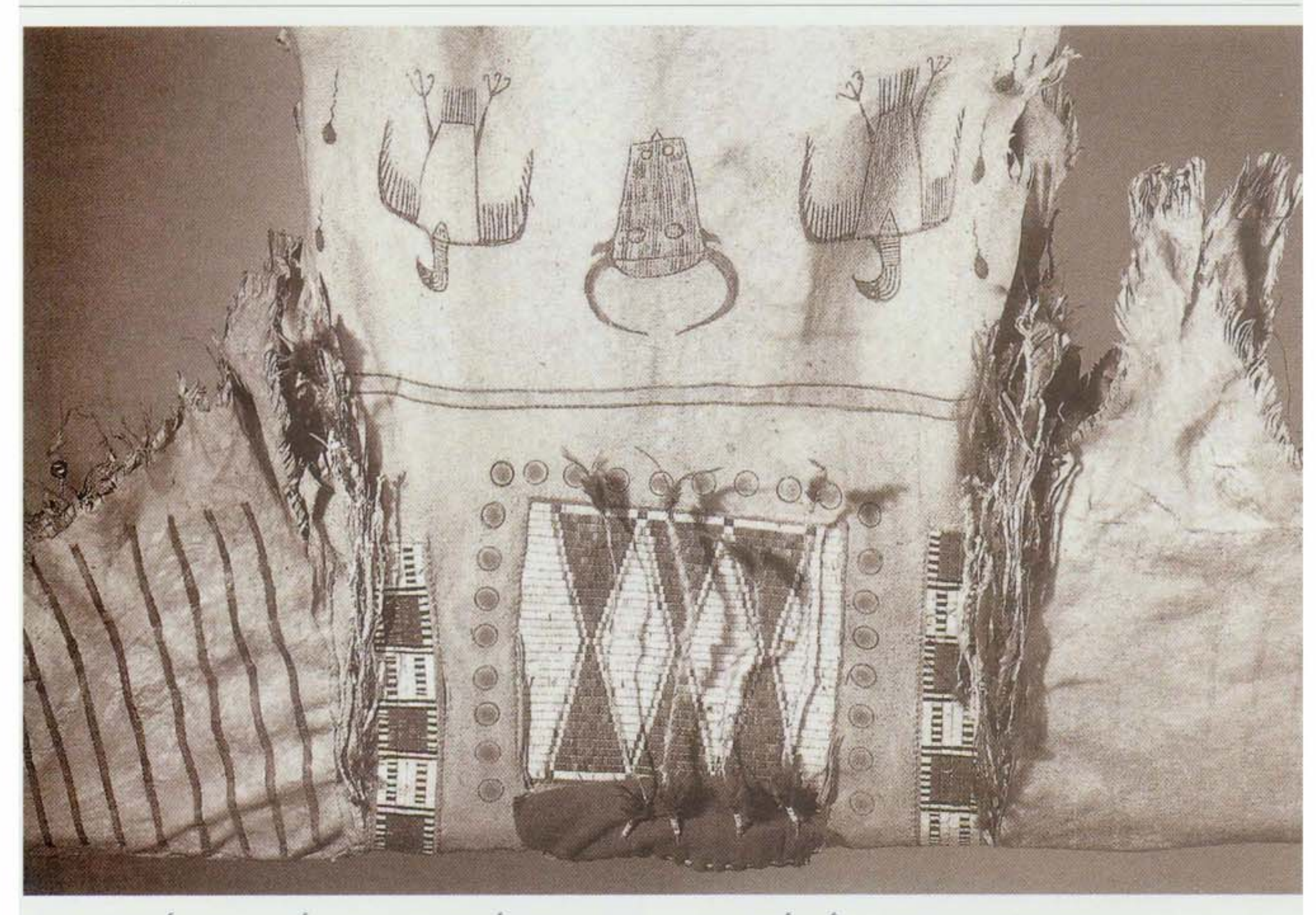


(9) جزيرة إندونيسية في المحيط الهندي على بعد مائتي كيلومتر غرب سومطرة الشمالية «المترجم».

في الطرف المقابل: تفصيل من «قميص الحرب» يعود إلى سهول غير محددة من سكان أمريكا الأصليين، حوال 1830. وتمثل الأشكال الطائرة على مقدمة القميص رصاصات يراد بها توفير الحماية منها لصاحب القميص الذي لم يكن ضروريا أن يلبس القميص في المعارك ليتمتع بهذه الحماية. وبما أن القميص لا يحوي أية ثقوب خلفتها طلقات الرصاص، فهذا يعني أن الحظ كان حليف صاحب القميص.

في الأسفل: قوس من العاج يعود إلى قبيلة الأنوي (الإسكيمو) في شمال غرب ألاسكا. وكان يوضع على مقربة من مقدمة قارب صيد الحيتان الذي يضم ثمانية صيادين وذلك لتثبيت الحربة. ويظهر على القوس شكل حوت سحري ليجلب الحظ عند الصيد. متحف الجنس البشري، لندن.





لقد ذكرت هذه الملاحظات عن النواهي لأني أوشك على إعطاء بعض الأمثلة من النواهي التي يتقيد بها صيادو البر والبحر وغيرهم، وأريد أن أبين أنها تنضوي تحت عنوان سحر التماثل، على اعتبار أنها تطبيقات خاصة لتلك النظرية العامة.

ففي الأسكيمو يحظر على الأطفال ممارسة لعبة «سرير القطة» لأنهم إذا فعلوا علقت أصابعهم بحبال الرمح في المستقبل. فهنا نرى أن المحظور هو تطبيق لقاعدة التشابه، وهي الأساس في السحر: فكما أن أصابع الطفل تعلق في الخيوط حين يمارس لعبة مهد القطة، فإنها ستعلق بحبال الرمح حين يصبح رجلا ويصيد الحيتان. وبالمثل نرى أن قبائل الهوزول التي تسكن جبال الكربات تحظر على الزوجة أن تغزل الصوف وزوجها يأكل حتى لا تلف الطريدة وتدور فيعجز زوجها عن اصطيادها. وهنا أيضا نجد أن المحظور مشتق من قاعدة التشابه بشكل واضح.

وليس ثمة نواهٍ تفوق في أهميتها وعددها تلك التي يراعيها أبناء القبائل البدائية في تجنب تناول أطعمة بعينها، وكثير من هذه النواهي مشتق من قاعدة التشابه، وبالتالي فهي أمثلة من السحر السلبي. فكما أن الرجل البدائي يأكل حيوانات أو نباتات كثيرة لها مزايا محببة يرغب في اكتسابها، فإنه يتجنب أكل كثير من الحيوانات والنباتات الأخرى لئلا يكتسب بعض السمات الكريهة التي يعتقد أنها مصابة بها. فهو يمارس السحر الإيجابي حين يأكل النوع الأول، ويمارس السحر السلبي في إحجامه عن أكل النوع الثاني. وسوف نصادف الكثير من الأمثلة عن السحر الإيجابي فيما بعد، لكني سأقدم هنا عددا من الأمثلة عن السحر السلبي أو المحظور.

ففي مدغشقر، على سبيل المثال، يحظر على الجنود أكل عدد من الأطعمة حتى لا تصيبهم وفق مبدأ التشابه سمات خطرة أو غير مرغوبة يفترض أنها تكمن في تلك الأنواع من اللحوم. وهكذا يحظر عليهم تذوق القنفذ «خشية انتقال عادته في التكور عند تعرضه للخطر إلى من يأكل لحمه فيتقوقع على نفسه كما يفعل الجبناء». كما يحظر على الجندي أكل ركبة الثور، لئلا يصاب بضعف في ركبتيه ويعجز عن السير مثل الثور. وبالمثل، يجب على المحارب تجنب أكل ديك قتل في معركة أو أي شيء مات طعناً

برمح؛ كما يمنع منعاً باتاً ذبح أي حيوان ذكر في منزله في أثناء غيابه في الحرب، لأن من الواضح على ما يبدو أنه إذا أكل ديكا قتل في عراك، فإنه نفسه سيقتل في ساحة المعركة؛ وإذا أكل قطعة من حيوان مات طعنا بالرمح فإنه سيتلقى طعنة مماثلة. أما إذا ذبح

في الأعلى: طب مخلب الدب. كان محارب الكرو يعلق هذه العلامة بخصلة رأسه. وبالإضافة إلى الدهان وأغنية الطب، كانت تضمن وجود «المساعد المقدس». متحف هنود السهول. كودي، وايومنغ.

في الطرف المقابل: تعد أرواح الحيوانات جزءاً رئيساً من أساطير الهنود الأمريكيين. هؤلاء الراقصون في سانتا كلارا يقلدون حركات النسر.

حيوان ذكر في منزله في أثناء غيابه، فإنه نفسه سيقتل بطريقة مماثلة وربما في اللحظة ذاتها. أضف إلى ذلك، أن على الجندي في مالاجاشي تجنب أكل الكلى، لأن كلمة «كلية» في لغة مالاجاشي هي ذاتها التي تعني «قتل بالرصاص»، لذلك فإنه سيقتل بالرصاص إذا أكل كلية.

وربما لاحظ القارئ أن تأثير السحر في بعض الأمثلة السابقة يفترض أن يكون من مسافة بعيدة، لذلك فإنه يحظر على زوجات صائد النسور وأطفاله عند قبائل البلاك فيت Blackfeet [10] الهندية استعمال المخرز في غيابه حتى لا تخدش النسور الزوج أو الأب الغائب. كما يحظر ذبح أي حيوان ذكر في المنزل حين يكون غائبا في الحروب لئلا يؤدي قتل الحيوان إلى مقتل الرجل. ويشكل الإيمان بتأثير التماثل المتبادل بين الناس أو الأشياء من بعيد جوهر السحر. وليس في السحر أي شك في إمكانية العمل من بعيد على عكس العلم الذي يثير كثيرا من الشك حولها. فالإيمان بتوارد الخواطر من أول مبادئ السحر. ولا يجد من يؤمن بتأثير عقل على آخر من بعيد أية صعوبة في إقناع الإنسان البدائي. فالبدائي يؤمن بهذا منذ زمن بعيد، والأكثر من ذلك أنه كان يتصرف بحسب إيمانه ذاك بثبات منطقي على نحو لم يبده في تعاملاته، بحسب علمي، أخوه في الإيمان المتحضر.

فالإنسان البدائي على اقتناع بأن طقوس السحر ليست هي الوحيدة التي تؤثر في الناس والأشياء من بعيد، بل إن أبسط النشاطات اليومية قد تؤثر فيهم أيضا. لذلك يخضع سلوك الأصدقاء والأقارب البعيدين في المناسبات المهمة إلى قواعد دقيقة إلى حد ما لأن إهمالها من قبل مجموعة من الناس قد يجلب المصائب على الغائبين وربما يقودهم إلى حتفهم. فحين تخرج جماعة من الرجال إلى الصيد أو القتال، يتوقع من أهلهم في القرية القيام بأشياء معينة، أو الإحجام عن عمل أشياء معينة ضماناً لسلامة الصيادين أو المقاتلين الغائبين وتوفيقهم.

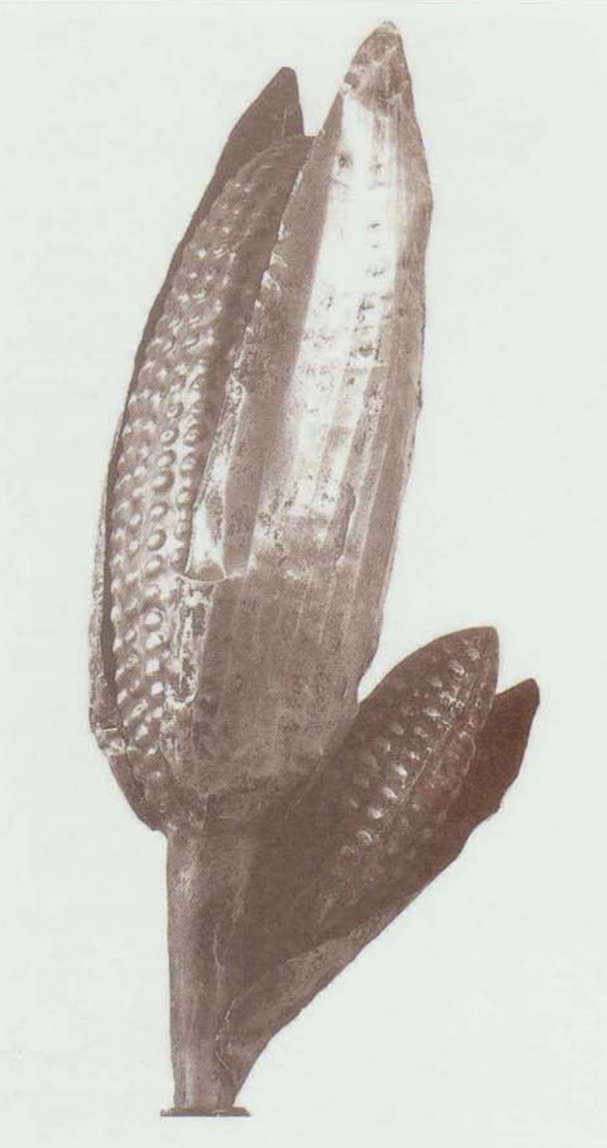
(10) من قبائل الهنود الحمر الناطقة بالألغونكانية وتسكن شمال غرب مونتانا «المترجم»



إن كثيراً من القبائل المحلية في ساراواك [11] على اقتناع تام بأن ارتكاب الزوجات للخيانة الزوجية حين يخرج أزواجهن للبحث عن الكافور في الغابة، يؤدي إلى تبخر الكافور الذي جمعه الرجال. ويستطيع الرجال اكتشاف خيانة زوجاتهم من عقد معينة في الشجرة. ويقال إن الغيورين من الأزواج قتلوا كثيراً من النساء في الماضي بناء على دليل عقد الأشجار هذه وحسب. أضف إلى ذلك أن الزوجات لا يجرؤن على لمس الأمشاط أثناء خروج أزواجهن لجمع الكافور، حتى لا تصبح الفراغات بين ألياف الشجرة فارغة مثل أسنان المشط بدلاً من أن تكون مليئة بالبلورات الثمينة.

أما قدرة الإنسان على استخدام السحر للتأثير في النبات من خلال عمله أو أوضاعه فتبرز بوضوح في ملاحظة قدمتها امرأة مالاوية. فحين سئلت عن سبب تعرية الجزء العلوي من جسمها وهي تحصد الأرز أجابت بأنها فعلت ذلك لتجعل قشور الأرز رقيقة لأنها تعبت من ضرب الأرز ذي القشرة السميكة. ومن الواضح أنها فكرت بأن التخفيف من ملابسها يخفف أيضاً قشور الأرز.

(11) ساراوك أو سرواق أحد الإقليمين الماليزيين على جزيرة بورنيو «المترجم».



إلى اليمين: تمثال إنكي لكوز ذرة مصنوع من الفضة من بيرو، 1430-1532. كان الناس يشربون الجعة المقدسة من الذرة في الأعياد الدينية. هذا مثال نادر لكنوز الإنكا الخيالية التي ربما ضمت فاكهة وأشجارا ونباتات ذهبية وفضية مخبأة في الكهوف من المستعمرين ولم تسترد أبداً. متحف فور فولكركونده، برلين.

الطرف المقابل (يسار): صورة من القرن العشرين تمثل تأثير العقل من بعيد. ظواهر نفسية مفترضة في شكل انبعاثات متوهجة حول رأس وليم هوب. صورة، 1923، لندن.

الطرف المقابل (يمين): الروح وهي تدخل في كاهن في عيد أوغن الذي تحتفل به قبيلة يوروبا، نيجيريا.

هناك اعتقاد سائد بأن للحيوان سمات أو صفات قد تكون مفيدة الإنسان، وأن سحر التماثل يسعى إلى نقل هذه السمات إلى بني البشر بطرق شتى. لذلك يتخذ بعض أبناء قبيلة بكونان Bechunan من ابن مقرض (حيوان شبيه بابن عرس) قلادة أو تعويذة؛ فشدة تشبثه بالحياة تجعل قتلهم صعباً.

ومرة أخرى نجد أن المحارب في جنوب أفريقيا الذي يجدل خصلا من شعر الجرذان ويضعها في جدائل شعره الأسود المجعد لتكون فرص تجنب رماح أعدائه مثل فرص تجنب الجرذ السريع للأشياء التي تلقى عليه، لذلك يكثر الطلب على شعر الجرذان في تلك المناطق حين تكون الحرب على الأبواب.

إن الجماد والنبات والحيوان قد تنشر حولها البركة أو الهلاك بحسب طبيعتها الكامنة ومهارة الساحر وقدرته على فتح أو إغلاق ينبوع الرخاء أو الشقاء.

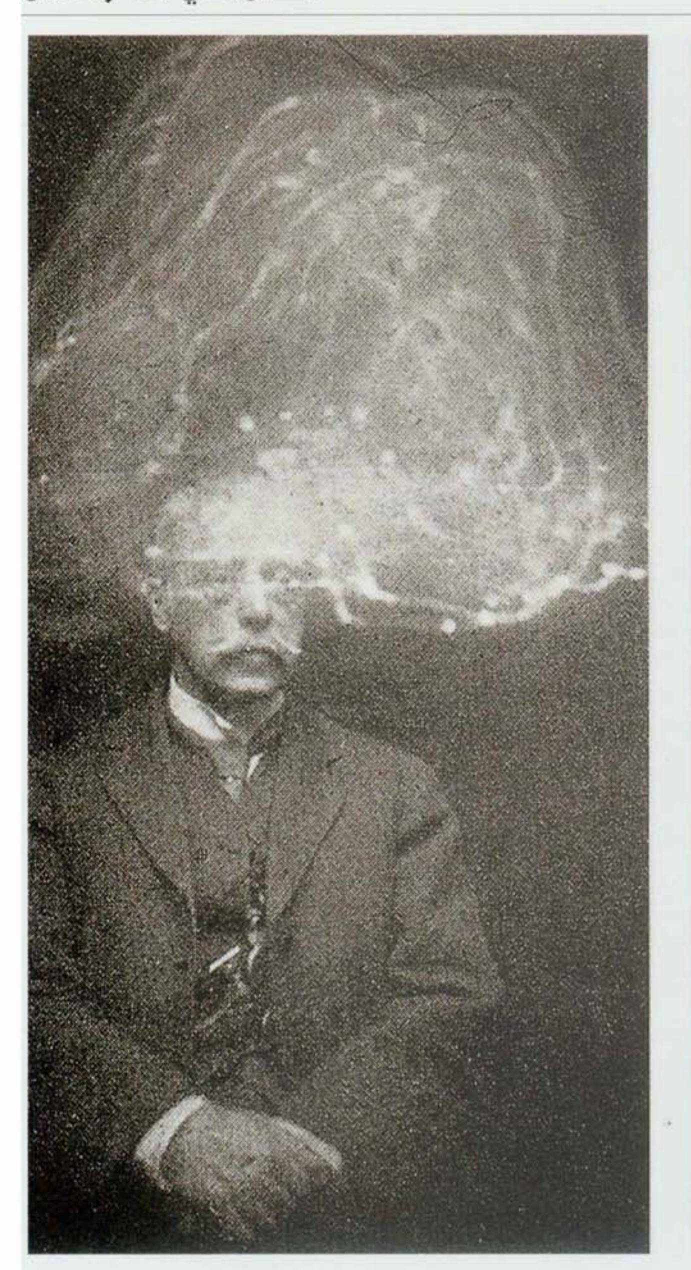
أما عادة القسم على الحجر الشائعة فتقوم على الاعتقاد بأن قوة الحجر وثباته تمنح أيمانهم مزيدا من القوة. وها هو المؤرخ الدانمركي القديم ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus يخبرنا بأن «القدماء إذا أرادوا اختيار ملكهم وقفوا على حجارة مغروزة في الأرض للإدلاء بأصواتهم لكي يستمدوا استمرار عملهم من ثبات الحجارة».

لكن في الوقت الذي يفترض أن تكمن الكفاءة السحرية العامة في جميع الأحجار بسبب خصائصها المشتركة في الوزن والصلادة، نجد أن سمات سحرية خاصة تعزى إلى أنواع بعينها من الحجر بحسب خواصها النوعية أو المنفردة أو بسبب شكلها أو لونها. فهنود البيرو مثلاً يستخدمون نوعاً خاصاً من الأحجار لزيادة محصول الذرة، ونوعاً آخر لزيادة محصول البطاطس وآخر لتكاثر القطعان وهكذا. أما الأحجار المستخدمة في زيادة محصول الذرة فتقطع على شكل أكواز الذرة. في حين تأخذ الأحجار التي يراد منها إكثار القطعان شكل الخراف.

وكان القدامى يعولون كثيراً على الصفات السحرية للأحجار الكريمة. فالجمشت (وهو حجر كريم أرجواني) سمي بهذا الاسم الذي يعني «الصاحي» لأن من المفترض أن يبقى حامله صاحياً، كما أن الأخوين اللذين يرغبان في العيش في وئام ينصحان بحمل مغناطيس ليحميها من الافتراق من خلال التجاذب بينهما.

ومن التطبيقات الأخرى للمبدأ القائل إن المتشابهات تولد المتشابهات اعتقاد الصينيين بأن ثروات المدينة تتأثر كثيراً بشكلها، وأنها تتغير دون شك بحسب صفة الشيء الذي يكون أقرب





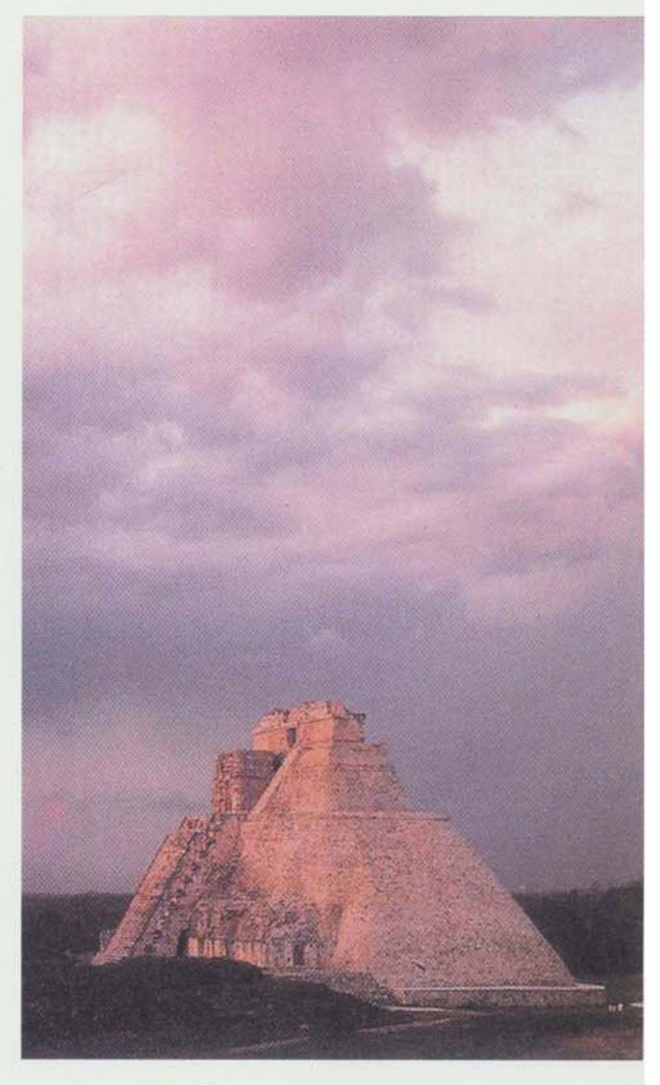
ما يمكن إليه. لذلك قيل قديماً إن مدينة تون – تشي – فو التي كان لمحيطها شكل سمكة الشبوط كانت تقع فريسة لأعمال النهب من قبل جارتها مدينة يونج تشون التي كان لها شكل شبكة الصيد إلى أن اقتنع سكان المدينة الأولى بإقامة هيكلين مرتفعين متعددي الأدوار وسط المدينة. فقد جلب هذان الهيكلان، وهما يتوسطان مدينة تسون – تشو حتى الآن، السعادة للمدينة من خلال اعتراض الشبكة الخيالية قبل أن تهبط وتمسك بسمكة الشبوط الوهمية.

وقبل أربعين سنة أصيب رجال شنغهاي بالقلق حين اكتشفوا السبب وراء تمرد محلي. فعلى أثر البحث الدقيق تأكدوا من أن سبب التمرد هو شكل معبد جديد بني ولسوء الحظ على شكل سلحفاة مائية، وهي من أبشع الحيوانات طباعاً. وكانت الصعوبة بالغة، والخطر محدق. فهذا المعبد عمل مناف للتقوى، وتركه قائماً يؤدي إلى سلسلة من الكوارث المشابهة أو الأشد فتكاً. لكن أساتذة الهندسة المحليين الذين هبوا لمواجهة المشكلة، تمكنوا ببراعتهم من التغلب على هذه الصعوبة وإبعاد الخطر. فبملء بئرين كانتا تمثلان عيني السلحفاة، تمكنوا على الفور من كف بصر الحيوان الشرير والتخلص من أذاه.



الفصل الثالث

سحـــر الطقس



للآلهة البشرية نوعان الأول ديني والثاني سحري. أما الأول فيفترض أن كائناً من صنف مختلف عن الإنسان وأسمى منه منزلة يتجسد، لمدة من الزمن تطول أو تقصر، في جسد بشر فيبدي قوة ومعرفة خارقتين من خلال إتيانه بمعجزات وتقديمه نبوءات بوساطة هذا المستقر المصنوع من اللحم والدم الذي اتخذه مسكناً. ويمكن أن يطلق على هذا الصنف اسم «النوع الملهَم أو المجسَّد من الإله – البشر»، حيث يكون الجسم البشري مجرد وعاء دنيوي ضعيف تملؤه روح سرمدية إلهية. من ناحية أخرى نرى أن الإله - البشر من النوع السحري ليس سوى رجل يمتلك قدرات عالية غير مألوفة، وهي قدرات ينسبها معظم أقرانه إلى أنفسهم، لكن على نطاق أضيق؛ ففي المجتمعات البدائية لا نكاد نجد شخصاً واحداً لا يمارس السحر. ففي الوقت الذي يستمد فيه الإله - الإنسان من النوع الملهم الأول إلوهيته من إله تواضع ليخفي قدرته الإلهية وراء قناع بشري، نرى أن الإله - الإنسان من النوع الثاني يستمد قوته الخارقة من توافق مادي معين مع الطبيعة. فهو ليس مجرد وعاء لروح إلهية؛ فكيانه بأكمله روحاً وجسداً متناغمين بدقة مع العالم حتى إن لمسة من يده أو التفاتة من رأسه قد تبعث نشوة تترد عبر هياكل الأشياء الكونية؛ وفي المقابل فإن كيانه الإلهي حساس تجاه التغيرات الطفيفة في البيئة التي لا تؤثر في الإنسان العادي. لكن يندر أن نستطيع تتبع الخط الفاصل بين هذين النوعين من الآلهة – البشر، مهما كنا دقيقين في رسمه عمليا، ولن أصر على هذه النقطة في الجزء التالي.

الطرف المقابل: تمثال طولطي هائل الحجم يبلغ وزنه 60 طنا تقريبا للإلهة كالكيوتليكو التي تتحكم بالماء العذب. متحف الأنثروبولوجيا الوطني، مكسيكو سيتي.

في الأعلى: الهرم المعروف باسم هرم الساحر في موقع أوكسمال المنسوب إلى المايا في شبه جزيرة يوكاتان الذي يعود تاريخه إلى 1000-1500 م. وكثيراً ما تظهر آلهة الطقس في أساطير المايا.



في الأعلى: جزء من تمثال خشبي يعتقد أنه من صنع قبيلة الكواكيوتل على الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة.

في المقابل: الاحتفال بعيد البحر في جزيرة أوكيناوا، اليابان.

يمكن، من الناحية العلمية، استخدام فن السحر لفائدة الناس كأفراد أو كمجتمع. وبحسب توجيهه إلى أحد هذين الهدفين، يمكن أن يسمى سحرا خاصا أو عاما. وسوف أشدد على أن الساحر العام يتبوأ منزلة عالية ويتمتع بنفوذ كبير يستطيع من خلاله، إذا كان حصيفا وقويا، أن يترقى شيئا فشيئا إلى منصب الزعيم أو الملك. لذلك نرى أن البحث في السحر العام يقودنا إلى فهم بدايات الملكية، على اعتبار أن كثيرا من الزعماء والملوك في المجتمعات البدائية مدينون بقدر كبير من نفوذهم على ما يبدو إلى شهرتهم بوصفهم سحرة.

من أهم الأشياء الخاصة بالمنفعة العامة التي يمكن استخدام الساحر من أجل تحقيقها توفير كميات مناسبة من الطعام. فكل العاملين في تأمين الطعام مثل صيادي البر والبحر، والفلاحين، يلجؤون إلى أعمال السحر لتحقيق مختلف غاياتهم، لكنهم يفعلون ذلك لمنفعتهم ومنفعة أهليهم الخاصة كأفراد لا كعمال يعملون لتحقيق الصالح العام. لكن الأمر يختلف حين يقوم السحرة المحترفون بتأدية طقوس السحر بدلا من الصيادين والمزارعين أنفسهم. ففي المجتمعات البدائية حيث تكون وحدة العمل هي القاعدة، وتصنيف المجتمع في طبقات مختلفة لم يبدأ بعد، يقوم كل من الرجال بدور الساحر، فيتمتم بالتعويذات والتراتيل أملاً في جلب الخير له والأذى لأعدائه. لكن خطوة كبيرة نحو الأمام تحققت مع ظهور طبقة خاصة من السحرة؛ أي حين أفرد عدد من الرجال بهدف تحقيق الفائدة للمجتمع بأسره بفضل مهاراتهم سواء أكان الهدف من تلك المهارة شفاء المرضى، أو التنبؤ بالمستقبل، أو التحكم بأحوال بالطقس، أو أي غرض آخر فيه فائدة للمجتمع. لكن عجز الوسائل التي اتبعها معظم هؤلاء السحرة عن تحقيق أهدافهم يجب ألا يمنعنا من رؤية الأهمية البالغة للمؤسسة ذاتها. فهنا جماعة من الرجال تم إعفاؤهم، على الأقل في المراحل البدائية الأولى، من ممارسة العمل اليدوي الشاق لكسب قوتهم، ولم يُسمح لهم بالبحث في أساليب الطبيعة السرية وحسب، بل كان هذا متوقعاً منهم ويلقون التشجيع على ممارسته. فقد كان من واجبهم وصلب اهتماماتهم في الوقت ذاته أن يعرفوا أكثر من غيرهم، وأن يكونوا على إطلاع بكل ما يساعد الإنسان في صراعه المرير مع الطبيعة، ويخفف معاناته، ويطيل عمره. فخصائص الأدوية والمعادن، وأسباب المطر والجفاف، والرعد والبرق، وتقلبات الفصول، وأطوار القمر، وحركة الشمس اليومية والسنوية، وحركات النجوم، وسر الحياة، وسر الموت، كل هذه الأشياء أثارت بكل تأكيد فضول هؤلاء الفلاسفة الأوائل، وحفزتهم للعثور على حلول للمشكلات التي كانت بلا ريب تلقيها عليهم طلبات زبائنهم الملحة بأكثر صورها العملية. فالزبائن لم يكونوا ينتظرون منهم فهم عمليات الطبيعة الهائلة وحسب، بل تنظيمها والتحكم بها أيضاً لمنفعة الإنسان. وما كان بالإمكان تجنب فشل محاولاتهم الأولى. فالاقتراب البطيء غير المتناهي من الحقيقة ينطوي على الاستمرار في وضع الفرضيات واختبارها، وقبول تلك التي بدا آنذاك أنها تتفق مع الوقائع ورفض الفرضيات الأخرى. فالآراء حول مسببات الطبيعة التي حملها الساحر البدائي تبدو لنا اليوم بلا شك خاطئة وسخيفة؛

لكنها كانت في أيامها فرضيات مشروعة، مع أنها لم تثبت نجاحها في اختبار التجربة العملية. كانت السخرية واللوم الجزء الأوفى، لا لأولئك الذين وضعوا تلك النظريات البدائية، بل لأولئك الذين أصروا على التمسك بها بعد ظهور نظريات أفضل منها. ومن المؤكد أن أولئك المشعوذين البدائيين كانوا أكثر الناس حرصاً على البحث عن الحقيقة. فالظهور بمظهر العارف الخبير على الأقل كان في مقدمة الأولويات؛ فخطأ واحد قد يكلفهم حياتهم، وهذا دون شك حملهم على ممارسة الدجل بهدف إخفاء جهلهم. لكن هذا زودهم أيضا بأقوى دافع لاستبدال المعرفة المزيفة بالمعرفة الحقيقية، لأنك إذا أردت التظاهر بمعرفة شيء، فإن أفضل طريقة على الإطلاق هي أن تعرفه بالفعل. فمهما كان رفضنا لخداع السحرة عادلاً، وشجبنا للخداع الذي مارسوه على البشرية مبرراً، فإن المؤسسة الأصلية لهذه الفئة من الرجال عادت على البشرية بخير غير محدود؛ فهي لم تكن الأصل الذي انحدر منه الأطباء والجراحون وحسب، بل الباحثون والمكتشفون في كل فرع من فروع العلوم الطبيعية. فالسحرة بادروا إلى العمل الذي حوله خلفاؤهم منذ ذلك التاريخ إلى مسائل مفيدة وعظيمة في العصور اللاحقة. أما إذا كانت البدايات هزيلة وضعيفة فهذا بسبب المصاعب الحتمية التي تحيط بالطريق إلى المعرفة، لا بسبب العجز الطبيعي أو الدجل المتعمد عند أولئك الرجال أنفسهم.





ومن أهم الأشياء التي تناط بالساحر لمنفعة القبيلة التحكم بالطقس وضمان هطول كميات وافرة من الأمطار. فالماء عصب الحياة، وكميته تعتمد في معظم البلدان على زخات المطر. فبدون المطر تذبل النباتات، ويعاني الإنسان والحيوان من العذاب ومن ثم الموت. لذا كان ساحر المطر في المجتمعات المتخلفة شخصية بالغة الأهمية. وكانت هناك فئة خاصة من السحرة متخصصة في التحكم بكميات الأمطار التي تجود بها السماء. أما الأساليب التي يحاول بها هؤلاء السحرة ممارسة عملهم فتقوم عادة، وليس دائماً، على مبدأ سحر التماثل. فإذا أرادوا الاستمطار رشوا الماء مقلدين السحب. أما إذا أرادوا إيقاف المطر وجلب الجفاف، ابتعدوا عن الماء ولجؤوا إلى الدفء والنار بهدف تجفيف الرطوبة الزائدة. ولا تقتصر هذه المحاولات، على عكس ما قد يتبادر إلى ذهن القارئ، على السكان العراة في المناطق الحارة الرطبة مثل أواسط أستراليا وبعض الأجزاء الشرقية والجنوبية من إفريقيا حيث تضرب الشمس بأشعتها اللاهبة الأرض العطشى والمتشققة من السماء الزرقاء الصافية على مدى أشهر طويلة من السنة. فهؤلاء معروفون، أو كانوا معروفين، لدى الناس المتحضرين ظاهريا في مناخ أوروبا الرطب. وسوف أبين ذلك بأمثلة من ممارسة السحر العام والخاص معا.

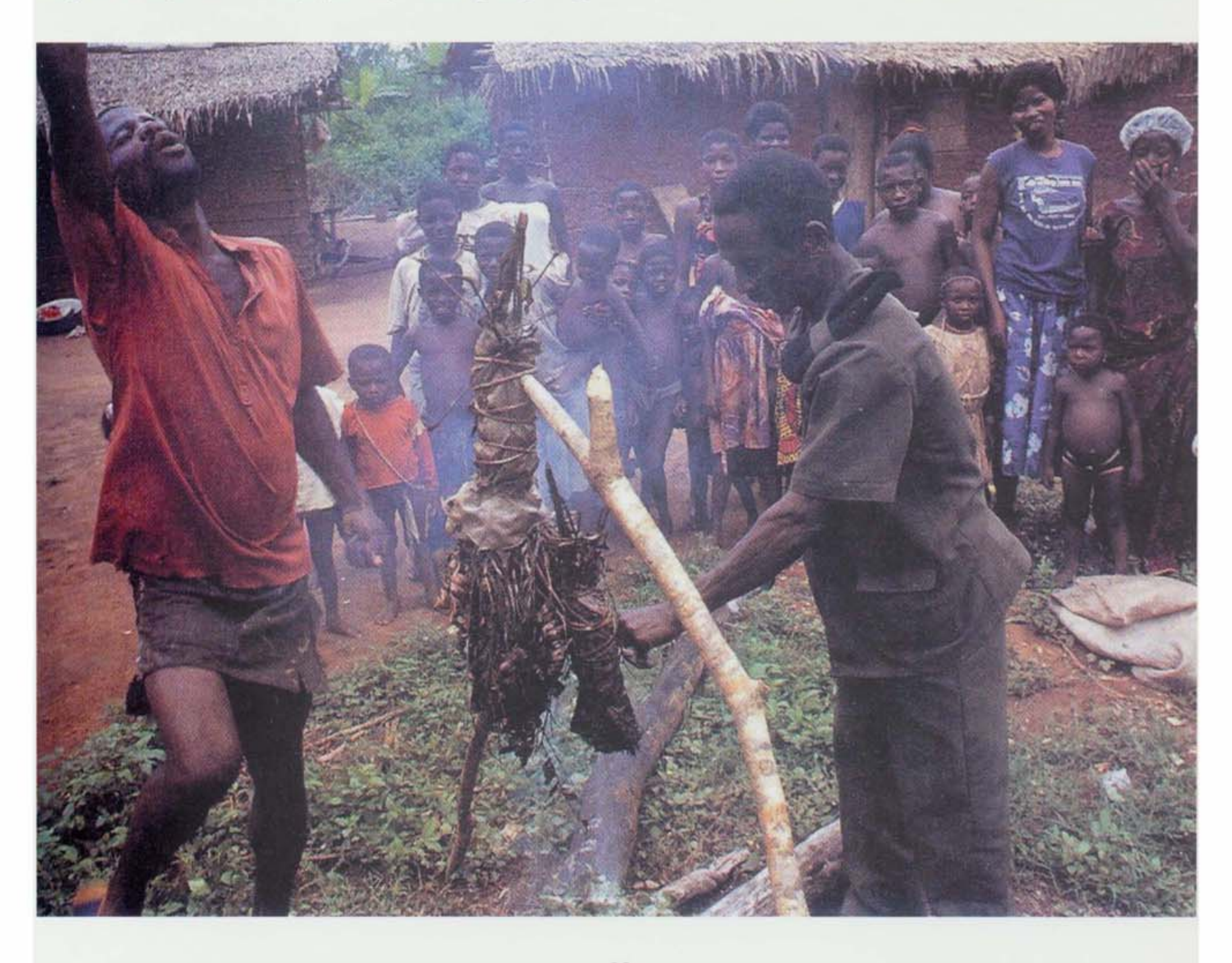
فعلى سبيل المثال، في قرية على مقربة من دوربات في روسيا يعتلي ثلاثة من الرجال أشجار التنوب في خميلة قديمة مقدسة عند انحباس المطر، فيضرب أحدهم بمطرقة على إبريق معدني أو وعاء صغير مقلدا الرعد، والثاني يضرب عود نار بآخر ليتطاير الشرر مقلدا البرق، وأما الثالث، واسمه «ساحر المطر» فيحمل بضعة أغصان يرش بها الماء من وعاء على جميع الأطراف. وللاستسقاء، ولوضع نهاية للجفاف، تتوجه النسوة والفتيات في بلوسكا ليلا إلى حدود القرية وهن عاريات فيسكبن الماء على الأرض. أما في هالماهيرا أو جيلولو، وهي جزيرة كبيرة في غرب

غينيا الجديدة، فيجلب الساحر المطر بأن يغمس غصناً من نوع معين من الأشجار في الماء ثم ينشر الرطوبة من الغصن الندي على الأرض. وفي بريطانيا الجديدة يلف ساحر المطر بعض الأوراق من نبات متسلق ذي خطوط حمر وخضر بورقة موز، ثم يرش الحزمة بالماء ويدفنها في التراب بعد ذلك يقلد بفمه صوت هطول المطر. أما هنود أوماها في أمريكا الشمالية، فحين تذبل الذرة بسبب نقص المطر، يملأ أعضاء جماعة الجاموس المقدس وعاء ضخما بالماء ويرقصون حوله أربع مرات. ثم يملأ أحدهم فمه بالماء وينفثه في الهواء ليشكل رذاذا دقيقا يحاكي الضباب أو رذاذ المطر. بعدئذ يقلب الوعاء ويسكب الماء على الأرض فيسارع

الطرف المقابل: مقدمة قارب على شكل رأس تنين في سباق التنين السنوي في هونغ كونغ الذي يقام لإرضاء الآلهة.

في الأسفل: رجل يؤدي رقصة «لا تهطل أيها المطر» في نيجيريا.

الراقصون إلى شرب الماء من الأرض وقد غطى الطين وجوههم. وأخيرا ينفثون الماء في الهواء ليتشكل رذاذ دقيق. وهذا ما ينقذ الذرة! وفي فصل الربيع، يشترك أفراد قبيلة النتشة في أمريكا الشمالية في شراء الطقس الجيد من السحرة. فإذا كان الناس بحاجة إلى المطر، صام السحرة، ورقصوا وفي أفواههم أنابيب مليئة بالماء، وهذه الأنابيب مخرمة مثل فوهة وعاء السقاية، وينفخ ساحر المطر الماء من الثقوب نحو ذلك الجزء من السماء حيث تتجمع السحب الكثيفة. وإذا أرادوا أن تسطع الشمس، صعد الساحر إلى سطح كوخه وفرد ذراعيه، ثم نفخ بكل ما أوتي من قوة مشيراً إلى السحب بأن تتفرق. أما إذا تأخر موسم المطر لجأ سكان أنغوليلاند الوسطى إلى ما يسمى بمعبد المطر، حيث يكشطون العشب ويسكب زعيمهم الجعة في وعاء مدفون تحت الأرض، وهو يقول: «يا سيدي شوتا، لقد قسا قلبك علينا، فماذا تريدنا أن نفعل؟ لقد أشرفنا على الهلاك، فأعط أبناءك المطر، ها





في الأعلى: تمثالان من الأبنوس من قبيلة يوروبا النيجيرية (رؤوس خشبية من القرن العشرين). إذا مات أحد التوأمين يأمر العراف بنحت مثل هذه التماثيل، فيقدم إليها الطعام والعناية لراحة روح الطفل الميت. مجموعة ب. جولدمان، لندن.

نحن نقدم إليك الجعة». ثم يشرب الجميع مما تبقى من الجعة، حتى الأطفال. بعدئذ يتناول الجميع أغصان الأشجار ويرقصون ويغنون للمطر. وحين يرجعون إلى القرية، يجدون وعاء من الماء وضعته عجوز عند الباب، فيغمسون أغصانهم فيه ويلوحون بها عاليا بحيث تتناثر حبات الماء. بعد ذلك يأتي المطر بالتأكيد محمولا في السحب الكثيفة. ونرى في هذه الممارسات الجمع بين الدين والسحر؛ فنثر حبات الماء باستخدام أغصان الشجار عمل من أعمال السحر، فإن الدعاء لجلب المطر وتقديم الجعة هي طقوس دينية صرفة. أما في قبيلة مارا في شمال أستراليا، فيتوجه ساحر المطر إلى بركة حيث يغني أغنيته السحرية. ثم يأخذ قليلا من الماء في يديه فيلوكه، ثم ينفثه في شتى الاتجاهات. بعد ذلك ينشر الماء على نفسه، ويرشه حوله ثم يعود بهدوء إلى المعسكر. ومن المفترض أن يهطل المطر بعد ذلك.

ويصف المقريزي، المؤرخ العربي، طريقة لإيقاف المطر يقال إنها استخدمت في قبيلة بدوية اسمها القمر في حضرموت حيث، يقطعون غصناً من شجرة معينة في الصحراء، ويضرمون به النار، ثم يرشون الغصن المشتعل بالماء. بعد ذلك تخف حدة المطر تماماً مثلما يختفي الماء حين يسقط على الغصن المتوهج. ويقال أيضاً إن بعض الأنجاميين في ماينبور [12] يقومون باحتفال مشابه إلى حد ما لتحقيق الهدف المعاكس، أي لإنتاج المطر. فزعيم القرية يضع غصناً مشتعلاً على قبر رجل مات محترقا ثم يطفئ الغصن بالماء وهو يدعو بنزول المطر. وهنا يتعزز إطفاء النار بالماء، وهو تقليد للمطر، بتأثير الميت الذي سيكون حريصا على هطول المطر لتبريد جسمه المحترق وتخفيف آلامه لأنه مات محترقاً.

وقد استخدمت شعوب أخرى غير العرب النار وسيلة لإيقاف المطر. فها هم السولكا Sulka في بريطانيا الجديدة يسخنون الحجارة لدرجة الاحمرار في النار ثم يبردونها في المطر، أو ينثرون الرماد الساخن في الهواء، اعتقاداً منهم أن المطر سيتوقف سريعاً، لأنه لا يحب أن يحترق بالحجارة الساخنة أو الرماد الساخن. أما التيلوغو Telugu فيرسلون طفلة صغيرة تحمل بيدها قطعة خشبية مشتعلة لكي تريها للمطر. ويفترض أن يوقف هذا المطر الغزير. وفي بورت ستيفنز في نيوساوث ويلز، كان الأطباء الدجالون يبعدون المطر برمي عيدان مشتعلة في الهواء والنفخ والصياح. ويستطيع كل رجل من قبيلة أنولا في شمال أستراليا أن يوقف المطر بتسخين عود أخضر في النار ووضعه بمواجهة الرياح.

(12) ماينبور ولاية هندية شمالية تقع على الحدود مع ميانمار «المترجم».

في أوقات الجفاف، يرفع أهل قبيلة ديري Dieri في وسط أستراليا أصواتهم وهم يندبون حالة البلاد البائسة وإشرافهم على الهلاك جوعاً، ويدعون أرواح أجدادهم – ويسمونهم مورا – مورا ليمنحوهم قوة تجلب المطر الغزير. فباعتقادهم أن الغيوم هي في الحقيقة أجسام تتولد داخلها الأمطار بفعل طقوسهم أو طقوس القبائل المجاورة بوساطة المورا مورا. أما طريقة استخلاص المطر من الغيوم فهي كما يلي: تحفر حفرة بطول اثني عشر قدماً وعرض ثمانية أو عشرة أقدام، وتوضع فوقها كمية من الأغصان والحطب على شكل مخروط. ثم يقوم أحد كبار السن المتنفذين بجرح اثنين من السحرة بقطعة حادة من الصوان يفترض أنهما حصلا من المورا مورا على قدرات خاصة. أما الدم الذي يسيل من مرفقيهما فينثر على رجال القبيلة الآخرين الذين يجلسون متقاربين في أحد الأكواخ، في حين يشرع الرجلان المجروحان بقذف حفنات من الريش حولهما فيلتصق بعضه بأجساد رفاقهما المخضبة بالدماء، ويتطاير ما تبقى منه في الهواء. ويعتقد هؤلاء أن الدم يمثل المطر، والريش يمثل الغيوم. وفي أثناء تأدية هذه الطقوس يوضع حجران كبيران وسط الكوخ يمثلان السحب المتكاثفة والمطر المنتظر. ثم يحمل الساحران المجروحان الحجرين مسافة 5 – 10 أميال ويضعانهما في قمة أعلى الأشجار. في تلك الأثناء يجمع الرجال الجص فيطحن ثم يلقى به في حفرة مليئة بالماء. فما إن تشاهد جماعات المورا مورا هذا حتى ترسل السحب تتدافع في السماء. وأخيرا يحيط الرجال، كبيرهم وصغيرهم، بالكوخ ثم ينحنون لينطحوه برؤوسهم نطح الكباش، وبذلك يشقون طريقهم عبر ذلك الكوخ وينفذون إلى الجهة المقابلة، ثم يعيدون الكرة مرة تلو أخرى حتى ينهار الكوخ. ويحظر عليهم في عملهم هذا استخدام الأيدي أو الأذرع، فإذا لم يبق من الكوخ إلا الأغصان، سمح لهم بسحبها بالأيدي. «ويمثل ضرب الكوخ بالرؤوس ضرب الغيوم، كما يمثل انهيار الكوخ هطول المطر». أما وضع الحجرين في مكان عال يحاكي السحب، فما هو إلا طريقة لدفع السحب الحقيقية نحو السماء. ويتخيل أبناء قبيلة ديري أن للقُلفة (أي قطعة الجلد التي تستأصل من الأولاد عند الختان – المترجم) قدرة هائلة على جلب المطر. بذلك يحتفظ المجلس الأعلى للقبيلة بمخزون صغير من القُلَف لاستخدامها عند الضرورة. ويحفظ الجلد ملفوفا بعناية بالريش ودهن الكلاب البرية وحية السجاد. ويحظر على النسوة مشاهدة هذه الصرة حين تفتح. وعند انتهاء الطقوس، تدفن القلفة لأن مفعولها انتهى.

وفي أعقاب نزول المطر، يخضع بعض أفراد القبيلة إلى عملية تفتح فيها جروح في الصدر والذراعين باستخدام قطعة حادة من الصوان، ثم يفتح الجرح بعصا مبسطة لزيادة تدفق الدم، يفرك الجرح بعدها بالمغرة الحمراء، وهذا يترك ندبة بارزة في الجلد. ويعزو هؤلاء ممارستهم لهذه الطقوس إلى سرورهم بنزول المطر، وإلى العلاقة بين المطر والندبة التي تخلفها الجروح. أما العملية فغير مؤلمة على ما يبدو، لأن المريض لا ينقطع عن الضحك وإطلاق النكات في أثنائها. وقد شوهد الأطفال وهم يتحلقون في صبر حول الرجل الذي يجري العملية بانتظار دورهم، وما أن ينتهوا منها حتى يسرعوا في الابتعاد وصدورهم مفتوحة وهم ينشدون للمطر الذي ينهمر على رؤوسهم. لكن سرورهم يتلاشى في اليوم التالي حين تبدأ جراحهم في التصلب والالتهاب. أما إذا تأخر المطر في جاوة، فإن رجلين يضرب أحدهما الآخر بعصي لينة حتى ينزف الدم من ظهريهما. ويمثل الدم المتدفق المطر، ومن المفترض أن ينهمر المطر إثر ذلك على الأرض دون شك. أما في إغهيو Egghiou وهي إحدى المقاطعات في الحبشة، فيخوض الناس قتالا داميا فيما بينهم، وبين قرية وأخرى طوال أسبوع كامل من شهر يناير من كل عام وذلك بهدف جلب المطر. لكن الإمبراطور مينيليك منع ممارسة هذه الأعمال منذ بضع سنين، ثم اضطر إلى التراجع عن قرار المنع أمام ضغوط الناس وإلحاحهم إثر انحباس المطر بعد سنة من القرار، فسمح بممارسة القتال من جديد لمدة لا تزيد عن يومين في السنة. ويرى الكاتب الذي يروي هذه العادة أن الدم المراق في هذه المناسبات قربان يقدم إلى الأرواح التي تتحكم بالمطر لاستدرار عطفها، لكن من المحتمل أن يكون رمزا للمطر على غرار ما رأينا في الطقوس الأسترالية والجاوية. أما أنبياء بعل الذين يسعون إلى جلب المطر بفتح جروح في أبدانهم حتى يتدفق منها الدم فربما كانوا يتصرفون وفق المبدأ ذاته.

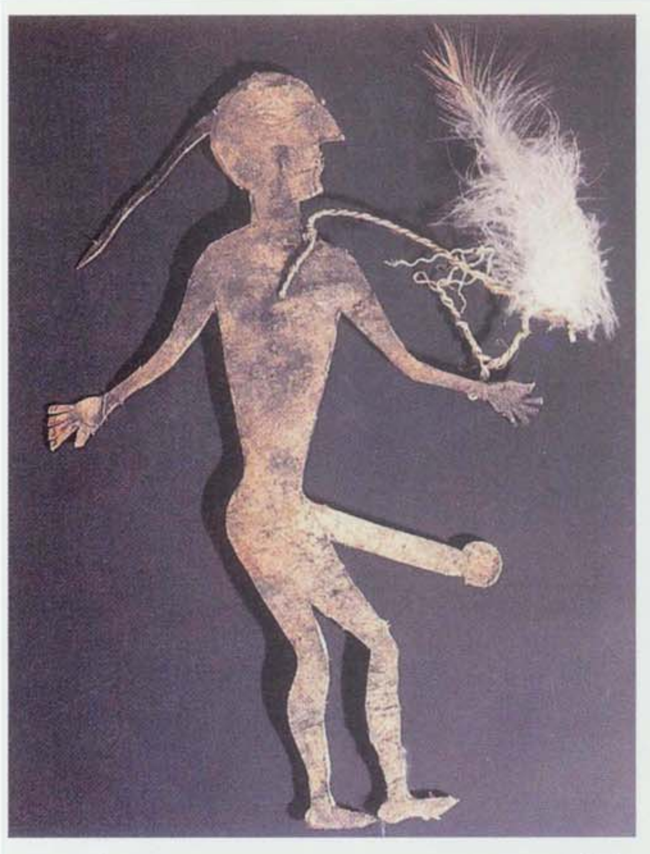
ويسود اعتقاد بأن للأطفال التوائم سلطة سحرية على الطبيعة لاسيما على المطر وأحوال الطقس. وينتشر هذا الاعتقاد المهم بين بعض القبائل الهندية في كولومبيا البريطانية، وكثيراً ما حملهم على فرض قيود بعينها أو تطبيق حظر على أهل التوائم، بالرغم من أن معنى هذه القيود بصفة عامة غير معروف على وجه الدقة. وهكذا نرى أن باعتقاد هنود قبيلة التسيمشي في كولومبيا البريطانية أن التوائم تتحكم بأحوال الطقس، لذلك تراهم يصلون للرياح والمطر: «اهدئي يا أنفاس التوائم!» أضف إلى ما تقدم، أنهم يظنون أن رغبات التوائم مستجابة دائما؛ لذلك يخشى الناس التوائم، لأن باستطاعتهم إلحاق الأذى بمن يكرهون، وباستطاعتهم جلب السلمون وقناديل البحر، لذلك يطلق عليهم اسم معناه «المكثرون». ويعتقد الهنود من الكواكيوتل في كولومبيا البريطانية أن التوائم «سمك سلمون متحول»؛ لذا يتجنب التوائم الاقتراب من الماء خشية تحولهم إلى أسماك مرة أخرى. ويستطيع هؤلاء في طفولتهم جلب الرياح بتحريك أيديهم، كما يستطيعون التحكم بأحوال الطقس، سيئة كانت أم حسنة، وشفاء المرضى بهز «خشخيشة» كبيرة من الخشب. كما يعتقد هنود النوتكا في كولومبيا البريطانية بوجود قرابة من نوع ما بينهم وبين أسماك السلمون. لذلك يحظر على التوائم في مجتمعهم اصطياد السلمون، كما يحظر عليهم تناول السمك الطازج أو الإمساك به. وباستطاعتهم أيضا التحكم بالطقس الجيد أو السيئ، وجلب الأمطار من خلال تلوين وجوههم بالأسود ثم غسلها، وهذا ربما يرمز إلى المطر وهو يتساقط من السحب الداكنة. أما هنود الشوسواب فيربطون بين التوائم والدببة الرمادية الصغيرة». فالتوائم عندهم يحتفظون خلال حياتهم بقوة خارقة تتجلى بصورة خاصة في التحكم بالطقس الجيد أو السيئ، كما أنهم يجلبون المطر من خلال سكب الماء من سلة في الهواء؛ كما يجلبون الطقس الجيد بهز قطعة صغيرة من الخشب تتصل بعصا بوساطة خيط؛ كما يجلبون العواصف بنثر أطراف أغصان الصنوبر.

وتنسب قبيلة البارونجا، وهي من فروع الزنوج البانتو الذين



يسكنون شواطئ خليج ديلاغوا في جنوبي إفريقيا إلى التوائم القدرة على التحكم بأحوال الطقس ذاتها، فيطلقون اسم تيلو – أي السماء – على المرأة التي تلد توائم. أما الأطفال فيسمون أطفال السماء. وحين تتأخر العواصف التي تهب عموماً في شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام، وحين يحدق خطر المجاعة في الناس بسبب الجفاف، وتتلهف عناصر الطبيعة التي أحرقها لهيب الشمس والسماء الصافية طوال ستة أشهر، وتتوق إلى مطر ربيع جنوب إفريقيا الذي يحمل معه الخير، تؤدي النسوة طقوس الاستسقاء أملا في جلب مطر طال انتظاره إلى الأرض الجافة. وتخلع النسوة كل ملابسهن ويستبدلنها بزنانير وقبعات من العشب، أو بتنورات قصيرة من أوراق نباتات متسلقة خاصة. وتطلق النسوة بعد ذلك، وهن في ذلك الزي، صيحات غريبة وينشدن أغاني فاضحة ثم يتنقلن من بئر إلى أخرى لتنظيف ما تراكم فيها من الوحول والأوساخ. ويمكن القول إن الآبار ليست سوى حفر في الرمال حيث تتجمع المياه الراكدة والعكرة والملوثة. ويتوجب على النسوة التوجه إلى منزل المرأة التي كن يغتبنها والتي ولدت توأمين، ورشها بالماء الذي يحملنه في أباريق صغيرة، وبعدها يمضين في سبيلهن وأصواتهن تصدح بالأغاني البذيئة وأجسادهن تتمايل في رقصاتهن الخليعة. ويحظر على الرجال رؤية أولئك النسوة شبه العاريات وهن يتنقلن من مكان إلى آخر. فإذا صادفن رجلاً، ضربنه ورمينه جانباً. فإذا فرغن من تنظيف الآبار، ذهبن لصب الماء على قبور أجدادهن في البستان المقدس. وكثيراً ما يسكبن الماء على قبور توائم تلبية لطلب الساحر، لاعتقادهن أن قبر التوائم يجب أن يظل ندياً، لذلك يدفن التوائم دائماً على مقربة من إحدى البحيرات. أما إذا باءت جهودهن لجلب المطر بالفشل، تذكرن عندئذ أن التوأم الفلاني دفن في أرض جافة على أطراف إحدى التلال. وفي تلك الحال يقول الساحر: «لا عجب إذا كانت السماء غاضبة! أخرجوا جثمانه واحفروا له قبراً على شاطئ البحيرة!» وتنفذ أوامره على الفور لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لجلب المطر!

ومما يسترعي الاهتمام أنه عند الرغبة في تحقيق نتيجة معاكسة، فإن المنطق البدائي يحتم على ساحر الطقس تطبيق القواعد المتبعة بشكل معكوس. ففي جزيرة جاوة الاستوائية، حيث تدل الخضرة على وفرة الأمطار، يندر وجود الطقوس الخاصة بجلب المطر، أما الطقوس الخاصة بمنعه فشائعة. فإذا أراد أحدهم أن يقيم وليمة كبيرة في فصل الأمطار ودعا إليها



في الأعلى: هذه الصورة المنتزعة من جلد جاموس كانت معلقة في رأس عمود خلال مهرجان رقصة الشمس عند قبيلة أوجلالا سيوكس. كانت رقصة الشمس تقدم الشكر إلى الشمس وتطلب تجديد الحماية. تم الحصول عليها عام 1880. متحف بيبودي، هارفارد.

الطرف المقابل: رقص الكربري يؤديه سكان أستراليا الأصليون، من جزيرة مورنينغتون في خليج كاربنتاريا.

عدداً كبيراً من الناس، فإنه يذهب إلى ساحر الطقس ويطلب إليه أن يبعد السحب التي قد تنخفض». فإذا وافق الطبيب على استخدام قواه الاحترافية، شرع بضبط سلوكه وفقاً لقواعد معينة بمجرد رحيل الزبون. فعليه الصوم والتوقف عن الشرب أو الاستحمام. وكل طعامه – على قلته – يجب أن يؤكل جافاً، ويحظر عليه لمس الماء بتاتاً. أما صاحب الدعوة، وخدمه من الذكور والإناث، فيحظر عليهم غسل ملابسهم أو الاستحمام طوال مدة الوليمة. كما يتوجب عليهم في أثنائها الالتزام التام بالعفة. ويجلس الساحر على حصير في غرفة نومه ويتمتم أمام مصباح صغير، قبل الشروع في الوليمة بالدعاء أو التعويذة التالية: يا جدي ويا جدتي ستروكول (ويبدو أن الاسم ينتقى



في الأعلى: خاتم سومري أو أكادي، حوالي 2300 ق.م. يبين إله الشمس يقف بين قمتي جبلين وإنكي، إله الماء العذب. المتحف البريطاني، لندن.

عشوائياً؛ ويمكن استعمال أسماء أخرى أحياناً)، عودا إلى بلدكما. بلدكما هو أكيمات. أنزلا برميل الماء وأقفلاه جيداً حتى لا تتسرب منه نقطة واحدة». وفي أثناء تلفظ المشعوذ بهذا الدعاء يحدق في الأعلى ويحرق البخور. لذلك يحرص ساحر المطر عند قبيلة التوراجا [13] المتخصص في إبعاد المطر، على عدم لمس الماء قبل استكمال واجباته الاحترافية أو في أثنائها أو بعدها. فلا يستحم، ولا يغسل يديه قبل الطعام، ولا يشرب شيئاً سوى نبيذ التمر. أما إذا اضطر إلى عبور ساقية حرص على عدم الخوض في الماء. فإذا انتهى من تحضير نفسه بهذا الشكل، اتخذ لنفسه كوخا خارج القرية في أحد حقول الأرز حيث يوقد نارا صغيرة يحرص كل الحرص على ألا تنطفئ. ويشعل في النار مختلف أنواع الخشب التي يفترض أن تكون لها خاصية إبعاد المطر، ثم ينفخ نحو الجهة التي يخشى أن يأتي منها المطر، وهو يحمل بيده حزمة من الأوراق واللحاء الذي يستطيع التحكم بالسحب أيضا، لا بسبب تركيبها الكيميائي، بل بسبب أسمائها التي تدل بالصدفة على شيء جاف أو متحول. أما إذا ظهرت السحب في السماء فجأة في أثناء تأدية عمله، فإنه يأخذ بيده حفنة من الكلس وينفخها نحوها. ومن الواضح أن للكلس خاصية تشتيت السحب الرطبة بسبب شدة جفافه. أما إذا رغب الناس في نزول المطر بعد ذلك فما عليه إلا أن يسكب الماء على ناره، فيهطل المطر مدراراً.

(13) هي قبيلة صغيرة جدا في إندونيسيا تشتهر بدفن موتاها في الكهوف «المترجم».

أما عند اليونانيين في ثيسالي ومقدونيا، فقد جرت العادة إذا استفحل الجفاف على إرسال موكب من الأطفال إلى جميع الآبار والينابيع في الحي، وعلى رأسه فتاة مزينة بالزهور ترشها رفيقاتها بالماء عند كل موقف، وهن ينشدن أنشودة هذا جزء منها:

يا بربيريا الغضة المبللة
أنعشي الحي بأسره
على أطراف الغابات، على الدرب
وأنت في الطريق ابتهلي إلى الله الآن:
إلهنا فوق السهول
أغثنا بقليل من سقيا الرحمة
حتى تثمر الحقول
وتزهر الكروم
وتمتلئ الحبوب
وينعم الناس بالرخاء.

وفي زمن الجفاف، يجرد الصرب إحدى البنات من ثيابها ويغطونها من رأسها حتى أخمص قدميها بالحشائش والأعشاب البرية والزهور حتى وجهها يختفي وراء حجاب من الخضرة الطازجة. وتتجول هذه البنت المتخفية التي يطلق عليها اسم دودولا Dodola في القرية مع مجموعة من البنات، ويتوقفن عند كل منزل. وتستمر دودولا في الدوران والرقص، ومن حولها البنات الأخريات يغنين إحدى أغاني دودولا، بينما تصب ربة المنزل دلوا من الماء عليها. ومن الأغاني التي ينشدنها أغنية تقول:

نحن في القرية نسير
والسحب في السماء تسير
فنسرع الخطى
وتسرع السحب
ها هي قد سبقتنا
فبللت الذرة ورطبت العنب.

أما في بونا في الهند، فيكسو الصبيان عند الحاجة إلى المطر واحداً منهم بأوراق الأشجار ويطلقون عليه اسم ملك المطر، ثم يتوجهون إلى كل منزل في القرية، حيث يقوم صاحب البيت أو زوجته برش ملك المطر بالماء وتقديم مختلف ألوان الطعام إلى الجميع. فإذا زاروا جميع بيوت القرية، نزعوا أوراق الشجر عن الصبي واحتفلوا بتناول الطعام الذي جمعوه.

وفي أجزاء من جنوب روسيا وغربها يمارس الناس الاستحمام بوصفه تعويذة لجلب المطر. فأحياناً، وبعد أن يفرغ الكاهن من القداس في الكنيسة، يضع مسوحه أرضاً ثم يسكب أعضاء أبرشيته الماء عليها. أما النسوة فيغتسلن معاً أحياناً في يوم القديس يوحنا المعمدان دون أن يخلعن ملابسهن، ويغمسن في الماء دمية يفترض أنها تمثل القديس مصنوعة من الأغصان والحشائش والأعشاب. وفي كورسك، وهي إقليم في جنوب روسيا، تمسك النساء عند الحاجة إلى المطر بعابر سبيل ويلقينه في النهر أو يغمرنه بالماء من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. وسوف نرى فيما بعد أن عابر السبيل المذكور غالباً ما يعد إلهاً أو تجسيداً لإحدى قوى الطبيعة. وقد ورد في السجلات الرسمية أنه في أثناء الجفاف الذي حدث في عام 1790 قام فلاحو شيروتز وفيربوتو بجمع كل النساء وإجبارهن على الاستحمام حتى ينزل المطر. ومن الطقوس الأرمنية المستعملة في جلب المطر رش زوجة كاهن بالماء أو سكبه عليها حتى تبتل. كما يقوم العرب في شمال إفريقيا برمي أحد الشيوخ شاء أم أبى في ساقية للتخلص من الجفاف. وفي ميناهاسا، وهي أحد الأقاليم في جزر سيليبس الشمالية،[14] يستحم الكاهن كوسيلة لجلب المطر. وفي جزر سيليبس الوسطى إذا تأخر هطول مدة طويلة، وذوت نباتات الأرز، توجه كثير من القرويين، لاسيما الصغار منهم، إلى نهر قريب ليرش بعضهم بعضا بالماء فيتصايحون ويطلق بعضهم دفقات الماء على بعض من أعواد القصب، وهم يقلدون أصوات المطر بضرب سطح الماء بأيديهم، أو يضعون فيه يقطينة مقلوبة ويطرقون عليها بأصابعهم.

وتؤدي تعاويذ المطر عملها أحياناً بوساطة الموتى. ففي نيو كاليدونيا يدهن سحرة المطر أجسامهم بصباغ أسود، وينبشون عظام أحد الموتى ويحملونها إلى أحد الكهوف ثم يجمعونها معاً ويعلقون الهيكل العظمي على بعض أوراق القلقاس (البقلة الزراعية - المترجم) ثم يصب الماء على الهيكل العظمي حتى يسيل على الأوراق. ويعتقد هؤلاء الناس أن روح الميت تأخذ الماء وتحوله إلى مطر وتسكبه في زخات جديدة. أما في روسيا، إذا جاز لنا تصديق الروايات الشعبية، فإنه لم يمض زمن طويل منذ أن كان الفلاحون في كل منطقة تصاب بالجفاف ينبشون جثة رجل مات من شدة السّكر ثم يغرقونها في أقرب مستنقع أو بحيرة، وهم على يقين بأن هذا يضمن هطول المطر الذي طال انتظاره. وفي عام 1868 أدى الخوف من شح المحاصيل بسبب استمرار الجفاف بسكان قرية في مقاطعة تاراشتشانسك إلى نبش قبر أحد الراسكولنيك أو المنشقين توفي في ديسمبر. وقام بعضهم بضرب الجثة، أو ما بقي منها، على

(14) إحدى الجزر الإندونيسية «المترجم».





في الأعلى: يعتقد أن لينابيع المياه والآبار قوى سحرية. الدمى المعلقة فوق بئر الأم شيبتون لتحقيق الأماني في نارزبورة، يوركشير، إنجلترة، تتحجر تدريجيا.

الطرف المقابل: لوحة صينية تقليدية تمثل روح البئر.

الرأس وهم يصيحون: «أعطنا المطر!» في حين صب آخرون الماء عليها من مصفاة. ويبدو أن صب الماء من المصفاة هنا تقليد لزخات المطر ويذكرنا بطريقة تخيلستربسيادیس في أرسطوفانيس للمطر الذي صنعه زيوس. ولجلب الأمطار، يطلب أبناء قبيلة التوراجا أحيانا الرحمة من الموتى. ففي قرية كالينجوا هناك قبر لزعيم مشهور هو جد الحاكم الحالي. فإذا أصيبت الأرض بجفاف في غير موسمه، توجه الناس إلى القبر، وصبوا عليه الماء وهم يقولون: «يا جدنا ارحمنا، وأرسل علينا الغيث إذا كنت تريدنا أن نأكل هذا العام»، ثم يعلقون قصبة مليئة بالماء فوق القبر مثقوبة من أسفلها بحيث يقطر منها الماء قطرة قطرة باستمرار. وتملأ القصبة بالماء من جديد على الدوام حتى ينزل المطر ويروي الأرض. وهنا أيضا يمتزج الدين بالسحر مثلما رأينا في نيوكاليدونيا، لأن الدعاء للزعيم الميت، وهو عمل ديني بحت، شابه التقليد السحري للمطر عند قبره. وقد رأينا أن البارونجا [15] في خليج ديلاجوا يبللون قبور أجدادهم، لاسيما قبور التوائم – على سبيل التعويذة لجلب المطر. وجرت العادة بين بعض القبائل الهندية في منطقة أوينوكو على أن يقوم أهل المتوفى بإخراج عظامه بعد دفنه بسنة فيحرقونها ثم يذرون الرماد في الرياح اعتقادا منهم بأن الرماد يتحول إلى مطر يرسله المتوفى لقاء جنازته.

(15) البارونجا إحدى قبائل إفريقيا الجنوبية «المترجم».

ويسود بين الصينيين الاعتقاد بأن أرواح المتوفين تنزعج من المطر إذا لم تدفن أجسادهم، تماماً كما يفعل الأحياء عند تعرضهم إلى رداءة الطقس وهم بلا مأوى. لذلك تفعل هذه الأرواح البائسة كل ما في وسعها لمنع هطول المطر، وكثيرا ما تحقق جهودها نجاحا يفوق المطلوب. بعد ذلك يأتي الجفاف، وهو أكثر ما يخشاه الصينيون من أنواع الكوارث لأنه يجر في أعقابه القحط والمحل والمجاعة. لذلك دأبت السلطات الصينية في أوقات الجفاف على دفن عظام الموتى غير المدفونين بهدف وضع حد للبلاء وجلب الأمطار.

ولقد أدت العلاقة الحميمة بين الضفادع والماء إلى انتشار الاعتقاد بأنها الوصية على المطر. لذلك كثيراً ما نراها تلعب دوراً في التعاويذ المعدة لجلب المطر المطلوب من السماء. وقد ظن بعض الهنود في أورينوكو [16] أن الضفدع هو إله المياه أو سيدها، لذلك كانوا يخشون أن يقتلوا ذلك المخلوق. وعرف عنهم احتفاظهم بالضفادع تحت وعاء وضربها بالعصي إذا ما حل الجفاف. وقيل أيضاً إن هنود أيمارا كثيراً ما يصنعون تماثيل للضفادع والحيوانات المائية الأخرى ويضعونها على قمم التلال لتكون وسيلة لنزول المطر. ويعتقد هنود تومسون في كولومبيا البريطانية وبعض الأوروبيين أن قتل ضفدع يسبب نزول. أما إذا أراد أبناء الطبقات الدنيا في أقاليم الهند الوسطى نزول المطر فيعمدون إلى ربط عصا مغطاة بأوراق شجرة معينة وأغصانها، ويحملونه من باب إلى آخر وهم ينشدون:

عجّل أيها الضفدع، يا درة الماء، أرسل علينا (الطل)!
لينضج القمح والدخن في الحقل.

أما الكابو أو الريدي فهم طائفة كبيرة من المزارعين وأصحاب الأراضي في رئاسة مدراس. فحين يهطل المطر، تقوم نساؤهم بالإمساك بضفدع وربطه وهو حي بمروحة تذرية جديدة مصنوعة من الخيزران، وينشرن على هذه المروحة بضع أوراق من شجرة المارغوسا ثم يتنقلن من باب إلى آخر وهن ينشدن « السيدة ضفدعة يجب أن تستحم. يا رب المطر أعطها قليلا من الماء على الأقل». فتسكب ربة المنزل الماء على الضفدع، وتوزع الصدقات بينما تنشد النساء تعويذتهن تلك، وهي على اقتناع بأنها بهذا العمل ستأتي بالمطر الغزير عما قريب.

إذا دام الجفاف مدة طويلة من الزمن كما يحدث أحياناً، تخلى الناس كلية عن العمل بسحر التماثل. وبما أن الغضب استبد بهم حتى عدلوا عن هدر طاقاتهم في الدعاء فإنهم يسعون بالتهديد واللعن وحتى باستخدام القوة البدنية لاستخلاص مياه السماء من المخلوق الخارق الذي، حسب قولهم، قطعها من أنبوب التغذية الرئيس. ففي إحدى القرى اليابانية إذا صم الإله الحارس أذنيه مدة طويلة عن الاستجابة لدعاء الفلاحين لنزول المطر، ألقوا بصورته أرضاً في آخر المطاف، ثم قذفوا بها في أحد مزارع الأرز العفنة وهم يطلقون لعنات طويلة صاخبة، ثم يقولون له «هناك، يمكنك البقاء فترة من الزمن – لكي ترى بنفسك كيف تشعر بعد بضعة أيام من الحر الشديد في هذه الشمس المحرقة التي تحرق حقولنا المتشققة فتنتزع منها الحياة». وفي ظروف مشابهة، يلقي شعب الفيلوب في سينيجابيا أفتاشهم (دودهم – وهي أصنام يعتقدون أن لها قدرة سحرية على مساعدتهم) ثم يجرونها في الحقول ويلعنونها حتى ينزل المطر.

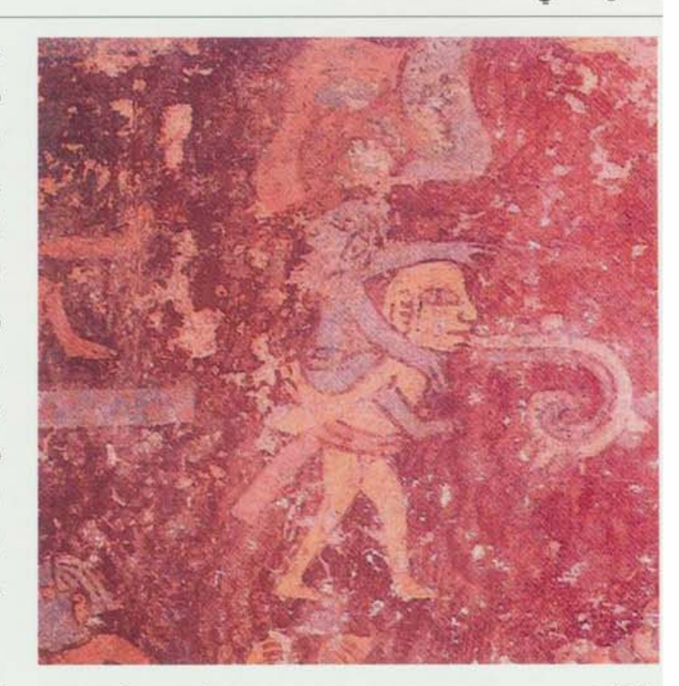
والصينيون بارعون في فن مجابهة مملكة السماء بالقوة. فإذا مست الحاجة إلى نزول المطر، صنع الصينيون تنينا هائلا من الورق أو الخشب ليمثل رب المطر ثم طافوا به في موكب احتفالي، فإذا لم يهطل المطر بعد ذلك، صب الصينيون جام غضبهم على التنين ومزقوه إربا إربا. وقد يطلق الصينيون التهديدات أحياناً ويضربون رب المطر إذا لم ينزل عليهم الغيث؛ وقد يجردونه أحيانا من إلوهيته. ومن ناحية أخرى، إذا نزل المطر المنتظر، صدر مرسوم إمبرطوري بترقية رب المطر إلى درجة أعلى. وفي إبريل عام 1888 دعا المندرين من أهل كانتون الإله لونغ ونغ لإيقاف المطر المنهمر، ولما لم يستجب إلى دعائهم، أودعوه السجن مدة خمسة أيام. وقد أعطى هذا العمل نتيجة طيبة لأن المطر توقف، وأعيدت إلى الإله حريته. وقبل ذلك بسنوات، وفي أوقات الجفاف، قام الناس بتقييد الإله ذاته بالسلاسل وتعريضه للشمس لأيام عدة في باحة معبده لكي يحس بنفسه بالحاجة الملحة إلى المطر. لذلك يعمد أهل سيام إلى وضع أصنامهم في أشعة الشمس المحرقة إذا كانوا بحاجة إلى المطر، أما إذا أرادوا طقساً جافاً، نزعوا أسقف المعابد ليهطل المطر على الأصنام. ويعتقد هؤلاء بأن الإزعاج الذي تتعرض له تلك الآلهة سيحفزها على الاستجابة إلى رغبات عبيدها.

(16) هي إحدى القبائل التي تسكن فنزويلا «المترجم».



إلى اليمين: عصا خشبية يستعملها أتباع شانغو، إله الرعد والبرق وتُحمل في أثناء الرقص حين يتجسد الإله فيها. قبيلة يوروبا، نيجيريا، ربما تعود إلى القرن التاسع عشر. مجموعة خاصة.

وربما ضحك القارئ من مسألة أحوال الطقس في الشرق الأقصى، لكن ثمة أساليب مشابهة لجلب المطر كانت متبعة في أوروبا المسيحية وفي فترة حياتنا نحن. فبنهاية أبريل عام 1893 ذاق أهل صقلية الأمرين من نقص المياه، حيث دام الجفاف ستة أشهر كاملة. كانت الشمس تشرق وتغرب في سماء زرقاء صافية، حتى إن غابات كونكادورو التي تحيط مدينة باليرمو بسوار من الخضرة الرائعة بدأت تذوي، والطعام ينقص. أما الناس فأصابهم الهلع بعد فشل كل الوسائل الممكنة لجلب المطر التي جربوها. وطافت المواكب في الشوارع والحقول، وأمضى الرجال والنساء والأطفال ليالي كاملة في التسبيح أمام الصور المقدسة، وأضاؤوا الشموع المقدسة ليلا نهارا في الكنائس، وعلقت أغصان النخيل التي بوركت في أحد السعف على الأشجار. وفي سولاباروتا، وتبعا لعادة قديمة، نثر الغبار الذي مسح من الكنائس يوم أحد السعف على الحقول، وهو الغبار المقدس الذي يحافظ في السنوات العادية على المحاصيل، أما في ذلك العام، فصدقني، لم يكن له أي أثر. وفي نيقوسيا، حمل السكان وهم حاسرو الرؤوس، حفاة الأقدام، الصليب في جميع أحياء المدينة، وجلد بعضهم بعضا بالسياط الحديدية. لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح. حتى القديس الكبير فرنسيس الباولوني ذاته الذي كان يأتي كل سنة بمعجزة المطر ويحمل كل ربيع عبر بساتين الأسواق لم يستطع، أو لم يرغب، في المساعدة. ولم يستطع أي شيء تحريكه لا الجماهير، ولا الصلوات في المساء، ولا الحفلات الموسيقية، ولا الزينات ولا الألعاب النارية. وفي آخر المطاف بدأ صبر الفلاحين ينفد، ونفي معظم القديسين. أما في باليرمو فقذف الفلاحون بالقديس جوزيف في أحد البساتين ليرى بأم عينه حالة الأشياء وأقسموا على إبقائه في الشمس حتى ينزل المطر. كما أداروا وجوه القديسين الآخرين نحو الجدار كما لو كانوا أطفالا مذنبين، وجردوا آخرين من مسوحهم الوقورة ونفوهم من أبرشياتهم، وهددوهم، وأهانوهم بشكل بشع، وأجلسوهم في برك الخيل. وفي كالتانيسيتا نزع الناس الجناحين الذهبيين للقديس ميكائيل – كبير الملائكة من على كتفيه، واستبدلوهما بجناحين من الورق المقوى؛ نزعوا عنه عباءته الأرجوانية ولفوه بمئزر بدلا عنها. أما في ليكاتا فكان حظ القديس الشفيع أنجلو أسوأ بكثير، لأنه ترك عاريا؛ وشتم، وكبل بالأصفاد وهدد بأن يسحل في الشوارع أو بالإعدام شنقا. وزمجر الناس حوله وهم يلوحون بقبضاتهم في وجهه: « إما المطر وإما الحبل!»



في الأعلى: منظر يبين جنة إله المطر تلالوك حيث تكون الأرواح التي أدخلت السرور إلى قلبه في نعيم. لوحة جدارية من الثقافة التيوتيهواكان، تيبانتيلا، المكسيك.

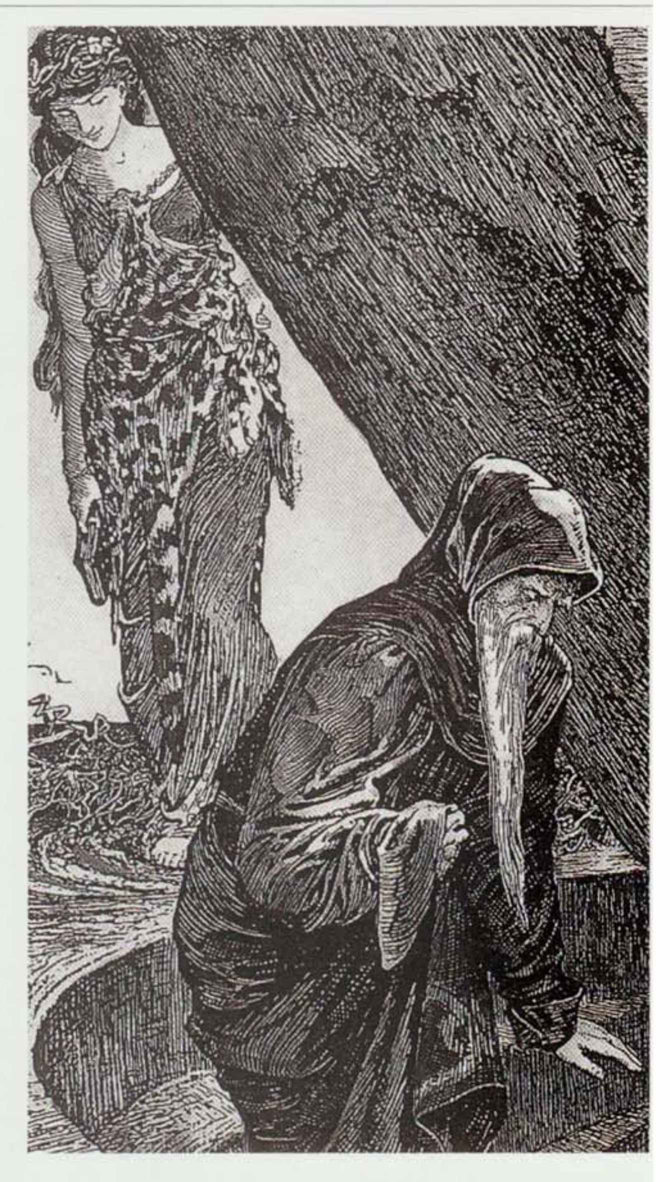
الطرف المقابل: إله العواصف أداد مرفوع الذراعين ليحمل رمح البرق. تمثال صغير من البرونز والذهب. 1400 – 1200 ق.م. عثر عليه في أوغاريت في رأس شمرا، سورية.

وقد يطلب الناس الرأفة من الآلهة أحياناً. فحين تحترق حقول الذرة عند جماعات الزولو بلهيب الشمس المحرقة، يبحث هؤلاء عن «طائر السماء» فيقتلونه ويلقون به في أحد المستنقعات، عندئذ تذوب السماء عطفاً على مقتل الطائر «وتبكي عليه بالمطر وتنتحب نحيب الجنازة». وتعمد النسوة أحياناً في أرض الزولو [17] إلى دفن أطفالهن حتى الرقاب في الأرض، ثم يبتعدن عنهم دون أن يكففن عن العويل مدة طويلة من الزمن. ويفترض أن تذوب السماء شفقة ورحمة لهذا المنظر. ثم تخرج النسوة الأطفال من الأرض وهن على يقين من أن المطر سينزل عما قريب. وتقول النسوة إنهن يناجين «رب السماء» ويتضرعن إليه كي يُنزل المطر. فإذا نزل المطر هتفن: «أوسندو رينز Usondo rains». وفي زمن الجفاف يخرج الجوانش في تنريف بقطعان الغنم إلى أرض مقدسة فيبعدون الحملان الصغيرة عن أمهاتها، حتى يرق لها قلب الآلهة عند سماع ثغائها الحزين. أما في كوماون فمن الطرق المتبعة في إيقاف المطر صب زيت حار في الأذن اليسرى لكلب. فإذا عوى الحيوان من الألم، سمع إندرا عواءه وأوقف المطر شفقة على الحيوان المتألم. ويحاول التوراجا أحيانا جلب المطر بالطريقة التالية: يضع الناس سوق نباتات معينة في الماء ويقولون: «اذهبوا واطلبوا المطر، وإذا لم يهطل المطر فلن نزرعكم مرة أخرى، بل ستموتون هناك». كما يضم الناس بعض حلزونات المياه العذبة بخيط يعلقونه على شجرة ويقولون لها: «اذهبي واطلبي المطر، فلن نضعك في الماء من جديد حتى ينزل المطر». عندئذ تذهب الحلزونات وتبكي. فتشعر الآلهة بالشفقة عليها وترسل عليهم المطر. لكن الطقوس التي ذكرناها فيما سبق هي دينية أكثر منها سحرية، لأنها تطلب الشفقة من قوى عليا.

وكثيراً ما يفترض بأن للحجارة خاصية جلب المطر شريطة غمسها في الماء أو رشها به أو معاملتها بطريقة مناسبة. ففي إحدى قرى ساموا يحرص الناس على الاعتناء بحجر معين لأنه يمثل إله المطر. وفي أيام الجفاف يحمله الكهنة في موكب مهيب ويغمسونه في ساقية. أما في قبيلة التاتاثي في نيو ساوث ويلز، فيقوم ساحر المطر بكسر قطعة من بلورات الكوارتز ثم يبصقها نحو السماء ويلف القطعة البلورية الباقية بريش الأمو (وهو طائر أسترالي يشبه النعامة لكنه أصغر منها حجماً – المترجم)، ثم ينقع الريش والبلورة بالماء ويخفيها بعناية. وفي قبيلة الكيرامين في نيو ساوث ويلز، يتوجه الساحر إلى قعر أحد الوديان، ويسكب الماء على حجر مستدير منبسط ثم يغطيه ويخفيه. وفي بعض القبائل في شمال غرب أستراليا، يذهب ساحر المطر إلى أرض مخصصة لجلب المطر، فيصنع كومة من الحجارة والرمل، ويضع في أعلاها حجراً سحرياً، ثم يسير أو يرقص حول الكومة وهو ينشد تعويذاته لساعات حتى يضطر إلى التوقف من شدة التعب، وعندها يحل محله مساعده. ثم يرش الماء على الحجر وتشعل نيران ضخمة. ولا يسمح لأي شخص عادي بالاقتراب من البقعة المقدسة في أثناء أداء الطقوس السرية. وحين يرغب أبناء السلكا في بريطانيا الجديدة في جلب المطر فإنهم يطلون بعض الحجارة برماد فاكهة معينة حتى تصبح سوداء ثم ينشرونها في الشمس مع بعض النباتات الأخرى والبراعم، بعدئذ تغمس حفنة من الأغصان في الماء وتثقل بالحجارة، وتقرأ فيها التعويذات. ويفترض أن ينزل المطر بعد ذلك. وفي ماينبور، وعلى تل مرتفع شرقي العاصمة، هناك حجر

(17) قبيلة الزولو أحد الشعوب الرئيسية الناطقة بلغة البانتو في قارة إفريقيا. ويعيش نحو سبعة ملايين نسمة من قبيلة الزولو في إقليم كوازولو – ناتال الواقع في جمهورية جنوب إفريقيا. وتعد قبيلة الزولو أكبر الجماعات اللغوية في جنوب إفريقيا. ويعيش أغلبها في المناطق الحضرية «المترجم».



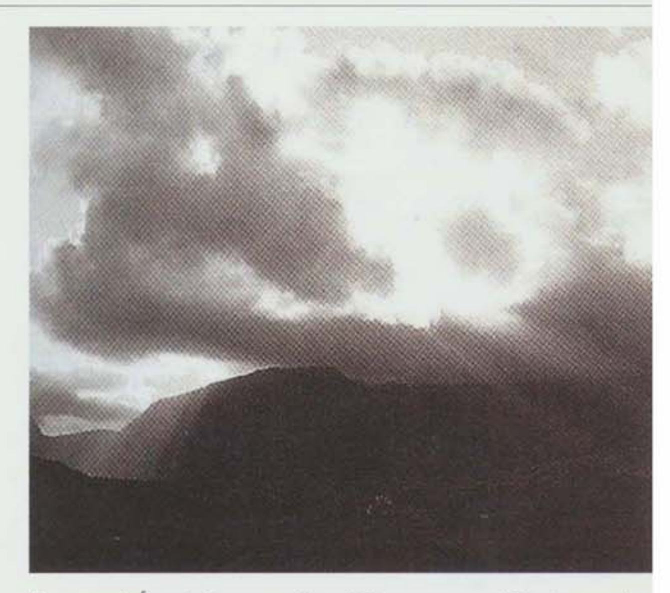


في الأعلى: «كيف خدعت فيفيان الساحر مرلين وقادته إلى حتفه تحت الأرض».
عمل فورد، كتاب أندرو لانغ «كتاب الغرام 1902، Book of Romance.

يظن العامة أنه يشبه المظلة. فإذا مست الحاجة إلى المطر، أحضر الراجا الماء من النبع في الأسفل وصبه على الحجر. وفي ساجامي في اليابان حجر يجلب المطر كلما صب عليه الماء. وإذا رغبت قبيلة واكينديو، وهي من قبائل إفريقيا الوسطى، في الاستسقاء، أرسلت بذلك إلى الواوامبا، سكان سفوح الجبال المكسوة بالثلوج والفخورين بامتلاك «حجر المطر». ولقاء مبلغ مناسب، يغسل الواوامبا الحجر الثمين، ويمسحونه بالزيت ثم يضعونه في حجرة مليئة بالماء. بعدئذ يهطل المطر دون تأخير. أما في فيافي أريزونا ونيومكسيكو القاحلة فكان الآباشي [18] يسعون إلى جلب الأمطار بحمل الماء من نبع معين وصبه على نقطة معينة في صخرة عالية. بعدها يتخيلون أن السحب ستتكاثف بسرعة وينهمر المطر.

ولا تقتصر مثل هذه العادات على مجاهل إفريقيا وآسيا أو الصحارى الحارة في أستراليا والعالم الجديد، فقد كان الناس يمارسونها في هواء أوروبا البارد وتحت سمائها الرمادية. فهناك نبع يسمى بارنتون له شهرة رومانسية في «غابات بروسيلياند البرية»، حيث تقول الأسطورة – إذا كانت صحيحة – إن الساحر ميرلين لا يزال راقداً في نومه المسحور في ظلال الزعرور البري. وقد دأب الفلاحون البريتانيون على التوجه إلى ذلك المكان عند الحاجة إلى الأمطار وهم يحملون الماء في إبريق معدني ويسكبونه على صخرة قرب النبع. وفي سنودون بحيرة صغيرة منعزلة تسمى دلين أو البحيرة السوداء، تقع في واد موحش وتحيط بها صخور خطرة». وهناك صف من الحجارة المرصوفة يؤدي إلى البحيرة، فإذا وقف شخص على الحجارة ورش الماء لكي يبلل أبعدها، ويسمى المذبح الأحمر، «هطل المطر قبل حلول الليل ولو كان الطقس حارا». ويحتمل في هذه الحالات أن يكون الحجر، كما رأينا في ساموا، إلها إلى حد ما، وهو ما نراه في عادة غمس صليب في نبع بارنتون لجلب المطر، لأن هذه العادة المتبعة أحياناً بديل مسيحي واضح للطريقة الوثنية القديمة القائمة على سكب الماء على الحجر. وفي أماكن كثيرة من فرنسا عادة ظلت متبعة حتى وقت متأخر تقوم على غمس تمثال قديس في الماء كوسيلة لجلب المطر. وهكذا نجد بجوار دير كوماني القديم نبع القديس جيرفيه الذي يتوجه إليه الناس في موكب طلبا للمطر أو أشعة الشمس حسب احتياج المحصول. أما في أوقات الجفاف فيقذفون في حوض الينبوع تمثالا حجريا قديما للقديس يقف في ما يشبه مشكاة يتدفق منها الماء. وفي كولومبرير وكاربنترا كان الناس يمارسون طقوسا مشابهة بتمثال القديس بونس Pons والقديس جنز Gens على التوالي. ففي العديد من قرى نافار كان الناس يتوسلون إلى القديس بطرس لنزول المطر، كما كان القرويون يحملون تمثال القديس في موكب يسيرون فيه إلى النهر كوسيلة يدعمون بها توسلاتهم حيث يدعونه ثلاثا لإعادة النظر في قراره والاستجابة إلى دعائهم. أما إذا بقي على عناده، قذفوه بالماء بالرغم من احتجاج رجال الدين الذين

(18) من أكبر قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية «المترجم».



يدافعون عنه بكل صدق وورع قائلين: إن توجيه تحذير أو لوم بسيط للتمثال يعطي النتيجة الطيبة ذاتها. بعد ذلك يهطل المطر بكل تأكيد في غضون أربع وعشرين ساعة. لكن الأقطار الكاثوليكية لا يسرها احتكار جلب المطر برمي التماثيل المقدسة في الماء. ففي منغريليا حيث يستبد الظمأ بالمحاصيل الزراعية، يأخذ الناس تمثالا مقدسا بنحو خاص ويغمسونه في الماء كل يوم حتى ينزل المطر. وفي الشرق الأقصى يقوم الشان برش تماثيل بوذا بالماء حين يبدأ الأرز بالذبول بسبب الجفاف. وفي جميع هذه الحالات نرى أن الطقوس المتبعة هي في آخر الأمر تعويذة تعاطف ولو كانت متخفية في هيئة عقاب أو تهديد.

أما الرومان والإغريق، فكانوا يستخدمون السحر في جلب الأمطار مثلهم مثل الشعوب الأخرى، حين تبوء الدعوات والمواكب بالفشل؛ ففي أركاديا على سبيل المثال، حين تذبل أوراق الذرة من شدة الجفاف، يغمس كاهن زيوس غصنا من أغصان السنديان في ينبوع معين في جبل ليكايوس؛ وعند اضطراب الماء يرسل سحابة من الضباب ينزل منها المطر على الأرض. وما زال الناس في هالماهيرا في فينا الجديدة يتبعون عادة مشابهة في جلب المطر. فأهل جرانون في ثيسالي لديهم عربة خيل برونزية يحفظونها في أحد المعابد. فإذا مست الحاجة إلى المطر هزوا العربة لكي ينزل المطر. وربما كان المقصود بهز العربة تقليد الرعد. وقد رأينا فيما سبق أن تقليد البرق والرعد يعد جزءا من تعويذة جلب المطر في روسيا واليابان. ولقد قام سلمونيوس الأسطوري، ملك إليس بتقليد الرعد وذلك بجر أوعية برونزية وراء عربته، أو بالمرور بعربته فوق جسر برونزي، وهو يقذف بمشاعل ملتهبة مقلدا البرق- وكانت لديه رغبة لا دينية في تقليد عربة زيوس التي تصدر الرعد وهي تنطلق عبر قبة السماء. وقد أعلن بالفعل بأنه زيوس، وأجبر الناس على تقديم القرابين إليه على هذا الأساس. وعلى مقربة من معبد مارس، خارج أسوار روما، يحفظ الناس حجرا معينا يعرف باسم لابيس ماناليس، ففي أيام الجفاف، كان الحجر يجر إلى روما، ويفترض أن يجلب هذا المطر على الفور.

في الأعلى: جبل سنودون في شمال ويلز يعد عادة موقعاً سحرياً. ففي بحيرته السوداء أحجار تقود من يمشي عليها إلى المذبح الأحمر الذي يجلب المطر قبل حلول الظلام إذا ما رش بالماء.

في الأسفل: شعار يعلو خوذة حربية لمقاتل من الفايكنغ تعبر عن أسطور الخلق عند أهل الشمال، حيث تبعت موت الإله بولدر أحداث كارثية وولدت الأرض. متحف ستاتن التاريخي، ستوكهولم.





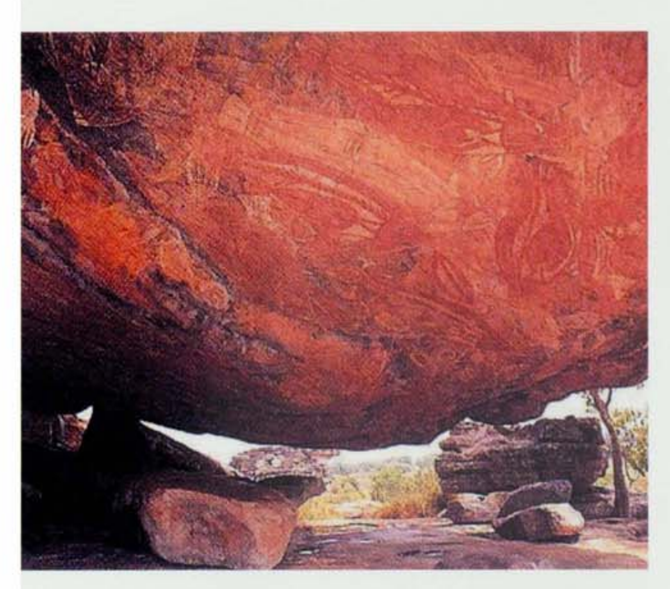
الفصل الرابع

الساحر الملك

ربما كان ما ذكرناه سابقاً كافياً ليرينا كيف أن السحر ادعى في كثير من الأقاليم وعند كثير الأعراق القدرة على السيطرة على قوى الطبيعة الكبرى لما فيه مصلحة الإنسان. ولو كان الأمر كذلك بالفعل، فلابد من أن يكون ممارسو هذا الفن شخصيات ذوات أهمية ونفوذ في أي مجتمع يتخذ من الإيمان مظهراً من المظاهر التي يعتد بها. ولا غرابة في أن يتمكن بعض السحرة من الوصول إلى قمة السلطة على زملائهم البسطاء بفضل سمعتهم ومن خلال الرعب الذي يلقونه في قلوب الآخرين. ويبدو أن السحرة في كثير من الحالات تحولوا إلى زعماء وملوك.

ودعونا نبدأ باستعراض سكان أستراليا الأصليين، فهؤلاء لا يحكمهم زعماء ولا ملوك. وإذا قلنا إن لقبائلهم دستورا سياسيا فهو دستور قائم على النظام الديمقراطي أو الأوليغاركي (حكم الأقلية) تهيمن عليه مجموعة من الشيوخ المتنفذين يجتمعون في مجلس في معزل عن الشباب ليتخذوا قرارات بشأن الأمور المهمة. ويعد مجلسهم التشاوري مسؤولا أمام مجلس الشيوخ فيما بعد، وإن جاز لنا وضع اسم لمثل هذه الحكومة من الشيوخ لأسميناها حكم العُجَّز gerontocracy. ويبدو لنا في معظم الأحيان أن الشيوخ الذين يعقدون جلساتهم في مجتمعات السكان الأصليين لتوجيه شؤون قبيلتهم هم زعماء عشائرهم الطوطمية. والآن، في وسط أستراليا، حيث أسهمت الطبيعة الصحراوية للبلاد والعزلة الكاملة تقريباً عن التأثيرات الخارجية في تأخير التقدم وأبقت السكان الأصليين بصفة عامة في حالتهم البدائية الأولى، فإنه يسند إلى زعماء مختلف العشائر الطوطمية مهمة أداء طقوس السحر بهدف تكاثر الطواطم.[19] وبما أن الأغلبية الساحقة من الطواطم هي حيوانات أو نباتات يمكن أكلها كان المتوقع أن يلجأ هؤلاء الرجال إلى السحر لتوفير الطعام للناس. أما السحرة

(19) هو أي كيان يمثل دور الرمز للقبيلة، وأحيانا يقدس باعتباره المؤسس أو الحامي. وأول من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام 1791 إذ استعمله في كتابه «رحلات مترجم هندي وأسفاره»، واستعمل كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية لأول مرة العالم الإسكتلندي ج. مكلينين في عام 1870 عند كتابته مقالا بعنوان «الطوطمية» «المترجم».





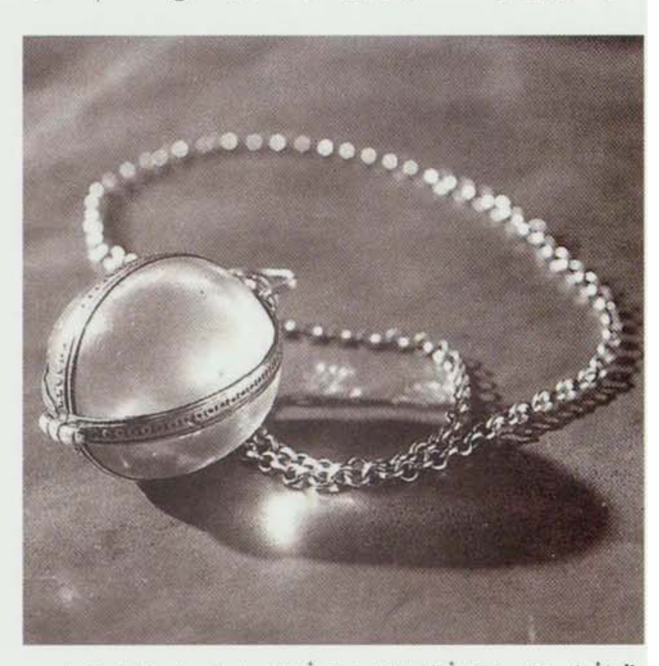
في الأعلى (1): من فنون سكان أستراليا الأصليين حيث يظهر شكل الأسماك، ربما كان له صلة بسحر الصيد، من صخرة أوبيري في أستراليا.

في الأعلى (2): احتفال رقص وغناء عند قبيلة المانغاي في بابوا غينيا الجديدة، أرخبيل بسمارك، إرلندا الجديدة.

الطرف المقابل: رجل من قبيلة أراندا وهي من قبائل أستراليا الأصلية التي تسكن بالقرب من أليس سبرينغز. كانت الوظائف الرئيسة لزعماء القبيلة وسط أستراليا مقدسة أو سحرية بصفة عامة

الآخرون فينتظر منهم جلب المطر أو تقديم خدمات أخرى إلى المجتمع. ومجمل القول إن الزعماء في وسط أستراليا هم سحرة شعبيون، ويعد تولي أمر المخزن المقدس أهم وظائفهم، وهو عادة شقٌّ في الصخور، أو حفرة في الأرض تحفظ فيها الحجارة والأعواد المقدسة (تشيرينغا) التي يفترض أن ترتبط بها أرواح سائر الناس أحياء كانوا أم أمواتا بوسيلة ما. فبالإضافة إلى قيام الزعماء بما يمكن أن نسميه واجباتهم المدنية مثل إنزال العقوبة في حال انتهاك الأعراف القبلية، لكن وظائفهم الأساس تبقى مقدسة وسحرية.

وإذا تركنا أستراليا وذهبنا إلى فيينا الجديدة وجدنا أن دستور المجتمع بين المجتمعات المحلية ديمقراطي أو أوليغاركي بصفة أساس، وأن منصب زعيم القبيلة مازال في مرحلته الجنينية، مع أن مستواها الثقافي أعلى من مستوى سكان أستراليا الأصليين بكثير. وهكذا يخبرنا السير وليم ماك جريجور أنه في غينيا الجديدة البريطانية لم يظهر أي رجل حكمة، أو شجاعة، أو قوة تكفي لجعله طاغية مستبداً ولو في مقاطعة واحدة. «فقد ظل ما وصلوا إليه في هذا المجال بعيداً جداً حين أصبح أحدهم ساحراً شهيراً؛ لكن هذا لم يسفر إلا عن عملية ابتزاز محدودة».



في الأعلى: كانت قبائل أعالي النيل تعتقد أن للبلورات الصخرية القدرة على جلب الأمطار. وربما كانت الكرة تستعمل في الأصل كمكبرة، لكنها صنعت من الفضة فيما بعد واستخدمت كوسيلة سحرية لشفاء القطعان من الثآليل في اسكتلندة.

في الطرف المقابل: أيدي الاستحضار. هذه المنحوتات الخشبية لإشارات سحرية يفترض أنها كانت تحمي من الشر.

وقد ورد في تصريح محلي أن مصدر قوة الزعماء في ميلانيزيا يكمن بأكمله في الاعتقاد بقدرتهم على التواصل مع الأشباح الأقوياء والتلويح بهذه القدرة الخارقة على استحضار الأشباح وتسخيرها. فإذا فرض الزعيم غرامة مالية، فإنها تدفع لأن الناس في كل مكان يخشون «قواه الشبحية» ويؤمنون إيماناً راسخاً بقدرته على إصابة من يقاومه بالكوارث والأمراض. وما إن يبدأ عدد كبير من الناس في إنكار نفوذه على الأشباح حتى تتضاءل قدرته على جباية الغرامات. وهكذا يخبرنا الدكتور جورج براون «أن أحد الزعماء الحاكمين في بريطانيا الجديدة كان يفترض به دوما أن يمارس عمل الكاهن، أي إنه كان يدعي أنه على اتصال مستمر مع الأرواح، وأنها منحته القدرة على جلب المطر أو الصحو، والرياح اللطيفة أو العاصفة، والصحة أو المرض، والنصر أو الهزيمة في الحرب، وبصفة عامة أن يأتي بأية نعمة أو نقمة يكون صاحب الشأن على استعداد لدفع ثمنها».

وفي معرض صعودنا سلم الثقافة نصل إلى إفريقيا، حيث الزعامة والقرابة متطورة بشكل تام. وهنا نرى أن البرهان على تطور الزعيم من الساحر، وبالأخص من ساحر المطر، متوفر بكثرة نسبيا. فالشكل الأصلي للحكومة عند قبيلة الوامبجوي، وهي من شعوب البانتو في شرق إفريقيا، كان جمهورية الأسرة، لكن قوى السحرة الهائلة التي توارثتها الأجيال ما لبثت أن رفعتهم إلى مرتبة صغار النبلاء أو الزعماء. ومن بين ثلاثة الزعماء الذين عاشوا في البلاد عام 1894، كان الناس يخشون اثنين لأنهما من السحرة، وأن الثروة الحيوانية التي يمتلكانها جاءتهم بأكملها تقريبا على شكل هدايا قدمت إليهما لقاء خدماتهما السحرية. أما حرفتهم الرئيسة فكانت جلب المطر. ومن ناحية أخرى، يقال إن زعماء الوتاتور، وهم من شعوب شرق إفريقيا أيضا، ليسوا سوى مشعوذين لا يملكون أي نفوذ سياسي مباشر. وبالمثل يستمد زعماء الواجوجو في شرق إفريقيا قواهم الرئيسة من حرفة جلب المطر. فإذا لم يكن الزعيم قادرا على جلب المطر بنفسه، وجب عليه الاعتماد على شخص آخر قادر على ذلك.



كذلك نرى في قبائل أعالي النيل أن الأطباء هم الزعماء بصفة عامة. فسلطتهم مستمدة من قدرتهم المفترضة على جلب المطر قبل كل شيء لأن المطر هو الشيء الوحيد الذي يهم الناس في تلك المناطق، وإذا لم يهطل في الوقت المناسب، أدى ذلك إلى كوارث للمجتمع لا يعرف أحد مدى خطورتها. لا عجب إذن أن يدعي بعض الرجال ممن يتمتعون بالدهاء القدرة على جلبها. ويعول هؤلاء بعد اكتسابهم هذه السمعة، على سرعة تصديق جيرانهم السذج. لذلك فإن « أكثر زعماء هذه القبائل هم من سحرة المطر، وتتناسب شعبيتهم وقدراتهم على جلب المطر لشعبهم في الموسم المناسب ... فزعماء المطر يبنون قراهم دائما على سفوح التلال العالية، لإدراكهم دون شك أن التلال تجتذب الغيوم، مما يجعلهم في مأمن تام في تنبؤاتهم بأحوال الطقس». وعند كل واحد من جالبي المطر عدد من حجارة المطر، مثل الكريستال الصخري، أو الأفتنورين (وهو نوع من الكوارتز المرقش بالميكا وغيرها – المترجم) أو الجمشت (وهو حجر كريم أرجواني أو بنفسجي – المترجم) يحفظها في وعاء خاص. فإذا أراد جلب المطر، غمس حجارته في الماء، ثم أخذ عوداً من الخيزران المقشور متفرع بنهايته وأشار به إلى السحب لكي تأتي أو لوح بها لتبتعد في الجهة التي ينبغي عليها أن تسلكها، وهو يتمتم بتعويذة في تلك الأثناء، أو يصب الماء وأمعاء نعجة أو معزى في حفرة في حجر ثم يرش الماء نحو السماء. صحيح أن الزعيم يكسب ثروة طائلة من خلال ممارسته ما يفترض أنه قواه السحرية، لكنه غالبا، وربما بصفة عامة، يلقى نهاية مفجعة. ففي زمن الجفاف يتألب عليه الناس ويقتلونه اعتقادا منهم بأنه هو المسؤول عن انحباس المطر. ومع ذلك فإن المنصب وراثي يتوارثه الأبناء عن الآباء. ومن القبائل التي تنشر فيها هذه المعتقدات وتمارس هذه العادات قبائل اللاتوكا والباري، واللالوبا واللوكويا.

وفي إفريقيا الوسطى، تعتقد قبيلة لندو إلى الغرب من بحيرة ألبرت، اعتقاداً جازماً بأن لدى بعض الناس القدرة على جلب المطر، ويحتل المستمطر فيهم منصب الزعيم أو يصبح زعيما بلا استثناء. كما تبدي قبيلة البانيور كثيرا من الاحترام لجالبي المطر وتغدق عليهم الهدايا. فكبير المستمطرين الذي يملك سيطرة مطلقة لا حدود لها على المطر هو الملك، لكنه يستطيع أن ينقل قواه إلى الآخرين بحيث ينزل المطر ويعم الخير مختلف أجزاء المملكة.



وفي شرق إفريقيا الوسطى وغربها نرى الوحدة ذاتها بين قوى الزعامة والسحر. لذا فإن قبيلة فان لا تميز بين الزعيم والطبيب، فالزعيم هو دائما الطبيب والحداد أيضاً لأن مهنة الحدادة مقدسة عند الفان، ولا يسمح بممارستها إلا للزعماء.

أما عن العلاقة بين وظيفة الزعيم والمستمطر في جنوب إفريقيا، فيقول أحد الخبراء: في القديم كان الزعيم هو كبير المستمطرين في القبيلة. فبعض الزعماء لم يسمحوا لأي شخص آخر بمنافستهم لئلا ينتخب المستمطر الناجح زعيماً. وهناك سبب آخر، وهو أن المستمطر على يقين من أنه سيصيب الثراء إذا ما اكتسب سمعة طيبة، وليس من المنطقي بالنسبة إلى الزعيم أن يسمح لأي كان بأن يصبح ثرياً، فللمستمطر سيطرة هائلة على شعبه، من هنا كانت أهمية الإبقاء على ارتباط هذه الوظيفة بوظيفة الملك. وجرت التقاليد على اعتبار القدرة على الاستمطار هي المجد الأساس لقدامى الزعماء والأبطال، ويحتمل أن تكون أصل الزعامة. فالرجل الذي يأتي بالمطر يصبح زعيما بشكل طبيعي. وبالطريقة ذاتها كان تشاكا (طاغية الزولو الشهير) يعلن أنه الإله الوحيد في البلاد، لأنه إذا سمح بالمنافسة، تعرضت حياته للخطر». ويقول الدكتور موفات في معرض حديثه عن قبائل جنوب إفريقيا بصفة عامة: «إن المستمطر في نظر الناس شخصية عظيمة لأنه يمتلك قدرة على التأثير في عقول الناس تفوق قدرة الملك الذي يصغي مضطرا إلى إملاءات كبير الموطفين هذا».

إن الدليل الذي سقناه فيما سبق يجعل تطور الملك في إفريقيا من الساحر الشعبي، وبالأخص من المستمطر، أمراً ممكناً. فالخوف غير المحدود الذي يوقعه الساحر في قلوب الناس، والثروة الهائلة التي يكتسبها يفترض أنهما أسهما معا في ترقيته. لكن إذا كانت مهنة الساحر، وبالأخص المستمطر تعود بالخير الوفير على ممارس المهنة الناجح، فإنها تبقى محفوفة بالأخطار بالنسبة إلى المشعوذ عاثر الحظ أو الذي تعوزه البراعة. فوظيفة المشعوذ الشعبي محفوفة بالأخطار فعلاً. فبما أن الناس يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن له القدرة على أن يأتي بالمطر والشمس الساطعة، وأن يجعل ثمار الأرض تنمو وتكبر، فإنهم بالطبع يعزون الجفاف والكوارث إلى إهماله الذي يستحق اللوم أو إلى عناده المتعمد وينزلون به العقاب المناسب. ففي إفريقيا نرى أن مصير الزعيم الذي يفشل في إنزال المطر غالباً ما يكون النفي أو القتل. وفي أجزاء من غرب إفريقيا، إذا فشلت الصلوات والقرابين التي يقدمها الناس إلى الملك في إنزال المطر، أتى أفراد رعيته وشدوا وثاقه بالحبال ثم جروه بالقوة إلى قبر أجداده حيث يمكنه أن يحصل منهم على المطر المطلوب. أما البنجر في غرب إفريقيا فيعزون إلى ملكهم القدرة على جلب المطر أو الطقس المشمس، فيغدقون عليه العطايا من الحبوب والحيوانات ما دام الطقس جميلاً، أما إذا تعرضت محاصيلهم للتلف بسبب طول الجفاف أو استمرار المطر، فإنهم يوبخونه ويوسعونه ضربا حتى يتغير الطقس. وإذا كان موسم الحصاد سيئاً، وأمواج البحر عاتية لا تسمح بالصيد اتهم شعب لوانغو ملكهم بقساوة القلب وأطاحوا به. أما في ساحل الحبوب فإن كبير الكهنة أو الملك المعبود الذي يحمل لقب بوديو هو المسؤول عن صحة المجتمع، وخصوبة الأرض، ووفرة الأسماك في البحر والأنهار فإذا عانت البلاد من شح في أي من هذه المجالات أقدم الناس على الإطاحة بالبوديو من منصبه. وفي سوكوما، وهي مقاطعة ضخمة على الضفة الجنوبية من فيكتوريا نيانزا، «تعد قضية المطر والجراد جزءا لا يتجزأ من مهمة السلطان، وعليه أيضا أن يعرف كيف يجلب المطر ويبعد الجراد. فإذا عجز هو وأطباؤه المشعوذون عن هذا، أصبح وجوده بأكمله مهددا في أوقات المحن. وحدث ذات مرة، حين تأخر هطل

المطر الذي كان الناس ينتظرونه بفارغ الصبر، أن قام الناس بطرد الملك (في أوتوتوا قرب ناسا). وفي الواقع يعتقد الناس أن للحكام القدرة على التحكم بقوى الطبيعة». وفي المجال عينه، يقال إن السكان المحليين في منطقة نيانزا [20] «على يقين بأن المطر لا ينزل إلا نتيجة السحر، وإن إنزاله واجب مهم يقع على عاتق زعيم القبيلة، فإذا لم ينزل المطر في الموسم المناسب بدأ الجميع بالتذمر. وقد لقي أكثر من ملك من صغار الملوك عقوبة النفي من بلده بسبب الجفاف». أما في قبيلة اللاتوكا في أعالي النيل، فيقوم الناس عادة بالهجوم على الزعيم ليلاً إذا ذبلت المحاصيل وباءت جميع جهوده لإنزال المطر بالفشل، فيسرقون كل ممتلكاته ويطردونه. لكنهم غالباً ما يقتلونه.

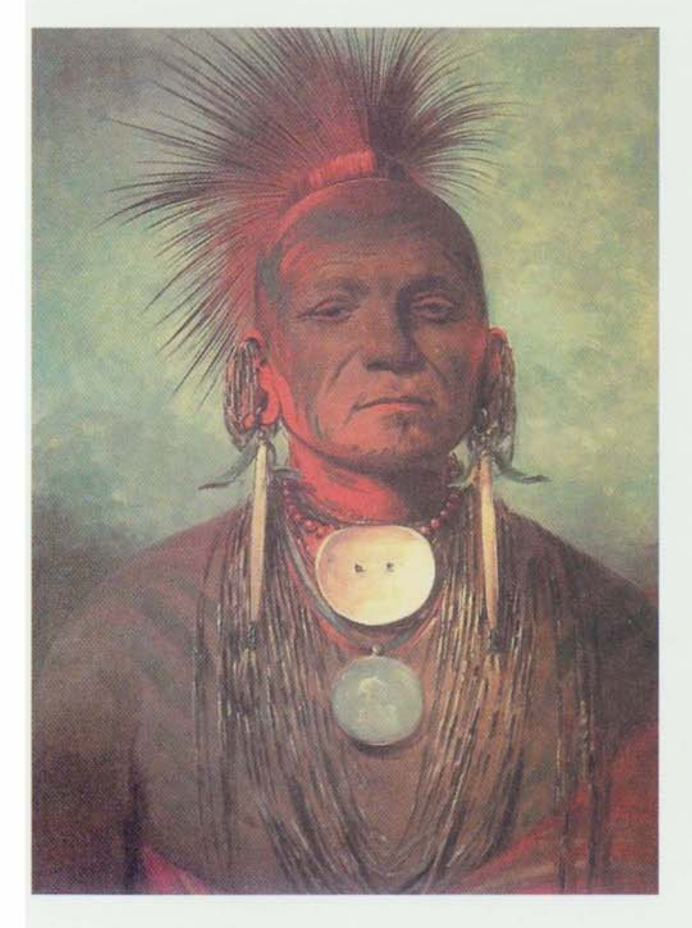
وفي أجزاء كثيرة من العالم، كان الناس ينتظرون من الملوك أن ينظموا مسيرة الطبيعة لما فيه خير الناس، وينزلون بهم العقاب إذا هم فشلوا في أداء مهمتهم. ويبدو أن قبائل السيذيا كانوا يقيدون ملوكهم في الأصفاد. وفي مصر القديمة كان الناس ينحون باللائمة على ملوكهم المقدسين إذا كان الموسم سيئاً، لكنهم كانوا يحملون الحيوانات المقدسة مسؤولية الظروف الطبيعية أيضا. فإذا حل الوباء أو الكوارث الأخرى في البلاد نتيجة فترة جفاف طويلة وحادة، أخذ الكهنة الحيوانات في الليل وهددوها، ثم ذبحوها إذا لم تخف حدة الكارثة. وفي جزيرة نيو المرجانية أو الجزيرة البدائية، في جنوب المحيط الهادي، تعاقبت على الحكم سلسلة من الملوك. ولما كان هؤلاء الملك كبار الكهنة الذين يفترض بهم أن يجعلوا الزرع ينمو، فقد كانوا يقتلون إذا غضب الناس منهم في أوقات الشح حتى لم يعد أحد منهم يرغب في أن يصبح ملكا بعد أن قتل جميع الملوك واحد تلو الآخر، وانتهى بذلك النظام الملكي. ويخبرنا قدامى الصينيين بأن اللوم في كوريا كان يقع على الملك إذا قل المطر أو زاد عن الحد الطبيعي وإذا لم ينضج المحصول. وقال بعضهم إن من الواجب الإطاحة به في حين قال آخرون لا بد من قتله.

أما بين الهنود الأمريكيين، فإن أكبر خطوة على طريق الحضارة تحققت في عهد الحكومات الملكية الثيوقراطية (الدينية) في المكسيك والبيرو. لكننا نكاد لا نعرف شيئا عن التاريخ القديم لهذين البلدين نستطيع معه القول ما إذا كان أجدادهم الملوك المؤلهين أطباء مشعوذين أم لا. وربما نعثر على أثر لهذا التتابع في القسَم الذي يتلفظ به ملوك المكسيك عند اعتلائهم سدة العرش حيث يقسمون على أن يجعلوا الشمس تسطع، والغيوم تمطر، والأنهار تجري، والأرض تغدق عليهم ثمارها الوفيرة. ومن المؤكد أن الطبيب المشعوذ عند سكان أمريكا الأصليين الذي كان محاطاً بهالة من الغموض وبجو من الرعب، كان شخصية عظيمة النفوذ والأهمية، وربما تطور إلى زعيم أو ملك عند كثير من القبائل، بالرغم من عدم توفر أي دليل ثابت على مثل هذا التطور. وهكذا يخبرنا كاتلين بأن الأطباء المشعوذين في أمريكا الشمالية «هم من الأعيان البارزين في القبيلة، ويتمتعون بأقصى درجات الاحترام من قبل جميع أفراد القبيلة، لا لبراعتهم في الطب، بل لبراعتهم

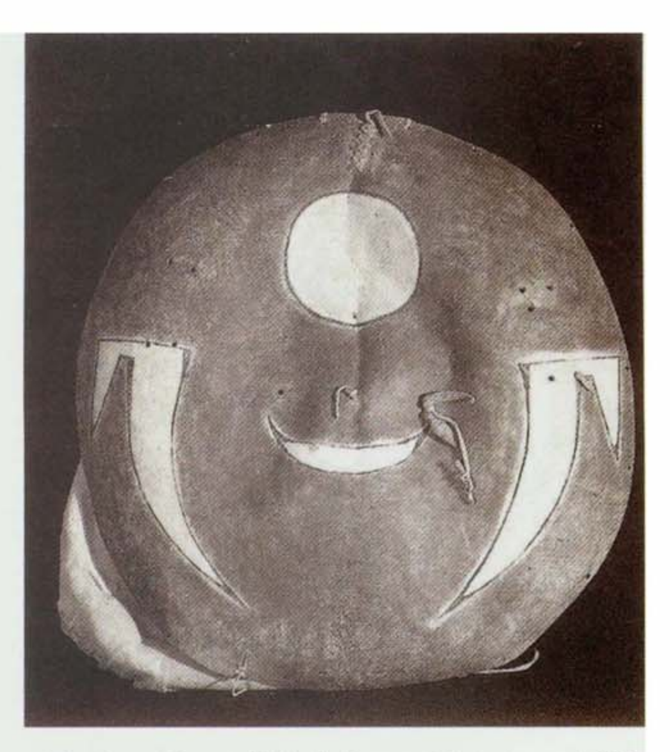
(20) نيانزا هي إحدى محافظات كينيا «المترجم».

في الأسفل: صورة سي – نون – تي – آ، طبيب مشعوذ من قبيلة أيوا في الولايات المتحدة. رسمها جورج كاتلين نقلا عنه وهو حي في حوالي عام 1845.

الطرف المقابل: مونتيزوما الثاني، آخر أباطرة الأزتك الذي كان يعبد بصفته إلها وتوفي عام 1520. كان الناس يعتقدون أن لملوك المكسيك القدرة على التحكم بالسماء والأرض. جزء من لوحة من القرن السادس عشر لفنان إسباني غير معروف. قصر بيتي، فلورنسا.



الدجالين نحو الزعامة والملك. ويذكر تيفيه الفرنسي، وهو من أقدم المستوطنين على ساحل البرازيل أن الهنود «يحترمون الأطباء الدجالين ويكرمونهم أيما تكريم حتى إنهم يعبدونهم أو يؤلهونهم. فترى عامة الناس يقصدونهم ويسجدون لهم ويصلون لهم قائلين «أبعد عني المرض، وأبعدني عن الموت أنا وأطفالي». أو شيء من هذا القبيل. فيجيب: «إنك لن تموت، ولن تمرض» أو شيئا من هذا القبيل. أما إذا تبين كذب هؤلاء الأطباء الدجالين، وجاءت الوقائع خلاف نبوءاتهم، فإن الناس لا يتورعون عن قتلهم بصفتهم غير جديرين بلقب الطبيب ومكانته السامية». أما هنود لينغوا في جراند تشاكو فنرى أن لكل عشيرة زعيمها، لكن سلطاته محدودة، وبما أنه ملزم بتقديم الكثير من الهدايا بحكم مكانته الاجتماعية، فإنه نادراً ما يصيب الثراء، ويرتدي الملابس الرثة أكثر من رعاياه. «وفي الواقع فإن الساحر هو الرجل الذي يتمتع بأكبر قدر من السلطة ويتلقى الهدايا بدلاً من أن يقدمها للآخرين». ومن واجبات الساحر أن ينزل المصائب والأوبئة بأعداء قبيلته وأن يحمي شعبه من سحر الأعداء. لذلك فإنه يتقاضى أجورا عالية لقاء هذه الخدمات، وبفضلها يكتسب الكثير من النفوذ والسلطة.



في الأعلى: درع من قبيلة كري من سكان أمريكا الأصليين في السهول الشمالية. ويعتقد أن الأشكال السحرية في الوسط تمثل الشمس والقمر. كانت هذه الرسومات تنتقل في الأحلام والرؤى. المتحف البريطاني، لندن.

في الطرف المقابل: في مصر، كان الملوك يتحملون تبعة القحط. وقد ساعد يوسف مصر على تجنب السنوات العجاف السبع من خلال تأويله رؤية الملك التي تتنبأ بسنوات من الخير تتبعها سنوات عجاف. من إنجيل نورمبرج، 1483. متحف فيكتوريا وألبرت، لندن.

في السحر والأسرار الغامضة على نحو خاص التي يمارسونها جميعا إلى درجة كبيرة .... فترى أن الأطباء في كل القبائل هم من المشعوذين أي السحرة – والعرافين، وأود أن أقول كبار الكهنة على اعتبار أنهم يشرفون على طقوسهم الدينية ويقومون عليها. فالناس ينظرون إليهم على أنهم كهنة الأمة. ويحتلون الأطباء المشعوذون مقاعدهم في جميع مجالس الحرب والسلم إلى جانب الزعماء، وتؤخذ مشورتهم بانتظام قبل اتخاذ أية خطوة عامة، كما تحظى آراؤهم بأقصى درجات الاحترام والتبجيل». ولا يختلف الأمر في كاليفورنيا حيث يعد «الشامان» أهم فرد في قبيلة المايدو، وفي غياب نظام حكومي محدد، فإن لكلمة الشامان وزنا كبيرا: فالناس يخشونهم كفئة، ويقدمون إليهم فروض الولاء والطاعة أكثر من الزعيم بصفة عامة.

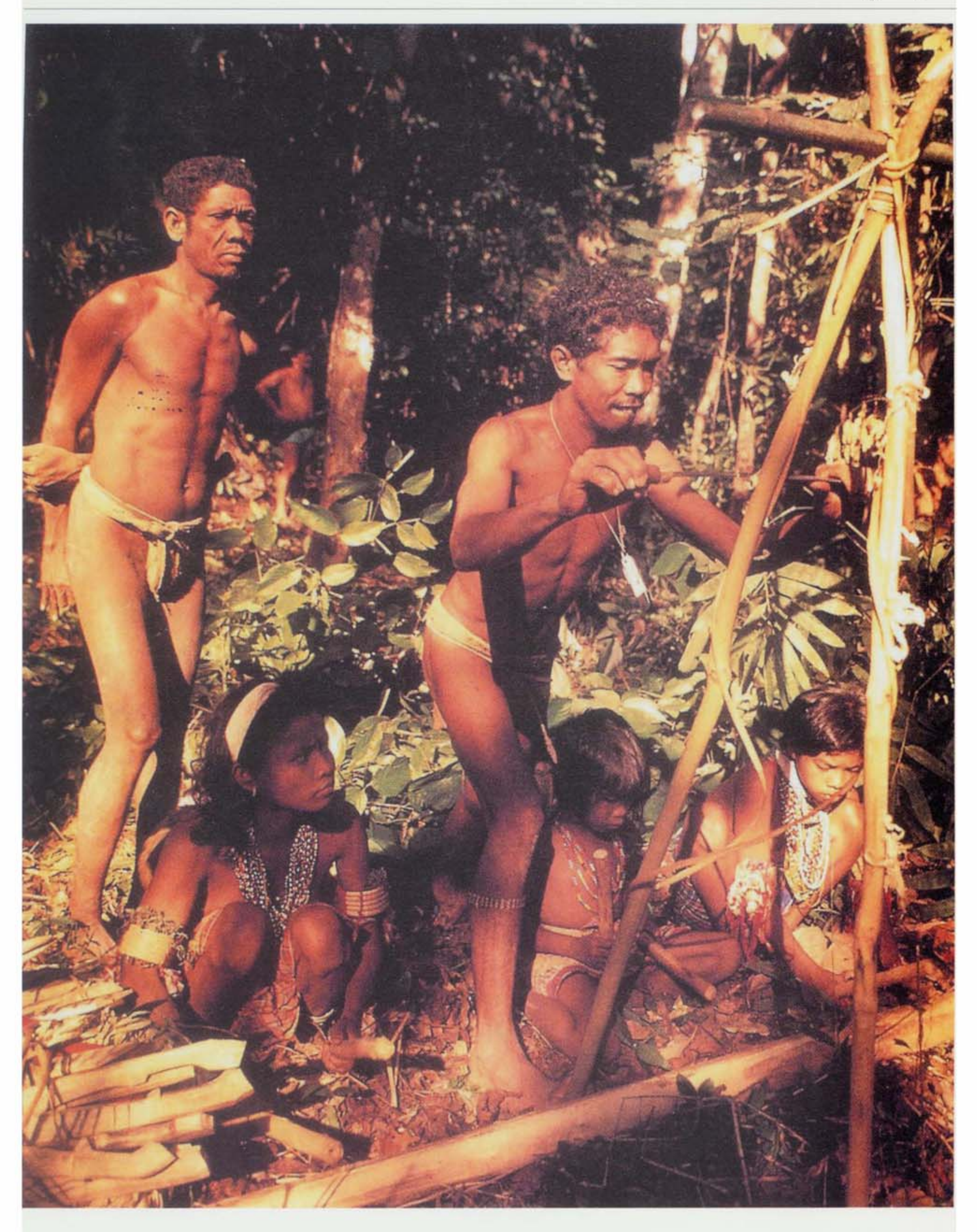
وفي أمريكا الجنوبية أيضا كانت الطرق ممهدة أمام الأطباء

وفي منطقة الملايو ينظر الناس إلى الملك (أو الراجا) باحترام فيه الكثير من التطير بصفته رجلا ذا قوى خارقة، وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأنه تطور من مجرد ساحر مثله مثل كثير من الزعماء الأفارقة. أما في يومنا هذا فيعتقد أهل الملايو اعتقاداً جازماً بأن للملك سلطة شخصية على نشاطات الطبيعة مثل نمو المحاصيل، وحمل الأشجار المثمرة. ويفترض أن تكون هذه الميزة الخيرة في نوابه أيضاً ولو بدرجة أقل، حتى في أجساد الأوروبيين الذين يتولون السلطة في الأقاليم بمحض الصدفة. ففي سيلانفور، وهي إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو، غالبا ما يعزى نجاح المحصول أو فشله إلى تغيير موظفي المقاطعة. أما قبائل التوراتيا في جزر سيليبس الجنوبية فيعتقدون أن وفرة محصول الأرز تعتمد على سلوك أمرائهم، وأن الحكومة السيئة، أي الحكومة التي لا تتبع التقاليد القديمة، تؤدي إلى فشل المحاصيل.

أما الدياك من سكان ساراواك [21] فيعتقدون أن لحاكمهم الإنجليزي الشهير، راجا بروك، ميزة سحرية خاصة، التي إذا ما طبقت كما يجب، جعلت محصول الأرز وفيرا. لذلك كانوا يجلبون إليه البذور التي يريدون زراعتها في السنة التالية عند زيارته لإحدى القبائل، فيقوم بتخصيبها بأن يهز فوقها عقود النساء التي سبق وغمست بخلطة معينة. فعند دخوله إحدى القرى، تغسل النساء قدميه بالماء أولا ثم بحليب جوزة هند غضة، وأخيرا بالماء مرة أخرى. ويحتفظون بكل الماء الذي لامس جسمه ليرشوه على مزارعهم اعتقادا منهم بأنه يضمن وفرة المحصول. أما القبائل التي لا يستطيع زيارتها لبعدها، فكانت ترسل إليه قطعة صغيرة من قماش أبيض، مع قليل من الذهب أو الفضة، فإذا باركها بقدراته التوليدية دفنوها في حقولهم وانتظروا بكل ثقة محصولا وفيرا. وذات مرة، حين علق أحد الأوربيين قائلا إن محصول الأرز كان ضئيلا في قبيلة السامبا أجاب زعيم القبيلة على الفور إن هذا الأمر حتمي لأن الراجا بروك لم يزر القبيلة قط، وتوسل إليه حتى يقتنع بزيارة قبيلته ليزيل العقم عن أرضها. ويبدو أن أجداد الأعراق الآرية من الهند حتى إرلندا تشترك في الاعتقاد



(21) وتسمى أيضا سراوق وهي من الجزر الإندونيسية.



الطرف المقابل: سكان جزيرة بالاوا الفيليبينية يحضرون لطقوس لامباي، وهي احتفال لتقديم الشكر لأرواح العسل والأرز.

في الأسفل: منحوتة رومانية تظهر الإله مثراس يقتل الثور، وهو رمز أول الكائنات الحية الذي خرجت من دمه الذرة وكل أشكال الحياة. المتحف الوطني الروماني، روما.

بأن للملوك قوى سحرية أو خارقة للطبيعة يستطيعون بها تخصيب الأرض ومنح رعاياهم فوائد أخرى، ولا تزال آثار هذا الاعتقاد باقية في بلدنا حتى يومنا هذا. وهكذا نرى أن كتاب القانون الهندوسي الذي يسمى «قوانين مانو» يصف آثار حكم الملك السديد قائلا: «في ذلك البلد، حيث يتجنب الملك أخذ ممتلكات الخطائين من البشر، يولد الرجال في موعدهم ويعمرون طويلاً. كما تزدهر محاصيل الفلاحين، كل منها مثلما بذر في الأرض، ولا يموت الأطفال، ولا يولد أي طفل عاثر الحظ» وفي اليونان الهومرية، كان الناس يتحدثون عن الملوك والزعماء كما لو كانوا مخلوقات مقدسة؛ ويسود لدى الناس الاعتقاد بقدرة الملك الصالح على جعل الأرض السوداء تنتج القمح والشعير، وأن يجعل الأشجار تمتلئ بالثمار، وقطعان الماشية تتكاثر، والبحر يعطي الأسماك. وفي العصور الوسطى، حين ذهب والديمار الأول ملك الدنمارك إلى ألمانيا، جلبت الأمهات أطفالهن والمزارعون بذورهم إليه ليباركها بيديه اعتقادا منهم بأن اللمسة الملكية تجعل أطفالهم يكبرون بشكل أفضل، ولهذا السبب بالذات طلب منه المزارعون أن ينثر البذور من أجلهم. وكان قدماء الإرلنديين يعتقدون أن المواسم كانت طيبة حين كان ملوكهم يتبعون تقاليد أجدادهم، كما كانت الغلال وفيرة، والماشية كثيرة، والمياه مليئة بالأسماك. كما كان من الضروري تدعيم أغصان الأشجار المثمرة لكثرة ثمارها. وثمة قانون كنسي منسوب إلى القديس باتريك يعدد من بين البركات التي ترافق حكم الملك العادل «الطقس الجيد، والبحار الهادئة، والمحاصيل الوفيرة، والأشجار المثقلة بالثمار». ومن ناحية أخرى، كان الناس يرون أن القحط وضمور الضرع، وقلة الثمر، وندرة



الذرة هي دلائل لا يرقى إليها الشك على سوء الملك الحاكم.

وربما كان آخر مظاهر هذه المعتقدات الخرافية والتي كانت تحوم حول ملوكنا الإنجليز فكرة قدرتهم على شفاء داء الملك (سل الغدد اللمفاوية – المترجم) بلمسة من يدهم، وهذا سبب تسمية المرض بداء الملك. فكثيرا ما كانت الملكة إليزابيث تمارس موهبة الشفاء المعجز هذه. ففي يوم منتصف الصيف عام 1633، شفى الملك تشارلز الأول مائة مريض دفعة واحدة في الكنيسة الملكية في هوليرود Holyrood لكن هذه الممارسة بلغت حدها الأقصى في عهد ابنه تشارلز الثاني. ويقال إن تشارلز الثاني لمس في عهده مائة ألف مصاب بداء الملك. وكان التدافع للاقتراب منه مخيفا أحيانا، حتى إن ستة أو سبعة ممن جاؤوا يلتمسون منه الشفاء ذات مرة ماتوا تحت الأقدام. أما الملك وليم الثالث الرصين فرفض التورط في أعمال الشعوذة، وحين حاصرت جماهير الغوغاء قصره كما جرت العادة، أمر بإبعادهم وإعطائهم شيئا من المال على سبيل الصدقة. والمرة الوحيدة التي استجاب فيها للإلحاح ووضع يده على مريض قال له: «أدعو الله أن تتحسن صحتك وعقلك». لكن ممارسة هذه التقاليد عادت من جديد كما هو متوقع على يد جيمس الثاني المتعصب البليد الذي سبق وليم على العرش وعلى يد ابنته البليدة الملكة آن.

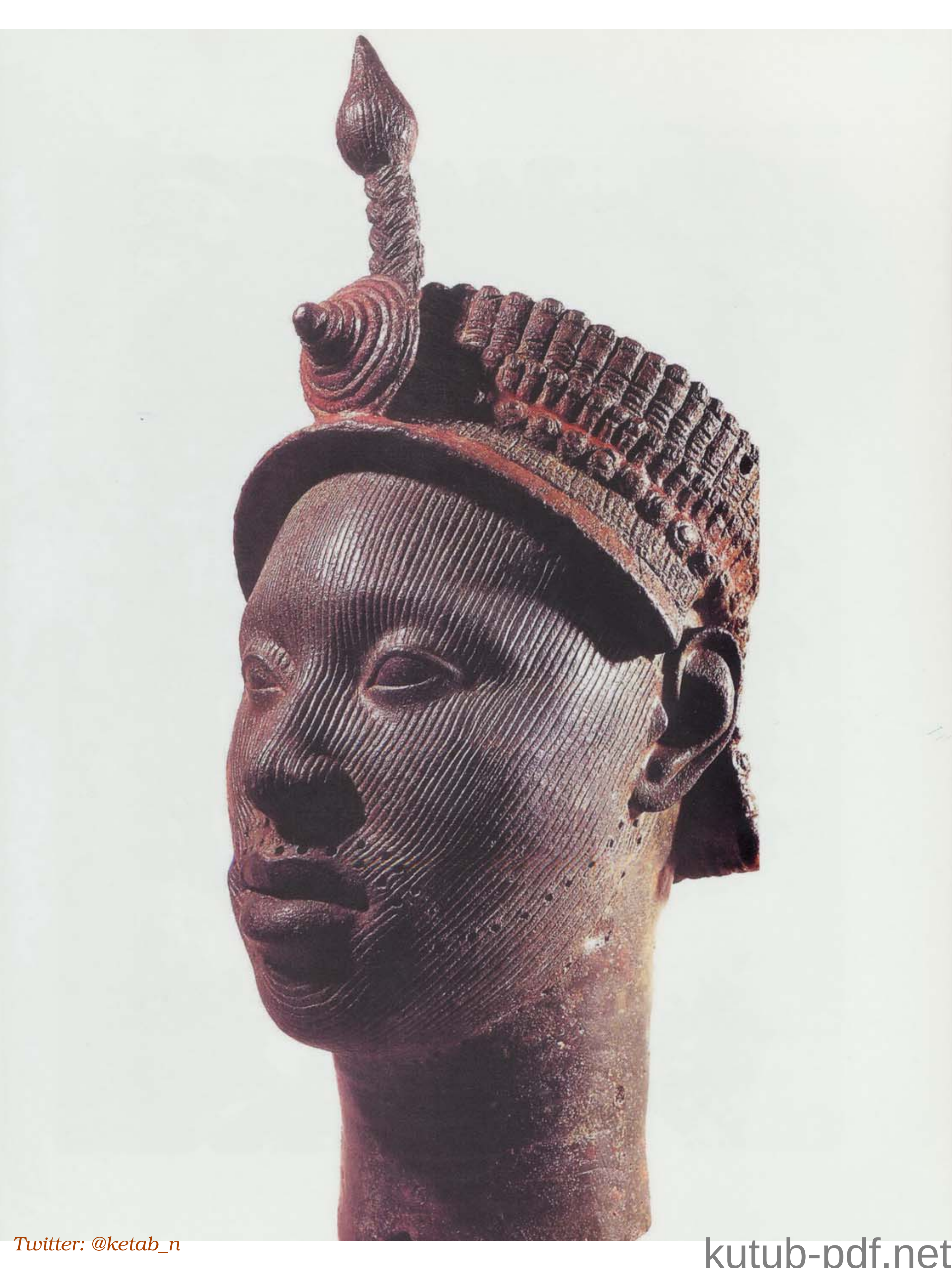
حتى ملوك فرنسا كانوا يدّعون القدرة على شفاء المرضى بلمسة منهم، وكانوا يدعون أنهم استمدوا قدرتهم هذه من كلوفيس أو من القديس لويس، في حين أن ملوكنا الإنجليز ورثوها عن الملك إدوارد المعترف. وبالمثل، نرى أن أبناء قبيلة تونجا كانوا يعتقدون أن لزعمائهم البدائيين القدرة على شفاء داء الملك وحالات تليف الكبد بلمس أقدامهم، وأن الشفاء كان سحرياً تماماً، فباعتقادهم أن المرض والشفاء كليهما كانا نتيجة الاتصال بشخص الملك أو بشيء يخصه.

وبوجه عام يبدو أن لنا وافر العذر في استنتاجنا أن الملك في أجزاء عدة من العالم هو خلفية الساحر أو الطبيب الدجال من قبل. فحين تنفصل فئة خاصة من المشعوذين عن المجتمع ويعهد إليها بواجبات يعتقد أن السلامة والمصلحة العامة تعتمد عليها، فإنهم يرتقون سلم الثروة والسلطة بسرعة، إلى أن يحتل زعماؤهم مناصب الملوك المقدسين. لكن الثورة الاجتماعية الكبرى التي تبدأ بالديمقراطية وتنتهي بالاستبداد يصحبها ثورة فكرية تؤثر في مفهوم الملكية ووظائفها. فمع مرور الزمن يزداد بروز خرافة السحر أكثر وأكثر بالنسبة إلى العقول المستنيرة ويحل الدين محلها شيئا فشيئا. وبعبارة أخرى، فإن الساحر يتراجع أمام الكاهن، ويتخلى عن محاولة السيطرة على مسارات الطبيعة بصورة مباشرة لمنفعة الإنسان، ويسعى إلى تحقيق الهدف ذاته بطريقة غير مباشرة من خلال الابتهال إلى الآلهة لتحقق له ما لم يعد قادرا على تحقيقه بنفسه. من هنا يميل الملك الذي بدأ ساحراً إلى استبدال ممارسة السحر بالوظائف الكهنوتية مثل الصلوات والقرابين. وفي الوقت الذي يبقى فيه التمييز بين الشر والآلهة ناقصا، يتخيل الناس غالبا أن باستطاعة البشر أنفسهم الوصول إلى الألوهية لا بعد وفاتهم فحسب، بل وهم على قيد الحياة أيضاً، من خلال امتلاك روح عظيمة وقوية لطبيعتهم بأكملها سواء بصفة مؤقتة أو مستديمة. ولم تستفد أية طبقة من طبقات المجتمع من الاعتقاد بإمكانية تجسد الله في هيئة بشر مثلما استفادت منه طبقة الملوك. فعقيدة التجسد ومعها نظرية ألوهية الملوك بالمعنى الحرفي للكلمة ستكون موضوعنا في الفصل التالي.

الطرف المقابل: تشارلز الثاني، ملك إنجلترة، يعتقد أنه لامس مائة ألف شخص لشفائهم من «داء الملك» وهو الاسم الذي يطلق على سل الغدد اللمفاوية. منحوتة للفنان جورج فيرتشو.

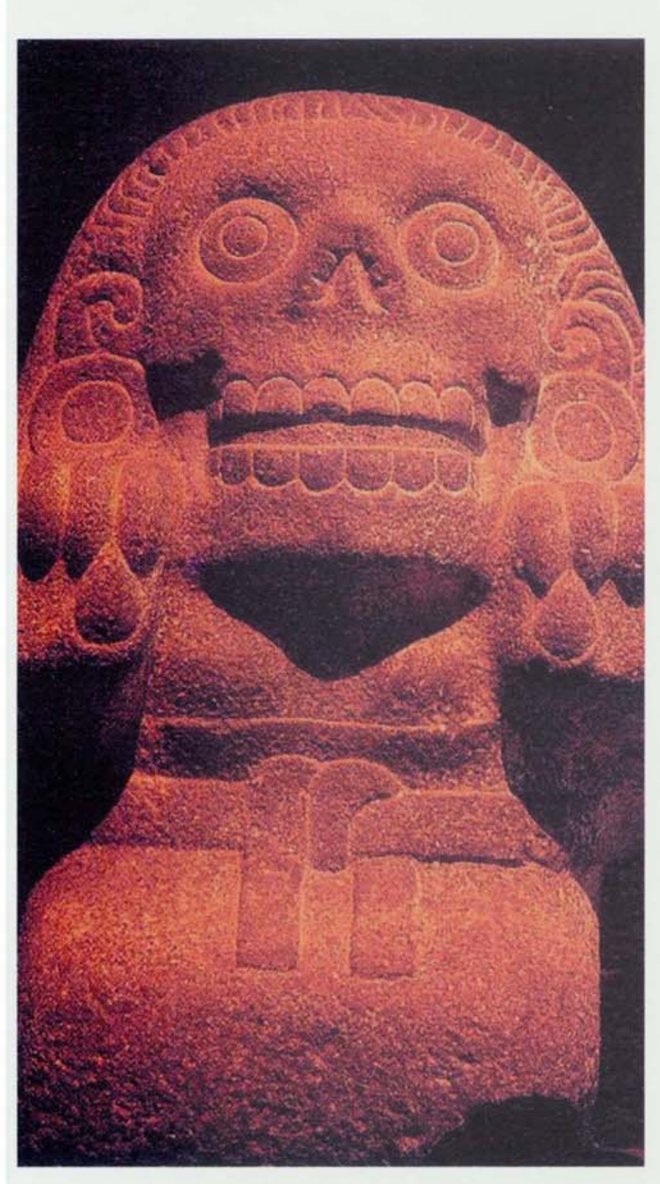
في الأعلى: أيقونة اللمس لملك إنجلترة جورج الثالث، كانت تقدم إلى الذين يلمسهم ليشفيهم من «داء الملك». المتحف البريطاني، لندن.


MON
DROIT
HONI SOIT QUI MAL Y PENSE



الفصل الخامس

الآلهة البشر



في الأعلى: تمثال أزتكي لامرأة مؤلهة قضت في أثناء الوضع. متحف الأنثروبولوجيا القومي، مكسيكو سيتي.

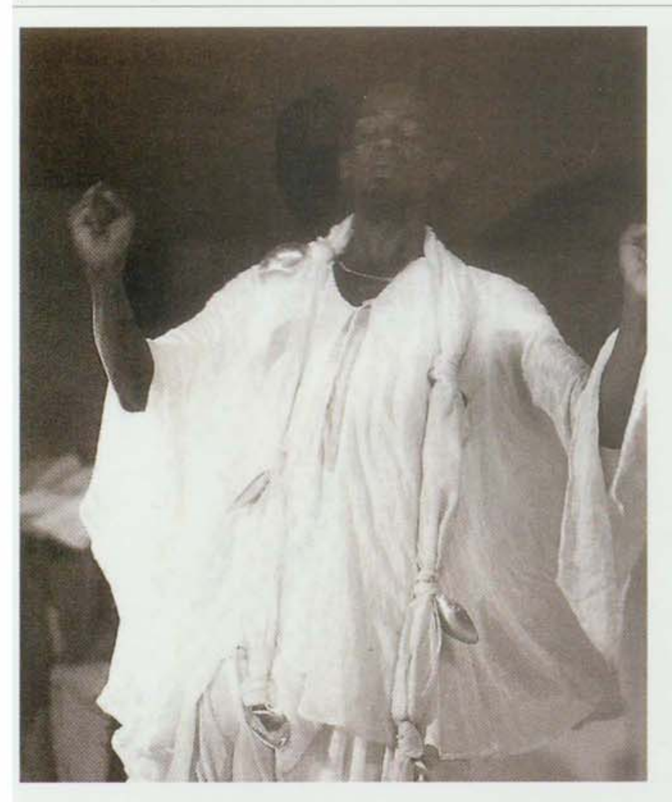
الطرف المقابل: رأس ملك من نلوك يوروبا من أيف، نيجيريا (القرن الرابع عشر أو الخامس عشر). المتحف البريطاني، لندن.

لعل في الأمثلة التي أوردتها في الفصول السابقة والتي استقيتها من معتقدات البدائيين وممارساتهم في شتى أنحاء العالم ما يكفي لإثبات عجز الإنسان البدائي عن إدراك مدى محدودية سيطرته على الطبيعة التي تبدو لنا واضحة جلية. ففي مجتمع يفترض فيه أن يكون لكل فرد قوى ندعوها بالقوى الخارقة، يغدو التميز بين الآلهة والبشر مبهما إلى حد ما، أو بالأحرى نادراً. فمفهوم الآلهة بوصفهم بشراً بقوى خارقة لا مثيل لها كما ونوعا، نشأ شيئا فشيئا عبر التاريخ. فالعناصر الخارقة بالنسبة إلى الشعوب البدائية لا تعد أعلى منزلة من الإنسان بكثير، هذا إن كانت أعلى منه منزلة في الأصل. فالآلهة قد تخاف من الإنسان الذي قد يحملها على تلبية رغباته. وفي هذه المرحلة من تاريخ الفكر يبدو العالم كنظام ديمقراطي كبير؛ كل ما فيه من الكائنات، طبيعية كانت أو خارقة للطبيعة، يفترض أن يقف على قدم المساواة التي يقبلها الجميع. لكن مع تقدم المعرفة، يتضح للإنسان مدى ضخامة الطبيعة وصغره وضعفه إزاءها. لكن إدراك الإنسان لضعفه وقلة حيلته لا يحمل معه في المقابل اعتقادا في عجز هذه الكائنات الخارقة التي تملأ بها مخيلته الكون. بل على العكس، إنها تدعم مفهومه عن قوتها، لأن فكرة العالم بوصفه نظاما من القوى غير الشخصية التي تعمل بموجب قوانين ثابتة لا تتغير لم تخطر بباله لا من قريب ولا من بعيد. ومن المؤكد أن لديه أصل الفكرة، وأنه يتصرف على هذا الأساس، لا في السحر وحسب، بل في كثير من أوجه النشاط في حياته اليومية. لكن الفكرة لا تتطور؛ وفيما يتعلق بمحاولاته تفسير العالم الذي يعيش فيه، فإنه يرى فيه تعبيرا عن الإرادة الواعية والعامل الشخصي. فإذا أحس بضعفه وضآلته فما أعظم وما أقوى الكائنات التي يعتقد أنها تسيطر على آلية الطبيعة الهائلة! وهكذا، ومع اضمحلال شعوره القديم بالمساواة مع الآلهة، يتخلى في الوقت ذاته عن أمله في توجيه مسار الطبيعة بموارده الخاصة غير المدعومة من الخارج، أي بوساطة السحر، وينظر إلى الآلهة بوصفها المصدر الوحيد لهذه القوى الخارقة التي ادعى في يوم من الأيام أنه يشاركها إياها. ومع تقدم المعرفة تحتل الصلوات

والقرابين مكان الصدارة في الطقوس الدينية. أما السحر، الذي احتل في السابق مكانة مساوية، فيتراجع بالتدريج إلى الخلف ويغرق في مستوى المكر الأسود. ويعد الآن تعديا على حدود الآلهة، وفيه تفاهة وفسق تضعه في مواجهة مستمرة مع الكهنة الذين تتعاظم سمعتهم ونفوذهم أو تنحسر تبعا لسمعة آلهتهم ونفوذها. لذلك حين ظهر التميز بين الدين والإيمان بالخرافات في زمن متأخر، كانت القرابين والصلوات مصدر القسم الورع والمستنير من المجتمع، في حين أن السحر كان ملاذ الجهلة المؤمنين بالخرافات. لكن حين انحسر مفهوم قوى العناصر الطبيعية بوصفها عوامل شخصية أمام إدراك القانون الطبيعي؛ عاد السحر القائم على فكرة سلسلة ضرورية وثابتة من الأسباب والنتائج المستقلة عن الإرادة الشخصية، عاد إلى الظهور من جديد بعد الانحسار والذل الذي أصابه، ومن خلال البحث في السلاسل السببية ليمهد الطريق أمام قدوم العلم. فالسيمياء كانت توطئة للكيمياء.

وتعود فكرة الإله البشر، أو الإنسان الخارق، إلى باكورة التاريخ الديني بصفة أساس، حين كان الآلهة والبشر يعدون كائنات من النوع ذاته، وقبل أن يفرق بينهما الوادي السحيق الذي يرى الفكر اللاحق أنه يبعد أحدهما عن الآخر. صحيح أن فكرة تجسد إله بصورة بشر قد تبدو لنا غريبة، إلا أنها لم تكن لتثير دهشة الإنسان القديم الذي لا يرى في الإنسان – الإله، أو الإله – الإنسان سوى درجة أعلى من القوى الخارقة التي ينسبها إلى ذاته بكل نية حسنة. كما أنه لا يميز كثيرا بين الإله والمشعوذ القوي. فآلهته غالبا ما تكون سحرة لا تدركهم الأبصار يمارسون التعاويذ وفنون السحر من وراء حجاب الطبيعة وهو ما يمارسه الساحر البشر بصورة مرئية وجسدية بين أقرانه. وحيث إن الآلهة يتمثلون كما هو معتقد بصورة البشر لعبادهم، فإن من السهولة بمكان للساحر بمعجزاته المفترضة، أن يكتسب صفة الإله المتجسد بصورة البشر. وهكذا نرى الطبيب الدجال، أو الساحر الذي بدأ كمشعوذ بسيط، وهو يرتقي سلم المناصب حتى يصل إلى مرتبة الإله الكامل والملك في آن معا. لكن حين نتحدث عنه بصفته إلها علينا أن نحذر من إقحام تلك الأفكار المعقدة والمجردة في مفهوم الألوهية البدائي والتي نربطها بالعبارة. فالأفكار التي نحملها عن هذا الموضوع العميق هي نتاج تطور أخلاقي وفكري طويل، وهي بعيدة كل البعد عن أن يشاطرنا إياها الإنسان البدائي لعجزه عن فهم أفكار الإنسان المتحضر، مثلما أن قلة من المتحضرين قادرون على فهم أفكار الإنسان البدائي. فإذا استخدم البدائي الكلمة التي تعني عنده الله، فهو يفكر بكائن من نوع مختلف. أما إذا عجز الرجلان كلاهما، وهذا كثيرا ما يحدث، عن إدراك وجهة نظر الآخر، فإن المناقشة بينهما لن تسفر إلا عن لغط وأخطاء مؤكدة. فإذا كنا نحن معشر المتحضرين نصر على أن يقتصر اسم الله على ذلك المفهوم المعين ذي الطبيعة الإلهية الذي شكلناه بأنفسنا، وجب علينا الاعتراف بأنه لا إله للإنسان البدائي على الإطلاق. لكننا نتمسك أكثر بحقائق التاريخ إذا سمحنا لمعظم البدائيين من المرتبة الأعلى بأن تكون لديهم فكرة أولية على الأقل عن كائنات خارقة معينة يمكن أن نطلق عليها اسم آلهة، حتى إن لم يكن ذلك بالمعنى الكامل للكلمة التي نستخدمها نحن. فهذه الفكرة الأولية تمثل على الأغلب النواة التي طورت منها الشعوب المتحضرة تدريجيا مفاهيمها العالية عن الألوهية. ولو استطعنا تتبع المسار الكامل للتطور الديني، رأينا أن السلسلة التي تربط أفكارنا عن الألوهية بأفكار الإنسان البدائي عنها هي سلسلة واحدة لا انقطاع فيها.

وبالنظر إلى هذه التفسيرات والتحذيرات، سأورد الآن بعض الأمثلة عن آلهة كان عبادها يعتقدون أنها مجسدة في أناس أحياء سواء من الرجال أو النساء. أما الذين يعتقدون أن الآلهة مجسدة فيهم فلا يشترط أن يكونوا دائما من الملوك أو أحفادهم؛ فالتجسد قد يحدث في رجال من أدنى المراتب. ففي الهند مثلا، بدأ أحد الآلهة البشر حياته كمبيّض للقطن، وآخر كابن نجار. لذلك لن أحصر أمثلتي في شخصيات ملكية، لأني أريد أن أشرح المبدأ العام لتأليه الرجال الأحياء، أي تمثل إله في هيئة بشر، فمثل هذه الآلهة المتجسدة شائعة في المجتمعات البدائية. وقد يكون التجسد مؤقتا أو أبديا. ففي الحالة الأولى يتمثل التجسد – ويعرف عادة باسم الإيحاء أو التقمص – في شكل معرفة خارقة بدلا من قوة خارقة، أي إن مظاهرها هي العرافة والتنبؤ – بدلا من المعجزات. ومن ناحية أخرى، حين لا يكون التجسد مؤقتا، وحين تستقر الروح الإلهية في جسم بشر بصفة دائمة، ينتظر من الإله – البشر إثبات شخصيته من خلال الإتيان بالمعجزات. وما علينا إلا أن نتذكر أن المعجزات عند أناس لهم ذاك المستوى من التفكير لا تعد أعمالا خارقة للقانون الطبيعي. فعلى اعتبار أن الإنسان البدائي لا يعرف ما هو القانون الطبيعي حتى يعرف الخارق، فإن المعجزة عنده ليست سوى إظهار لقوة عادية بشكل مدهش وغير مألوف. وينتشر الاعتقاد بالتجسد والإيحاء في شتى أنحاء العالم. ويفترض أن يكون بينهم أناس تقمصتهم روح إلهية من وقت إلى آخر. وما دام التقمص مستمرا فإن شخصيتهم الخاصة تكون مغيبة، ويظهر تقمص الروح في شكل رعشات تشنجية واختلاجات في جسم الرجل بالكامل، وفي شكل إشارات ونظرات متهيجة. ولا تعزى هذه كلها إلى الرجل بالذات، بل إلى الروح التي دخلت في جسمه؛ وفي هذه الحالة غير الطبيعية، يقبل الناس كل ما يقوله على أنه صوت الله أو الروح التي بداخله والتي تتكلم بلسانه. وهكذا نرى مثلا في جزر ساندويش [22] أن الملك الذي يتمثل الله فيه تفوه بإجابات الوسيط المختبئ في هيكل مصنوع من الأماليد المجدولة. أما في الجزر الجنوبية من المحيط الهادي فإن الإله «كثيرا ما يدخل جسد الكاهن الذي ينتفخ بالألوهية، ويتوقف عن التصرف أو التكلم بوصفه عاملا إراديا، بل يتحرك ويتكلم كأنه تحت تأثير خارق بشكل كامل. وفي هذا الشأن، هناك تشابه كبير بين الوسطاء البدائيين في بولينيزيا [23] ووسطاء الشعوب اليونانية القديمة.



في الأعلى: طبيب ساحر من نيجيريا في حالة غشية.

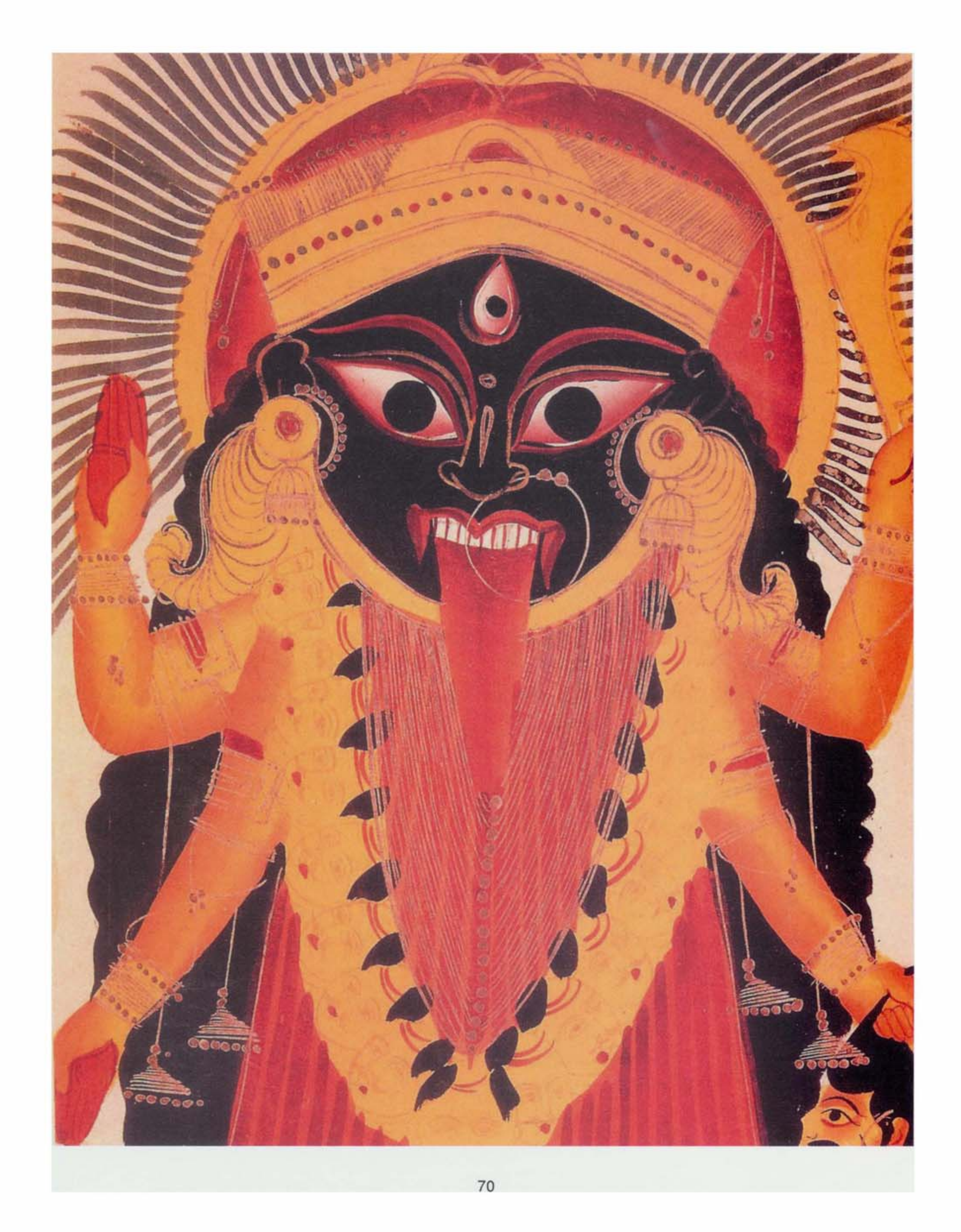
الطرف المقابل: أيقونة ذهبية تحمل صورة كاليجولا، الإمبراطور الروماني بين 37 – 41م. أمر الحاكم المستبد بعبادته كإله. مجموعة خاصة.

فبمجرد الافتراض بأن الإله دخل جسد الكاهن، فإن الكاهن يهتاج بشكل عنيف، ويهيج أحاسيسه إلى أعلى درجات الاهتياج الظاهري، فتتشنج أطرافه، وينتفخ جسمه، ويصبح وجهه مخيفا وملامحه مشوهة وعيناه جاحظتين ومشدودتين. وفي هذه الحال، كثيرا ما يتدحرج على الأرض ويخرج الزبد من فمه كما لو كان يتعرض لتأثير الإله الذي يتقمصه، ثم يبدأ في التلفظ بإرادة الإله بصيحات حادة، وأصوات عنيفة مبهمة على الأغلب. أما الكهنة الذين يراقبون ما يجري ويعرفون الأسرار فيتلقون الأخبار من الوسيط وينقلونها إلى الناس. وبعد أن ينقل الكاهن ردود الوسيط تنحسر أعراض النوبة تدريجيا ويسود هدوء نسبي. لكن الإله لا يترك جسد الإنسان بعد حدوث التواصل مباشرة. فأحيانا يبقى الإله أو الروح في جسد الكاهن ذاته مدة يومين أو ثلاثة أيام. وتدل قطعة قماش محلي ومن نوع خاص تربط على أحد الذراعين على

(22) هي الأرخبيل الذي يعرف باسم هاواي حاليا «المترجم».

(23) تقع بولينيزيا او كما تعرف بولينيزيا الفرنسية في قلب المنطقة الجنوبية الشرقية من المحيط الهادي بين قارتي أمريكا الجنوبية والشمالية وقارة أستراليا كما =

= تعتبر قريبة جدا من بعض العواصم والبلدان المعروفة مثل نيوزيلاندا وهاواي ولوس أنجلوس وسيدني»المترجم».



وجود الوحي أو الإله في جسد الرجل. وتعد أفعال الرجل في تلك الفترة أفعال الإله، لذلك يبدي الناس أقصى درجات الاهتمام بكلماته وتصرفاته. ويعد الكاهن طوال مدة التقمص (أي تحت تأثير الوحي) مقدسا مثل الإله، ويطلق عليه في تلك الفترة اسم أتوا، أي «إله»، مع أن اسمه في الأوقات الأخرى «تورا» أي «كاهن».

لكن أمثلة الإيحاء المؤقت ظاهرة واسعة الانتشار في كل أنحاء العالم، وهي الآن شائعة في كتب علم الأعراق، ولا حاجة بنا لتكرار شروح المبدأ العام. لكن من المفيد أن نذكر حالتين خاصتين من حالات توليد الوحي المؤقت فربما كانتا غير معروفتين مقارنة بالحالات الأخرى. تعتمد إحداهما على إحداث الإيحاء من خلال مص دم طازج لضحية ثم قتلها على سبيل القربان. ففي معبد أبولو ديراديوتيس في أرجوس يذبح حمل في الليل كل شهر، وتتذوق دمه امرأة تلتزم بالعفة، فيتقمصها إله تنطق بلسانه أو تتنبأ بوحي منه. ففي إيجيرا في آتشايا كانت كاهنة الأرض تشرب الدم الطازج من ثور قبل أن تدخل الكهف لتمارس حالة التقمص الروحاني. وهذا ما نراه عند الكورفيك كارات، وهم فئة من صيادي الطير والمتسولين في جنوب الهند، حيث يسود الاعتقاد بأن الربة كالي تهبط على أحد الكهنة لتعطي ردودها من خلاله بعد أن تمص الدم الذي يسيل من عنق عنزة مذبوحة. وفي احتفال تقيمه قبائل المناهاسا في جزر سيليبس الشمالية يسرع أحد الكهنة بجنون إلى الخنزير بعد ذبحه فيدخل رأسه في الذبيحة ليشرب من دمها، قبل أن يجر بالقوة نحو الكرسي ليتابع تنبؤاته. ويعتقد الناس أن له روحا قادرة على التنبؤ.

أما النوع الآخر من توليد الإيحاء المؤقت التي سأذكرها فتتألف من استخدام شجرة أو نبات. فعند الهندوكوش تضرم النيران بكومة من أغصان أشجار الأرز المقدس ثم تستنشق العرافة أو الكاهنة الدخان الكثيف الحارق وقد غطت وجهها بقطعة من القماش إلى أن تنتابها التشنجات وتسقط مغشيا عليها. لكنها سرعان ما تنهض وتبدأ بإطلاق التعويذات فيرددها الحاضرون بصوت عال. وهكذا فإن متنبئة أبولو أكلت الغار المقدس، وتدخنت به قبل أن تصدر نبوءاتها. أما أبناء قبيلة البكانال فيأكلون اللبلاب، ويعتقد بعضهم أن هياجهم المختلق ينشأ عن الخصائص المثيرة والمسكرة لهذا النبات. وفي أوغندة، إذا أراد الكاهن تلقي الوحي الإلهي، دخن غليونا من التبغ بشكل كثيف حتى تنتابه حالة من الهيجان، ويعتبر الناس النبرات العالية المستثارة التي يستعملها في الكلام بعدئذ صوت الإله الذي يتكلم بداخله. وفي مدورا، وهي جزيرة على مقربة من شاطئ جاوة الشمالي، نجد أن لكل روح وسيطها الدائم، وغالبا ما يكون امرأة وليس رجلا، ولكي تعد هذه المرأة نفسها لاستقبال الروح تستنشق البخور من مبخرة تعج بالدخان على رأسها، وتدخل شيئا فشيئا في حالة من الغشية مصحوبة بصيحات وتكشيرات وتشنجات عنيفة. ويفترض الآن أن تكون الروح قد دخلت فيها، فإذا ما عادت إلى هدوئها، ظن الناس أن كلماتها هي كلمات الروح التي تقمصتها لأن روحها غائبة عنها.



في الأعلى: استشارة العرافة اليونانية دلفي. العرافة المتنبئة جالسة على منصبها الثلاثي تحمل غصنا من الغار. لوحة للفنان ج.هـ. فايدا. من تاريخ الأمم.

الطرف المقابل: الإلهة الهندوسية كالي، التي تشرب الدماء من جمجمة بشرية بلسانها المتدلي. متحف فيكتوريا وألبرت، لندن.

ولا يعتقد الناس أن للشخص الموحى إليه معرفة إلهية وحسب، بل يمتلك بين حين وآخر على الأقل، قوة إلهية أيضا. فإذا تفشى داء معين في كمبوديا، اجتمع سكان عدد من القرى وتوجهوا تتقدمهم فرقة موسيقية للبحث عن الرجل الذي يفترض أن الإله المحلي قد اختاره ليتمثل فيه، فإذا عثر عليه أخذ الرجل إلى مذبح الآلهة حيث يحدث التقمص الغامض ليصبح الرجل بعدئذ محل احترام أقرانه الذين يتوسلون إليه لكي يحمي القرية من الوباء. وفي كهف مقدس في هيلاي بالقرب من مغنيزيا [24] تمثال لأبولو كان يعتقد أن باستطاعته أن يمنح الناس قوة خارقة. فالرجال الذين يحظون ببركاته كانوا يقفزون من أعلى الجروف ويقتلعون الأشجار الباسقة من جذورها ثم يحملونها على ظهورهم على أضيق الدروب. أما الاحتفالات التي يؤديها الدراويش وهم في حالة تقمص فتندرج ضمن الفئة ذاتها.

رأينا حتى الآن أن الرجل البدائي بعد أن يكتشف ضعف قدرته على التحكم في الطبيعة ينسب إلى ذاته وإلى سائر الناس قوى بعينها علينا أن ندعوها الآن بالخارقة. كما رأينا فوق هذا الاعتقاد بالقدرة الخارقة، أنه يفترض في بعض الناس أن يتلقوا الوحي لفترات قصيرة من الزمن من روح إلهية، بحيث يتمتعون مؤقتا بالمعرفة والقوة الخارقتين لتلك الروح التي تجسدت فيهم. ومن السهولة بمكان أن نستنتج من مثل هذه المعتقدات كيف أن الآلهة تتقمص أناسا بعينهم باستمرار، وأن بعضهم يتمتعون وبصورة غير معروفة بدرجة عالية من القوى الخارقة تضعهم في مصاف الآلهة وتؤهلهم لتلقي واجبات الولاء والطاعة والصلوات والقرابين. وينحصر نشاط هؤلاء الآلهة البشر أحياناً في وظائف روحانية وخارقة، وقد يمارسون أحيانا سلطة سياسية عليا بالإضافة إلى ذلك. وفي هذه الحال نراهم ملوكاً وآلهة في الوقت عينه، وتكون الحكومة دينية. وهكذا نجد أن في الماركيزا، أو جزر واشنطن، تؤله فئة من الرجال وهم على قيد الحياة. ويفترض أن يكون لهؤلاء القدرة على إظهار قوى خارقة قادرة على التحكم بالعوامل الطبيعية، فهم يمنحون وفرة المحاصيل أو يصيبون الأرض بالعقم؛ وباستطاعتهم أيضا جلب الأمراض أو الموت. ويقدم الناس إلى هؤلاء الرجال القرابين اتقاء غضبهم. وليس هناك كثير منهم، ففي كل جزيرة واحد أو اثنان، وهم يعيشون في عزلة الرهبان،

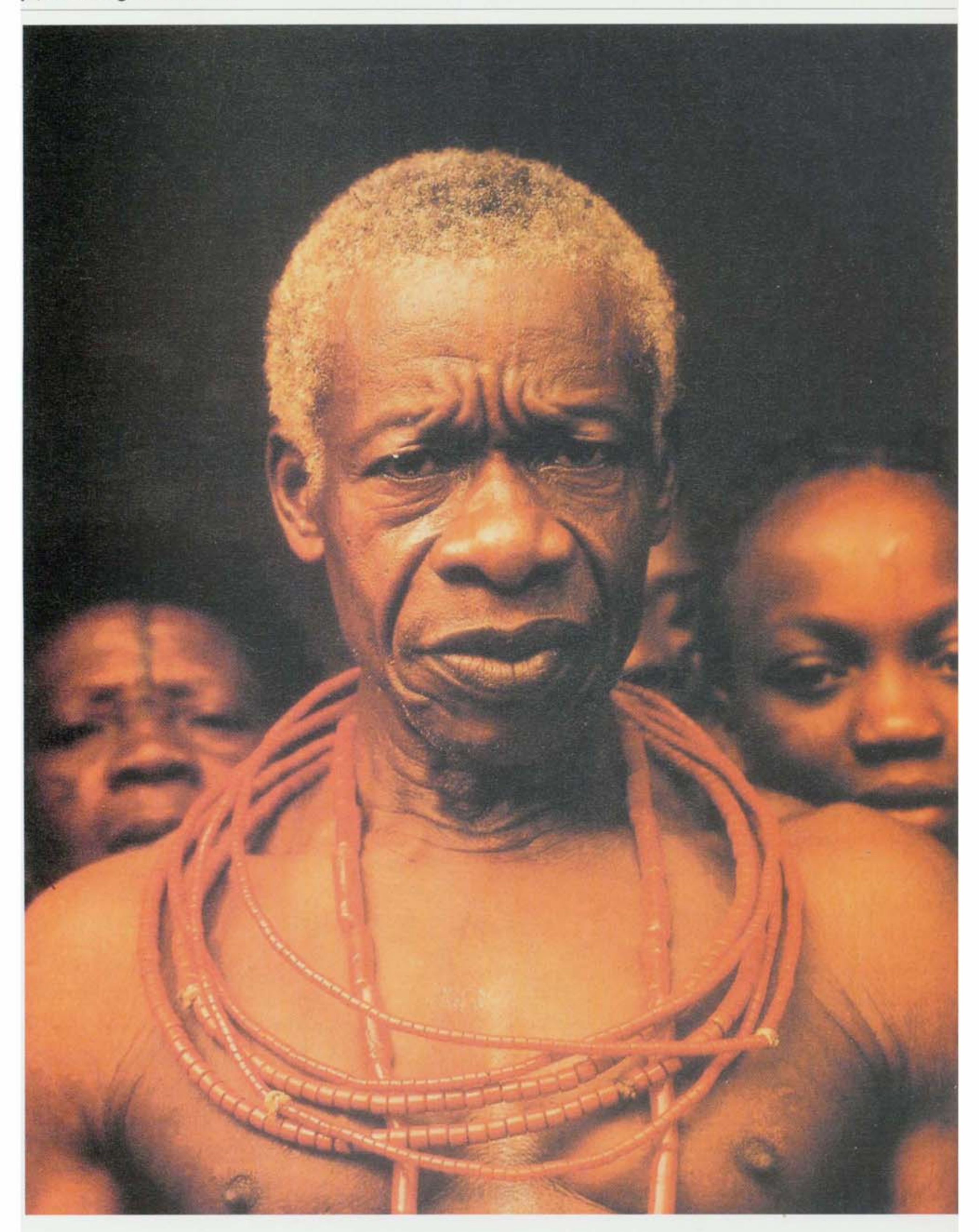
(24) مغنيزيا مدينة في آسية الصغرى، هناك هزم القنصل الروماني لوكيوس كورنيليوس سكيبيون انطيوخس الكبير سنة 189 ق.م. هي اليوم مانيزا في تركيا وتبعد 40 كلم إلى الشمال الشرقي من إزمير «المترجم».

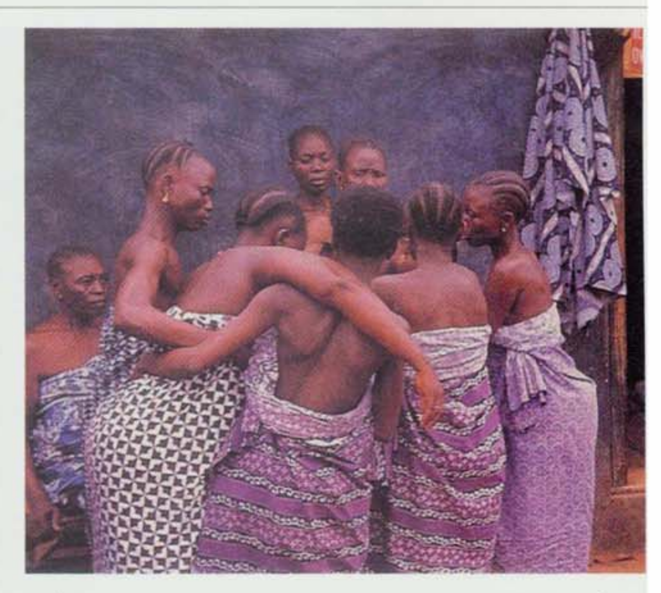


في الأعلى: كانت القرابين البشرية تقدم إرضاء للآلهة. يعتقد أن هذا التمثال الطيني من أيف، نيجيريا يمثل قربانا مسدود الفم. حوالي القرن الثالث عشر. متحف فور فولكركونده، برلين.

الطرف المقابل: في بنين، نيجيريا، يقتصر الحق في لبس الخرز المرجاني على كبار الزعماء فقط.

ويستمدون قواهم من أجدادهم أحيانا وليس دائما. وقد وصف أحد المبشرين هؤلاء الآلهة البشر من ملاحظته الخاصة فقال: إن الإله رجل طاعن في السن يعيش في منزل واسع ضمن فناء مسوّر. وفي المنزل ما يشبه المذبح، وتتدلى من عوارض المنزل ومن الأشجار المحيطة به هياكل عظمية بشرية علقت بالمقلوب. ولا يسمح بالدخول إلى الفناء إلا للمختصين بخدمة الإله. أما العامة فلا يسمح لهم بالولوج إلى الهيكل إلا في أيام معينة عند تقديم القرابين البشرية. ويتلقى الإله البشر القرابين أكثر من سائر الآلهة، وغالبا ما يجلس على سقالة أمام منزله ويطلب أضحيتين أو ثلاثا في آن معا. ويؤتى بها دائما بسبب الرعب الذي يلقيه في قلوب الناس، الذين يتضرعون إليه في جميع أنحاء الجزيرة، ويحملون إليه القرابين من كل مكان. أما في جزء البحر الجنوبي فيقال إن في كل جزيرة رجلا يمثل الإله أو يجسده. ويطلق على هؤلاء الرجال اسم الآلهة، كما تمتزج أجسادهم بجسد الإله. وقد يكون الإله البشر هو الملك ذاته أحيانا، لكنه في معظم الأحيان كاهن أو زعيم تابع.







في الأعلى (في اليسار): مدخل إلى قصر ملك بنين، نيجيريا. يمثل البرج أفعى ضخمة، هي الأصلة ملكة الأفاعي ورسولة الإله أولوكون حاكم البحار. متحف فور فولكركونده، برلين.

في الأعلى (في اليمين): عبدة سوبونو من إفريقيا الذين نوّمهم طبيبهم المشعوذ وهم في طريقهم إلى المنزل طلبا للسلامة.

أما قدماء المصريين، فلم يقتصروا في عبادتهم على القطط والكلاب وما شابهها من المخلوقات الصغيرة، بل عبدوا البشر أيضا. ومن بين أولئك الآلهة البشر واحد كان يعيش في قرية أنابيس وتحرق له الأضاحي على المذبح، وبعد كل أضحية على حد قول بروفيري كان يتناول عشاءه مثله مثل أي إنسان عادي. وتورد كتب التاريخ الكلاسيكية أن إمبيدوقليس الفيلسوف الصقلي لم يكتف بإعلان نفسه ساحراً، بل إلها أيضاً. وقد خاطب مواطنيه في قصيدة شعرية قال فيها:

أيها الأصدقاء، في هذه المدينة العظيمة التي تتسلق المنحدر الأصفر لقلعة أجريجنتوم

يا من منَ العمل الصالح هدفا تتخذون،
يا من إلى الغريب ملاذاً آمناً ومريحاً تمنحون،
تحية لكم جميعا.
بين ظهرانيكم أمشي مزهواً فخوراً،
فأنتم تضعون على رأسي النبيل أكاليل وزهوراً،
فأنا لم أعد إنساناً عادياً، بل إلهاً خالداً،

فحيثما حللت يجتمع الناس حولي ليعبدون
والآلاف طلبا للطريق المستقيم يتبعون،

بعضهم يسعى لامتلاك القدرة على التنبؤ، وبعضهم يئن تحت وطأة المرض والألم فيسر بكلمات تبعث في نفسه الراحة وتزيل عنه السقم.

وأكد أن باستطاعته تعليم تلامذته كيف يجعلون الرياح تهب أو تسكن، والأمطار تهطل، والشمس تسطع، وكيف يتجنبون المرض والشيخوخة، وكيف يحيون الموتى. وحين أعاد ديمتروس بوليور سينس الديمقراطية إلى سكان أثينا عام 307، منح مراسيم شرف هو ووالده أنيتجوس وكان كلاهما على قيد الحياة آنذاك، تحت لقب إلهين مخلّصين. فأنشئت المذابح (جمع مذبح) إكراما للمخلصَيْن (المنقذين)، كما عين كاهن خصيصا لعبادتهما. وتنادى الناس إلى لقاء منقذهم بالترانيم والرقصات، وبالأكاليل والبخور والإراقة (سكب الخمر على القرابين) واصطفوا على جانبي الطرق وأنشدوا بأنه هو الإله الوحيد الحق، لأن الآلهة الأخرى نائمة أو بعيدة أو ليس موجودة أصلا. وتقول كلمات قصيدة كتبها شاعر معاصر آنذاك ترتل في العلن ويغنيها الناس في الخفاء:

من بين الآلهة جاء إلى مدينتنا
أعظمها وأعزها
لأن الزمن أتى بدميتير وديمتريوس معاً.
جاء ليقوم بطقوس العذراء الفظيعة،
وهو مبتهج ضاحك فتان

كما يليق بالإله
وياله من منظر رائع وأصدقاؤه كلهم حوله ملتفون ،
وهو في وسطهم كالشمس
وهم من حوله كالنجوم
ابن بوسايدون القوي، وابن أفروديت،
تباركت أسماؤهم كلها
والآلهة الآخرون بعيداً يسكنون
أو ليس لهم آذان
فهم غائبون، أو لا يكترثون.
لكننا نراك حاضرا
لست إلها من خشب ولا من حجر، بل إله حقيقي.
لذلك فإننا لك نصلي.

أما قدماء الألمان فكانوا يؤمنون بقدسية النساء ويستشيرونهن بوصفهن متحدثات باسم الآلهة. ويقال إن النساء المقدسات كن ينظرن إلى الأنهار الهادرة ويصغين إلى ترقرق الماء أو هديره، ومن المنظر أو الصوت كن يتنبأن بما سيحدث. لكن الرجال كانوا في الغالب يبالغون كما لو كن آلهة حقيقية حية. ففي عهد فسباسيان [25] كانت هناك امرأة تدعى فيلدا من قبيلة بروكتيري تعد إلهة، وتحكم شعبها بتلك الصفة، كما كان القاصي والداني يعترف بسيطرتها. كانت فيلدا تعيش في برج على نهر ليبه، وهو من روافد الراين، وحين أرسل أهل كولونيا وفدا لعقد معاهدة معها، لم يسمح لأعضاء الوفد بمقابلتها، وتمت المفاوضات من خلال كاهن قام بدور المتحدث باسم جلالتها ونقل عباراتها الإلهية. ويبين هذا المثال كم كان من السهل بث أفكار الآلهة والملوك بين أجدادنا البدائيين السذّج. ويقال أيضا إنه كان عند قبائل الغيتا دائما وحتى بداية عهدنا رجل يجسد إلها ويدعوه الناس بالإله. وكان يعيش في جبل مقدس ويعمل مستشاراً للملك.

وتبعاً لما يقوله دوس سانتوس المؤرخ البرتغالي القديم، فإن الزيمبا أو الموزيمبا، وهم سكان شرق إفريقيا، «لا يعبدون الأوثان أو يعترفون بأي إله، لكنهم يجلون ملكهم الذي يعدونه إلها، ويقولون إنه الأعظم والأفضل في العالم. أما الملك ذاته فيقول عن نفسه إنه وحده إله الأرض. فإذا ما هطل المطر حين لا يريده أن يهطل، أو إذا اشتد الحر، أطلق سهامه نحو السماء لعصيان أوامره». أما قبائل

(25) الإمبراطور فسباسيان بدأ حكمه من 22 ديسمبر من العام 69 الميلادي. وهو ابن لوسيوس فيتليوس. له ولد واحد وهو لوسيوس فيتليوس الابن «المترجم».

في الأعلى: حوريات الماء، أو صبايا الراين. آرثر راكم. تصوير للراين والفالكيري. 1910.

الماشونا في جنوب إفريقيا فأخبروا مطرانهم بأنه كان لديهم إله ذات مرة، لكن ماتابيليس طرده. وهذا في الواقع تعبير عن عادة غريبة في بعض القرى يختار بموجبها الناس رجلاً يسمونه ربهم. كان الناس فيما يبدو يطلبون مشورته ويقدمون إليه الهدايا. وكان هناك واحد منها في إحدى القرى التابعة إلى أحد زعماء الماجوندي في قديم الزمان. وطلب إلينا عدم إطلاق نار من مسدساتنا قرب القرية لئلا يهرب من الخوف». وكان إله الماشونا هذا ملتزما بأداء الإتاوة السنوية إلى ملك المتابيلي، وهي أربعة عجول سود ورقصة واحدة. وقد شاهد أحد المبشرين، إلها وهو يؤدي الجزء الأخير من واجباته أمام الكوخ الملكي. فعلى مدى ثلاث ساعات قاتلة، وبدون استراحة، وعلى نقر الدف ورنين الصنوج، ولحن أغنية رتيب، كان الإله الأسمر منهمكا في رقص محموم وهو يثني ركبتيه مثل خياط، ويتصبب عرقا مثل خنزير، ويستدير بخفة تشهد على قوة ساقي جلالته ومرونتهما.

ويؤمن البياجاندا في إفريقيا الوسطى بإله بحيرة نيانزا الذي يتقمص أحياناً جسد رجل أو امرأة. ويخاف جميع الناس، بمن فيهم الملك والزعماء، هذا الإله المتجسد، فحين تتم عملية التقمص الغامضة، يبتعد الرجل، أو بالأحرى الإله، حوالي ميل ونصف عن ضفة البحيرة حيث ينتظر ظهور الهلال الجديد قبل

الشروع بممارسة واجباته الإلهية. ومن لحظة ولادة الهلال الرفيع في السماء، يصبح الملك وسائر رعاياه رهنا لإشارة الرجل الإله، أو لوباري (أي الإله) كما يسمى، الذي يمارس أعلى السلطات، لا في الأمور الدينية والطقسية وحسب، بل في مسائل الحرب وسياسة الدولة، كما يستشار بوصفه وسيطاً يتحدث بلسان الإله. ويستطيع بكلمة منه أن يمرض الناس أو يشفيهم، وأن يمسك الأمطار ويسبب المجاعة. وتقدم إليه الهدايا الثمينة عند الحاجة إلى مشورته. أما زعيم أوروا، وهي إقليم شاسع غربي بحيرة طانجانيقا، «فينسب إلى نفسه خصائص وقوى إلهية، ويتظاهر بالصيام لأيام عدة دون الشعور بالحاجة إلى الطعام؛ ويعلن بأنه فوق الحاجة إلى الطعام لأنه إله، لكنه يأكل ويشرب ويدخن لا لشيء إلا لأن ذلك يبعث في

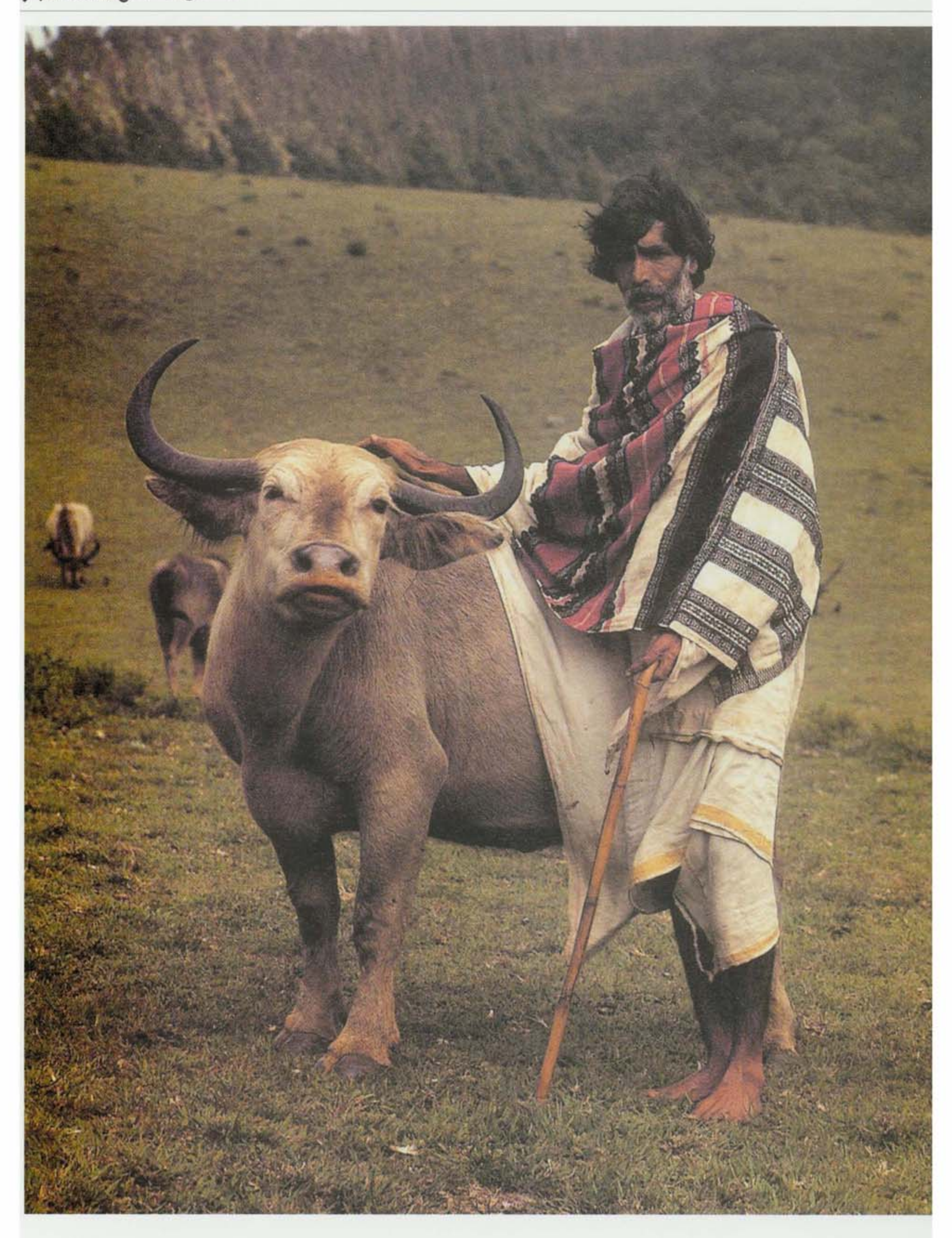
الطرف الأسفل: دراويش يلفون حول أنفسهم من الشرق الأوسط. كان هؤلاء المتصوفون الإسلاميون يؤدون رقصات للوصول إلى الانجذاب الصوفي. من الاحتفالات الدينية، بيكارت، 1731.

الطرف المقابل: كاهن من التودا، وهي قبيلة صغيرة في مرتفعات نلغيري جنوب الهند التي لها آلهتها الخاصة وتنحدر من ثقافة هندية قبل العصر الهندوسي. الكاهن واقف بجانب جاموس مقدس ويرتدي ثوبا مزركشا.

نفسه السرور». وفي قبائل الغالا إذا أحست المرأة بالتعب من أعباء العناية بالمنزل، بدأت بالتحدث بطريقة غير مفهومة وبالمبالغة في تحقير نفسها وهذه علامة على تقمصها من قبل الروح المقدسة كالو. وعلى الفور يسجد لها زوجها ويبدأ بعبادتها؛ فتنزع عن نفسها اسم الزوجة المتواضع وتسمى «سيدة» ولا تعود مسؤولة عن أعباء المنزل، وتصبح رغباتها أوامر إلهية.

أما ملك لوانغا فيعظمه شعبه كما لو كان إلها، ويسمى سامبي بانغو – ومعناها إله. ويؤمن أتباعه بأن باستطاعته أن يأتيهم بالمطر وما شابه ذلك. وفي شهر ديسمبر من كل عام، وهو الوقت الذي تمس فيه الحاجة إلى المطر، يأتي إليه الناس ضارعين لينزله عليهم. وفي هذه المناسبة، يطلق الملك، وهو واقف على عرشه، سهما في الهواء يفترض أنه سيجلب المطر. والشيء عينه ينطبق على ملك مومباسا. فقبل بضع سنين، حين انتهى حكمه الروحاني على الأرض فجأة بوساطة الأسلحة غير الروحانية للبحرية الإنجليزية وجنود المعاطف الزرق، كان ملك بنين المعبود الرئيس في مملكته. « إن مكانته هنا أسمى من مكانة البابا في أوروبا الكاثوليكية، فهو ليس خليفة الإله في الأرض وحسب، بل هو الله ذاته، فرعاياه تطيعه وتعبده على أنه الإله، مع أني أعتقد أنهم يعبدونه خوفاً منه





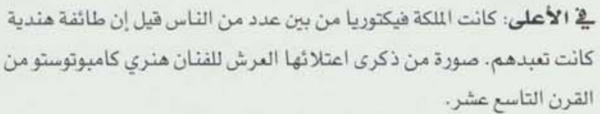


في الأعلى: لوحة هندية تمثل كرشنا، الإله الهندوسي.

لا حبا فيه». وقد أخبر ملك إداه الضباط الإنجليز في حملة النيجر «إن الله خلقني في صورته؛ فأنا مثل الله تماما؛ وهو الذي جعلني ملكاً».

كان في بورما ملك متعطش للدماء اسمه بادونساشن، وكانت سحنته تعكس طبيعته الوحشية المتأصلة فيه، وقد هلك في عهده من البشر على يد الجلاد أكثر مما هلك في المعارك ضد الأعداء. كان هذا الملك يظن أنه شيء أكثر من البشر العاديين، وأنه منح هذه الميزة العالية مكافأة له على صنائعه. وتبعاً لذلك، خلع لقب الملك، وسعى ليجعل نفسه إلها. وتحقيقاً لهذا الهدف، وتقليداً لبوذا الذي هجر نساءه وقصره الملكي وانعزل عن العالم، هجر بادونساشن قصره وسكن في باغودا (أي هيكل) عظيم، وهو الأكبر في إمبراطوريته، إذ استغرق بناؤه سنوات عدة. وهنا كان يعقد مؤتمراته مع أوسع الرهبان علما ويسعى إلى إقناعهم بأن السنوات الخمسة آلاف التي خصصت للالتزام بقانون بوذا قد انقضت الآن، وأنه هو الآن الرب الذي قدر له الظهور بعد تلك الفترة لذلك يجب إلغاء القانون القديم وإحلال قانونه الخاص محله. وكم كانت خيبته أليمة حين تمسك كثير من الكهنة بإظهار العكس. وقد





في الأعلى: كانت الملكة فيكتوريا من بين عدد من الناس قيل إن طائفة هندية كانت تعبدهم. صورة من ذكرى اعتلائها العرش للفنان هنري كامبوتوستو من القرن التاسع عشر.

الطرف المقابل: تلامذة القديس كولومبا (421 – 597م) عبدوه على أنه يجسد المسيح. صورة من الجيش الجرار للفنان ستيفن رايد، لندن، 1912.

عملت خيبة أمله هذه التي اقترنت بحبه للسلطة ونفاذ صبره تحت قيود حياة الزهد على تخليصه من ألوهيته الخيالية وحملته على جناح السرعة إلى قصره ونسائه: أما ملك سيام فيحظى بالتبجيل مثل الآلهة. ويحظر على رعاياه النظر إلى وجهه، فيسجدون أمامه حين يمر ويقابلونه وهم جاثون على ركبهم ومرافقهم على الأرض. «وهناك لغة خاصة مكرسة لشخصه المقدس وصفاته المقدسة يجب على كل من أراد مخاطبته استخدامها. حتى الأهالي يجدون صعوبة في تعلم هذه المفردات الغريبة. وللشعر في رأس الملك، ولأسفل قدميه، وأنفاسه، ولكل جزء من أجزاء جسمه الداخلية والخارجية أسماء خاصة. فحين يأكل أو يشرب أو ينام أو يمشي هناك كلمات خاصة تبين قيام الملك بهذه الأعمال، ولا يمكن استخدام هذه الكلمات على الإطلاق في معرض الكلام عن أي شخص آخر كائنا من كان. فليس في اللغة السيامية كلمة يمكن

أن يوصف بها مخلوق أعلى مرتبة من الملك أو أسمى منه منزلة – وحين يتكلم المبشرون عن الله يجبرون على استخدام الكلمة التي تعني «الملك» عند العامة.

ولعل الهند تأتي في مقدم دول العالم في احتوائها على الآلهة البشر، ولم يحظ مكان آخر بتدفق النعم والبركات الإلهية على جميع فئات المجتمع من الملوك حتى بائعي الحليب مثلما حظي به ذلك البلد. ففي قبيلة تودا، وهي من القبائل الرعوية في تلال نلغوري في جنوب الهند، نجد أن مزارع الحليب ملاذ آمن، وأن القيم عليها يوصف بأنه إله. وحين سئل أحد أولئك الآلهة عما إذا كان أبناء التودا يحيون الشمس، أجاب قائلا: «هؤلاء المساكين يفعلون ذلك، أما أنا..». ثم دق على صدره وقال: «أنا الإله فلم أحيي الشمس؟» ويسجد الجميع لبائع الحليب؛ حتى أبوه، ولا يجرؤ أحد على أن يرفض له طلبا، كما لا يمكن لأحد من البشر أن يلمسه إلا بائع حليب مثله. وهو يقدم الردود الإلهية لكل من يطلبها، فهو يتكلم بصوت إله!

وفي الهند أيضاً «يكاد كل ملك من الملوك أن يكون إلهاً حاضراً». أما كتاب القانون عند الهندوس الذي يسمى مانو فيذهب إلى أبعد من ذلك إذ يقول: «حتى الطفل الرضيع يجب ألا يحتقر لمجرد أنه بشر، فهو إله عظيم في صورة بشر!» وقد قيل إن في أوريسا فئة معينة كانت منذ سنوات عدة تعبد الملكة الراحلة فكتوريا حين كانت على قيد الحياة بوصفها كبيرة الآلهة عندهم. وحتى الآن نرى في الهند أن جميع الأحياء ممن يتمتعون بشهرة واسعة بسبب قوتهم أو شجاعتهم أو قواهم التي يفترض أن تكون خارقة معرضون لخطر أن يعبدوا بوصفهم آلهة. وهكذا ترى أن فئة دينية معينة في البنجاب كانت تعبد إلها أسموه نيكال سن. ونيكال سن هذا لم يكن سوى الجنرال نيكلسون المهيب، ولم يكن بوسع الجنرال أن يقول أو يفعل شيئا يخفف من شدة حماسة عباده. فكلما أمعن في عقابهم ازدادوا خوفاً منه، وتعاظمت الرهبة الدينية التي عبدوه بها. وفي بينارس، ومنذ زمن ليس ببعيد، تجسد إله في شخصية رجل هندوسي راق يعرف باسم سوامي باسكاراناناداجي ساراسواتي، وكان يشبه الكاردينال الراحل مانينغ إلى درجة كبيرة لكنه كان يفوقه صراحة وسذاجة. كانت عيناه تشع ببريق الاهتمام البشري الطيب، وكان يشعر بسعادة بريئة في التبجيل الذي يحيطه عباده الواثقين به، على حد تعبيره.

وفي تشنتشفاد، وهي بلدة صغيرة تبعد عشرة أميال عن بونا في غرب الهند، يعتقد جزء كبير من المهاراتا أن أحد أفراد أسرة معينة في كل جيل من الأجيال تجسيد للإله جونبوتي الذي له رأس فيل. وقد اكتسى الإله الشهير لحما للمرة الأولى في حوالي 1640



في شخص براهما بوناوي اسمه مورابا جوسين الذي سعى إلى الوصول إلى الخلاص بالابتعاد عن النساء، والزهد والتقشف، والصلاة. وقد آتت تقواه أكلها. فقد جاءه الرب ذاته في رؤية رآها فيما يرى النائم، وبشره بأن جزءا من روحه – أي روح جونبوتي الإلهية – سوف تتقمص شخصيته وشخصية ذريته من بعده حتى الجيل السابع. وقد تحققت رؤياه تلك، إذ بعثت سبعة تجسيدات متتالية توارثها الأبناء عن الآباء بنور جونبوتي إلى عالم مظلم. أما آخر ذريته المباشرة، وكان إلها ضعيف العينين، فقد مات عام 1810. لكن قداسة الحقيقة، وعظمة قيمة أملاك الكنسية منعت البراهما من التفكير جديا بالخسارة الفادحة التي ستلحق بعالم يجهل جونبوتي. وهذا ما جعلهم يسعون إلى العثور على جسد يمكن للروح الإلهية أن تتجسد فيه من جديد. ولم ينقطع الوحي عن تقمص سلسلة من الأجساد منذ ذلك التاريخ حتى الآن. لكن

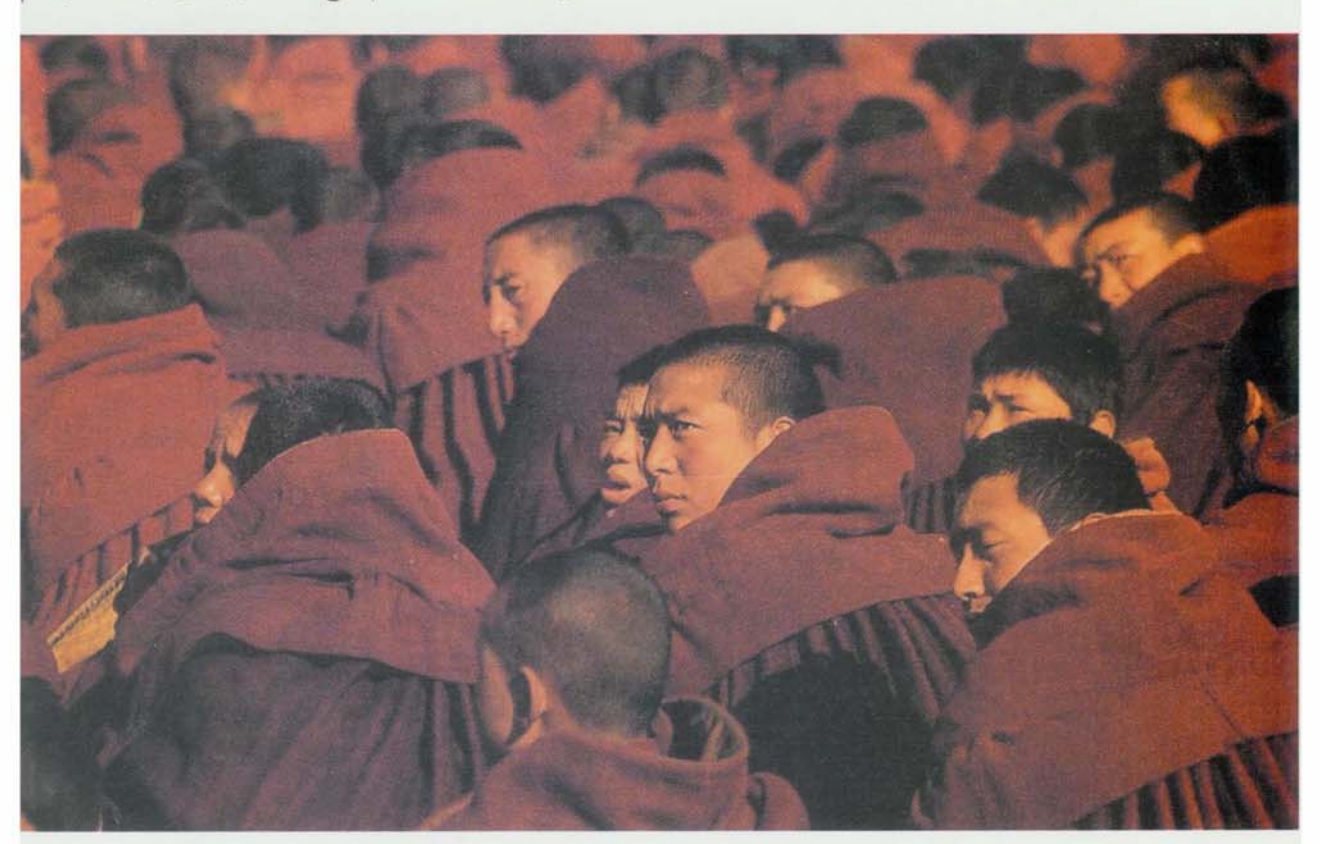
الطرف المقابل: كثير من الطوائف المسيحية اعتقدت أن المسيح مجسد في جسد كل مسيحي. المسيح على صليب مزهر للفنان هاري كلارك.

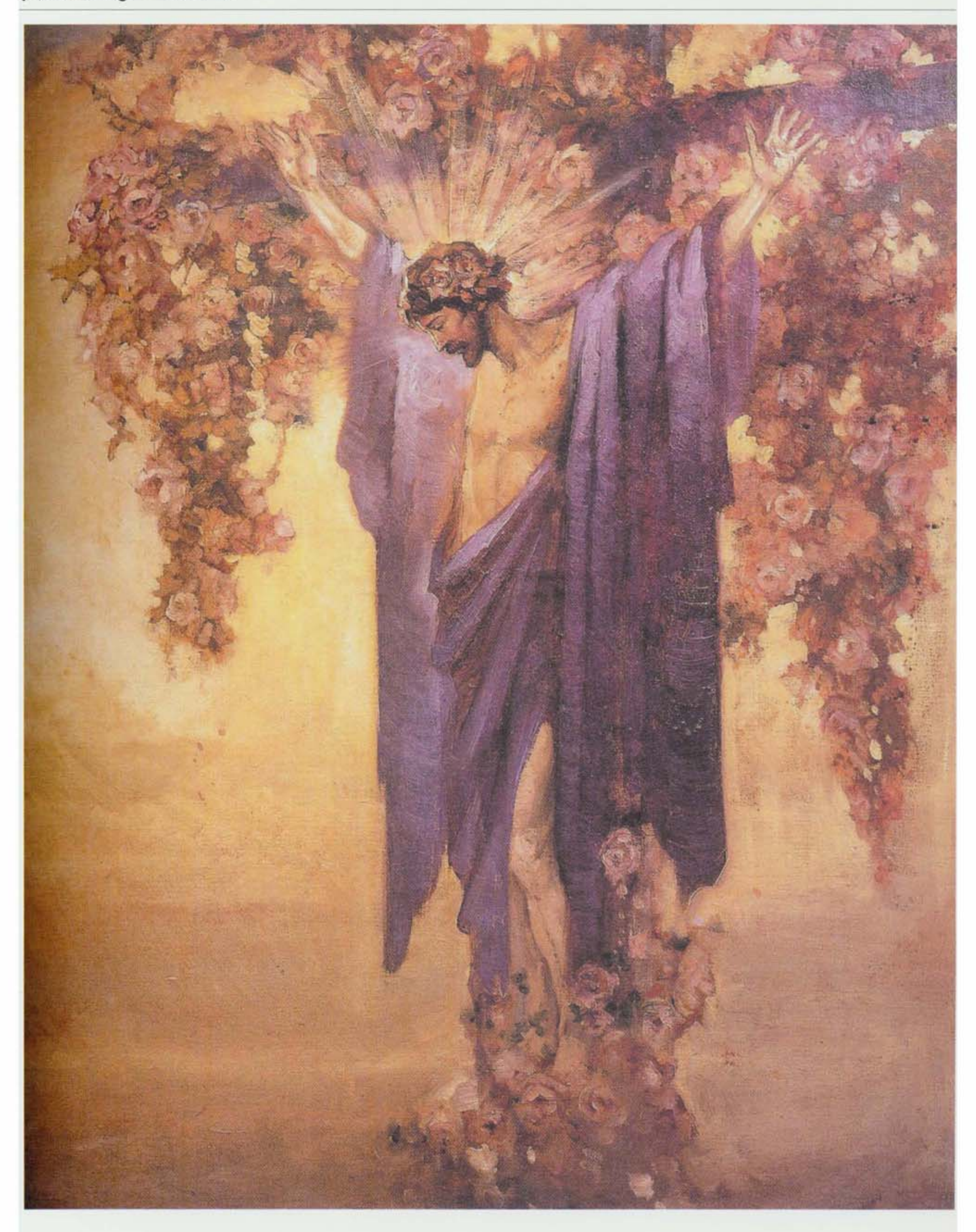
في الأسفل: رهبان بوذيون من التبت في دير لابرونغ، الصين. يعد الدالي لاما في لهاسا إلها حيا، يتجسد عند موته في هيئة طفل.

ثمة قانون غامض في الاقتصاد الروحاني، يؤسفنا عمله في تاريخ الدين لكن لا حيلة لنا بتغييره، نص على أن المعجزات التي يأتى بها الإله البشر في هذه الأيام المنحطة لا تقارن بتلك التي أتى بها أجداده في الأيام الخوالي. ويقال أيضا إن المعجزة الوحيدة التي تكرم بها على الجيل الحالي من العباد هي معجزة إطعام الجموع التي يدعوها إلى العشاء سنويا في تشنتشفاد.

وتؤمن فئة هندوسية لها الكثير من الأتباع في بومباي وفي وسط الهند بأن زعماءها الروحيين المعروفين بالمهراجا يمثلون أو يجسدون فعليا الإله كريشنا على الأرض. وحيث إن كريشنا ينظر من السماء بعين العطف على هؤلاء باعتبارهم ممثلين لرغبات خلفائه ووكلائه فقد تم تأسيس طقس غريب يعرف بتكريس الذات يهب بموجبه عباده المخلصون أبدانهم وأرواحهم، وما يملكون من متع الدنيا، وهذا هو الأهم، إلى المعبودين الذين يتجسد في أجسادهم، وتلقن النساء أن أسمى درجات البركة التي يمكن أن يحصلن عليها هن وعائلاتهن لا تتم إلا بالاستجابة إلى عناق أولئك الذين تتعايش الطبيعة الإلهية في أجسادهم بصورة غامضة مع الشكل الحقيقي للبشرية وحتى مع شهواتها.

حتى المسيحية ذاتها لم تنج كلية من التلوث بهذه الأوهام







التعيسة، إذ تلوثت بالفعل بتجاوزات من يدعون كذباً أن لهم صفة إلهية تعادل صفة خالقها أو تفوقها. ففي القرن الثاني ادعى مونتانوس الفريجياني أنه تجسيد للثالوث المقدس، أي إنه يضم في جسده الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس. وليست هذه حالة فردية، أوجدها شطط عقل منحرف وحيد. فمنذ أقدم العصور وحتى اليوم، آمنت طوائف كثيرة بأن المسيح، بل الله ذاته، مجسد في كل مسيحي كامل الإيمان، وقد أدى إيمانهم بهذا إلى نتيجة منطقية جعلتهم يعبدون بعضهم بعضاً. ويذكر تيرتوليان بأن أقرانه المسيحيين كانوا يمارسون هذه العبادة في قرطاجة في القرن الثاني، كما أن تلامذة القديس كولومبا عبدوه بوصفه تجسيدا للمسيح. وفي القرن الثامن يحدث إيباندوس الطليطلي عن المسيح بوصفه «إلها من بين الآلهة» بمعنى أن كل المؤمنين هم آلهة مثلهم مثل يسوع بالذات. وكانت عبادة كل فرد للآخر منتشرة بين الألبجين كما لوحظت مئات المرات في سجلات محاكم التفتيش في طولوز في أوائل القرن الرابع عشر.

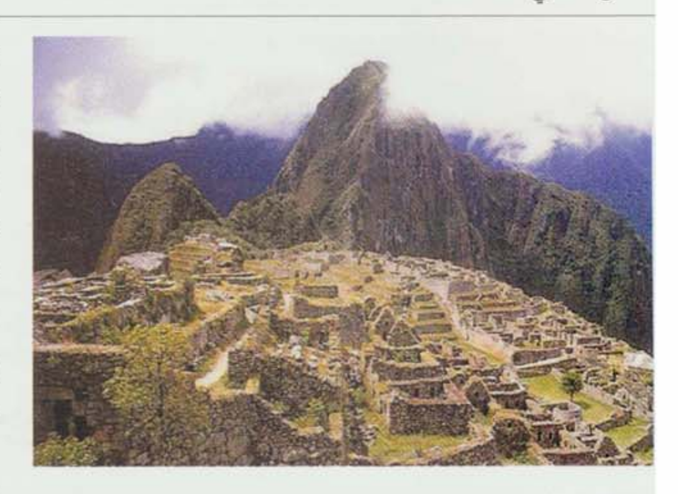
وظهرت في القرن الثالث عشر فئة دينية أطلقت على نفسها اسم أخوة الروح الحرة وأخواتها؛ كانت تؤمن بأن باستطاعة الإنسان من خلال المواظبة على التأمل العميق أن يحقق التلاحم الحتمي مع الله، وأن يصبح واحدا مع أصل الأشياء ووالدها، وأن من يرتقي إلى الله بهذه الطريقة ويمتزج بجوهره البهيج يصبح جزءا منه، وابنا له مثل المسيح بالذات، وبذلك يتمتع بحصانة مجيدة من قيود القوانين بلا استثناء بشرية أم إلهية. وهكذا نرى كيف يتنقل أتباع هذه الفئة من مكان إلى آخر بملابسهم الغريبة، يتسولون لقمة العيش بصياح وصخب، ويزدرون كل ألوان العمل الشريف لأنه عقبة في طريق التأمل الإلهي والارتقاء بالروح إلى مرتبة أبي الأرواح مدفوعين بهذا الإيمان المبارك الكامن في نفوسهم، مع أن مظهرهم الخارجي وسلوكهم ينم عن الجنون والاضطراب. وفي كل تنقلاتهم كانت تتبعهم النساء اللواتي كن يعشن معهم في أسمى مظاهر وحدة الحال. أما اللواتي تخيلن أنهن حققن أسمى درجات الكفاءة في الحياة الروحية فإنهن يتخلين عن كامل ملابسهن في تجمعاتهن، ويرين الحشمة والتواضع من سمات الفساد الداخلي ومن صفات روح ما زالت ترزح تحت وطأة الجسد ولم تسم إلى درجة التواصل مع الروح الإلهية التي هي مركزها وأصلها. كان هذا التقدم نحو التواصل الصوفي يتسارع أحياناً من خلال محاكم التفتيش، وكانت تلك النسوة يمتن حرقاً، لا في طمأنينة مكشوفة وحسب، بل في أقصى درجات الإحساس بالظفر والسرور.

في حوالي عام 1830، ظهر في إحدى الولايات الأمريكية وعلى حدود كنتكي، مدع أعلن أنه ابن الله ومخلص البشرية، وأنه ظهر على الأرض ليدعو العصاة والكفرة والمذنبين إلى القيام بواجباتهم. وحذرهم قائلا إنهم إذا لم يرجعوا إلى الصراط المستقيم في فترة معينة، فإنه سيعطي الإشارة؛ عندها وفي لحظة واحدة يصبح العالم قاعا صفصفا. وقد لاقت هذه الادعاءات المفرطة قبولاً حسناً من قبل الأثرياء أصحاب النفوذ في المجتمع. وفي نهاية المطاف توسل أحد الألمان بانكسار إلى المسيح الجديد أن يعلن نبأ الكارثة المحدقة إلى أبناء وطنه باللغة الألمانية لأنهم لا يفهمون الإنجليزية، ولأن من المؤسف حقاً أن يلحق بهم العذاب بسبب اللغة. لكن المخلص المرتقب اعترف وبكل أمانة بأنه لا يعرف الألمانية! فرد الألماني قائلا: «ماذا تقول؟ أنت ابن الله ولا تتكلم كل اللغات، ولا تعرف حتى الألمانية؟ أنت محتال ومنافق ومجنون ومكانك مستشفى المجانين». فضحك جمهور الحاضرين وانصرفوا إلى شؤونهم خجلين من سذاجتهم.

وإذا مات رجل كانت تتقمصه روح الإله، هاجرت الروح الإلهية لتتقمص غيره. فالتتار البوذيون يؤمنون بوجود عدد كبير من

الطرف المقابل: كان ملوك مصر يؤلهون في حياتهم، ويدفنون باحتفالات ضخمة لتهيئتهم للآخرة. هذا القناع الجنائزي للفرعون بسوسنيس Psusennes الأول مطعم باللازورد والزجاج الأبيض والأسود. المتحف المصري الوطني، القاهرة.

في الأعلى: كبش صيدَ في غابة. منصة لتقديم القرابين مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ربما كانت رمزا للخصب. من المقبرة الملكية في أور، العراق، حوالي 2600 ق.م. المتحف البريطاني، لندن.



في الأعلى: موقع ماتشو بيتشو وهي مدينة قديمة من مدن الإنكا في جبال الأنديز في البيرو. كان الإنكا يعتقدون أنهم من أحفاد الشمس التي كانت محور عبادتهم.

الطرف المقابل: جماعة من هنود الكويتشوا في جبال الأنديز بالبيرو يحتفلون بعيد الشمس.

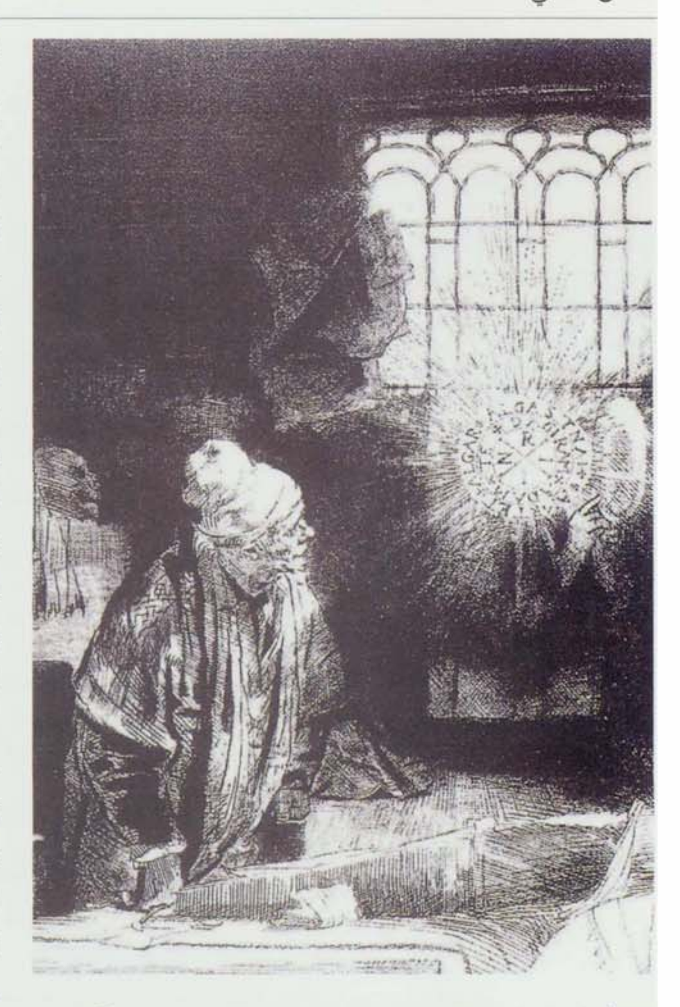
«بوذات» على قيد الحياة الذين يؤدون واجبات كبار اللاما في رئاسة أهم الأديرة. فإذا مات أحد هؤلاء اللاما الكبار لم يحزن تلامذته لوفاته لعلمهم بأنه سيعود للظهور من جديد ويولد في هيئة طفل. ويتمثل همهم الوحيد في معرفة مكان ولادته. فإذا رأوا قوس قزح في ذلك الوقت، حسبوه علامة أرسلها إليهم اللاما المتوفى ليرشدهم إلى مهده. وقد يكشف الطفل الإله أحياناً عن شخصيته فيقول: «أنا اللاما الأكبر، بوذا الحي من هذا المعبد أو ذاك. خذوني إلى ديري القديم، فأنا رئيسه الخالد». ومهما كانت طريقة الكشف عن مكان ولادة البوذا الجديد، سواء أكان من خلال تصريحه هو أو من خلال علامة في السماء، فإن الخيام تنصب، وينطلق الحجاج يغمرهم السرور، وعلى رأسهم الملك أو أحد كبار الأسرة المالكة للعثور على الطفل الإله والعودة به إلى موطنه. وبصفة عامة يولد الطفل الإله في التيبت – الأرض المقدسة. وكثيراً ما يتوجب على القافلة أن تعبر أقسى أنواع الصحارى للوصول إليه. فإذا عثروا على الطفل في نهاية المطاف، سجدوا له وعبدوه. لكن قبل الاعتراف به على أنه اللاما الأكبر الذي يحثون عنه، لا بد له من إقناعهم بشخصيته. فيسألونه عن اسم الدير الذي يدعي أنه يترأسه، وكم يبعد عنهم، وما عدد الرهبان الذين يعيشون فيه، وعليه أيضا أن يصف عادات اللاما المتوفى وكيف مات. ثم توضع أمامه أشياء مختلفة مثل كتب الصلاة، وأباريق الشاي، والكؤوس وعليه أن يشير إلى الوعاء الذي كان يستعمله في حياته السابقة.

فإذا فعل ذلك دونما خطأ، قبلت ادعاءاته وحمل مزهوا إلى الدير. ويرأس جميع اللاما الدالي لاما ومقره لاسا وهي في التبت بمثابة روما في العالم المسيحي. ويعد الدالي لاما إلهاً حياً، وحين يموت تولد روحه الخالدة من جديد في طفل آخر. وطبقاً لبعض الروايات فإن طريقة اكتشاف الدالي لاما شبيهة بالطريقة التي وضعناها للتو لاكتشاف اللاما الأكبر العادي. لكن رواية أخرى تتحدث عن انتخاب يتم بالقرعة من وعاء ذهبي. وحيث يولد، تزهو الأشجار بأوراقها الخضر، وتتفتح الزهور بأمره وتمتلئ الينابيع بالمياه وبحضوره تعم بركات السماء.

لكن الدالي لاما ليس الرجل الوحيد الذي يقوم مقام الإله في هذه المناطق. فهناك سجل دونت فيه أسماء الآلهة في الإمبرطورية الصينية محفوظ في وزارة المستعمرات في بكين. ويبلغ عدد الآلهة الذين حصلوا على تصاريح بهذه الطريقة 160 إلها. وتتمتع التبت ببركة 30 منهم، وشمال منغوليا بتسعة عشر، بينما تنعم منغوليا الجنوبية بأشعة الشمس بفضل ما لا يقل عن 57 منهم. أما الحكومة الصينية فتمنع الآلهة المسجلين من أن يولدوا مجددا في أية بقعة غير التبت إمعانا منها في توفير الرعاية الأبوية لمواطنيها. فالحكومة الصينية تخشى أن تؤدي ولادة الإله في منغوليا إلى نتائج سياسية خطيرة من خلال تحريك المشاعر الوطنية الكامنة والروح القتالية عند المغول الذين قد يلتفون حول إله طموح منهم ينحدر من سلالة ملكية، ويسعى إلى كسب مملكة دنيوية وروحية بحد السيف. لكن بالإضافة إلى هؤلاء الآلهة المصرح لهم رسمياً، هناك عدد كبير من صغار الآلهة على الصعيد الخاص، أو من ممارسي مهنة الألوهية بدون ترخيص الذين يأتون بالمعجزات ويباركون الناس في الجحور والزوايا. وفي السنوات الأخيرة، تغاضت الحكومة الصينية عن الولادة الجديدة لهؤلاء الآلهة التافهين خارج التبت. لكن ما إن يولدوا حتى تراقبهم الحكومة مثلما تراقب الآلهة المنتظمين المسجلين لديها، فإذا ما أساء أحدهم التصرف، خفضت رتبته، ونفي إلى دير ناء، ومنع منعا باتا من أن يولد من جديد في هيئة بشر.

تبين لنا عملية المسح التي أجريناها للمركز الديني الذي يحتله الملك في المجتمعات البدائية أن ادعاء الألوهية وامتلاك قوى خارقة من قبل ملوك إمبراطوريات تاريخية عظيمة مثل تلك التي نشأت في مصر والمكسيك والبيرو لم يأت نتيجة الشعور بالعظمة ولم يكن وليد تعبير فارغ عن التملق و التذلل وحسب، بل كان استمرارا وامتدادا لتأليه الملوك الأحياء جرياً على العادة





في الأعلى: ساحر من القرن السابع عشر، ربما يمثل فاوست، يحمل مرآة سحرية. حفر للفنان رامبرانت، حوالي 1650. المتحف البريطاني، لندن.

الطرف المقابل: «إطعام الطيور المقدسة في قاعات الكرنك». نحت للفنان جوبير، 1874، من لوحة للفنان ي. جي. بوينتر.

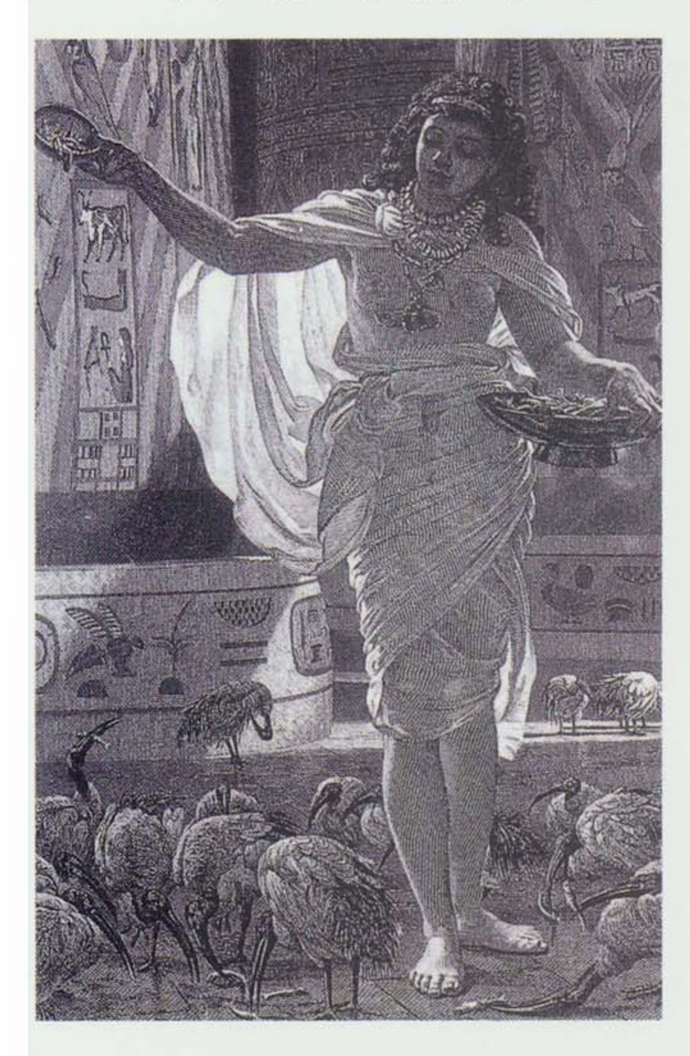
القديمة عند الشعوب البدائية. فعلى سبيل المثال، كان الإنكا في البيرو، بصفتهم أبناء الشمس، يعامَلون معاملة الآلهة. فهم معصومون من الأخطاء، ولا يمكن أن يخطر ببال أحد أن يلحق إهانة بشخص الملك أو شرفه أو ممتلكاته أو بأي فرد من أفراد الأسرة المالكة. وهنا أيضا نرى أن الإنكا لم يروا في المرض شرا كما يراه معظم الناس، بل رأوا فيه رسولا أرسله إليهم أبوهم الشمس يدعوهم إليه ليرتاحوا معه في السماء. لذلك فإن الكلمات المألوفة التي يعبر فيها أحد أفراد الإنكا عن دنو أجله كانت: «أبي يدعوني إليه لأستريح بجواره». ولا يعارض الإنكا مشيئة أبيهم وهم يقدمون القرابين للشفاء، لكنهم يعلنون أنه دعاهم إلى كنفه للراحة. ومن الوديان الحارقة إلى السهول المنبسطة المرتفعة في جبال الأنديز الكولومبية، دهش المحتلون الإسبان حين رأوا أن الناس يتمتعون بدرجة لا بأس بها من الحضارة، على عكس القبائل البدائية التي تركوها في الغابات الحارة في الأسفل؛ فقد كان الناس في تلك السهول يمارسون الزراعة ويعيشون في ظل حكومة قارنها همبولدت بالحكومات الدينية في التيبت واليابان. كانت تلك جماعات التشبتشا، والمويسكا أو الموزكا التي تنقسم إلى مملكتين عاصمتاهما بوغوتا وتونجا، لكنهما متحدتان على ما يبدو في الولاء الديني إلى الحبر الأعظم سوغا بوزو أو إيراكا. فمن خلال فترة طويلة من الرهبانية والتقشف، عرف عن هذا الحاكم المجهول أنه اكتسب من القدسية ما جعل المياه والأمطار تستجيب لطاعته، والطقس ينحني لإرادته. ويقسم ملوك المكسيك عند اعتلائهم العرش على جعل الشمس تسطع، والأمطار تهطل، والماء يتدفق في الأنهار، والأرض تطرح ثمارها الوفيرة. ويقال إن الناس عبدوا مونتيزوما، آخر ملوك المكسيك بصفته إلها.

أما أوائل ملوك بابل من زمن سرغون الأول إلى الأسرة الرابعة في أور أو حتى بعدها، فكانوا يدّعون الألوهية في حياتهم. فقد كانت لملوك أور من الأسرة الرابعة على وجه الخصوص معابد بنيت على شرفهم، كما أقاموا التماثيل في مختلف الأديرة، وأمروا الناس بتقديم القرابين لها. وكان الشهر الثامن بالذات مخصصا للملوك، ففيه تقدم لهم القرابين في أول كل شهر وفي اليوم الخامس عشر منه. وبالمثل نجد أن الملوك البارثيين من الأسرة الأرساسية ادعوا بأنهم إخوة الشمس والقمر وعبدهم الناس بهذه الصفة. وكان من المحرم ضرب أي فرد من أفراد الأسرة الأرساسية كائنا من كان عند نشوب شجار.

أما في مصر فكان الناس يؤلهون ملوكهم في حياتهم، ويقدمون إليهم القرابين. وكان كهنة معينون يؤدون طقوس عبادتهم في معابد خاصة، كما كانت عبادة الملوك تطغى بالفعل أحيانا على عبادة الآلهة. ففي عهد ميرينرا أعلن أحد كبار المسؤولين أنه بنى أماكن مقدسة يمكن فيها استحضار أرواح الملك – ميرينرا الخالد – «أكثر من سائر الآلهة». ولم يشك أحد على الإطلاق في أن الملك ادعى الألوهية الفعلية. فقد كان الإله الأعظم، وحورس الذهبي، وابن رع. وادعى أن له سلطة لا على مصر وحسب، بل على سائر الأراضي، والأمم، والعالم بطوله وعرضه، شرقه وغربه، وعلى محيط مدار الشمس العظيم، وعلى السماء وما فيها والأرض وما عليها، وعلى كل دابة تسير على ساقين أو أربع، وكل ما يطير أو

يرفرف، فالعالم كله يقدم منتجاته إليه. فكل ما هو مؤكد عند إله الشمس يمكن توكيده عند ملك مصر بشكل جازم. فألقابه مستمدة بشكل مباشر من ألقاب إله الشمس. ويقال: «إن ملك مصر في فترة حياته يستهلك كل مفاهيم الألوهية الممكنة التي صاغها المصريون أنفسهم. فعلى اعتبار أنه مخلوق خارق للطبيعة بحكم ولادته وانتمائه للأسرة الملكية، فإنه يؤله بعد مماته. لذا فإن كل ما عرف عن الألوهية ملخص فيه».

بهذا نكون قد أتممنا صورتنا الأولية، وهي ليست سوى صورة أولية لنشوء مفهوم الملكية المقدس الذي بلغ أسمى صوره، وأكثرها تجردا في ملكيات بيرو ومصر. ومن الناحية التاريخية، يبدو أن هذا التقليد ظهر بين صفوف السحرة والأطباء المشعوذين والدجالين؛ أما من الناحية المنطقية فإنه يعتمد على استنتاج خاطئ من ربط بعض الأفكار ببعض. فقد خلط الناس بين تنظيم أفكارهم وتنظيم الطبيعة فتخيلوا أن السيطرة التي يملكونها، أو يبدو أنهم يملكونها على أفكارهم، تسمح لهم بممارسة سيطرة مماثلة على الأشياء. فالرجال الذين يفترض أنهم يتمتعون بأقصى درجات هذه القوى السحرية لسبب من الأسباب أو بسبب قوة أجزائهم الطبيعية أو ضعفها، تميزوا تدريجيا عن أقرانهم، وشكلوا فئة مستقلة قدر لها أن تمارس تأثيرا كبيرا في التطور السياسي والديني والفكري للبشرية. فالتقدم الاجتماعي، كما نعلم، يتألف أساسا من التميز المتتالي للوظائف، أو بعبارة بسيطة، من تقسيم العمل. فالعمل الذي يقوم به سائر الناس في المجتمعات البدائية وبالدرجة ذاتها من عدم الكفاءة، يتوزع تدريجيا بين مختلف فئات العمال، ويخرج بصورة أفضل. وما دام الجميع مشتركين في المنتجات المهمة وغير المهمة لهذا العمل المتخصص فإن المجتمع بأكمله يستفيد من التخصص المتزايد. ويبدو أن السحرة والدجالين هم أقدم الفئات المحترفة في تطور المجتمعات. فالمشعوذون موجودون في كل قبيلة بدائية نعرفها، وهم الفئة الوحيدة من المحترفين الموجودة بين أكثر الناس بدائية مثل سكان أستراليا الأصليين. وبمرور الوقت، ومع تقدم عملية التميز، تنقسم فئة الدجالين ذاتها إلى فئات فرعية مثل معالجي الأمراض، والمستمطرين، وغيرهم، وفي الوقت الذي يكسب فيه أقوى عضو في الفئة منصب الزعيم ويتطور بالتدريج حتى يصبح ملكا مؤلها، فإن وظائفه السحرية تتراجع ويحل محلها واجبات كهنوتية وإلهية تتناسب مع حلول الدين شيئا فشيئا محل السحر. وينشأ بعد ذلك حاجز بين الجانب المدني والجانب الديني من واجبات الملك، حين تسند السلطات الدنيوية إلى رجل والروحية إلى آخر. وفي الوقت ذاته، يستمر السحرة، الذين قمعتهم سيطرة الدين لكنها لم تقض عليهم تماما، في التمسك بحيلهم الغامضة القديمة وتفضيلها على الطقوس الجديدة مثل تقديم القرابين والصلوات. وبمرور الوقت، يدرك المتعقلون منهم أن السحر وهم، ويبدؤون بممارسة طريقة فعالة في التحكم بقوى الطبيعة لمنفعة الإنسان؛ أي إنهم يتخلون عن الشعوذة لصالح العلم. ولست أذكر أن مسار التطور كان ذاته في كل مكان، فهو يختلف باختلاف المجتمعات. لكني أقصد أن أشير بشكل عام إلى ما أرى أنه سمة عامة. فالتطور من وجهة النظر الصناعية انتقل من التماثل إلى الاختلاف الوظيفي، لكنه انتقل من الديمقراطية إلى الاستبداد من وجهة النظر السياسية. لكننا لسنا معنيين في هذا البحث بتاريخ الملكية فيما بعد، وبالأخص تلاشي الأنظمة الاستبدادية وحلول أشكال من الحكم أكثر تلاؤما مع احتياجات الإنسانية الأعلى؛ فموضوعنا ينحصر في نشوء مؤسسة كانت في





الفصل السادس

عبادة الشجر

زمانها عظيمة وخيرة وليس في انحطاطها.

لعبت عبادة الشجر في التاريخ الديني للعرق الآري في أوروبا دورا مهما إذ لا شيء أقرب منها إلى الطبيعة. فمنذ فجر التاريخ، كانت أوروبا مكسوة بغابات بدائية بدت فيها المناطق المتناثرة التي قطعت منها الأشجار كأنها جزر صغيرة في محيط من الخضرة. وحتى القرن الأول السابق لحقبتنا، كانت الغابة الهرسينية تمتد من الراين إلى مسافة بعيدة وغير معروفة. فالألمان الذين استجوبهم قيصر سافروا فيها مدة شهرين دون أن يبلغوا نهايتها. بعد ذلك بأربعة قرون زارها الإمبراطور جوليان فبدا أن عزلة الغابة، ووحشتها وسكونها تركت على ما يبدو أعمق الأثر في نفسه الحساسة. وقال إنه لم يعرف لها مثيلا في الإمبراطورية الرومانية. وفي بلادنا نحن تعد غابات كِنْت وسَري وسَسكس من بقايا غابة أندريدا الهائلة التي كانت في القديم تكسو سائر الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة. ويبدو أنها امتدت غربا حتى اتصلت بغابة أخرى كانت تمتد من هامشر إلى ديفون. وفي عهد هنري الثاني كان سكان لندن يصيدون الثور البري والخنزير البري في غابات هامستد التي هي اليوم جزء من لندن. وحتى تحت حكم الأسرة البلانتاجينية (الأسرة التي حكمت إنجلترة بين 1154 1385، المترجم) بلغ عدد الغابات الملكية ثمان وستين غابة. وقيل إن باستطاعة السنجاب في غابة أردن حتى عصرنا الحاضر، أن يقفز من شجرة إلى أخرى لمسافة تعادل طول وريكشير تقريباً. كما أن القرى التي كشفت عنها عمليات الحفر في وادي بو أظهرت أن شمال إيطاليا كان مكسواً بغابات كثيفة من أشجار الدردار والكستناء وبالأخص أشجار البلوط قبل نشوء روما وربما قبل تأسيسها. وهنا يدعم التاريخ علم الآثار لأن كتاب العصر الكلاسيكي كثيرا ما يذكرون الغابات الإيطالية التي اختفت اليوم. وحتى القرن الرابع السابق لحقبتنا، كانت روما منفصلة عن إثروريا الوسطى بغابة سيمينيا الرهيبة التي يقارنها ليفي بغابات ألمانيا. وعلى حد قول المؤرخ الروماني، فإنه ما من تاجر استطاع التوغل في مجاهلها، وقد رأى الناس جرأة بالغة في قيادة أحد الضباط الرومان جيشه عبر الغابة بعد أن أرسل اثنين من الكشافة ليستطلعوا مجاهلها، ووصل إلى حافة الجبال التي تكسوها الغابات، ورأى حقول إثروريا الخصبة ممتدة أمامه في الأسفل. أما في اليونان، فما زالت غابات الصنوبر، والبلوط، والأشجار الأخرى تكسو منحدرات جبال أركاديا الشامخة، ومازالت تزين بخضرتها الوادي السحيق حيث يجري اللادون للقاء ألفيوس المقدس. وقد ظلت صورة تلك الغابات لبضع سنين خلت تنعكس في مياه بحيرة فينيوس الزرقاء القاتمة، لكنها ليست سوى أجزاء مبعثرة من الغابات التي كانت



في الأعلى: كاهنة من الدرود [1] تحمل غصن هدال. حفر من مجلة هاربر الشهرية في 1885.

الطرف المقابل: دافني وأبولو، تظهر الحورية لحظة تحولها إلى شجرة حملت اسمها فيما بعد. لوحة للفنان أنطونيو بولايولو، 1470-80. المعرض الوطني، لندن.

(1) الدرود فئة من الكهنة ظهرت قبل المسيح في بلاد الغال (فرنسا) ثم انتشرت في بريطانيا وإرلندا، تعرضت للاضطهاد من قبل الرومان في القرن الأول واختفت من سجلات التاريخ في القرن الثاني للميلاد «المترجم».

تكسو الممرات العظيمة القديمة والتي كانت فيما مضى تغطي شبه جزيرة اليونان من البحر إلى البحر.

ومن خلال البحث في الكلمات التيوتونية التي تعني «معبد» رأى غريم أن من الممكن أن تكون الغابات الطبيعية من أقدم الملاذات الآمنة عند الألمان. ومهما يكن الأمر، فإن عبادة الشجر مثبة عند سائر الأسر الأوربية العريقة ذات الأصول الآرية. فعبادة البلوط عند الدرود الكلتيين لا تخفى على أحد، كما أن الكلمة القديمة التي تعني «الملاذ الآمن» تبدو مماثلة في أصلها ومعناها لكلمة «نيموس Nimus» التي تعني الأجمة أو الحرش، والتي ما زالت حية في



في الأعلى: الشجرة المقدسة إرمنسول من الأساطير التيوتونية ممثلة هنا كرجل، لكنها كثيرا ما تتخذ شكل جذع شجرة. من كتاب لاكروا السلوك والعادات والملابس في العصور الوسطى، 1876.

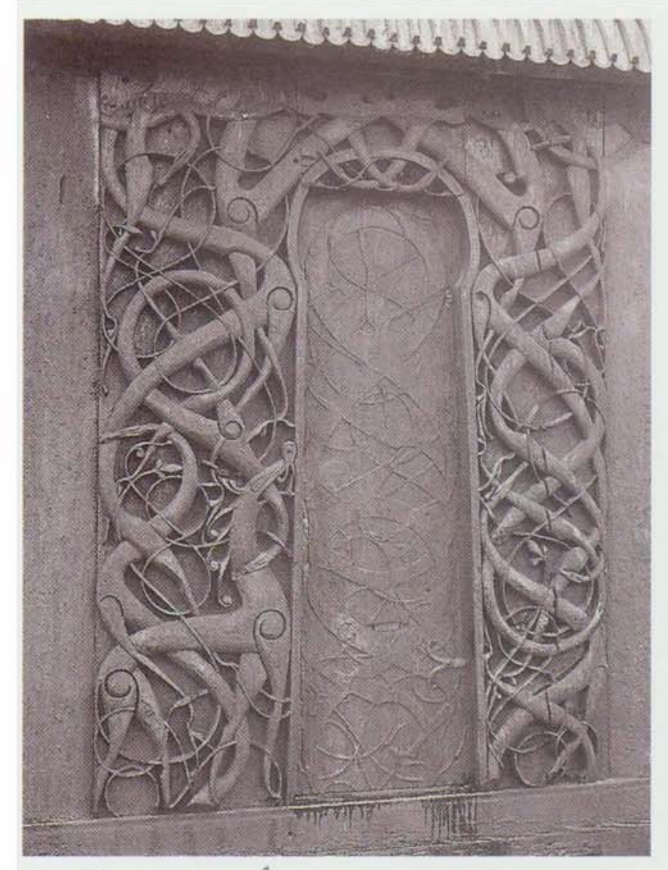
الطرف المقابل: غزال يأكل من شجرة العالم من أساطير الفايكينغ. حفر على طرف كنيسة في أورنس بالنرويج.

اسم «نمي Nemi» في إيطاليا. وكانت الأجمات المقدسة شائعة عند قدماء الألمان، كما أن عبادة الشجر لم تنتشر بين أحفادهم في يومنا هذا. ويمكننا الوقوف على مدى جدية تلك العبادة في القديم من العقوبة القاسية التي نصت عليها القوانين الألمانية القديمة في حق كل من تسول له نفسه نزع لحاء شجرة منتصبة حيث نصت العقوبة على نزع سرة المذنب وتثبيتها في الجزء الذي نزع منه لحاء الشجرة، ثم جر المذنب حول الشجرة مرات عدة حتى تلتف أحشاءه حول جزعها. والغرض من العقوبة، كما هو واضح، هو استبدال اللحاء الميت بآخر حي يؤخذ من المذنب؛ أي حياة بحياة، حياة رجل مقابل حياة شجرة. أما في أوبسالا، عاصمة السويد الدينية القديمة، فقد كانت هناك أجمة كل الأشجار فيها مقدسة. أما الشعوب السلافية البدائية فقد عبدت الأشجار والغابات، كما أن الناس في لثوانيا لم يعتنقوا المسيحية حتى نهاية القرن الرابع عشر، وكانت عبادة الشجر متفشية بينهم حتى بعد اعتناقهم المسيحية. فقد كان بعضهم يقدس أشجار البلوط الضخمة، وآخرون يقدسون الأشجار الضخمة وارفة الظلال التي كانوا يستمدون منها الإجابات الإلهية عن تساؤلاتهم؛ كما أنشأ بعضهم غابات مقدسة حول قراهم وبيوتهم حيث كان مجرد كسر غصن صغير يعد خطيئة جسيمة. وكانوا يعتقدون أن من يقطع غصنا من تلك الغابة يموت فجأة أو يشل أحد أطرافه. وهناك أدلة كثيرة على عبادة الشجر في اليونان وإيطاليا القديمتين. ففي ملاذ إسكيلابيوس في كوس على سبيل المثال، كان قطع أشجار السرو محرما تحت طائلة غرامة تبلغ ألف دراخما. ويتجلى لنا الالتزام بهذا الشكل القديم من الدين في أوضح صوره في العالم القديم وفي قلب العاصمة القديمة بالذات. ففي المسرح، وهو قلب الحياة الرومانية النابض، عبد الناس شجرة رومولوس المقدسة حتى أيام الإمبراطورية، وكان جفاف جذعها كافيا لنشر الذعر في طول المدينة وعرضها. وكذا الأمر على سفح جبل بالاتين حيث نمت وأزهرت شجرة قرانيا جعلها الناس من أقدس الأشياء في روما. فإذا رأى عابر سبيل الشجرة وكأنها ذابلة، أطلق صيحات الفزع التي ما إن يتناقلها الناس حتى يهبوا من كل حدب وصوب يحملون الدلاء (كما يقول بلوتارك) وكأنهم يهرعون لإخماد حريق.

وعند القبائل الفنلندية الأوغرية في أوروبا، كانت معظم العبادة الوثنية تمارس في الغابات المقدسة المحاطة بالأسوار على الدوام. أما الأجمة فكانت مساحة خالية تحيط بها بضع أشجار تعلق عليها جلود الأضاحي في قديم الزمان، وكانت الشجرة المقدسة، على

الأقل بالنسبة إلى قبائل الفولغا، في مركز الأجمة وكل ما عداها لا قيمة له. وكان المصلون يتجمعون أمامها، فيتلو الكاهن صلواته ثم تذبح الأضحية عند جذورها، أما أغصانها فكانت تستخدم منبراً أحياناً. ويحظر قطع الأخشاب أو تكسير الأغصان في الغابة، كما يحظر على النساء دخولها بشكل عام.

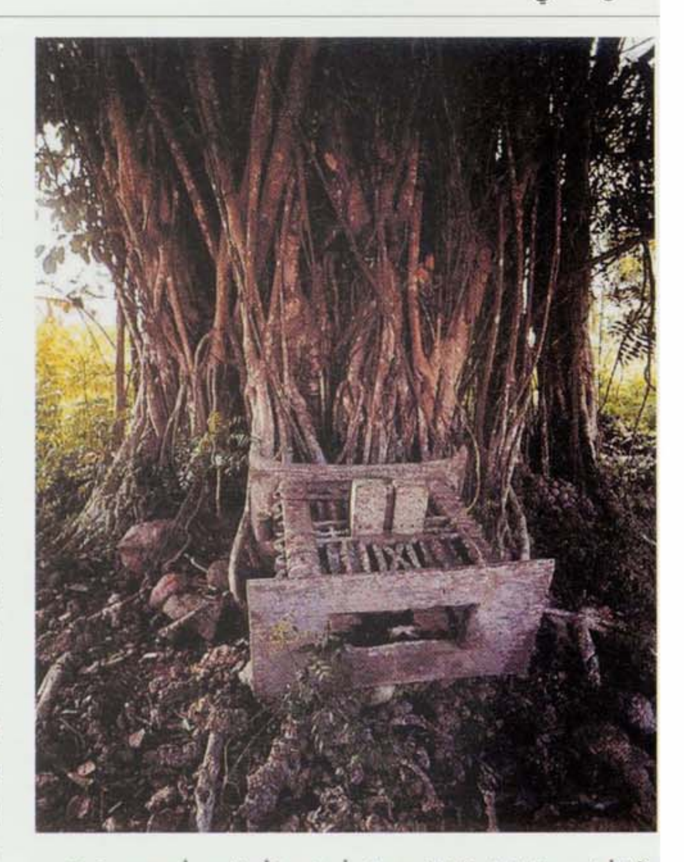
ومن الضروري أن نعالج بشيء من التفصيل الأفكار التي قامت عليها عبادة الشجر والنبات. فالبدائي يرى أن العالم بصفة عامة كائن حي، بما في ذلك الشجر والنبات. ويعتقد بأن للأشجار روحا مثل روحه ويعاملها على هذا الأساس. وكتب النباتي القديم بروفيري ذات مرة يقول: «إن البدائيين، كما يقال، عاشوا حياة تعيسة لأن إيمانهم بالخرافات لم يتوقف عند الحيوانات، بل تعداها إلى النباتات أيضاً. فلماذا يعد ذبح ثور أو نعجة خطيئة أعظم من قطع شجرة تنوب أو بلوط مع أن لتلك الأشجار روحا أيضا؟» وبالمثل، يعتقد هنود قبائل الهيداتسا في أمريكا الشمالية أن لكل شيء طبيعي روحه، أو بمعنى أدق، ظله. لذلك فإن هذه الظلال جديرة بالاحترام ولو بدرجات متفاوتة. فظل شجرة الحور القطني، وهي أعظم شجرة في وادي ميزوري الأعلى، يفترض أن له ذكاء يستطيع أن يساعد الهنود في أداء بعض المهام إذا ما عومل بالطريقة المناسبة. أما ظلال الشجيرات الصغيرة والأعشاب فلا أهمية لها. فحين يجرف نهر ميزوري جزءا من ضفتيه بسبب الفيضان، ويجرف في تياره شجرة فارعة الطول، يقال إن روح الشجرة تبكي، في حين تتمسك الجذور في اليابسة حتى يسقط جذعها في الماء. وكان الهنود فيما مضى يعتقدون بأن من الخطأ قطع هذه الأشجار العملاقة، فإذا احتاجوا إلى الحطب استخدموا تلك التي سقطت من تلقاء نفسها. وحتى عهد قريب، كان بعض المسنين السذج يعزون الكثير من المصائب التي حلت بقومهم إلى الاستهانة بحقوق أشجار الحور القطني الحية. أما أبناء قبائل الإيريكوي فيعتقدون أن لكل نوع من الأشجار والشجيرات والنباتات والأعشاب روحا خاصة به، وأن من عادة هذه الأرواح أن تقابل المعروف بالمعروف. وبالمثل، تتخيل قبائل الوانيكا في شرق إفريقيا أن لكل شجرة، لاسيما أشجار جوز الهند، روحها، ويعد تحطيم شجرة جوز الهند بمثابة قتل الأم، لأن تلك الشجرة تهبهم الحياة والغذاء مثلما تهب الأم الحياة والغذاء لأطفالها». ونظراً لاعتقاد الرهبان السياميين بوجود الأرواح في كل مكان، وأن تدمير أي شيء بالقوة هو في الواقع إزهاق لروح، فإنهم يمتنعون عن كسر أي غصن من أغصان الشجر «امتناعهم عن كسر ذراع شخص



بريء. وهؤلاء الرهبان من البوذيين طبعاً». لكن الإيمان بالأرواحية ليس نظرية فلسفية بوذية، بل مجرد مبدأ عام ضمن نظام الديني التاريخي عند البدائيين. فالافتراض الذي قدمه بنفي Benfey وغيره بأن النظريات الأرواحية وتناسخ الأرواح السائدة بين الشعوب البدائية مستمدة من البوذية هو قلب للحقائق.

ويفترض أحياناً أن الأرواح لا تسكن سوى أنواع معينة من الأشجار. ففي جربالج Grbalj في دلماتيا [26] يقال إن لبعض أشجار الزان والبلوط وغيرها من الأشجار الضخمة ظلالا وأرواحا، وإن كل من يقطع إحداها لا بد من أن يموت لساعته أو يحيا بقية عمره مشلولا. فإذا ما خشي حطاب أنه قطع شجرة من هذا النوع، وجب عليه أن يقطع رأس دجاجة عند ما تبقى من جذع الشجرة ذاتها مستخدما الفأس التي استخدمها في قطع الشجرة، وهذا يحميه من الأذى، حتى لو كانت الشجرة من النوع ذي الروح. أما أشجار السيبة التي تنمو جذوعها إلى ارتفاعات مذهلة تفوق كل أشجار الغابة، فتتمتع باحترام كبير في غرب إفريقيا من السنغال إلى النيجر، ويعتقد أنها مثوى إله أو روح. وعند شعوب

(26) هي الآن إحدى مناطق كرواتيا «المترجم».



في الأعلى: هذا المزار في غانا يعود إلى أومانهي الأمونابوي وأسرته من قبيلة فانتي. إذا مات الملك أعيد كرسيه الخاص إلى الشجرة ، مكانه الأصلي ومصدر القوة الروحية.

الطرف المقابل: أحد شيوخ قبيلة الكايوبو من منطقة الأمازون البرازيلية، يدهن وجهه قبل الدخول إلى الغابة لكي يرضي أرواح الأشجار.

الآفا الناطقة بلغة الكوا Kwa على ساحل العبيد فإن الإله الذي يقطن هذه الغابة العملاقة اسمه هنتن. والأشجار الخاصة التي يسكنها محاطة بحزام من النخيل، فهو لا يسكن في كل أشجار السيبة؛ وتربط القرابين من الطير، وأحيانا من البشر، إلى جذع الشجرة أو توضع عند منبتها. ويحظر قطع أية شجرة محاطة بأوراق النخيل أو إلحاق الأذى بها بأي شكل من الأشكال. حتى أشجار السيبة التي يفترض أن هنتن لا يسكنها يحظر قطعها قبل أن يقدم الحطاب قربانا من الطير وزيت النخيل ليطهر نفسه من الخطيئة التي يزمع ارتكابها. فالتغاضي عن تقديم القربان يعد جريمة تصل عقوبتها إلى الموت. وفي جبال الكنغرا في إقليم البنجاب، جرت العادة كل سنة على تقديم فتاة لتكون قربانا لشجرة أرز قديمة، وكانت الأسر في القرية تتناوب في تقديم الضحية. وقد قطعت الشجرة من زمن ليس ببعيد.

ولو كانت الأشجار كائناً حياً، لكانت بالضرورة حساسة، ولأصبح قطعها عملية جراحية دقيقة يجب أن تتم بأقصى درجة من الرفق احتراما لمشاعر الأشجار المتألمة وإلا انقلبت وقتلت العامل المهمل أو الأخرق. فحين تقطع شجرة بلوط «تصدر صيحات وأنينا يسمع من مسافة ميل كما لو كانت روح البلوط تنتحب. وقد سمعها ي. ويلد المحترم مرات عدة.

أما قبائل الأوجبوايز Ojebways [27] فنادرا ما يقطعون الأشجار الخضر أو الحية، مخافة أن يحل بهم الألم. ويقول بعض أطبائهم الدجالين إنهم سمعوا نحيب الأشجار عند قطعها بالفأس». وكثيرا ما تتحدث الكتب الصينية، حتى القصص التاريخية المعروفة، عن الأشجار التي تنزف وتصرخ ألما وازدراء وهي تقطع أو تحرق. ويتمسك الفلاحون المسنون في بعض أجزاء النمسا باعتقادهم بأن أشجار الغابات حية، لذلك لا يسمحون بجرح لحائها دون سبب. فقد سمعوا من آبائهم أن الشجرة تحس بالجرح مثلما يحس الإنسان الجريح بالألم، لذلك فإنهم حين يقطعون شجرة يطلبون منها الصفح. ويقال أيضا إن الحطابين الطاعنين في السن في البلاتينيت العليا في ألمانيا ما زالوا يطلبون الصفح من الشجرة الجميلة السليمة قبل قطعها. وفي جاركينو يطلب الحطاب الصفح من الشجرة التي يقطعها. وقبل أن يقطع الحطابون الألكان في لوزون الأشجار في الغابة العذراء أو في الجبال ينشدون بعض الأشعار التي تعني:« لا تنزعجي يا صديقتي، فإننا نقطع ما أمرنا بقطعه». ويؤدون هذا النشيد ليدرؤوا عن أنفسهم نقمة الأرواح التي تسكن في الأشجار والتي يحتمل أن تثأر لنفسها فتسبب أمراضاً خطيرة لمن يلحق بها الأذى عن طريق العبث. ويعتقد أبناء الباسوغا وسط إفريقيا أنه حين تقطع الشجرة، فإن الروح الغاضبة التي تسكنها قد تسبب الموت لزعيم الأسرة. ولتجنب هذه الكارثة فإنهم يطلبون مشورة الطبيب الدجال قبل أن يقدموا على قطع الشجرة، فإذا سمح صاحب الخبرة بالمضي في قطعها، بادر الحطاب أولاً إلى تقديم طائر أوعنزة إلى الشجرة؛ وبعد أول ضربة فأس، يضع فمه على الثلم ويمتص بعض النسغ، وبذلك يشكل أخوية مع الشجرة تماما مثلما يتآخى رجلان بأن يمتص كل منهما شيئا من دم الآخر. بعد ذلك يمكنه أن يقطع أخته الشجرة وهو متمتع بالحصانة.

لكن أرواح النباتات لا تحظى دائما بالاحترام والتبجيل. فإذا

(27) الأوجبوايز قبيلة هندية ضخمة تنتشر فوق رقعة واسعة من شمال كندا «المترجم».

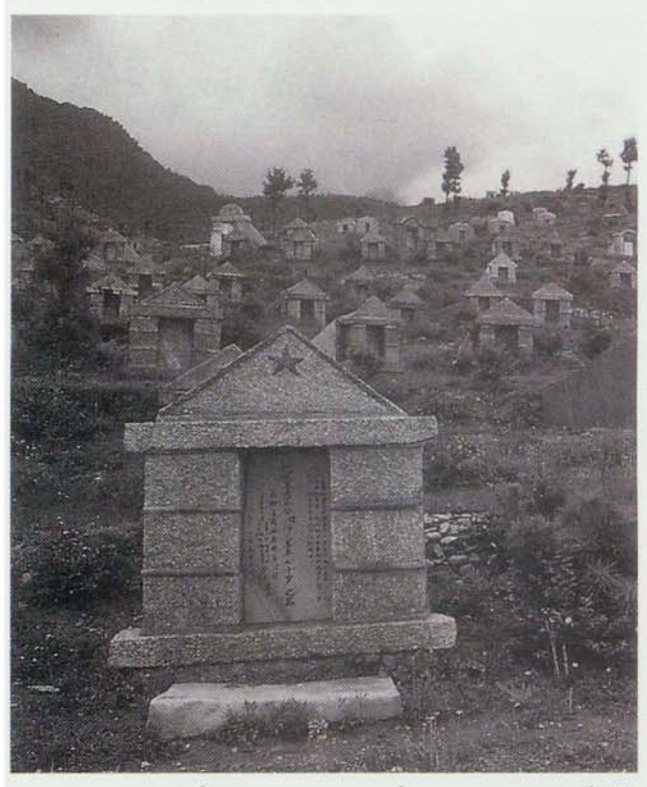


لم تفلح المعاملة الرقيقة والكلمات الطيبة في التأثير فيها، لجأ الناس أحياناً إلى إجراءات أشد قساوة. فشجرة الدوريان في جزر الهند الشرقية التي يصل ارتفاع جذعها الناعم إلى ثمانين أو تسعين قدما دون أن يتفرع منه غصن واحد تطرح ثمراً لذيذ الطعم لكنه نتن الرائحة إلى أبعد الحدود. ويزرع سكان الملايو هذه الشجرة للاستفادة من ثمارها، وعرف عنهم ممارستهم لطقوس غريبة تهدف إلى تحفيز خصوبتها. وعلى مقربة من جوغرا في سيلانغور غابة صغيرة من أشجار الدوريان يتجمع فيها سكان القرية في يوم معين، وهناك يشهر أحد المشعوذين في القرية فأسه وينهال بالضرب على جذع أكثر الأشجار عقما وهو يقول: «هل ستثمرين الآن أم لا؟ سأقطعك إذا لم تفعلي! «فتجيب الشجرة بلسان رجل آخر تسلق شجرة جوز جندم قوية (على اعتبار أن شجرة الدوريان لا يمكن تسلقها): «أجل، سأثمر الآن، أرجوك لا تقطعني!» أما في اليابان، ولكي يجعل الناس الأشجار تثمر، يتوجه رجلان إلى أحد البساتين، فيتسلق أحدهم شجرة في حين يقف الآخر عند جذعها ومعه فأس. ويسأل صاحب الفأس الشجرة عما إذا كانت ستطرح محصولا جيدا في العام القادم، ويهدد بقطعها إن لم تفعل. فيجيب الرجل الواقف بين أغصانها بالنيابة عنها بأنها ستطرح كمية كبيرة من الثمار. وبالرغم من غرابة هذا الأسلوب في عرف البستنة عندنا، فإن له ما يشبهه في أوروبا. ففي ليلة عيد الميلاد يلوح كثير من الفلاحين في جنوب سلوفينيا وبلغاريا بالفأس مهددين شجرة فاكهة عقيمة، في حين يقوم رجل آخر من الواقفين بالشفاعة للشجرة المهددة قائلا: «لا تقطعها؛ فإنها ستطرح ثمارها عما قريب». ويلوح الرجل بفأسه ثلاث مرات، وفي كل مرة يتدخل الشفيع لإيقاف الضربة. فتطرح الشجرة الخائفة ثمارها في السنة التالية.



وينتج عن التعامل مع الأشجار على أنها مخلوقات حية معاملتها بصفتها ذكوراً وإناثاً يمكن أن تتزاوج بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى الشعري أو المجازي. والفكرة ليست من نسج الخيال. فللنبات جنسان، مثله مثل الحيوانات، ويتكاثر من تلاقي العناصر المذكرة والمؤنثة. لكن الأعضاء الجنسية منفصلة عند الحيوانات العليا، بينما توجد جنبا إلى جنب في معظم النباتات وفي كل وحدة من الفصيلة النباتية. لكن هذه القاعدة ليست قاعدة كلية بأية حال من الأحوال، ففي الكثير من الفصائل النباتية تكون النبتة المذكرة متميزة عن المؤنثة – ويبدو أن بعض البدائيين لاحظوا هذا الفارق، فقد قيل إن الموريين Maoris «يعرفون جنس الأشجار إلخ ... وعندهم أسماء مختلفة لبعض الأشجار المذكرة والمؤنثة». وقد عرف القدماء الفارق بين النخيل المذكر والنخيل المؤنث، فقاموا بتلقيح الأشجار صناعيا من خلال هز غبار الطلع من شجرة مذكرة فوق أزهار الشجرة المؤنثة. وتحث عملية التلقيح في الربيع. وعند أهل حران يعرف شهر تلقيح النخيل باسم شهر التمر، وفيه يحتفلون بمهرجان زواج جميع الآلهة ذكوراً وإناثاً. وخلافا لزواج النخيل الحقيقي والمثمر هذا هناك زيجات نباتية تلعب دوراً في الاعتقاد بالخرافات عند الهندوس. فمثلاً إذا زرع الهندوس بستاناً من المانجو، لا يمكنه لا هو ولا زوجته أن يتذوق الثمار حتى يتزوج إحدى الأشجار وبشكل رسمي كعريس إلى شجرة من نوع آخر، وهي عادة شجرة تمر هندي تنمو بالقرب منها في البستان. فإذا تعذر الحصول على شجرة تمر هندي لتلعب دور العروس، حلت محلها شجرة ياسمين. أما تكاليف هذا الزواج فباهظة، فكلما زادت الحفاوة بالبراهما في هذا الحفل، زاد مجد صاحب البستان. وقيل إن أسرة باعت ما لديها من حلي ذهبية وفضية، واقترضت كل ما استطاعت من المال لتتمكن من تزويج شجرة مانجو بشجرة ياسمين في حفل بهيج صاخب. أما في ألمانيا فكان الفلاحون الألمان في ليلة عيد الميلاد يربطون أشجار الفاكهة معاً بحبال من القش لكي تثمر ويقولون إن الأشجار تزوجت.

وفي جزر الملوكا تعامل أشجار القرنفل حين تزهر معاملة النساء الحوامل، فتحظر الضوضاء بالقرب منها، ومرور الأضواء أو النار من جانبها، كما يحظر على الجميع لبس القبعات أمامها، ويجب على الجميع الكشف عن رؤوسهم في حضرتها. وتتخذ هذه الاحتياطات لئلا تنزعج الشجرة فتمتنع عن حمل الثمار، أو تسقط ثمارها قبل الأوان مثل الولادة المبكرة التي تحدث للمرأة الحامل إذا تعرضت إلى ما يخيفها في أثناء حملها. لذلك فإن محصول الأرز

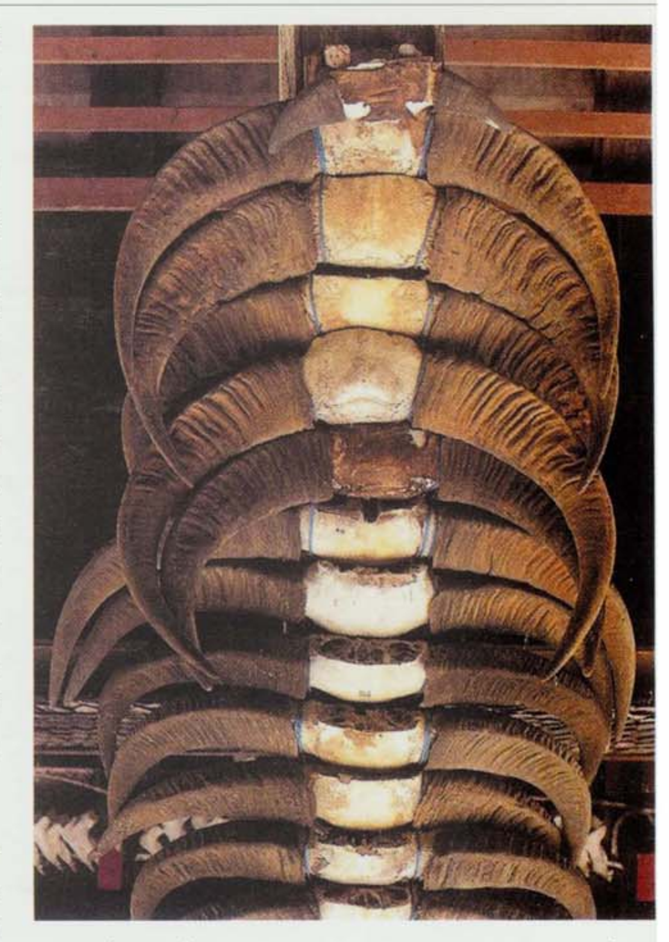


في الأعلى: في الصين تزرع الأشجار على القبور لتقوية أرواح الموتى. مقبرة تقليدية في إقليم يون آن.

الطرف المقابل: الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني واقفا أمام شجرة الحياة وفي أعلاها رمز الإله آشور. لوحة من نمرود في العراق، 883-859 ق.م. المتحف البريطاني، لندن.

في الشرق يلقى من الاهتمام ما تلقاه المرأة الحامل. ففي أمبوينا إذا أزهر الأرز، قال الناس إنه حامل، وامتنعوا عن إطلاق النار أو إصدار أية أصوات صاخبة بالقرب من الحقل حتى لا ينزعج، فإذا انزعج أسقط حمله وكان المحصول تبنا لا حبوب فيه.

ويعتقد أحيانا أن أرواح الموتى هي التي تضع الحياة في الأشجار؛ فقبيلة ديري في وسط أستراليا، تؤمن بقدسية أشجار معينة يفترض أنها آباؤهم بعد أن تحول شكلهم؛ لذلك تراهم يتحدثون عنها بكل احترام، ويحرصون على عدم قطعها أو إحراقها. فإذا رغب المستوطنون بقطع الأشجار احتجوا على ذلك بشدة، مؤكدين أنهم لو فعلوا ذلك، لتخلى الحظ عنهم وربما عوقبوا لتقاعسهم عن حماية أجدادهم. ويعتقد بعض سكان جزر الفلبين أن أرواح أجدادهم تسكن في أشجار معنية لذلك فإنهم لا يقطعونها. فإذا اضطروا إلى قطع إحداها اعتذروا لها قائلين إن الكاهن أجبرهم



في الأعلى: يقوم شعب التوراجا في سولاويزي بنحر جاموس أو خنزير أو معزة عند بناء بيت جديد. العمد الأساس لهذا المنزل مغطى بمجموعات من قرون الجواميس.

الطرف المقابل: شجرة الحياة رمز مهم في كثير من الثقافات. سجادة إيرانية من القرن التاسع عشر.

على ارتكاب هذا العمل. وتفضل الأرواح أن تسكن في الأشجار الباسقة الجميلة ذات الأغصان الممتدة. فإذا سمع الناس حفيف أوراقها بفعل الرياح، حسبوه صوت الروح، ولا يمر أحد بهذه الأشجار دون أن ينحني باحترام ويعتذر عن إزعاجها. أما في الإيغوروت فنرى أن لكل قرية شجرة مقدسة، تسكن فيها أرواح أجداد أهلها. ويقدم السكان القرابين إلى الشجرة ويعتقدون أن أي أذى يلحق بها يسبب كارثة للقرية، وإنه إذا قطعت الشجرة، هلكت القرية وسكانها أجمعون بكل تأكيد.

وفي كوريا، يعتقد الناس أن أرواح الذين يموتون من الوباء أو على الطريق، وأرواح النساء اللاتي يقضين في أثناء الولادة تسكن في الأشجار بلا استثناء. ويقدم الناس إلى هذه الأرواح الحلوى والخمر ولحم الخنزير ويجعلونها على كومة من الأحجار أسفل الأشجار. وفي الصين جرت العادة منذ الأزل على زراعة الأشجار على القبور لتقوية روح الميت وإنقاذ جسده من التعفن، وبما أن الأشجار دائمة الخضرة مثل الزان والبلوط أشد حيوية من الأشجار الأخرى، فقد وقع عليها الاختيار لهذا الغرض. لذلك نرى أن الأشجار التي تزرع على القبور تتطابق أحيانا مع أرواح الموتى. وفي المياوكيا، وهم العرق الأصلي في جنوب الصين وغربها، تنتصب شجرة مقدسة في مدخل كل قرية، ويعتقد السكان أن روح جدهم الأول تسكن فيها، وأنها تتحكم بمصيرهم. وربما كان هناك بستان مقدس على مقربة من القرية، حيث تترك الأشجار لتتعفن وتموت في مكانها. ومع أن الأغصان المتساقطة تتكدس على الأرض، لكن لا يسمح لأحد بإبعادها قبل الحصول على إذن مسبق من روح الشجرة وتقديم قربان لها. وتعد المدافن عند الماراف في جنوب إفريقيا مكانا مقدسا على الدوام يحظر فيها قطع الأشجار أو قتل الحيوانات لأن كل ما فيها يفترض أن يكون مأوى لأرواح الموتى.

في معظم هذه الحالات، إن لم نقل جميعها، تعد الروح مجسدة في الشجرة؛ فهي تمنح الشجرة الحياة ولا بد لها من المعاناة والموت معها. لكن ثمة رأي آخر، وربما رأي متأخر، يقول إن الشجرة ليست الجسد، بل مأوى لروح الشجرة التي تستطيع أن تذهب وتعود إليها كما يحلو لها. فسكان سياو، وهي من جزر الهند الشرقية، يؤمنون بأرواح حراجية معينة تسكن في الأشجار الضخمة المنفردة في الغابات. وحين يكون القمر بدرا تخرج الروح من مكمنها الغامض وتتجول في الغابة. وللروح هذه رأس كبيرة وذراعان وساقان طويلتان جدا وجسد ثقيل الخطى. ولكي يحصل الناس على رضا أرواح الغابات فإنهم يقدمون الطعام والطير والماعز وما إلى ذلك إلى الأماكن التي يفترض أنها تتجول فيها. ويظن سكان نياس أن الشجرة حين تموت، تتحول الروح المتحررة إلى شيطان قادر على أن يقتل شجرة جوزهند بمجرد أن يحط على أغصانها، وأن يتسبب في موت كل الأطفال في أحد المنازل بأن يحط على إحدى دعاماته. زد على ذلك أنهم يعتقدون بأن بعض الأشجار تسكنها على الدوام شياطين هائمة، فإذا لحق الضرر بالأشجار انطلقت منها الشياطين لممارسة أعمالها المؤذية. لذلك يحترم الناس هذه الأشجار ويحرصون على عدم قطعها.

وهناك طقوس عديدة لوحظت عند قطع شجرة مسكونة تقوم



على الاعتقاد بأن للأرواح حرية مغادرة الأشجار متى يحلو لها أو عند الضرورة. لذلك قطع سكان جزيرة بيلو شجرة، طلبوا من روح الشجرة أن تخرج منها وتسكن شجرة أخرى. أما الزنجي الماكر في ساحل العبيد الذي يرغب في قطع شجرة آشورين ويعرف أنه لا يستطيع ذلك ما دامت الروح تسكنها، فيضيع قليلا من زيت النخيل على الأرض على سبيل الطعم، فإذا خرجت الروح المطمئنة من الشجرة لتلتهم هذا الطعام اللذيذ سارع إلى قطع مأواها الأخير. وحين يهم أبناء التوبونغ كوس في جزر سيليبس بقطع الأشجار في أرض من الغابة لاستخدامها في زراعة الأرز، فإنهم يقيمون بيتاً صغيراً ويفرشونه بملابس صغيرة ويزودونه ببعض الطعام والذهب ثم ينادون معاً جميع الأرواح في الغابة ويقدمون إليها المنزل الصغير بكل ما حوى ويتوسلون إليها لكي تغادر المنطقة. بعدها يمكنهم قطع الأخشاب بأمان دون خوف من التعرض للأذى في أثناء ذلك. وقبل أن يشرع التموريون، وهم من قبائل جزر سيليبس في قطع شجرة باسقة فإنهم يضعون أسفلها مضغة من التنبول (نبات متسلق) ويدعون الروح التي تسكنها لكي تغير مسكنها. والأكثر من هذا، أنهم يصنعون سلما على جذعها لتتمكن الروح من النزول براحة وأمان. أما شعب الماندينغ في سومطرة، فيحاولون إلقاء اللوم في كل هذه الأعمال المشينة على السلطات الهولندية. فإذا أراد رجل أن يشق طريقا عبر غابة واضطر إلى قطع شجرة باسقة اعترضته، فإنه لا يبدأ بعملية القطع قبل أن يقول: «أيتها الروح الساكنة في هذه الشجرة، لا تبتئسي إذا قطعت مأواك، لأني لا أقوم بهذا العمل بمحض إرادتي، بل بأمر من المشرف». فإذا أراد أن يفسح قطعة من أرض الغابة – لاستخدامها في الزراعة، كان من الضروري أن يتوصل إلى تفاهم مع أرواح الغابة التي تسكن فيها قبل الشروع في قطع مساكنها المصنوعة من أوراق الشجر. ولهذا فإنه يذهب إلى وسط قطعة الأرض وينحني متظاهرا بأنه يلتقط رسالة، ثم يفتح ورقة ويقرأ بصوت عال رسالة وهمية من الحكومة الهولندية تلفه بعمل الفسحة في الأرض دون تأخير. وبعد أن يفرغ من هذا يقول: «أتسمعين هذا أيتها الروح؟ علي أن أبدأ بعملية الإفساح على الفور، وإلا شنقوني».

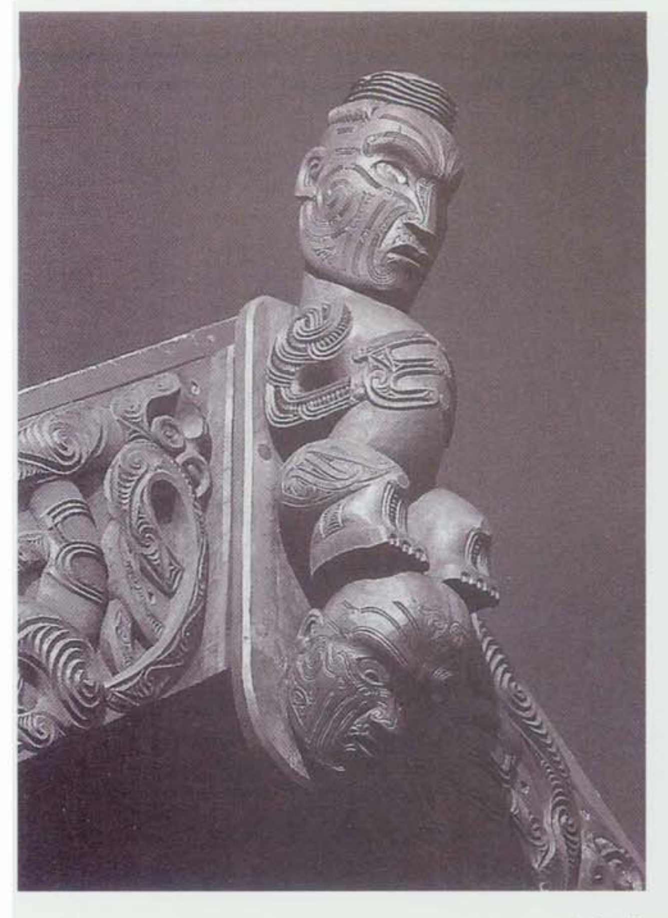
وحتى بعد قطع الشجرة، وتقطيعها بالمنشار إلى ألواح خشبية واستعمالها في بناء منزل، فإن من الممكن أن تظل روح الغابات مختبئة في الخشب، وهذا ما يحمل بعضهم على السعي إلى استرضائها قبل الانتقال إلى المنزل الجديد أو بعده، فحين يصبح المنزل الجديد جاهزا للسكن ينحر أبناء التوارجا من السيليب عنزة أو خنزيرا أو ثورا، ويطبعون كل الأجزاء الخشبية بدمائه. أما إذا كان البناء (لوبو) أو منزلا للأرواح ذبح طائر أو كلب على حافة السطح بحيث يسيل دمه على الجوانب. لكن التونابو الأكثر تخلفا يذبحون إنسانا على السطح. وتؤدي هذه الأضحية على سقف اللوبو أو المعبد الغرض ذاته الذي يؤديه تلطيخ الأجزاء الخشبية من المنزل العادي بالدماء. والهدف هو استرضاء أرواح الغابة التي قد تكون عالقة في الخشب، وبذلك يتحسن مزاجها وتمتنع عن إلحاق الأذى بالسكان. ولأسباب مشابهة، يخشى الناس في جزر سيليبس وجزر الملوكا من دق عمود بالمقلوب عند بناء المنزل، مخافة أن تكون روح الغابة لا تزال في الخشب، فستشعر بالاستياء طبعاً وتصيب السكان بالأمراض. أما الكايان في بورينو فيرون أن أرواح الأشجار حريصة كل الحرص على كرامتها وشرفها حتى إنها تلحق الأذى بالناس لقاء كل ضرر يصيبها. لذلك إذا انتهى العمل في بناء منزل اضطر أهله إلى إساءة معاملة كثير من الأشجار، أمضى أصحابه فترة سنة يكفرون فيها عن آثامهم فيمتنعون عن القيام بكثير من الأشياء مثل قتل الدببة، والنمور والأفاعي.

ويشكل التغير في النظر إلى الشجرة من جسد فيه روح الشجرة، إلى مجرد مقر لها يمكنها أن تغادره متى شاءت تقدماً مهماً في الفكر الديني حيث يتحول الإيمان بالأرواح إلى الإيمان بتعدد الآلهة. وبعبارة أخرى، بدلا من ينظر الإنسان إلى الشجرة على أنها كائن حي له إحساس، فإنه لا يرى فيها الآن سوى كتلة جامدة لا حياة فيها، يسكنها كائن خارق لمدة تطول أو تقصر، وله حرية الانتقال منها إلى شجرة أخرى، وبذلك يتمتع بحق معين في امتلاك الأشجار أو السيادة عليها، وأن يصبح إله الغابة إذ لم يعد روح الشجرة. وبمجرد أن تنفصل الروح عن كل شجرة من الأشجار، يبدأ شكلها في التحول وتتخذ شكل رجل بفضل نزعة عامة في الفكر البدائي نحو تجسيد كل الكائنات الروحانية في شكل إنسان. وهكذا نجد أن آلهة الغابات في الفن الكلاسيكي

تصور في هيئة بشر، أما شخصيتها التي تنتمي إلى الغابات فتمثل بغصن أو برمز مماثل معين. لكن هذا التغير في الشكل لا يؤثر في الشخصية الجوهرية لروح الشجرة. فالسلطة التي مارستها حين كانت روح الشجرة ومجسدة ومقيمة فيها تستمر في ممارستها كإله للأشجار. وسوف أحاول أن أثبت ذلك بشيء من التفصيل، وهكذا نرى أن الأشجار التي توصف بأنها كائنات حية يعترف بقدرتها على جلب الأمطار، والشمس، وتكاثر قطعان الماشية، وسهولة ولادة النساء، وبالمثل تعزى القوى ذاتها إلى آلهة الأشجار التي يتخيل بعضهم أنها كائنات مجسمة (آلهة في هيئة البشر - المترجم) أو مجسدة فعلا في أناس أحياء.

أولا، يعتقد أن الأشجار قادرة على جلب الأمطار والشمس. فحين كان المبشر جيروم البراغي (من براغ) يحاول إقناع الوثنيين في ليثوانيا بقطع غاباتهم المقدسة، توسلت الكثير من النسوة إلى أمير ليثوانيا ليردعه عن ذلك، وقلن أن تحطيمه للغابات إنما يحطم بيت الله الذي اعتدن على الحصول منه على المطر والشمس الساطعة. ويعتقد الموندار في أسام أنه إذا قطعت شجرة في الغابة المقدسة، فإن آلهة الغابات تعبر عن غضبها بحجب الأمطار. أما سكان مونيو، وهي قرية في منطقة ساغاينغ، من بورما العليا، إذا أرادوا الاستسقاء اختاروا أكبر أشجار التمر الهندي قرب القرية وأطلقوا عليها اسم الروح (نات) التي تتحكم بالمطر، ثم قدموا الخبز وجوز الهند ولسان الحمل (آذان الجدي) والطير إلى الروح الحارسة للقرية وإلى الروح التي تهب المطر، ثم ابتهلوا إليها قائلين: «أيها الإله نات ارحمنا نحن البشر المساكين، ولا تمسك عنا المطر. فكما أننا نقدم لك القرابين عن طيب خاطر أنزل علينا المطر ليلا ونهارا». بعدئذ يريق الناس الشراب تكريما لروح شجرة التمر الهندي؛ ثم تنشد ثلاث عجائز ترنيمة المطر وهن في أبهى حلة وأجمل زينة من عقود وأقراط.

يضاف إلى ما تقدم أن روح الأشجار تزيد من وفرة المحاصيل. فعند الموندار لكل شجرة غابتها المقدسة، وتتحمل آلهة الغابات «مسؤولية الغلال وتكرّم على نحو خاص في جميع الاحتفالات الزراعية الكبيرة». وجرت العادة عند الزنوج في ساحل الذهب على تقديم القرابين أسفل أشجار معينة، إذ يعتقدون أنه إذا ما قطعت إحدى هذه الأشجار ماتت الثمار على الأرض. أما أبناء قبيلة غالا Gallas فيرقصون أزواجا حول الأشجار المقدسة وهم يبتهلون لإله الحصاد. ويتألف الزوجان من رجل وامرأة بينهما عود خشبي يمسك كل منهما بطرف منه ويحملان تحت ذراعيهما



في الأعلى: منحوتة ماورية لتيكوتيكو حارس البيت في شاكاري واسيريوا بوتورا، نيو زيلندة.

الطرف المقابل: قناع من الخشب والألياف والأجراس وأكياس الذخيرة من القرن العشرين يعتقد أنه يمثل روح الغابة. من مجمع قبيلة دان نغيري ساحل غرب إفريقيا. مجموعة شيندلر، نيو يورك.

ذرة أو أعشابا خضراء. أما الفلاحون في السويد فيغرسون غصنا مورقا في كل خط من خطوط الحراثة في حقول الذرة اعتقادا منهم أن هذا يضمن لهم وفرة المحصول. وتلاحظ الفكرة ذاتها في عادة «مايو الحصاد» في فرنسا وألمانيا. ومايو الحصاد هذا ما هو إلا غصن ضخم أو شجرة كاملة مزينة بأكواز الذرة يؤتى بها إلى البيت فوق آخر عربة من حقل الحصاد وتثبت فوق سطح بيت المزرعة أو المخزن حيث تبقى سنة كاملة. وقد أثبت مانهاردت Mannhardt[28] أن هذا الغصن أو الشجرة تجسيد لروح

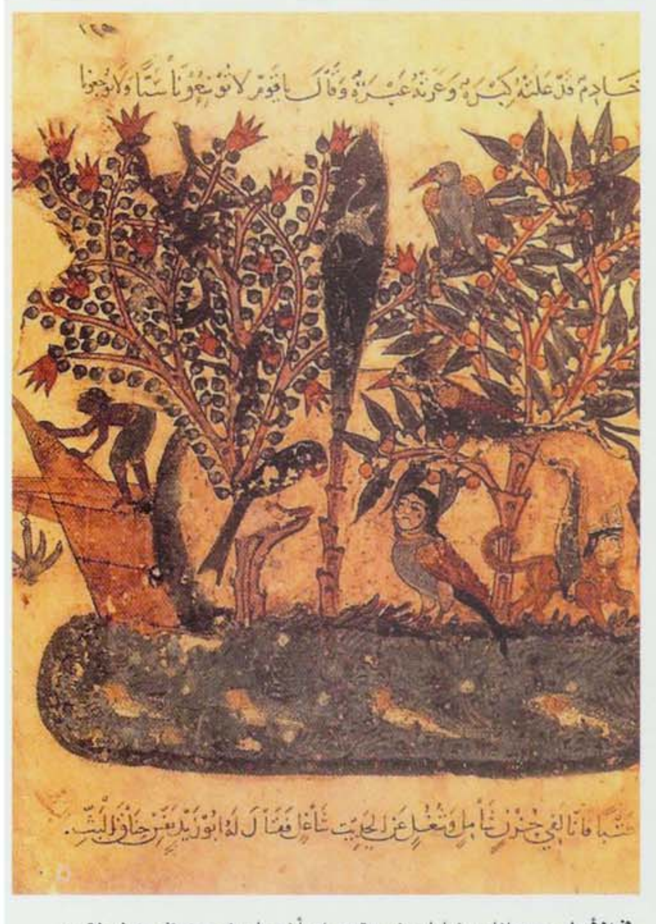
(28) 4 فيلهلم مانهاردت (26 مارس 1831 - 25 ديسمبر 1880) من علماء الفولكلور الألمان، عرف بكتابه أساطير البلطيق «المترجم».



الشجرة التي يعتقد أنها روح الخضرة بصفة عامة التي يستحضر أثرها المنشط والمخصب ليزيد محصول الذرة بشكل خاص. لذا فإن مايو الحصاد في سوابيا Swabia يربط بين آخر عيدان الذرة التي تترك قائمة في الحقل، لكنها تغرس في أماكن أخرى من حقل الذرة وتثبت في جذعها آخر حزمة تم قطعها.

ومن ناحية أخرى فإن لروح الشجرة القدرة على إكثار القطعان، ومنح النسوة القدرة على الإنجاب. ففي شمال الهند تعد شجرة الإمبليكا الطبية من الأشجار المقدسة. وفي الحادي عشر من شهر فبراير، تراق أسفلها المشروبات، ويربط خيط حمر أو أصفر حول جذعها، وتقدم إليها الصلوات والابتهالات لمنح الخصوبة للنساء والحيوانات والمحاصيل. وفي شمال الهند، تعد ثمار جوز الهند من أعظم الثمار قدسية وتسمى سريفالا Sriphala ، أو ثمرة سري، إلهة الرفاهية. فهي رمز الخصوبة، وتحفظ في مقامات خاصة في شمال الهند حيث يقدمها الكهنة إلى الراغبات في الإنجاب. وفي مدينة كوا Qua القريبة من كالابار القديمة نخلة ذات تأثير مؤكد في منح النساء العقيمات الخصوبة إذا أكلن ثمرة من أغصانها. أما في أوروبا، فيفترض أن يكون لشجرة مايو التأثير ذاته على النساء والحيوانات. ففي بعض المناطق في ألمانيا، يضع الفلاحون في الأول من مايو أشجار مايو على أبواب الاصطبلات وزرائب الأبقار بمعدل شجرة لكل فرس أو بقرة. ويعتقد أن هذا يجعل الأبقار تدر حليبا وفيرا. ويقال إن الإرلنديين «يأخذون غصناً أخضر من إحدى الأشجار ويربطونه في الأول من مايو بالمنزل فيجلب لهم الحظ الوفير في فصل الصيف».

وفي اليوم الثاني من يوليو كان أبناء الوند ينصبون شجرة بلوط وسط القرية ويربطون في قمتها ديكا حديديا ثم يرقصون حولها ويسوقون قطعانهم حولها لكي يزداد عددها. أما الشراكس فيرون في شجرة الإجاص حارسا للقطيع، لذا يقطعون شجرة إجاص صغيرة من الغابة، وينزعون عنها الأغصان ثم يحملونها معهم إلى البيت حيث يتخذونها إلها يعبدونه. ولا يكاد منزل تقريبا يخلو من شجرة الإجاص هذه. وفي الخريف، في يوم الاحتفال تحمل الشجرة إلى المنزل بحفل بهيج على نغمات الموسيقى وصيحات الفرح من جميع أهل البيت الذين يكيلون لها المديح على سلامة وصولها. وتغطى الشجرة بالشموع وتربط قطعة من الجبن إلى قمتها. ويأكلون ويشربون ويغنون حولها، ثم يودعونها ويعودون بها إلى الساحة ويسندونها إلى الجدار دون أي مظهر من مظاهر الاحترام.



في الأعلى: حيوانات ونباتات غريبة تتسلق أغصان شجرة في مخطوطة من رحالة عربي من القرن الثالث عشر. لوحة من كتاب عربي، بغداد 1237. المكتبة الوطنية، باريس.

الطرف المقابل: لوحة تبين شجرة الحياة، وتحتها تقف الشخصيتان سينيور وأدبت. من سبلندور سوليس، أوغزبوغ، يعتقد أنها من القرن السادس عشر.

وفي قبيلة توهو التي تسكن جزر الموري تعزى إلى الأشجار القدرة على منح الخصوبة إلى النساء. ويربط الناس بين هذه الأشجار وحبال السرة لأجداد معنيين في الأساطير، مثلما كانت حبال السرة تتدلى من الأطفال حتى عهد قريب. ويتوجب على المرأة العاقر أن تضم شجرة بذراعيها، فتحمل بولد أو بنت بحسب جهة العناق شرقا كانت أم غربا». ولعل عادة وضع شجيرة خضراء، وهي شائعة في أوروبا، على منزل الحبيبة نشأت من الاعتقاد بقدرة روح الشجرة على منح الخصوبة. ففي بعض المناطق



في الأعلى: نصب عمود مايو. هذا العيد الإنجليزي السنوي بالاحتفال بعمود مايو أو شجرة مايو كان يهدف إلى نقل الخصوبة إلى النساء وقطعان الماشية. ويعتقد في الأصل أن هذه الأعمدة كانت تستخدم عصا للمزولة الشمسية في العصر الميغاليثي (قبل 1000 ق.م.).

الطرف المقابل: تمثال من الخشب المطلي لطائر با يعود إلى عهد بطليموس 332 – 330 ق.م. متحف فرويد، لندن.

من بافاريا [29] تنصب مثل هذه الشجيرات أمام بيوت الأزواج الجدد، ويتم التغاضي عن هذه العادة إذا كان موعد الوضع قريباً، ويقولون في تلك الحال إن الزوج « قد أقام شجيرة مايو لنفسه». وعند السلوفانيين الجنوبيين إذا أرادت العاقر أن يكون لها ولد، وضعت قميصاً جديداً على شجرة مثمرة ليلة عيد القديس جورج. وفي صباح اليوم التالي، وقبل الشروق تفحص القميص، فإذا وجدت أن أحد الكائنات الحية قد مشى فوقه تملكها الأمل بأن تتحقق أمنيتها خلال سنة. بعدئذ ترتدي القميص وهي واثقة بأنها ستصبح مثمرة مثل الشجرة التي أمضى القميص ليلته عليها. وعند القره قرغيز تتدحرج العواقر على الأرض تحت شجرة تفاح منفردة لكي يرزقن بالذرية. وأخيرا تعزى القدرة على منح النساء ولادة هينة إلى الأشجار في السويد وإفريقيا. ففي بعض المناطق السويدية كانت هناك شجرة حارسة (مثل الليمون والدردار) بجوار كل مزرعة. ولم يكن يسمح لأحد بقطف ورقة واحدة من أوراق الشجرة المقدسة، وكل من يلحق بها الأذى يعاقب بالمرض والنحس. وكانت النساء الحوامل يحضن الشجرة بأذرعهن لتمنحهن ولادة هينة. وفي بعض قبائل الزنوج في الكونغو تصنع النساء الحوامل لأنفسهن ملابس من لحاء شجرة مقدسة معينة، اعتقادا منهن بأن هذه الشجرة تحميهن من الأخطار التي تصاحب الحمل. وربما تشير قصة ليتو Leto التي ضمت إليها شجرة نخيل وشجرة زيتون أو شجرتي غار حين اقترب موعد ولادتها للتوأمين

(29) بافاريا هي إحدى مقاطعات ألمانيا «المترجم».



الإلهين أبولو وأرتميس إلى اعتقاد مشابه عند قدماء اليونان بقدرة أشجار معينة على تسهيل الولادة.

الفصل السابع

الأخطار المحدقة بالروح



في الأعلى: طائر با برأس بشري يمثل روح الحياة أو نفسَها، يحوم فوق المومياء. في مراسم الدفن المصرية كان با ينفخ في فم المومياء لضمان بقاء المتوفى في الآخرة. كتاب الموتى المصري من ورق البردي. حوالي 1250 ق.م. المتحف البريطاني، لندن.

الطرف المقابل: مصيدة للأرواح يستعملها الكاهن وسكين سحرية وقوالب طباعة فيها حروف سحرية. أداة قديمة تاريخها غير معروف كانت تستعمل حتى أوائل القرن العشرين، عثر عليها عند الحدود بين لاوس وتايلند. مجموعة ريس، نارزبوره، يوركشير، إنلجترة.

كيف يفهم الإنسان البدائي الموت؟ وإلام يرده؟ وكيف يعتقد أن باستطاعته تجنبه؟

على اعتبار أن الإنسان البدائي يفسر عمليات الطبيعة الجامدة بالافتراض بأنها نتاج أشياء حية تعمل ضمن الظواهر الطبيعية أو وراءها، فإنه يفسر ظواهر الحياة ذاتها بالطريقة ذاتها. فإذا رأى حيوانا ما يعيش ويتحرك، اعتقد أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بوجود حيوان صغير في داخله يحركه، وبالتالي إذا كان الإنسان يعيش ويتحرك، فإن هذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان في داخله إنسان أو حيوان صغير يحركه، فالحيوان داخل الحيوان، والإنسان داخل الإنسان هو الروح، وغيابها يفسر سكونه عند نومه أو موته.

فالنوم أو «الغشية» هما غياب مؤقت للروح، أما الموت فهو غيابها الدائم. لذلك، إذا كان الموت الغياب الدائم للروح، فإن السبيل إلى رده يكون إما في منع الروح من ترك الجسد، أو في ضمان عودتها إليه إذا فارقته. أما الخطوات التي اتخذها البدائيون لضمان تحقيق إحدى هاتين الغايتين فتتخذ في شكل محظورات أو محرمات بعينها هي في الحقيقة قواعد تهدف إلى ضمان استمرار وجود الروح أو عودتها، وباختصار هي حافظات الحياة أو حارساتها. وسوف نفسر هذه المقولات العامة من خلال بعض الأمثلة.

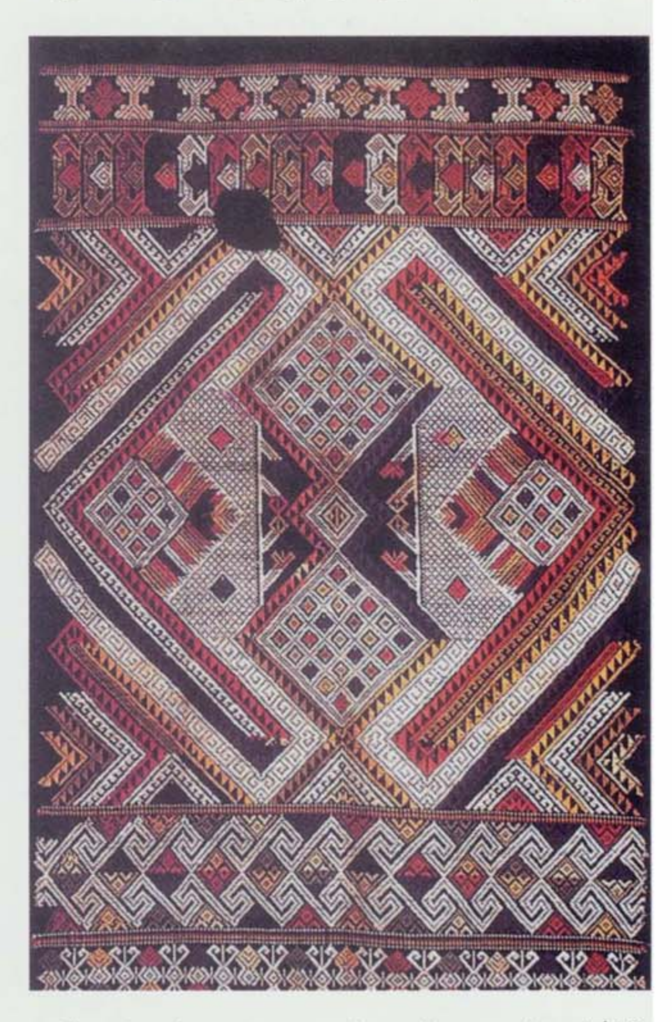
قال أحد المبشرين الأوروبيين مخاطبا بعض سكان أستراليا الأصليين: «أنا لست واحدا كما تظنون، بل اثنين». وهنا انفجر المستمعون بالضحك. لكن المبشر تابع قائلا: «لكم أن تضحكوا كما يحلو لكم، لكني أقول لكم إنني اثنان في واحد؛ فهذا الجسد الكبير الذي ترونه هو واحد؛ بداخله شخص صغير آخر لا يمكن رؤيته. فالجسد الكبير يموت ويدفن، أما الجسم الصغير فيطير بعيدا حين يموت الجسم الكبير». فرد بعض السكان الأصليين: «أجل، أجل، نحن أيضا اثنان، فنحن لدينا جسم صغير داخل صدورنا». ولما سئل بعضهم أين يذهب الجسم الصغير بعد الموت قالوا إنه يذهب وراء الأحراش، وقال آخرون إنه يغوص في البحر، بينما قال آخرون إنهم لا يعرفون.

ويعتقد الهرون [30] أن للروح رأساً وجسماً وذراعين وساقين، وباختصار يعتقدون أنها أنموذج كامل للإنسان ذاته. أما الإسكيمو فيؤمنون بأن «شكل الروح هو من شكل جسد صاحبها، إلا أن طبيعتها أدق وأكثر أثيرية». وأما النوتكا [31] فيرون أن للروح شكل إنسان صغير الحجم؛ وأن مقرها إكليل الرأس. وما دامت الروح منتصبة، كان صاحبها سليما معافى، فإذا فقدت وضعها القائم، فقد الإنسان حواسه. وتعتقد القبائل الهندية في نهر فريزر الأدنى أن للإنسان أربع أرواح، من بينها روح رئيسة لها شكل قزم. أما الأرواح الثلاث الأخرى فهي ظلالها. وفي جزيرة الملايو يعتقد



السكان أن الروح رجل صغير لا يرى بالعين في الغالب ولا يزيد حجمه عن حجم الإبهام، ويشبه الرجل الذي يسكن جسده من حيث الشكل والبشرة. ولهذا القزم طبيعة رقيقة وغير مادية، ومع أنه غير محسوس لكنه قد يشغل حيزاً حين يدخل جسماً مادياً، كما يستطيع الانتقال سريعا من مكان إلى آخر، ويغيب مؤقتا عن الجسد عند النوم والغشية والمرض، ويغيب أبدا بعد الموت.

والشبه بين القزم والإنسان شبه كامل، أي بين الروح والجسد، فكما أن هناك أجسادا بدينة وأخرى نحيفة، فإن هناك روحا



في الأعلى: قماش سحري لكاهن من لاوس يحتوي على رسومات تمثل مصائد الأرواح. من قبيلة دينغ التايلاندية، نهر نام ما، إقليم هوا فان، لاوس. مجموعة ريس، نارزبورة، يوركشير، إنجلترة.

الطرف المقابل: طفل يحمل في الدخان كجزء من عملية تطهير الولادة عند قبيلة أزناد في جنوب السودان.

بدينة وأخرى نحيفة، وكما أن هناك أجسادا ثقيلة وأخرى خفيفة، وأجسادا طويلة وأخرى قصيرة فإن هناك أروحا ثقيلة وأخرى خفيفة، وأرواحا طويلة وأخرى قصيرة. ويظن سكان نياس أن الإنسان يسئل قبل أن يولد عن ثقل وطول الروح التي يريدها، حتى تعد له روح بالثقل والطول المطلوب. وقد بلغ وزن أثقل روح أعطيت لجسد حوالي عشرة جرامات. أما طول حياة الإنسان فيتناسب مع طول روحه. فأرواح الأطفال الذين يموتون صغار قصيرة. أما تصور سكان فيجي للروح على أنها إنسان صغير الحجم فمستمد بشكل واضح من العادات المتبعة عند موت زعيم من قبيلة ناكيلو. فإذا توفي أحد الزعماء، خاطبه جماعة من الرجال ممن يتوارثون مهنة الدفن، وقد زين جثمانه ودهن بالزيت، وسجي على حصيرة فخمة قائلين: «انهض يا سيدي الزعيم، ودعنا ننصرف. فقد طلع النهار على الأرض». بعد ذلك يحملونه إلى ضفة النهر حيث يأتي نوتي يشبه الشبح ليعبر النهر بأشباح ناكيلو، وفي أثناء مرافقتهم للزعيم في رحلته الأخيرة، يجعلون مراوحهم الكبيرة على مقربة من الأرض لحمايته لأن «روحه ليست سوى طفل صغير» بحسب رواية أحدهم إلى المبشرين.

ويعتقد أهل البنجاب الذين يزينون أجسادهم بالوشم أن الروح – وهي «الرجل الصغير أو المرأة الصغيرة» داخل الهيكل الفاني، تذهب عند الموت مزينة بذات الوشم الذي كان يزين الجسد بالحياة. لكن بعضهم لا يتخيل الروح البشرية في هيئة بشر، بل في هيئة حيوان، كما سنرى فيما بعد.

ويفترض بشكل عام أن الروح تخرج من الفتحات الطبيعية في الجسد وبالأخص الفم والأنف. لذا يعمد سكان جزر سيليبس إلى تثبيت صنارات صيد الأسماك في أنف المريض وسرته وقدميه حتى تعلق الروح بالصنارة إذا حاولت الهروب من الجسد. وقد رفض توريكي يعيش على ضفاف نهر بارام في بورنيو التخلي عن حجارة لها شكل الصنارة لأنها تثبت روحه في جسده، وتحول دون انفصال الجزء الروحاني عن الجزء المادي. وعندما يبدأ مشعوذ أو طبيب دجال عمله في سي دياك لمرة الأولى يفترض أن تكون أصابعه مزودة بصنارات صيد السمك التي سيستخدمها فيما بعد في اقتناص الأرواح البشرية التي تحاول الهرب بعيدا عن أجسادها وإعادتها إلى جسد المريض. لكن من الممكن استخدام الصنارات في اقتناص أرواح الأعداء والأصدقاء على حد سواء. وبناء على هذا المبدأ يقوم صيادو الرؤوس في بورنيو بتعليق خطافات خشبية بجانب جماجم أعدائهم المقتولين اعتقادا منهم بأن هذا يساعدهم



في حملاتهم الهادفة إلى اصطياد رؤوس أخرى. ومن الأدوات التي يستعملها الطبيب الدجال في هايدا قطعة عظم جوفاء يجمع فيها الأرواح التي فارقت أجسادها ويعيدها إلى أصحابها. وإذا تثاءب شخص أمام جمع من الهندوس، طقطقوا إبهامهم لمنع الروح من الخروج من الفم المفتوح. كما اعتاد الماركيزان على الإمساك بفم المحتضر وأنفه لإبقائه على قيد الحياة من خلال منع روحه من الهرب. ويقال إن العادة ذاتها تتبع عند سكان كاليدونيا الجديدة. أما الباغوبو في جزر الفلبين فيعمدون إلى وضع حلقات من سلك نحاسي على معصمَي مرضاهم وكاحليهم للغرض ذاته. ومن ناحية أخرى، يقوم أبناء قبيلة الإيتونام في جنوب إفريقيا بإغلاق عيني المحتضر وأنفه وفمه لئلا يخرج شبحه ويحمل معه أناسا آخرين. وللسبب ذاته نرى أن سكان نياس الذين يخافون أرواح الأموات الجدد ويساوون بينها وبين النفَس، يسعون إلى حجز الروح الشاردة في جسدها من خلال سد أنف المتوفى وربط فكيه. واعتاد الناس في قبيلة الواكيلبورا في أستراليا على وضع الجمر في أذني المتوفي قبل تركه بهدف منع الشبح من الخروج من الجثمان قبل ابتعادهم مسافة كافية يعجز معها عن اللحاق بهم. وفي جزر جزر سيليبس الجنوبية، تضع المرضة رباطا حول بطن الحامل وتشده بإحكام حتى تمنع هرب روحها من جسدها عند المخاض. وتطبق قبائل المينانغ كابور في سومطرة عادة مشابهة حيث توضع بكرة من الخيوط حول معصم المرأة أو خاصرتها عند الوضع حتى إذا أرادت الروح أن تفارق الجسد عند المخاض وجدت النافذة مسدودة. وخشية أن تفارق روح الوليد جسده عند ولادته، تعمد قبائل الألفور في جزر سيليبس إلى إغلاق كل فتحات المنزل حتى ثقوب المفاتيح عند اقتراب ولادة الطفل، كما يسدون الشقوق والصدوع في الجدران كافة، ويربطون أفواه جميع الحيوانات داخل المنزل وخارجه خشية أن يبتلع أحدها روح الطفل. وللسبب عينه يلتزم جميع من في البيت، حتى الأم نفسها، بإغلاق أفواههم طوال الولادة. وحين سئلوا لماذا لا يغلقون أنوفهم أيضا لمنع روح الطفل من الدخول في أحدها أجابوا إن الشهيق والزفير من المنخرين يطردان الروح قبل أن يتاح لها الوقت الكافي للاستقرار. إن التعبيرات الشائعة في لغات الشعوب المتحضرة مثل «أن يكون قلب المرء في فمه، أو روحه على شفتيه أو في أنفه» كلها تبين كم هي طبيعية فكرة هرب الحياة أو الروح من الفم أو المنخرين.

وكثيراً ما يتصور الناس الروح في هيئة طائر يوشك أن يطير. وقد ترك هذا التصور آثاره في معظم اللغات، واتخذ شكل الاستعارة

في الشعر. أما سكان الملايو فيعبرون عن مفهوم العلاقة بين الطائر والروح بعدد من الطرق الغريبة. فإذا كانت الروح طائرا في حالة طيران، أمكن استدراجها بوساطة الأرز، فإما أن تمنع من الطيران والهرب أو تجتذب مرة أخرى من طيرانها الخطر. وهكذا نرى في جاوا أن الطفل يوضع في خم الدجاج قبل أن يوضع على الأرض للمرة الأولى (وهي لحظة يعدها غير المثقفين خطرة بشكل خاص) بينما تقلد أمه أصوات الدجاج كما لو كانت تدعوها إليها. وفي سينتانغ وهي إحدى مقاطعات بورنيو، إذا سقط شخص، سواء أكان رجلا أو امرأة أو طفلا، من سطح منزل أو من شجرة، وجيء به إلى بيته، أسرعت زوجته، أو إحدى قريباته إلى موقع الحادث لنثر حبات الأرز المصبوغة باللون الأصفر وهي تمتم: «تعالي إلي أيتها الروح! فلان الفلاني – عاد إلى بيته – تعالي إلي أيتها الروح!» ثم تجمع حبات الأرز في سلة وتحملها إلى المصاب وتنثرها فوق رأسه وهي تقول «تعالي، تعالي أيتها الروح». ومن الواضح أن المقصود هنا استدعاء الروح التائهة المتجسدة في شكل طائر وإعادتها إلى رأس صاحبها.

ويفترض أن روح النائم تخرج من جسده لتزور بالفعل الأماكن التي يراها في نومه، وترى الناس الذين يراهم، وتقوم بالأفعال التي يرى في منامه أنه يقوم بها. فعلى سبيل المثال حين يستيقظ أحد الهنود في البرازيل أو غينيا من نوم عميق، يكون مقتنعاً تماماً بأن روحه كانت خارج جسده تمارس صيد البر أو البحر أو تقطع الأشجار أو تقوم بكل ما رآه في نومه، في الوقت الذي كان فيه جسده مستلقياً في سريره دون أن يبرح مكانه. وفي إحدى المرات ذعر سكان إحدى قرى البورورو وكادوا يهجرونها لأن شخصاً رأى في منامه أن العدو يقترب من القرية خلسة. ويقال إن مريضاً من هنود الماكوزي كان قد رأى في منامه أن رب عمله أجبره على حمل قارب إلى أعلى عدد من الشلالات الصعبة، عاتب رئيسه صباح اليوم التالي على تبلد إحساسه وإجباره مريضاً مسكيناً على الخروج والعمل في الليل. وكثيراً ما يسمع أن هنود جران شاكو يتناقلون قصصاً لا تصدق مؤكدين أنها أشياء رأوها أو سمعوها بأنفسهم، وهكذا يظن الغرباء الذين لا يعرفونهم عن كثب بأن هؤلاء الهنود كاذبون. وفي الواقع فإن الهنود على اقتناع تام بصدق رواياتهم، لأن هذه المغامرات المدهشة ما هي سوى أحلامهم التي لا يميزونها عن حقائق يقظتهم.

إن لغياب الروح عن الجسد في أثناء النوم محاذيره، فإذا حدث وأعيقت الروح لأي سبب من الأسباب عن العودة إلى الجسد، فإن الشخص الذي حرم هذا العنصر الحيوي لا بد أن يموت. وفي ألمانيا اعتقاد يقول إن الروح تهرب من جسد النائم في شكل فأر أبيض أو طائر صغير، وإن منع الفأر أو الطائر من العودة يسبب موت النائم. ففي ترانسلفانيا [32] يقال إن من الخطأ ترك الطفل ينام مفتوح الفم لئلا تتسلل روحه في شكل فأر، فلا يفيق الطفل ثانية. وهناك أسباب كثيرة لاحتجاز روح النائم. ومن المحتمل أن تقابل روحه روح نائم آخر فيقع عراك بين الروحين. فإذا استيقظ أحد زنوج غينيا ورأى في جسمه كدمات في الصباح، حسب أن روحه تعرضت للضرب من قبل روح أخرى وهو نائم. أو ربما تصادف روح شخص توفي حديثا فتحملها معها. لذلك نرى أن سكان البيت في جزر آرو لا ينامون فيه بعد موت أحدهم لأنهم يفترضون بقاء روح المتوفى في المنزل ويخشون لقاءها وهم نيام. كما يمكن منع روح النائم من العودة إلى جسده إذا ما تعرضت لحادث أو خضعت لتأثيره قوة مادية. فإذا رأى أحد جماعة الدياك في منامه أنه يسقط في الماء، افترض أن هذا الحادث وقع لروحه بالفعل، فيرسل في طلب المشعوذ الذي يحاول اصطيادها بشبكة يدوية في حوض ماء إلى

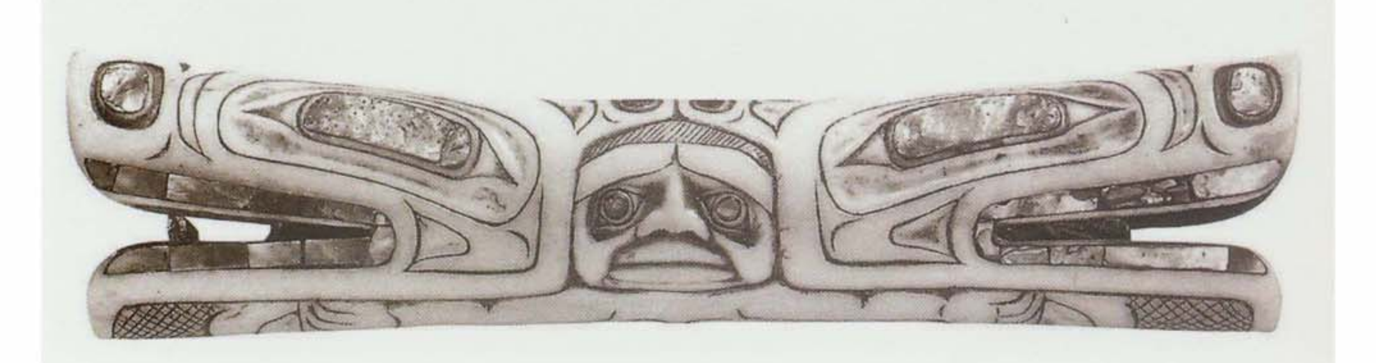
(32) يقع أقليم ترانسيلفانيا في قلب رومانيا، وهو أحد أقاليم رومانيا التسعة ويعتبر القلب التاريخي لرومانيا، ويضم عدة محافظات رومانية «المترجم».

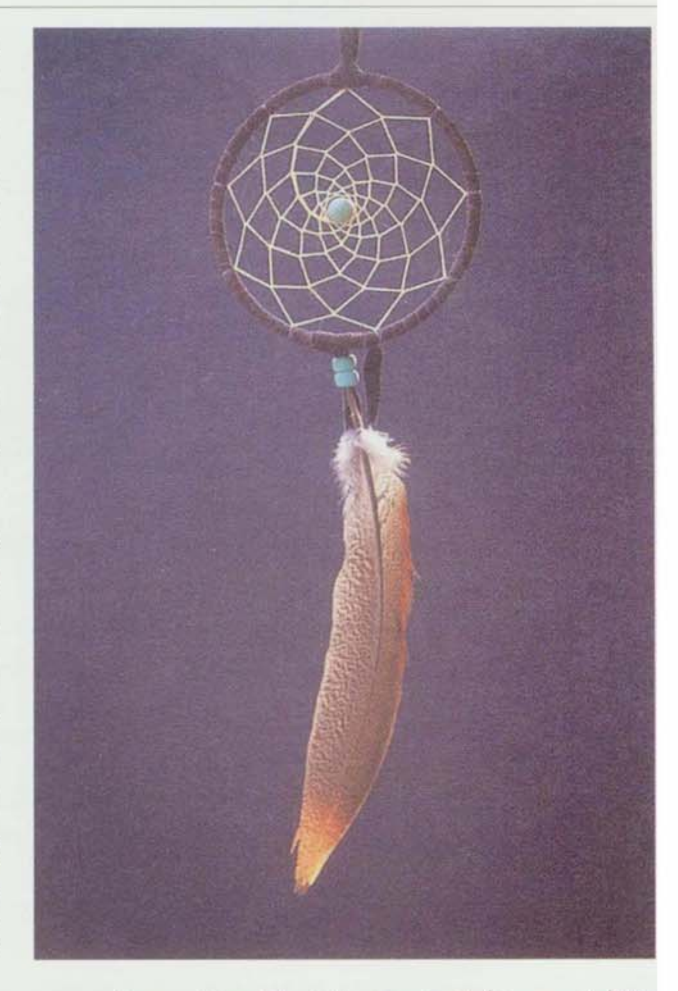
أن يمسك بها ويعيدها إلى صاحبها. ويروي السنتال حكاية رجل استسلم للنوم، وحين استبد به العطش، خرجت روحه من جسده في هيئة سحلية ودخلت الماء حتى تشرب، وصادف في تلك اللحظة بالذات أن قام صاحب الإناء بتغطيته، فلم تستطع الروح العودة إلى الجسد ومات الرجل. وبينما كان رفاق المتوفى يعدون العدة لإحراق الجثة أزاح أحدهم الغطاء عن الإناء ليصيب بعض الماء، فهربت السحلية وعادت إلى الجسد فعاد الرجل إلى الحياة على الفور ونهض وسأل رفاقه عن سبب بكائهم، فأخبروه بأنهم حسبوه ميتا، وكانوا على وشك أن يحرقوا جثته. فقال لهم إنه كان أسفل بئر ليحصل على الماء لكنه وجد صعوبة في الخروج من البئر، وإنه قد رجع لتوه. وبذلك رأى الجميع كل ما حدث.

ومن العادات السائدة لدى البدائيين عدم إيقاظ النائم مخافة أن لا تجد روحه التي خرجت من جسده الوقت الكافي للعودة إليه. فإذا أوقظ النائم وروحه خارج جسده، أصيب بالمرض. أما إذا دعت الضرورة إلى إيقاظه، فيجب أن يتم ذلك بالتدريج حتى يتاح للروح الوقت الكافي للعودة. ويحكى أن رجلاً اسمه فيجيا من ماتكو أوقظ فجأة من قيلولة حين وطأ أحدهم قدمه، سمع وهو ينادي روحه ويتوسل إليها كي تعود إليه. فقد كان يحلم أنه بعيد في تونغا، وذعر حين استفاق ووجد جسده في ماتوكو، إذ كان على شفير الموت ما لم تسارع روحه على الفور إلى عبور البحر وإعادة الحياة إلى مقرها المهجور. وكان من الممكن أن يموت الرجل من الرعب لولا وجود أحد المبشرين الذي هدأ من روعه. لكن الخطر الأشد عند الإنسان البدائي يكمن في تحريك النائم أو تغيير مظهره لأن ذلك يمنع الروح حين تعود إليه من التعرف على جسدها أو العثور عليه فيموت صاحبها. لذلك يرى أبناء قبائل الميناغ كاباور أن من غير المستحب إطلاقا أن يطلى وجه النائم بالسواد أو توسيخه حتى لا تنفر الروح الغائبة من دخول جسد مشوه. ففي اعتقاد أهل الملايو من الباتان أنه إذا دُهن وجه شخص وهو نائم، تعذر على الروح التي خرجت من جسده التعرف عليه ثانية، فيظل نائما حتى يغسل وجهه. وفي بومباي، يعد تغيير مظهر النائم – كأن يدهن وجهه بألوان غريبة، أو يوضع شارب على وجه امرأة نائمة – عملاً يرقى إلى مستوى الجريمة. لأن الروح حين تعود لا تستطيع التعرف على جسدها، فيموت النائم. لكن لا يشترط في خروج الروح من جسدها أن يكون الشخص نائماً. إذ إن من الممكن أن تخرج منه خلال ساعات صحوه، فإذا حدث ذلك، أدى إلى موته أو مرضه أو جنونه. ويحكى أن رجلاً من قبيلة وورن – جيري الأسترالية أوشك على الموت لأن روحه فارقته. فقام طبيب دجال بمطاردة الروح حتى أمسك بها من وسطها وهي تهم في الغوص في وهج الغروب، وهو الضوء الذي ينبعث من أرواح الموتى في أثناء دخولها العالم السفلي وخروجها منه، حيث تخلد الشمس إلى الراحة. فبعد أن أمسك الطبيب الدجال بالروح، عاد بها تحت سجادته المصنوعة من جلد الأبوسوم وانحنى فوق المحتضَر ليعيد إليه روحه، فعادت إليه الحياة بعد مدة من الزمن. أما الكارين في بورما فهم في قلق دائم بشأن أرواحهم، خشية أن تخرج هائمة من أجسادهم وتترك أصحابها ليموتوا. فإذا أحس أحدهم أن روحه توشك أن تخطو هذه الخطوة المميتة، سعى للاحتفاظ بها أو لاسترجاعها من خلال

الطرف المقابل: قارب أرواح من قوارب الإسكيمو من ألاسكا.

في الأسفل: مصيدة أرواح تعود لكاهن من الهنود الحمر من قبيلة تلينغيت في الساحل الشمالي الغربي من الولايات المتحدة وكندا. مصنوع من العظم المطعم بالأصداف. حين تخرج الروح من الجسد بسبب المرض، يكلف كاهن للخروج واصطيادها بهذه المصيدة وإعادتها إلى المريض لكي يتماثل للشفاء. المتحف الإقليمي، فكتوريا، كولومبيا البريطانية، كندا.





في الأعلى: مصيدة أحلام تقليدية تعود للهنود الكنديين كانت تستعمل من قبل الكهنة لاصطياد الأحلام الليلية التي يصعب الإمساك بها. متحف هل للحضارات، كويبك، كندا.

الطرف المقابل: مزار الأرواح في مدينة بورمية بولاية أراكان.

طقوس معينة يتوجب على جميع أفراد الأسرة المشاركة فيها. وتحضر وجبة طعام تتألف من ديك ودجاجة ومن نوع معين من الأرز وقرط من الموز. بعدئذ يتناول كبير الأسرة وعاءا يستخدم في كشط الأرز، ويطرق به على أعلى سلم المنزل ثلاث مرات وهو يقول «بررروو! عودي أيتها الروح، لا تتأخري في الخارج! إذا أمطرت أصبت بالبلل، وإذا سطعت الشمس، أصابك الحر. ستلسعك الحشرات، وتعضك الديدان، وتفترسك النمور، ويسحقك الرعد. بررروو! عودي أيتها الروح! ستكونين في مأمن هنا، ولن يعوزك شيء. تعالي وكلي تحت الملجأ من الرياح والعاصفة». بعد ذلك تشارك الأسرة في تناول الوجبة، وتنتهي المراسم حين يربط كل منهم معصمه الأيمن بخيط سَحَرَه المشعوذ. وتعتقد قبائل اللولو في جنوب غرب الصين أيضاً أن الروح تغادر الجسد عند الإصابة بمرض مزمن. وفي تلك الحال يقرؤون نوعا محددا من الابتهالات ويناشدون الروح بالاسم متوسلين إليها كي ترجع من التلال والوديان والأنهار والغابات والحقول، أو من حيث شردت. في الوقت ذاته، توضع، أكواب من الماء والخمر والأرز عند الباب لتتناولها الروح التائهة التعبة. وعند انتهاء المراسم يربطون حبلا أحمر اللون حول ذراع المريض لتربط به الروح، ويبقى هذا الحبل مربوطا بذراعه إلى أن يتحلل ويسقط من تلقاء نفسه.

وتعتقد بعض قبائل الكونغو أن الروح تفارق جسد المريض وتشرد بكامل حريتها. وهنا يحتاج الأمر إلى معونة المشعوذ لكي يمسك بالروح الشاردة ويعيدها إلى المريض. ويعلن الطبيب المشعوذ عادة أنه نجح في مطاردة الروح إلى غصن شجرة. عندئذ تخرج القرية عن بكرة أبيها بصحبة الطبيب الدجال إلى تلك الشجرة حيث يكلف أقوى الرجال بكسر الغصن الذي يفترض أن تكون روح المريض عالقة فيه. بعد ذلك يعود الناس بالغصن المكسور إلى القرية وهم يؤدون حركات توحي بثقل العبء الذي يحملون. ولدى وصول الغصن إلى كوخ المريض، يطلب منه الجلوس بجانبه ثم يتمتم المشعوذ بالعبارات السحرية التي يعتقد أنها أعادت الروح إلى صاحبها.

وتعزو جماعات الباتاك في سومطرة الهزال والمرض والخوف الشديد والموت إلى غياب الروح عن الجسد، ويسعون في بداية الأمر إلى إرجاع الروح إلى صاحبها واستدراجها بالأرز كما لو كانت واحدا من الطير، ثم يكررون العبارات التالية: «عودي أيتها الروح، سواء أكنت سائحة في الغابات أم في التلال أو الوديان. انظري، ها أنا أناديك بحق التومبا برا toemba bras وبيضة طائر الراجا موليجا، وأوراق الشفاء الإحدى عشرة. لا تؤخروها، دعوها تأت إلى هنا على الفور، لا تؤخروها في الغابة ولا في التل، ولا في الوادي. عسى ألا يحدث هذا! تعالي إلى البيت على الفور!» وذات مرة، حين كان أحد الرحالة المعروفين يهم بمغادرة إحدى قرى كايان خشيت أمهات الأطفال من أن تلحق به أرواح أطفالهن في رحلته تلك فجئن إليه ومعهن الألواح المستخدمة في حمل أطفالهن ورجونه أن يدعو الأرواح حتى تعود إلى الألواح المعهودة وألا تسافر معه إلى البلاد البعيدة. وكان على كل لوح من الألواح خيط فيه أنشوطة الغرض منه ربط الأرواح الشاردة، وكان على كل طفل أن يمرر أصبعا في





في الأعلى: رسم على قماش حديث لاستحضار السحر بالتعاويذ ويبين الكهنة ومعهم آلات موسيقية. من الشرغوف المغني، أو الخنزير في البركة، للفنان ثيسالونيوس لويولا، 1987.

الطرف المقابل: صورة «أحد كبار الشياطين» المعروف في تقاليد السحر الأسود باسم جاب، ويقال إنه حاكم الغرب. من مخطوطة مأخوذة من قاموس جهنم لكولين دي بلانسي، 1864.

الأنشوطة لضمان عدم شرود روحه الصغيرة خارج جسده.

وتروي إحدى الحكايات الهندية أن ملكا وضع روحه في جثة براهما، وأن أحدبَ وضع روحه في جسد الملك المهجور، وبذلك أصبح الأحدب ملكا، والملك براهما. لكن الأحدب، تسرع في استعراض مهارته ونقل روحه إلى جثة ببغاء ميت، فما كان من الملك إلا أن انتهز الفرصة واستعادة جسده من جديد. وهناك قصة مشابهة مع اختلاف في التفاصيل يرويها سكان الملايو. وتروي الحكاية أن ملكا ارتكب حماقة حين نقل روحه إلى قرد، إذ سارع الوزير في تلك اللحظة إلى إدخال روحه في جسد الملك واستولى بذلك على الملكة والمملكة، في حين بقي الملك الحقيقي يتألم وهو في هيئة قرد في البلاط. وذات يوم بينما كان الملك الزائف يشهد مبارزة، وكان مولعا بالمقامرة، خر الحيوان الذي راهن عليه بمبلغ كبير من المال صريعا، وفشلت كل الجهود الذي بذلت لإعادته إلى الحياة، لكن الملك، مدفوعا بحبه الغريزي للرياضة، قرر أن ينقل روحه إلى جثة الكبش الميت لكي يبدأ الصراع من جديد. ورأى الملك الحقيقي وهو في جسد القرد هذه الفرصة، وبحركة ألمعية عظيمة انطلق عائدا إلى جسده القديم بعد أن تسرع الوزير في إخلائه. وبذلك عاد الملك إلى جسده، أما المغتصب في جسد الكبش فلاقى مصيره الذي استحقه عن جدارة. ويروي أهل اليونان كيف أن روح هيرموتيموس الكلازوميني كانت تخرج من جسده وتهيم هنا وهناك وتعود بأخبار ما رأته وهي في تجوالها إلى أصدقائها في موطنها، إلى أن تمكن أعداؤه ذات يوم، وبينما كانت روحه غائبة، من القبض على جسده المهجور وإحراقه.

ولا تخرج الروح من الجسد طواعية دائماً، بل من الممكن أن تنزع من الجسد قسرا من خلال الأشباح والشياطين أو المشعوذين. فإذا اتفق مرور جنازة بأحد البيوت، سارع الكارينيون إلى ربط أطفالهم بنوع خاص من الحبال بطرف معين من البيت، حتى لا تغادر أرواح الأطفال أجسادهم، وتلحق بالجثة التي تمر ببابهم. ويبقى الأطفال مقيدين على هذه الحال حتى تختفي الجنازة عن أعينهم. وبعد إنزال الجثة إلى اللحد، وقبل أن يهال التراب عليها، يتحلق أصدقاء المتوفى والثكالى حول القبر وفي يد كل منهم عود من القصب شطر نصفين بالطول وعصا صغيرة باليد الأخرى، فيدخل كل رجل عود القصب في القبر ويمرر العصا في المجرى المنحني للقصبة ليدل الروح على طريق الخروج من القبر بسهولة. وحين ينهال التراب على الجثة، يحرص الناس على إبعاد أعواد القصب عن القبر مخافة أن تكون الروح في أحدها فتدفن عن غير قصد مع التراب الذي يرمى في القبر. وحين يغادر الناس موقع الدفن يحملون معهم أعواد القصب وهم يتوسلون إلى أرواحهم أن تصحبهم. وبعد عودتهم من القبر، يتزود كل فرد من جماعة الكارين بثلاثة خطافات مصنوعة من أغصان الأشجار ثم ينادي روحه بأن تتبعه المرة تلو الأخرى وهو في طريق عودته ويقوم بحركة توحي بأنه يمسك بها الخطاف ويرمي الخطاف بعد ذلك إلى الأرض. كل هذا ليمنع روح الحي من البقاء مع روح الميت. وعند جماعة الكاروباتاك، تجري مشعوذة وهي تضرب الهواء بعصا بعد الانتهاء من دفن الميت لكي تبعد أرواح الأحياء، فإذا سقطت إحدى هذه الأرواح صدفة في القبر وأهيل عليها التراب، مات صاحبها.

أما في أويا، وهي من جزر الموالاة، فيعتقد الأهالي أن لروح الأموات القدرة على سرقة أرواح الأحياء. فإذا مرض أحدهم، ذهب طبيب الأرواح بصحبة فريق من الرجال والنساء إلى المقبرة، فيعزف الرجال على الناي وتصفّر النساء بنعومة لحض الروح على العودة إلى المنزل. وبعد مدة من الزمن، ينتظم هؤلاء في موكب ويعودون أدراجهم إلى البيت، بينما يستمر الرجال في عزف الناي والنساء في الصفير، وهم يقودون الروح التائهة ويسوقونها بلطف بأيديهم المفتوحة. وعند دخولهم بيت المريض، يأمرون الروح بصوت عال بأن تدخل جسده.

وغالباً ما تترك عملية اختطاف روح المرء إلى الشياطين،



لذلك ينسب الصينيون النوبات والتشنجات التي تصيب الإنسان إلى نشاط أرواح شريرة معينة تعشق انتزاع أرواح الناس من أجسادهم. ففي أموي تسر الأرواح المختصة بالأطفال والصغار بالألقاب الرنانة مثل «العناصر السماوية أفضل من امتطى الجياد العاديات» و «خريجو الأدب الذين يسكنون في منتصف المسافة إلى السماء». فحين يتلوى الطفل من حدة التشنجات، تهرع الأم الخائفة إلى سطح المنزل وتلوح بعود من القصب ربط به قطعة من ثياب الطفل، وتصيح بأعلى صوتها «يا ولدي – الفلاني – ارجع، ارجع إلى البيت!» وفي تلك الأثناء يدق أحد سكان البيت على لوح معدني أملا في جذب انتباه الروح الشاردة التي يفترض أن تتعرف على الثياب المألوفة وتتسل داخلها. بعدئذ توضع قطعة الملابس على الطفل أو بجانبه، وبذلك لا يموت الطفل، ويتبع ذلك الشفاء المؤكد بعد مدة تطول أو تقصر. ويقوم بعض الهنود بالإمساك بالروح الضائعة في حذاء الرجل وإعادته إلى جسده من خلال جعله يلبس حذاءه.

وفي جزر الملوكا إذا مرض الإنسان، ظن أهله أن شيطانا ما

أخذ روحه إلى الشجرة، أو الجبل، أو التل حيث يسكن هذا الشيطان. فإذا حدد المشعوذ مسكن الشيطان حمل أصدقاء المريض إلى ذلك الموقع أرزا مطبوخا، وفاكهة، وسمكا، وبيضا طازجا، ودجاجة، وثوبا حريريا، وذهبا، وأساور، وما شابه ذلك. وبعد ترتيب الطعام يقول القوم: «جئنا إليك أيها الشيطان لنقدم الطعام والملابس والذهب، إلخ! خذ كل هذا وأطلق روح المريض الذي ندعوله. دعها ترجع إلى جسده، لكي يعود المريض الآن سليما معافى». بعدئذ يتناول الجميع بعض الطعام، ثم يطلقون الدجاجة فدية لروح المريض، ويضعون البيض الطازج على الأرض، لكنهم يعودون بالثوب الحريري والأساور والذهب. وفور وصولهم إلى المنزل يضعون وعاء فيه كل القرابين التي عادوا بها عند رأس المريض ويقولون له: ها قد أطلق سراح روحك، وسوف تتحسن حالك وتعيش حتى يشيب شعرك فوق الأرض».

وأكثر من يخشى الشياطين أولئك الذين دخلوا بيتاً جديداً. لذلك يقوم الكاهن في حفل تدشين البيت عند الألفور المناهاسيين في جزر سيليبس بأداء مراسم خاصة لإعادة الأرواح إلى أهل الدار. فيعلق كيساً في مكان النحر ثم يقرأ لائحة بأسماء الآلهة، وتستغرق القراءة الليل بأكمله دون توقف نظراً لكثرة عددها. وفي الصباح يقدم إليها بيضة وشيئاً من الأرز. في ذلك الوقت، يفترض أن تكون أرواح أهل الدار قد تجمعت في الكيس، فيأخذه الكاهن ويحمله بيده فوق رأس رب البيت وهو يقول: «هاهي روحك؛ أخرجي أيتها الروح غداً مرة أخرى». ثم يقوم بالشيء ذاته فوق رأس ربة البيت وجميع أفراد الأسرة. ومن الطرق المتبعة في استعادة روح المريض عند جماعة الألفور عينها الإدلاء بوعاء من النافذة معلق بحزام من الجلد للإمساك بالروح بالوعاء وسحبها إلى الأعلى. وحين يعود الكاهن بروح المريض التي أمسكها في قطعة من القماش، تسير أمامه فتاة تحمل ورقة كبيرة من نخيل معين فوق رأسه تحميه والروح التي يحملها من البلل إذا ما أمطرت، ويتبعه رجل يشهر سيفه ليردع الأرواح الأخرى عن محاولة إنقاذ الروح الحبيسة.

وقد تسترجع الروح الشاردة أحياناً في هيئة مرئية. فجماعة الساليش وهي من الهنود الحمر في أوريغون، يعتقدون أن من الممكن الفصل بين روح الإنسان وجسده دون أن يسبب ذلك موته وبدون أن يحس الإنسان بفقدانها. لكن من الضروري العثور على الروح بسرعة وإعادتها إلى صاحبها وإلا مات. ويتم الكشف عن اسم الشخص الذي فقد روحه في حلم الطبيب المشعوذ الذي يهرع ليخبر المصاب بما فقده. وبصفة عامة، يكون عدد من الناس قد فقدوا أرواحهم في الوقت ذاته؛ ويكتشف الطبيب المشعوذ أسماءهم جميعا، فيطلبون منه استعادة أرواحهم ويقضي هؤلاء الرجال الذين فقدوا أرواحهم الليل وهم يتنقلون من كوخ إلى آخر يغنون ويرقصون. وقبيل الفجر، يدخلون كوخاً منعزلاً، فتغلق أبوابه ونوافذه بحيث يخيم فيه ظلام دامس. ثم تفتح فتحة صغيرة في السقف يكنس من خلالها الطبيب الدجال بحزمة من الريش، الأرواح وهي في هيئة قطع من العظام وما شابه ذلك، فيقوم بجمعها في قطعة من الحصير. بعد ذلك توقد نار فيبدأ الطبيب المشعوذ بفرز الأرواح في ضوئها، فيضع أولا أرواح الموتى جانباً، وهي عديدة في العادة، لأنه إذا أعطى روح ميت إلى رجل حي، مات الرجل على الفور. بعدئذ ينتقي أرواح جميع الحاضرين، فيطلب منهم الجلوس أمامه، ثم يأخذ روح كل واحد منهم، وهي في شكل شظية من العظام أو الخشب أو الصدف، فيضعها على رأس صاحبها ثم يمسح عليها وهو يتمتم بكثير من التعاويذ والحركات إلى أن تنزل في القلب وبذلك تعود إلى مكانها الملائم.

ومن ناحية أخرى، يمكن للأرواح أن تنتزع من أجسادها أو تحتجز وهي في شرودها لا بوساطة الشياطين والأشباح وحسب، بل بوساطة البشر أيضا، وبالأخص المشعوذين. ففي فيجي إذا رفض المجرم الاعتراف بجريمته، طلب الزعيم منديلا ليستعمله في القبض على روح المارق». وما أن يرى المجرم أو حتى يسمع به حتى يعترف بكل شيء. لأنه إذا لم يفعل، لوح الزعيم بالمنديل فوق رأسه إلى أن يقبض على روحه فيه، حيث يلف المنديل بعناية ثم

في الأعلى: مثقاف للأسهم من الإسكيمو في ألاسكا مع نقوش تمثل رؤوس الرنة. كان يعتقد أيضا أنه يستعمل لتدليك روح الرنة لتسهيل عملية اصطياد الحيوان. متحف البشرية، لندن.

الطرف المقابل: منازل مصغرة ينبت للأرواح، في قاعدة جرف صخري في توراجالاند، سولاويزي، إندونيسيا.



يثبت بالمسامير في نهاية قارب الزعيم. عندها يصاب المجرم بالهزال ويموت بسبب الافتراق عن روحه. أما المشعوذ في جزيرة الخطر فيستعمل مجموعة من مصائد الأرواح. و يتراوح طول هذه المصائد بين خمسة عشر وثلاثين قدماً، وبها أنشوطات على طرفيها من أحجام متنوعة، لتلائم مختلف أحجام الأرواح. فهناك أنشوطات كبيرة للأرواح البدينة، وأنشوطات ضعيفة للأرواح الصغيرة. فإذا مرض رجل وكان المشعوذ حاقدا عليه، نصبوا مصائد الأرواح قرب بيته وانتظروا هروب روحه. فلو كانت في شكل طائر أو حشرة، علقت بالمصيدة، ومات الرجل بكل تأكيد. وفي بعض مناطق غرب إفريقيا لا يكف السحرة عن نصب المصائد للقبض على الأرواح التي تشرد من أجسادها في أثناء النوم، فإذا أمسكوا واحدة، ربطوها فوق النار، وحين تتلوى الروح من الألم، يصاب صاحبها بالمرض. ولا يفعل المشعوذ هذا بدافع غل يحمله على المصاب، بل بدافع عمل يؤديه لا أكثر ولا أقل. ولا يكترث المشعوذ بصاحب الروح التي أمسك بها، بل يعيدها سريعا إلى صاحبها إذا ما تلقى أجره عن هذه المهمة. والأكثر من هذا أن لدى بعض المشعوذين ملجأ يحفظون به الأرواح الشاردة، وباستطاعة كل من أضاع روحه أن يحصل على روح أخرى من الملجأ بعد أن يدفع الثمن المتعارف عليه. ولا يتحمل المشعوذون تبعة إقامة هذه الملاجئ الخاصة أو نصب المصائد للأرواح المارة؛ فهذه هي حرفتهم، ولا يثيرون من جراء ذلك أية ضغائن أو أحقاد ضدهم، لكن هناك بعض الأشرار الذين يتعمدون نصب المصائد ووضع الطعم فيها بهدف اقتناص روح شخص بعينه؛ ويضعون في أسفل الوعاء وتحت الطعم بعض السكاكين والخطافات الحادة التي تمزق الروح المسكينة فتقتلها على الفور أو تلحق بها الأذى حتى تسبب المرض لصاحبها إذا تمكنت من الهرب والعودة إليه. وقد تعرفت الآنسة كينغزلي إلى رجل كروماني انتابه القلق لأنه كان يشم في أحلامه، وعلى مدى ليال عدة، الرائحة الشهية لسلطعان البحر المتبل بالفلفل الأحمر. ومن الواضح أن أحد الحاقدين نصب فخا ووضع هذه الأكلة الشهية طعما لروح أحلامه بنية



إلحاق الأذى البالغ بجسده، أو بالأحرى بروحه، وقد بذلت جهود مضنية على مدى الليالي التالية لمنع روحه من الخروج من جسده والشرود في أثناء نومه. ففي حر الليالي الاستوائية اللاهب، كان يرقد تحت بطانية مكمم الأنف والفم والعرق يتفصد من جسده لكي يمنع روحه الثمينة من الهرب! وفي هاواي أمسك مشعوذون أرواح بعض الأحياء وحبسوها في يقطينات يابسة ثم أعطوها للناس ليأكلوها. ومن خلال عصر روح حبيسة بأيديهم، كانوا يكتشفون الأماكن التي دفن فيها الناس سرا.

وليس ثمة مكان في العالم يبرع فيه الناس في فن خطف الأرواح البشرية والإبداع في هذا الفن أكثر من شبه جزيرة الملايو. فهنا تتنوع دوافع المشعوذ والأساليب التي تبعها لتحقيق مآربه، فتارة يتطلع إلى تدمير أعدائه، وتارة إلى كسب ود فتاة جميلة خجولة أو لا تبادله مشاعره. ولكي نطلع على مثال من النوع الثاني من السحر، نورد التعليمات التالية لكي تستخدمها في أسْر روح شخص تريد تحطيمه. إذا طلع البدر بلونه الأحمر من وراء الأفق الشرقي أخرج وضع إصبع قدمك اليمنى الكبير فوق إصبع قدمك اليسرى وأنت واقف في ضوء القمر، ثم اعمل من يدك اليمنى مكبر صوت وقل الكلمات التالية:

يغيب عني شعاع الضوء، يغيب عني وغيوم القمر فوقه،
يغيب عني والشمس انطفأت،
يغيب عني والنجوم بهتت.
لكني لا أرمي الشمس أو القمر أو النجوم،
بل أرمي قلب ذلك الفتى من الجماعة الفلانية
تعالي، تعالي! يا روح فلان الفلاني، وامش معي.
تعالي واجلسي معي،
تعالي ونامي على وسادتي،
تعالي، تعالي أيتها الروح!

كرر هذه الكلمات ثلاث مرات، وانفخ بعد كل مرة في قبضة يدك الفارغة. كما يمكنك الإمساك بالروح باستعمال عمامتك بالطريقة التالية: اخرج في ليلة يكون القمر فيها بدرا وفي الليلتين التاليتين اجلس على تل نمل في مواجهة القمر وأشعل البخور، وتلفظ بالتعاويذ التالية:

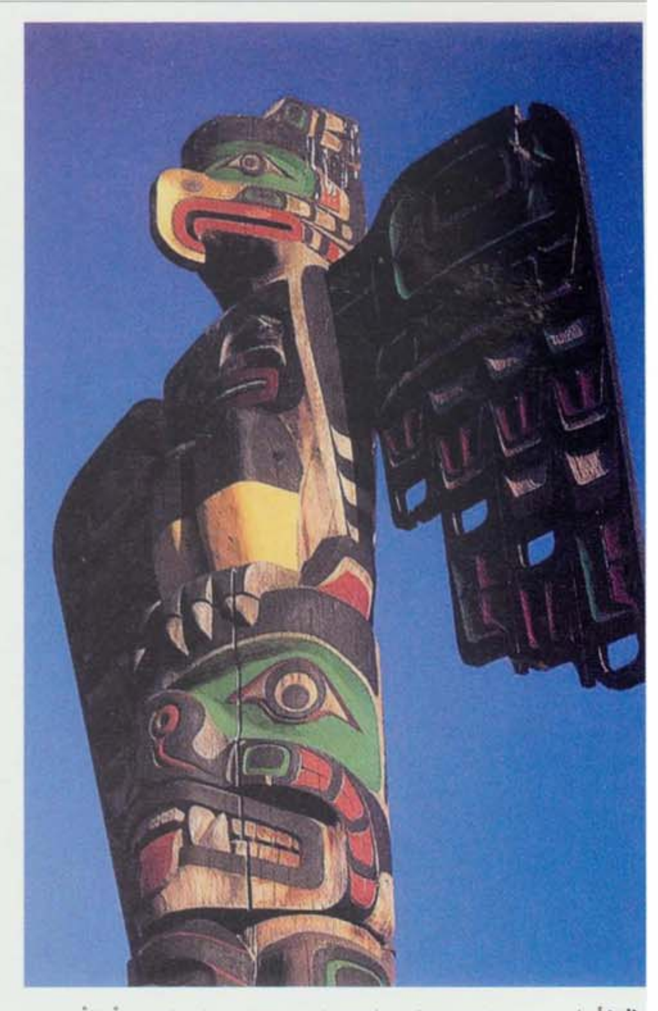
جلبت إليك ورقة كوثل لتمضغها،
أضف إليها الليم (الليمون الحامض) أيها الأمير، ضاري
لتمضغها فلانة بنت «الأمير تشتيت»
حتى تتيّم فلانة بحبي عند الشروق
وتتيم فلانة بحبي عند الغروب
اذكريني كما تذكرين والديك
كما تذكرين بيتك ودرج بيتك
اذكريني
مع قصف الرعد، اذكريني
مع صفير الرياح، اذكريني
مع مطر السماء، اذكريني
مع صياح الديك، اذكريني
مع تغريد طائر المزولة، اذكريني
وأنت تنظرين إلى الشمس، اذكريني
وأنت تنظرين إلى القمر، اذكريني
لأنني هناك في ذلك القمر!
تعالي، تعالي يا روح فلانة، تعالي إلي!
أنا لا أعني أن أدعك تأخذي روحي،
بل أن تدعي روحك تأت إلى روحي.

ثم لوح بعمامتك نحو القمر سبع مرات كل ليلة، قبل أن تذهب إلى البيت وتضعها تحت وسادتك. أما إذا أردت أن تضع العمامة في النهار، فاحرق البخور وقل: «هذه ليست عمامة التي أحملها في حزامي، بل هي روح فلانة».

أما الهنود في حوض نهر ناس في كولومبيا البريطانية فيعتقدون أن الطبيب قد يبتلع روح مريضه عن طريق الخطأ. في تلك الحال يطلب بقية أعضاء الهيئة الطبية من الطبيب الذي يعتقد أنه ابتلع روح مريضه أن يقف فوق المريض، فيدخل أحدهم أصابعه في حلقه

في الأعلى: قناع أرواح خشبي من غرب إفريقيا يسمى تانكاغلي يعود إلى مجمع قبيلة دانغ – نغيري. يمثل القناع شابا وسيما ويجسد روحا تسمى دو التي تعيش عادة خارج القرية في الغابة أو التل. معرض إنتويسل، لندن.

الطرف المقابل: كهنة من لابلاند في القرن الثامن عشر في غشية إلهية. من احتفالات بيكارت الدينية. باريس 1730.



في الأعلى: عمود طوطمي خاص بالهنود الحمر يمثل حراس القبيلة أو الأرواح. يقوم هذا الطوطم في وسط فانكوفر، كولومبيا البريطانية.

الطرف المقابل: البيت الفارغ لشخص توفي من قبيلة الأزاندي في جنوب السودان تبين كل ممتلكاته في خارج المنزل. ولا يعتقد أن أيا من الأزاندي مات من أسباب طبيعية، بل يموت الجميع بسبب لعنة تلاحقهم. وتحرق الدار بعد إخلائها من محتوياتها للتخلص من اللعنة.

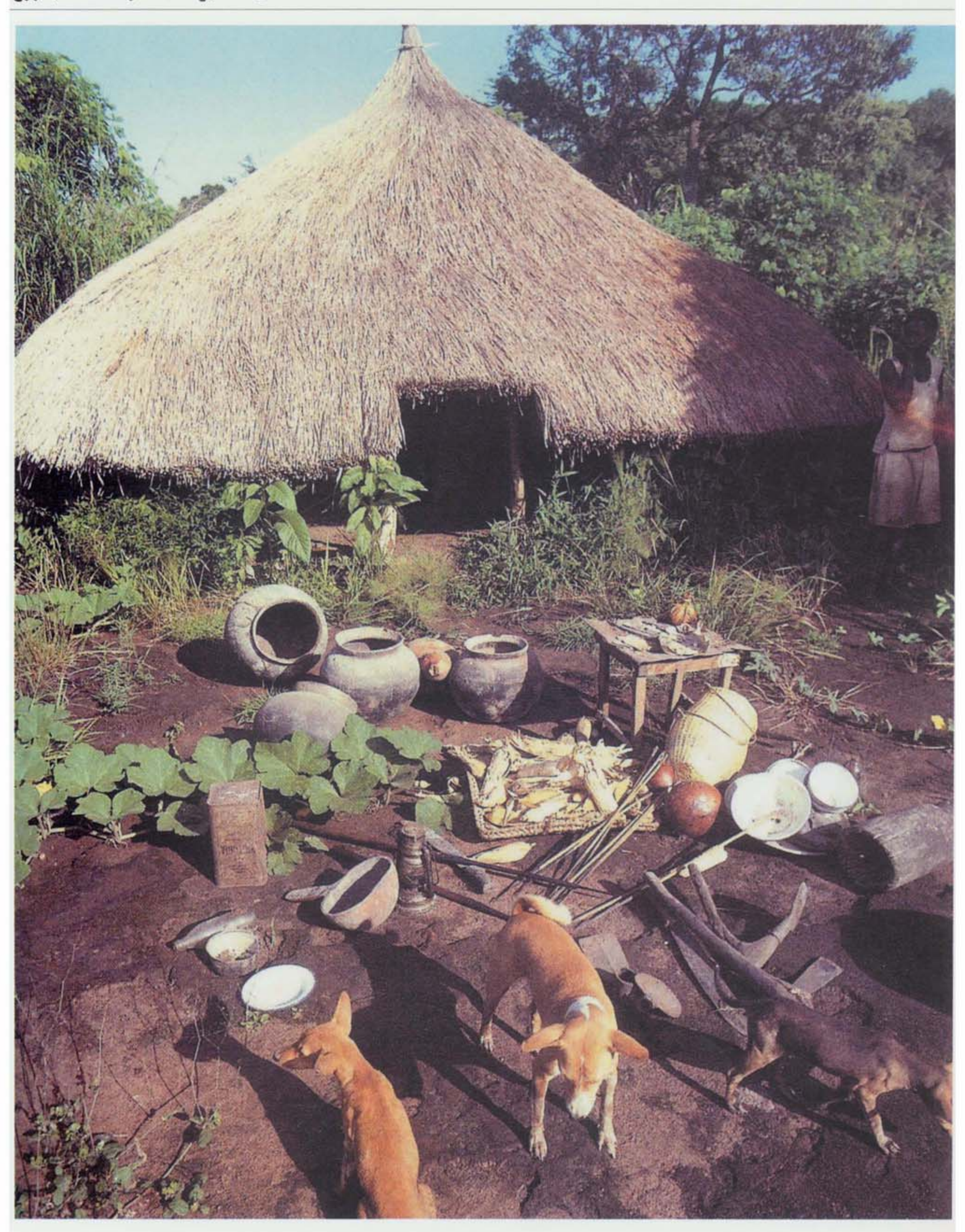
(أي الطبيب) ويضغط آخر على معدته بقبضة يده، ويضربه ثالث على ظهره. فإذا لم تكن الروح بداخله بعد كل هذا، وإذا تكررت العملية مع سائر أعضاء الهيئة الطبية دون جدوى، استنتج الجميع أن الروح موجودة في صندوق كبير الأطباء، فتذهب جماعة منهم إلى منزله وتطلب منه إحضار صندوقه. فإذا أحضر الصندوق ومدوا محتوياته على حصير جديدة أخذوا هذا الطبيب الذي نذر حياته للطب وحملوه من قدميه وأدخلوا رأسه في حفرة في الأرض، ثم غسلوا رأسه وهو في هذه الوضعية. بعدها يؤخذ ما تبقى من الماء ويصب على رأس الطبيب». ولا ريب في أن الروح التائهة موجودة في الماء.

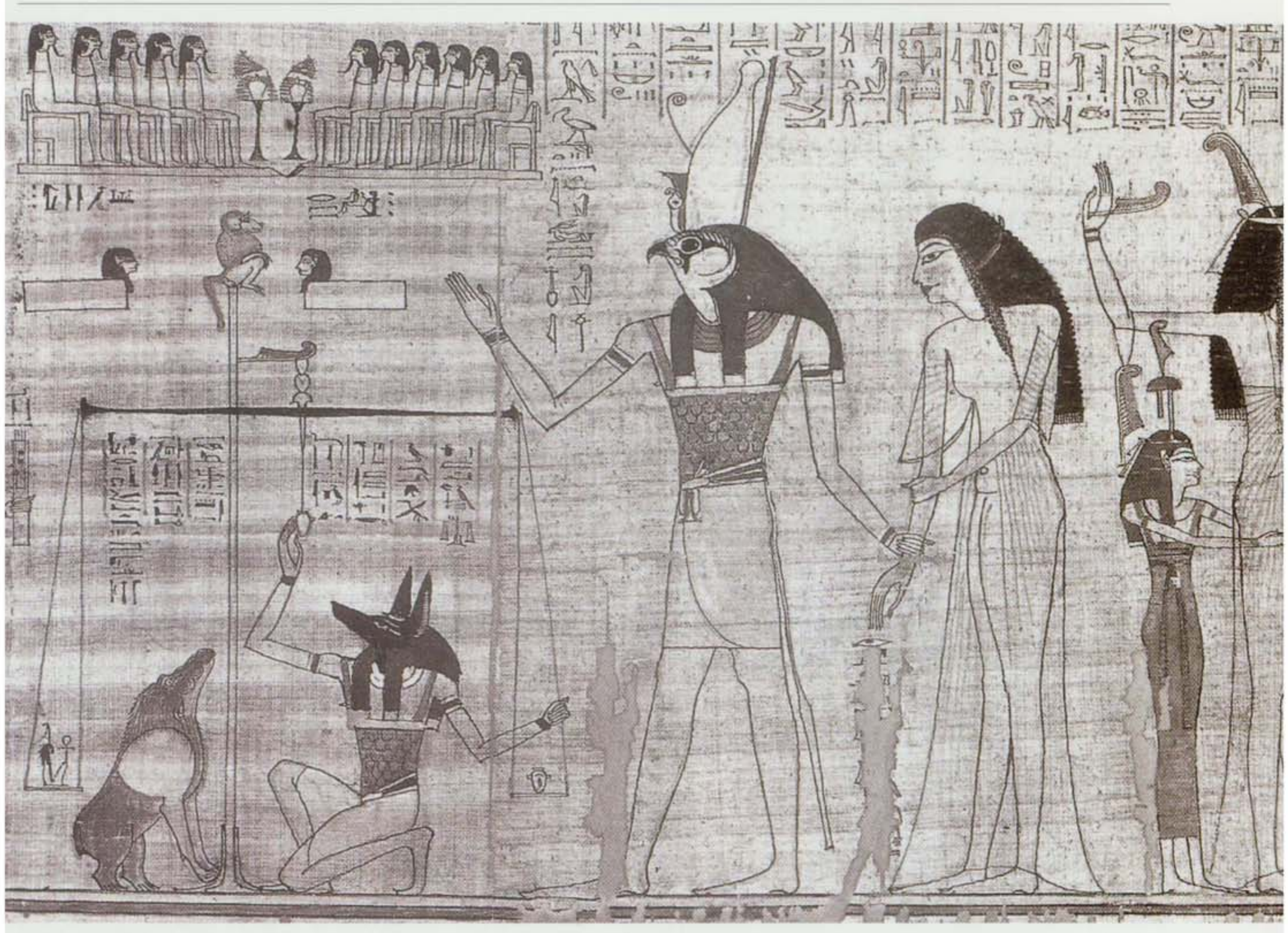
لكن الأخطار الروحية التي سقتها للتوليست هي الوحيدة التي تحدق بالإنسان البدائي. فغالبا ما يرى أن ظله أو انعكاس صورته هو روحه أو جزء حيويا منه، وبالتالي فهو مصدر خطر على حياته. فإذا وطأ أحد ظل آخر، أو ضربه أو طعنه شعر بالإصابة كما لو أنه أصيب بجسده بالذات. أما إذا انتزع منه كلية (كما يعتقد أن ذلك ممكن بالفعل) فإنه يفارق الحياة. ففي جزيرة ويتار [33] سحرة قادرون على إصابة شخص بالمرض من خلال طعن خياله برمح أو ضربة بالسيف. فبعد أن قضى سنكرا على البوذيين في الهند، يقال إنه سافر إلى نيبال، حيث كان بينه وبين كبير الكهنة البوذيين خلافات في الرأي. ولكي يثبت قدراته الخارقة طار محلقا في الهواء. وبينما هو يطير لمح كبير الكهنة خياله يتلوى على الأرض فطعنه بخنجر فسقط سنكرا ودق عنقه.

وفي جزر بانك [34] حجارة ذات أشكال طويلة جدا تعرف باسم «الأشباح الآكلة» نظرا للاعتقاد بوجود أشباح خطرة وقوية تسكن فيها. فإذا ما سقط خيال امرئ على إحدى هذه الحجارة، انتزع الشبح روحه من خياله فيفارق الحياة. لذلك توضع هذه الحجارة في المنزل لحمايته؛ فإذا أرسل صاحب المنزل الغائب رسولا إلى منزله نادى اسم المرسل بصوت عال لئلا يظن الشبح في الحجر أنه يريد شرا فيؤذيه. وفي الجنازة في الصين، وقبل وضع الغطاء على النعش، ينسحب كل الواقفين باستثناء أقارب المتوفى خطوات عدة إلى الوراء، أو يدخلون غرفة أخرى اعتقادا منهم أن صحة المرء تتعرض للخطر إذا سمح لخياله بأن يحبس في نعش. وحين يوشك النعش أن ينزل في القبر يرجع معظم المتفرجين إلى الوراء لئلا يسقط خيالهم في القبر فيلحق بهم الأذى. ويقف العراف ومساعدوه على طرف القبر الذي يكون بعكس الشمس، بينما يربط حفارو القبور وحمالو النقود خيالاتهم بقوة إلى جنبهم بقطعة من القماش حول خصورهم. لكن التعرض للأذى لا يقتصر على بني البشر وحدهم، إذ تعاني الحيوانات من المحنة ذاتها. ففي تلال بيراك يعتقد الناس أن حلزونا صغيرا يجول في منطقة التلال الكلسية يمتص دماء الماشية من خلال خيالاتها، وهذا سبب الهزال الذي يصيب الحيوانات ويؤدي إلى موتها أحيانا لفقدانها كمية كبيرة من الدماء. أما في الجزيرة العربية فيعتقد الناس أنه

(33) تقع جزيرة ويتار بمقاطعة مالوكو في اندونيسيا «المترجم».

(34) سكان جزر بانك بميلانيزيا يعتقدون كغيرهم أن أكل أعضاء معينة يورث خصائص ممتازة؛ فأكل القلب مثلاً يورث الشجاعة وأكل العين يورث الحكمة وشرب المخ يورث الذكاء «المترجم».





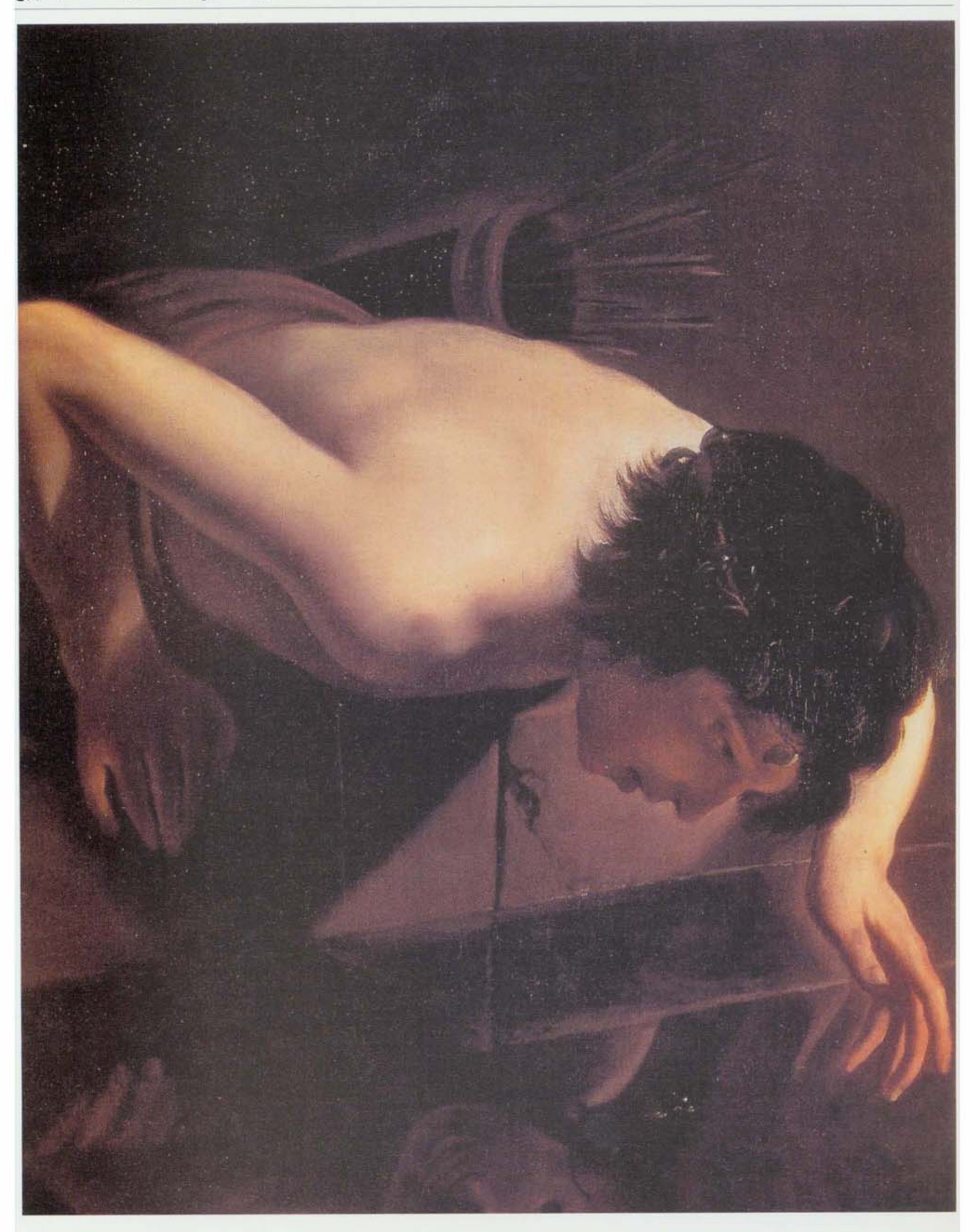
إذا وطأ ضبع خيال رجل، سلبه القدرة على الجري والحركة، وأنه إذا كان على السقف كلب واقف في ضوء القمر وخياله ممتد على الأرض ووطأ خياله ضبع سقط الكلب على الأرض كما لو أنه جُر بحبل. ومن الواضح أن الخيال، حتى إن لم يكن مساويا للروح، يعد جزءا حيا على الأقل من الإنسان أو الحيوان، بحيث إذا لحق أي أذى بالخيال، أحس الإنسان أو الحيوان بالألم كما لو كان الأذى بجسمه بالذات.

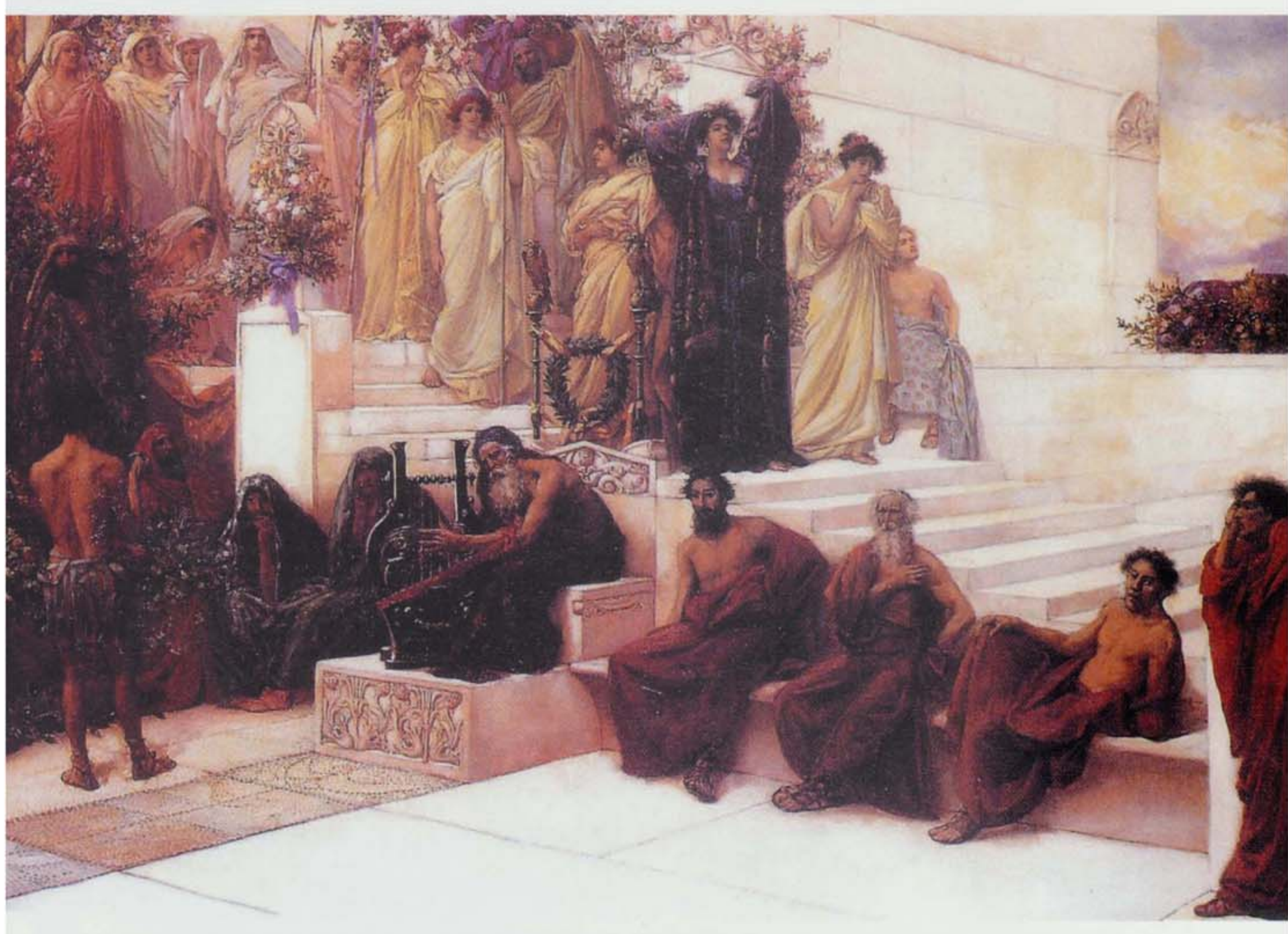
وفي المقابل، إذا كان الخيال جزءا حيويا من الإنسان أو الحيوان، فإنه قد يشكل في ظروف معينة مصدر خطر على الآخرين ويصبح لمسه لا يقل خطرا عن ملامسة الشخص أو الحيوان ذاته. لذلك يحرص الإنسان البدائي على تجنب خيال بعض الناس لأسباب عدة يرى أنها مصدر خطر عليه. ومن الفئات التي يراها البدائي مصدر خطر بصفة عامة المحزونون والنساء، وبالأخص حماته

في الأعلى: يقوم الإله أنوبيس الذي له رأس كلب بوزن قلب المتوفى في الميزان مقابل ريشة من الحقيقة بينما يقوم الكاتب ثوث الذي له رأس طائر بتسجيل النتيجة، بينما يراقب العملية الإله حورس الذي له رأس صقر. صورة من كتاب الموتى المصري. من ورق البردي، حوالي 1100 ق.م. المتحف البريطاني، لندن.

الطرف المقابل: في اليونان القديمة، كانت رؤية صورة المرء منعكسة في الماء نذير شؤم يدل على موته. هنا نرسيسوس يحدق في بركة في الغابة ويعشق ذاته. لوحة من القرن السابع عشر للفنان جان موريلس.

(أم زوجته). ويعتقد هنود الشسواب أن خيال المحزون إذا وقع على شخص آخر سبب له المرض. وفي حفل استقبال الرهبان المستجدين في كورناي في فيكتوريا، تلقى المستجدون تحذيرا من سقوط خيال امرأة عليهم لأن ذلك يسبب لهم الكسل والهزال والغباء. ويقال إن أحد سكان أستراليا الأصليين أوشك ذات مرة على الموت لأن





في الأعلى: يصف هومر أرواح خطاب بينيلوبي المقتولين بقوله «لها حفيف مثل حفيف الوطاويط» لأنها تسير وراء هيرميس إلى العالم السفلي. أغنية فيميوس وأحزان بينيلوبي، منظر من ألأوديسة للفنان توماس رالف سبنسر، 1897.

خيال حماته سقط على ساقيه وهو نائم تحت شجرة. ويعد الخوف والهلع الذي يعتري الإنسان البدائي من حماته من أكثر الحقائق المألوفة في علم الأنثروبولوجيا. ففي قبائل اليوين في نيوساوث ويلز [35]، تعد القاعدة التي تحظر على الرجل مخاطبة أم زوجته من القواعد الصارمة، إذ يحظر عليه النظر إليها أو حتى باتجاهها. ومن أسباب الطلاق وقوع خياله على حماته. وفي تلك الحال، يتوجب عليه ترك زوجته التي تعود إلى بيت أهلها. وفي بريطانيا الجديدة يعجز خيال السكان الأصليين عن استيعاب مدى الضرر الذي يمكن أن ينتج عن تكلم الرجل مع أم زوجته مصادفة. وقد يكون الانتحار الطريق الوحيد المفتوح أمامهما. وأغلظ يمين يمكن أن يقسم به شخص في بريطانيا الجديدة هو: «يا سيدي، آمل أن أصافح حماتي إذا كنت أقول غير الصدق».

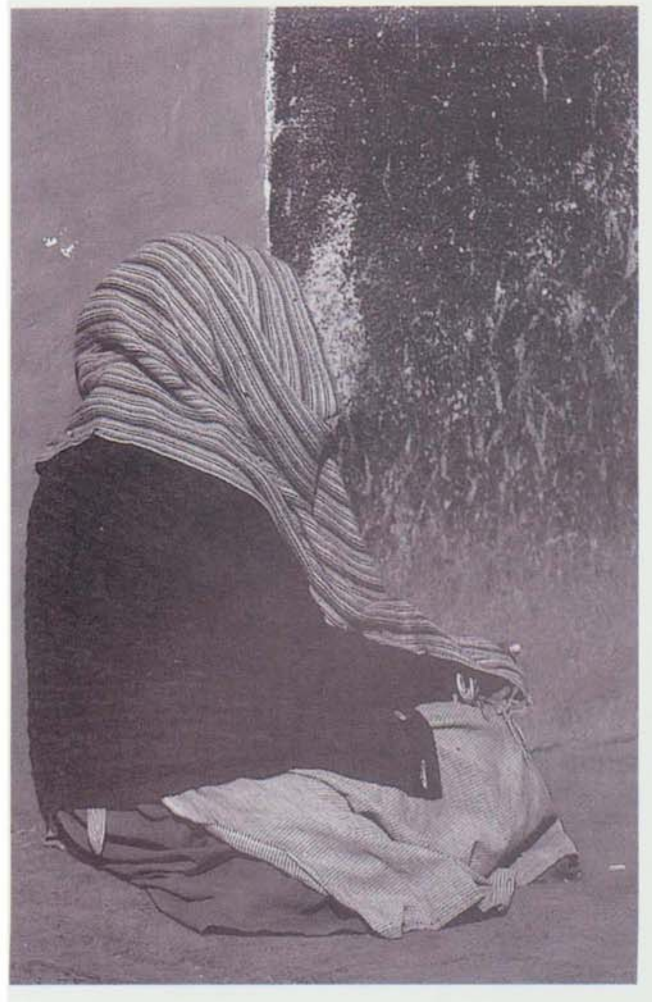
(35) إحدى القبائل التي كانت تسكن أستراليا قبل اكتشافها من قبل الأوروبيين «المترجم».

وبما أن الخيال وثيق الصلة بحياة الإنسان لدرجة أن فقدانه يسبب المرض والموت لصاحبه، كان من الطبيعي أن نتوقع أن يسبب انكماشه الهلع والقلق على اعتبار أن ذلك دليل على تراجع في حيوية صاحبه وطاقته. ففي أمبونيا وأولياززة، وهما جزيرتان بالقرب من خط الاستواء حيث ينعدم الظل أو يكاد عند الظهر، يلزم الناس منازلهم عند منتصف النهار لأن الخروج قد يؤدي إلى فقدان المرء ظله وروحه. ويروي المانجيان حكاية مقاتل شديد البأس اسمه توكيتاوا كانت قوته تتزايد أو تتناقص بحسب طول خياله. ففي الصباح يبلغ خياله أقصى مداه، وبالتالي تكون قوته

في أوجها. لكن مع اقتراب الظهر يتناقص طول خياله وتتراجع معه قوته إلى أن تبلغ أدنى درجاتها عند الظهيرة، بعد ذلك، ومع ازدياد طول الخيال بعد الظهر كانت قوته تعود من جديد. واكتشف أحد الأبطال سر قوة توكيتاوا وقتله عند الظهيرة. أما جماعات البيسيسي من شبه جزيرة الملايو فيخشون من دفن موتاهم عند الظهر لاعتقادهم أن قِصَر خيالاتهم في تلك الساعة يقصر أعمارهم بفعل التناغم.

وليس أدل على التساوي بين الخيال والحياة أو الروح من بعض العادات المتبعة في جنوب أوروبا حتى يومنا هذا. فمن العادات المتبعة في اليونان الحديثة عند حفر أساسات بناء جديد ذبح ديك أو كبش أو حمَل وإراقة دمه على حجر الأساس، التي يدفن الحيوان تحتها بعد ذلك. أما الهدف من هذه الأضحية فهو إعطاء البناء القوة والثبات. لكن قد يحدث أحيانا أن يأتي البناء برجل إلى الحجر الأساس فيقيس جسمه، أو أجزاء من جسمه، أو خياله سرا بدلا من نحر الحيوان، ثم يدفن المقياس تحت الحجر الأساس؛ أو يضعه فوق خيال الرجل. ويعتقد أن الرجل يفارق الحياة في غضون سنة من الزمن. ويعتقد الرومانيون في ترانسلفانيا أن كل من دفن ظله بهذه الطريقة مات في غضون أربعين يوما. لذلك قد يسمع من يمر بالقرب من بناء قيد التشييد صوتا يحذره قائلا: «احذر من أن يأخذوا خيالك!» ومنذ مدة ليست ببعيدة كان هناك «تجار خيالات» يزودون المهندسين بالخيالات الضرورية لتدعيم جدرانهم. وفي هذه الحالات يعد حجم الخيال معادلا للخيال ذاته، ويسد دفنه مسد دفن حياة الرجل أو روحه، وهو الذي سيموت لا محالة بعد حرمانه من ظله. وبذلك نرى أن هذه العادة تقوم مقام دفن رجل في الجدار أو سحقه تحت حجر الأساس لإكساب البناء القوة والمتانة، أو بعبارة أدق، لجعل الشبح الغاضب يتردد على المكان ويحرسه من تدخل الأعداء.

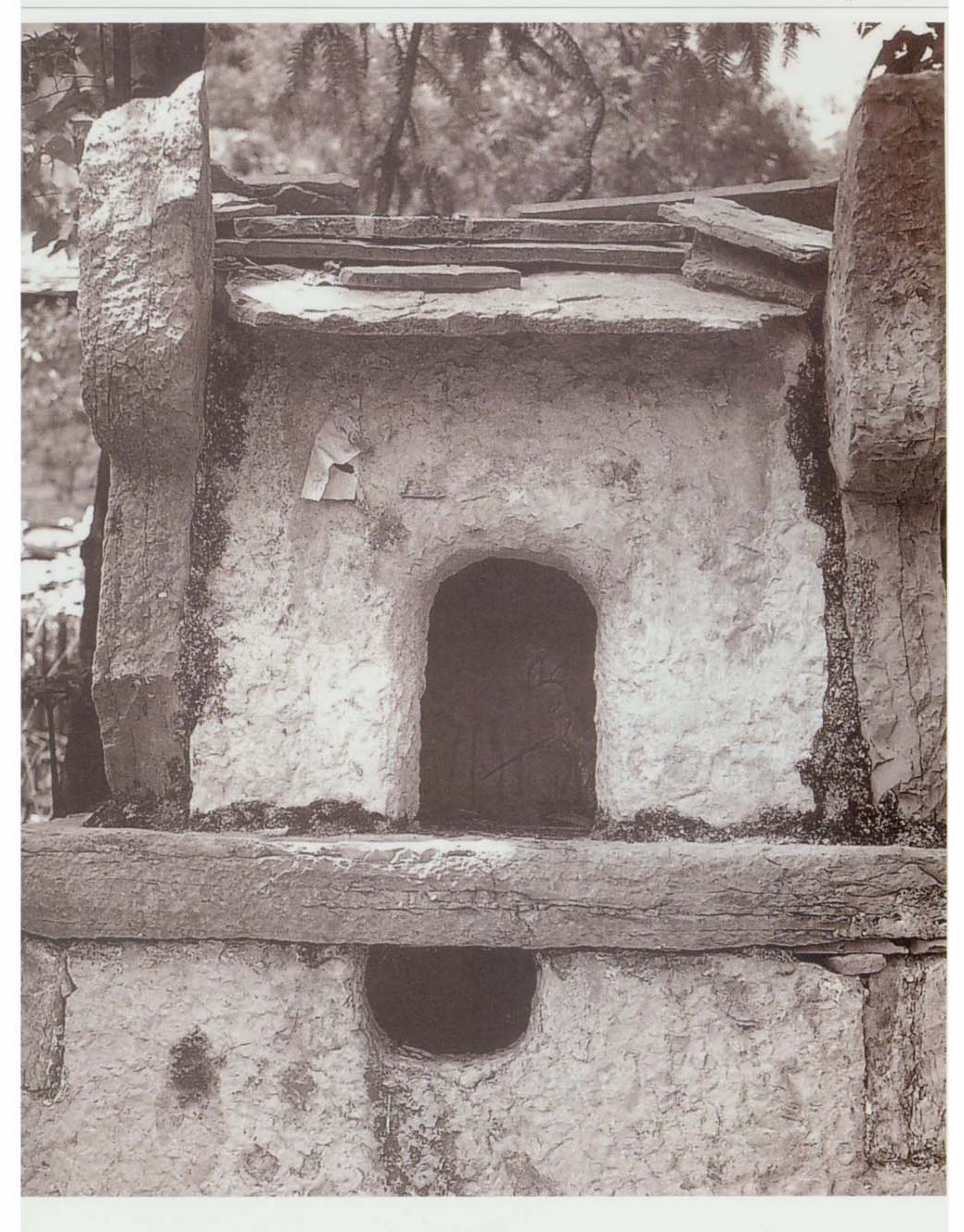
وعلى غرار اعتقاد بعض الشعوب بأن روح الإنسان في خياله، فإن شعوبا أخرى (أو ذات الشعوب) تعتقد أنها موجودة في انعكاس صورته في الماء أو المرآة». فجماعة الأندمان لا يرون أن أرواحهم في خيالاتهم بل في انعكاسات صورهم». وحين رأى أبناء الموتوموتو في غينيا الجديدة صورتهم في المرآة للمرة الأولى، ظنوا أنها أرواحهم. وفي كاليدونيا الجديدة، يعتقد المسنون أن انعكاس صورة الإنسان في الماء أو المرآة هو روحه، أما الأصغر سنا الذين تلقوا تعليمهم على أيدي الكهنة الكاثوليك فيرون أنه ليس سوى انعكاس مثل انعكاس صورة أشجار النخيل في الماء. فالروح —



في الأعلى: في بعض أنحاء العالم كان يعتقد أن للكاميرا القدرة على أخذ الأرواح، وكان ينظر إلى المصورين بعين الشك. هنا امرأة في مدينة جواناجواتو المكسيكية تخبئ وجهها من الكاميرا.

الانعكاس، معرضة للمخاطر ذاتها التي يتعرض إليها الخيال على اعتبار أنها خارجة عن جسم الإنسان. فأبناء قبيلة الزولو يمتنعون عن النظر في حوض داكن لاعتقادهم أن فيه وحشا ينتزع انعكاس صورهم ويؤدي إلى موتهم. ويقول أبناء قبيلة الباسوتو إن للتماسيح القدرة على قتل إنسان من خلال جر انعكاسه تحت الماء. فإذا مات أحدهم فجأة وبدون سبب واضح، ادعى أقرباؤه أن التمساح أخذ خياله وهو يعبر النهر ذات مرة. وفي جزيرة سادل في ماليزيا هناك «بركة يموت كل من ينظر في مائها، لأن روحاً شريرة تمسك بروحه من خلال انعكاس صورته في الماء».

ونستطيع الآن أن ندرك مغزى المبدأ المتبع في الهند القديمة



واليونان القديمة بعدم نظر المرء إلى انعكاس صورته في الماء، والسبب وراء اعتقاد قدماء اليونان أن رؤية الإنسان في المنام أنه ينظر إلى صورته نذير بموته، هو خشيتهم من أن تسحب أرواح – الماء انعكاس المرء أو روحه تحت الماء تاركة إياه بلا روح حتى يموت. ولعل هذا هو أصل قصة نرسيسوس الذي اعتل جسمه ومات لأنه رأى انعكاس صورته في الماء.

ونستطيع الآن أن نفسر إحدى العادات واسعة الانتشار وهي عادة تغطية المرايا أو توجيهها نحو الحائط إثر وفاة أحد أفراد الأسرة، إذ يخشى الناس أن يأخذ شبح الميت الروح التي تنطلق من الشخص في هيئة انعكاس لصورته في المرآة لاعتقادهم أن شبح الميت يبقى في البيت حتى الانتهاء من الدفن. وتشبه هذه العادة تماماً عادة الآرو الذين لا ينامون في المنزل بعد حدوث وفاة فيه مخافة أن تقابل الروح التي تخرج من الجسم في أثناء الحلم الشبح فيأخذها معه. وهكذا يتضح لنا سبب امتناع المرضى عن النظر إلى أنفسهم في المرآة وسبب تغطية المرايا في غرف المرضى. فعند المرض، حين يسهل على الروح الهرب من الجسد، من عظيم الخطر أن يدع المرء روحه تطل من جسمه من خلال انعكاس صورته في المرآة. وتشبه هذه القاعدة تماماً القاعدة التي تتبعها بعض الشعوب في عدم السماح للمرضى بالنوم، لأن الروح تطل خارج الجسم في أثناء النوم، وهناك خطر دائم من عدم رجوعها إليه. وما ينطبق على الخيالات والانعكاسات ينطبق أيضا على الصور الشخصية، إذ كثيراً ما يعتقد الناس أن الصورة تحتوي على روح صاحبها. وكل من يؤمن بهذه العقيدة يكره أن تؤخذ صورته. فإذا كانت الصورة هي الروح، أو جزءا حيويا من صاحب الصورة على الأقل، فإن من يمتلك الصورة يملك القدرة على ممارسة سلطة قاتلة على صاحب الصورة. فشعب الإسكيمو في مضيق بيرينغ يعتقدون أن للسحرة القدرة على سرقة ظل المرء، فينحل جسمه ويموت. ويحكى أن أحد المستكشفين في قرية من قرى نهر يوكن الأدنى أعد آلة التصوير لالتقاط صور للناس وهم يمارسون نشاطاتهم في بيوتهم، وبينما كان يضبط عدسة الكاميرا جاء إليه كبير القرية وأصر على أن ينظر تحت القماش. ولما سمح له بذلك، حدق النظر لمدة دقيقة في الأشخاص وهم يتحركون على

الطرف المقابل: مقام لآلهة الأرض حيث كانت تقدم القرابين، من قبيلة أقلية بويا بمقاطعة أنشان بإقليم غيزو، الصين.

اللوح الزجاجي، ثم أخرج رأسه فجأة وصاح بأعلى صوته للناس: «إن لديه ظلالكم كلها في هذا الصندوق». فسرت على الفور موجة من الذعر بين الناس، واختفوا فجأة في بيوتهم. أما شعب تبهوان في مكسيكو فيتملكهم رعب قاتل من الكاميرا، وتطلب إقناعهم بالوقوف أمامها خمسة أيام كاملة. ولما وافقوا أخيراً، بدوا كأنهم مجرمون على وشك أن تنزل بهم عقوبة الإعدام. ففي اعتقادهم أن الفنان الذي يصورهم يستطيع أن يحمل أرواحهم ويأكلها متى شاء. وقالوا إنهم سيموتون، أو ستحل بهم كارثة ما حين تصل الصور إلى بلده. وبينما كان الدكتور كاتات ورفاقه يستكشفون بلاد بارا على الساحل الغربي من جزيرة مدغشقر، اتخذ الناس منهم موقف العداء بشكل مفاجئ. ففي اليوم السابق، أخذ الرحالة صوراً للعائلة المالكة بعد لأي، ووجدوا أنفسهم الآن متهمين بأخذ أرواح المواطنين لبيعها لدى عودتهم إلى فرنسا. ولم يجدهم الإنكار نفعاً، وطبقا للعادات المتبعة في تلك البلاد، فقد كانوا ملزمين بالإمساك بالأرواح التي وضعت بعدئذ في سلة وأمرها الدكتور كاتات بالعودة إلى أصحابها.

وقد أفلح بعض القرويين في سيكيم في التخلص من روع شديد وذلك بالاختباء كلما وجهت إليهم عدسة الكاميرا، أو «عين الصندوق الشريرة،» إذ كانوا يعتقدون أنها تأخذ أرواحهم مع صورهم وتمنح صاحب الصورة القدرة على ممارسة قوة سحرية عليهم، وادعوا أن صورة الطبيعة تفسدها. ولم تكن النقود في سيام تحمل صورة الملك إلى أن اعتلى الملك المرحوم العرش. «فقد كانت هناك معارضة شديدة لعمل الصور مهما كان نوعها. وما على الأوروبيين الذين يكتشفون الأدغال، حتى في وقتنا الحالي، إلا أن يصوبوا عدسة الكاميرا نحو جماعة من الناس حتى يتفرقوا على الفور. فحين يتم إعداد صورة لوجه شخص وتؤخذ الصورة منه، يذهب جزء من حياته مع الصورة. ولولا أن الملك يتمتع بسنوات من المدعو ميثو صالح لما سمح بتوزيع حياته في قطع صغيرة مع نقود المملكة».

وما زالت معتقدات من هذا القبيل سارية حتى اليوم في أنحاء متفرقة من أوروبا، فمنذ بضع سنين غضبت بعض العجائز في جزيرة كرباثوس اليونانية من تصويرهن لاعتقادهن أن ذلك سيؤدي إلى إصابتهن بالوهن والموت. وهناك فئة في غرب اسكتلندة «ممن يرفضون تصويرهم لأن ذلك يجلب عليهم النحس ويضربون أمثلة على ذلك من العديد من أصدقائهم الذين لم يذوقوا للصحة طعماً بعد تصويرهم».



الفصل الثامن

نقل الشر

إن قدرتنا على نقل آثامنا وآلامنا إلى كائن آخر يحمل أوزارنا بالنيابة عنا فكرة مألوفة في العقل البدائي؛ فهي تنبع من الخلط الواضح بين ما هو حسي وما هو عقلي، أي بين ما هو مادي وما هو غير مادي. ولما كان من الممكن نقل حمل من الخشب والحجارة وغيرها من ظهرنا إلى ظهر إنسان آخر، يظن الإنسان البدائي أن من الممكن أيضا نقل حمل آلامه وأحزانه إلى إنسان آخر، يتحملها بالنيابة عنه ويتصرف بناء على هذه الفكرة وتكون النتيجة عددا لانهاية له من الآليات الكفيلة بإلقاء عبء المشكلات التي ينوء المرء بحملها على كاهل شخص آخر. وباختصار فإن مبدأ المعاناة بالنيابة هو من المبادئ التي تفهمها وتمارسها الأعراق ذات المستوى المتدني من الثقافة الفكرية.

وتتعدد الآليات التي يلجأ إليها الإنسان البدائي الأناني الماكر لكي يتخلص من مشكلاته على حساب جاره. وليس من الضروري أن ينتقل الشر الذي يسعى المرء إلى التخلص منه إلى إنسان آخر، إذ إن من الممكن نقله إلى حيوان أو شيء، ولو أن ذلك الشيء في الحالة الثانية ليس سوى وعاء لنقل المشكلة إلى أول إنسان يلمسها. ففي بعض جزر الهند الشرقية يظن الناس أن من الممكن شفاء الصرع عن طريق ضرب المريض على وجهه بأوراق أشجار معينة ثم التخلص منها. ويعتقد أن المرض ينتقل إلى الأوراق وأنه يذهب بذهابها.



في اليسار: داخل كوخ أحد الأطباء الدجالين في جنوب زامبيا وفيه تماثيل ومجسمات أفاعي ملتفة.

الطرف المقابل: شكل يمثل أحد حراس كوتا من الغابون، إفريقيا الاستوائية. تربط هذه الأشكال، وتسمى مبولو نغولو، بصناديق من الفلين أو بحزم فيها عظام وتذكارات ثمينة تعود لأجداد العشيرة أو القرية تستخدم لحمايتهم أو مركزا للصلاة وتقديم القرابين. خشب ونحاس، معرض إنستوبيسل، لندن.



وللشفاء من ألم الأسنان، يضع سكان أستراليا الأصليون قاذف رمح ساخن على الخد، ثم يرمى قاذف الرمح فيذهب معه ألم الأسنان في شكل حجر أسود يسمى تاميتش. ويمكن العثور على هذه الحجارة في الروابي والتلال الرملية القديمة. وتجمع هذه الحجارة بعناية وترمى على الأعداء لكي تسبب لهم آلام الأسنان. أمام أبناء الباهيما، وهم من القبائل الرعوية في أوغندة، فكثيراً ما يعانون من خراجات مستديمة تعالج بنقل المرض إلى شخص آخر من خلال الحصول على بعض الأعشاب من الطبيب الدجال وفركها فوق مكان الورم ثم حرقها في الطريق الذي يسلكه الناس باستمرار. وأول من يطأ الأعشاب المدفونة يصاب بالمرض ويشفى المريض الأصلي».

وقد ينتقل المرض أحياناً إلى دمية بصفة أولية قبل انتقاله إلى شخص آخر. ففي قبائل الباغندا [36] يصنع الطبيب الدجال أحيانا لعبة من الصلصال تمثل مريضه، ثم يفرك أحد أقرباء المريض الدمية بجسد المريض قبل أن يدفنها في الطريق أو يخبئها تحت العشب على جانب الطريق. وأول من يطأ الدمية يصاب بالمرض. وكانت الدمية تصنع أحيانا من زهرة لسان الحمل (آذان الجدي) التي تعقد على هيئة إنسان، وكانت تستخدم كما تستخدم دمية الصلصال، لكن استعمال هذه الدمى لهذه الأغراض الشريرة كان من الجرائم الكبرى، وكل من يضبط متلبسا وهو يدفنها في الطرق العامة كان يعاقب بالموت.

وفي المنطقة الغربية من جزيرة تيمور، وحين يكون الرجال أو النساء في رحلة طويلة مضنية فإنهم يستخدمون الأغصان المورقة مراوح يرمونها فيما بعد في أماكن معينة مثلما كان أجدادهم يفعلون قبلهم. ويفترض أن ينتقل الإعياء الذي يصيبهم إلى الأوراق التي خلفوها وراءهم. وربما استعمل آخرون الحجارة بدلا من الأوراق. وهذا ما يفعله سكان أرخبيل بابار [37]، الذين إذا أحسوا بالتعب ضربوا أنفسهم بالحجارة اعتقادا منهم بأن ذلك ينقل الإعياء الذي أحسوا به إلى الحجارة ثم يقذفون بالحجارة في أماكن أعدت خصيصا لهذا الغرض.

في الأعلى: ساحرتان تركبان مكنستين لسبت الساحرات. يقال إن مثل هذه المغامرات الهوائية كانت تحدث للساحرات تفركن أجسادهن بمرهم هلوسة قوي يحتوي على البنج السام والأعشاب الأخرى. مخطوطة فرنسية تعود إلى القرن السادس عشر. المكتبة الوطنية، باريس.

الطرف المقابل: ساحر وطبيب مشعوذ من الهنود الحمر (شامان) في كامل زيه السحري في ألاسكا، 1904.

(36) والباغندا قبيلة مشهورة في أوغندة ذات صيت وصولجان لازالت تحافظ على إرثها وثقافتها «المترجم».

(37) مجموعة من جزر إندونيسيا «المترجم».

وقد أدت معتقدات وممارسات مماثلة في أماكن بعيدة من العالم إلى ظهور ما يعرف بأكوام العصي والأوراق التي يراها المسافرون غالباً على جانب الطريق، والتي يضيف إليها كل مسافر إسهامه الخاص من حجر أو عصا أو ورقة شجر. فقد اعتاد سكان جزر سليمان وبانكس على رمي العصي والحجارة أو أوراق الشجر على كومة في هوة سحيقة، أو حيث تبدأ طريق صعبة قائلين: « هنا يذهب تعبي». وليس هذا العمل من الطقوس الدينية؛ فما يقذف على الكومة ليس قرباناً إلى القوى الروحانية، والكلمات التي ترافق العمل ليست صلوات، بل هي مجرد طقس سحري للتخلص من الإعياء الذي يظن الإنسان البدائي الساذج أنه قادر على تجسيده في عصا أو ورقة شجر أو حجر ويتخلص منه بهذا الشكل.

وكثيراً ما تستخدم الحيوانات كواسطة لنقل الشر أو إبعاده. فإذا ما أصيب أحد المغاربة بصداع أخذ حملا أو عنزة وضربها حتى تسقط أرضاً اعتقاداً منه بأن الصداع سينتقل بهذه الطريقة إلى الحيوان. وفي المغرب يربي أثرى الأثرياء خنزيراً برياً في اصطبلاتهم حتى يبعد الجن والأرواح الشريرة عن خيلهم وتدخل في الخنزير. وعند قبائل الكافر في جنوب إفريقيا، وحين تفشل صنوف العلاج الأخرى، «يلجأ السكان أحيانا إلى عادة قديمة تقوم على أخذ عنزة إلى المريض والاعتراف بذنوب القرية فوقها. ويسمح أحياناً لبضع نقاط من دم المريض أن تقطر على رأس العنزة التي تطلق في جزء غير مأهول من المروج. ويفترض أن ينتقل المرض إلى الحيوان ويضيع في الصحراء». وفي الجزيرة العربية، إذا انتشر الوباء، قاد الناس أحياناً بعيراً في أحياء المدينة حتى يجتذب الوباء إليه ثم خنقوه في مكان مقدس وتخيلوا أنهم تخلصوا من البعير والوباء في آن واحد. ويقال إنه إذا انتشر وباء الجدري ساق سكان فرموزا الأصليون شيطان المرض إلى خنزيرة، ثم قطعوا أذني الحيوان وأحرقوهما أو أحرقوه اعتقادا منهم أن هذا يخلصهم من الوباء.

ولدى الباتاك في سومطرة طقس يسمونه «إبعاد اللعنة». فبالنسبة إلى المرأة العاقر يقدم إلى الآلهة قربانا من ثلاث جرادات تمثل رأسا من البقر، وجاموسا وحصانا، ثم يطلق طائر من السنونو مع الدعاء بأن تحل اللعنة بالطائر وتطير معه بعيدا. ويتخيل الهزول الكارباثيين أنهم قادرون على نقل النمش من الوجه إلى أول طائر من طيور السنونو يرونه في الربيع إذا غسلوا وجوههم بماء جار وقالوا: «أيها السنونو، أيها السنونو، خذ النمش من وجهي وأعطني وجنتين متوردتين».



في الأعلى: عشبة اليبروح السحرية التي قيل إنها تصرخ من الألم حين تنتزعها من الأرض الكلاب المربوطة بجذعها. وتشبه جذورها شكل إنسان مصغر. من كتب ترينتو للأعشاب في القرن الرابع عشر. كاستيلو بيونكوسيولي، ترينتو، إيطاليا.

الطرف المقابل: أقنعة خشبية تعود إلى قبيلة إيبيبيو في جنوب نيجيريا، القرن العشرين، تمثل أناسا مصابين بمختلف الأمراض. ومن خلال تجسيد أرواح الأمراض كان يظن أن هذه الأقنعة تساعد على الشفاء منها. مجموعة أنسباك، نيو يورك.

وفي واقع الأمر، يلعب الرجال أحيانا دور كبش الفداء من خلال تحويل الشرور التي تهدد الآخرين إلى أنفسهم. فإذا أصيب سنغالي بمرض خطير أعيا الأطباء شفاؤه، استدعي راقص الشيطان الذي يستطيع إخراج شياطين المرض الواحد تلو الآخر من جسد المريض ونقلها إليه من خلال تقديم القرابين إلى الشياطين والرقص في قناع يناسبهم. وبعد النجاح في إخراج سبب المرض، يستلقي الراقص الدجال على محفة متظاهرا بالموت ليحمل إلى خارج القرية. وبعد أن يترك وشأنه، تدب فيه الحياة مرة أخرى، ويسرع عائدا طالبا مكافأته. وفي عام 1590، أدينت ساحرة أسكتلندية اسمها أغنس سامسون لشفائها رجلا يدعى روبرت كيرز Robert Kers من مرض أصابه به ساحر في الغرب حين كان في دمفريز، فنقلت المرض إليها، واحتفظت به بأنين وألم عظيمين حتى الصباح حين سمع صخب هائل في المنزل». وكان مصدر الصخب الساحرة التي تحاول أن تنقل المرض عن طريق الملابس منها إلى كلب أو قطة. ولسوء الحظ فإن محاولتها فشلت بشكل جزئي، ولم يصب المرض الحيوان، بل أصاب ألكسندر دوغلاس من دالكيث الذي مات متأثرا بالمرض في حين شفي المريض الأصل وهو روبرت كيرز.

وحين تدعو الحاجة إلى التكفير عن الذنوب في إحدى مناطق نيوزيلندة، يقام قداس على رجل يفترض أن يتم خلاله انتقال ذنوب القرية كافة إلى ذلك الرجل، حيث يربط هذا الشخص إلى عمود خشبي يقفز به إلى النهر، وعندها يحل الأربطة ويتركه يطفو مبتعدا نحو البحر حاملا معه كل ذنوب أهل القرية».

وفي الحالات الطارئة الكبيرة، كانت ذنوب راجا مانيبور تنقل عادة إلى مجرم يكتسب العفو عنه بفضل ما يتحمله من الآلام بالنيابة عن الآخرين. ولكي تتم عملية الانتقال، يستحم الراجا وزوجته وهما في ملابس فخمة، فوق منصة تقام في السوق يحبس المجرم تحتها. فإذا انسكب عليه الماء منهما غسل بجريانه ذنوبهما وحلت في البديل البشري. ولإتمام عملية الانتقال يمنح الراجا وزوجته ملابسهما الفخمة إلى البديل، ثم يختلطان بالناس حتى المساء وهما في ملابس جديدة. وفي ترافانكور[38] إذا دنا أجل الراجا، سعوا إلى إيجاد أحد البراهما المقدسين يوافق على حمل أوزار المحتضر مقابل عشرة آلاف روبية. وبعد أن يستعد القديس للتضحية بنفسه على مذبح الواجب، يدخل إلى غرفة الموت فيعانق الراجا المحتضر ويقول له: «أيها الملك، أتعهد بحمل أوزارك وأمراضك كافة. أدعو لسموكم بطول البقاء وأن تمارس الحكم وأنت سعيد». وبعد أن يأخذ على عاتقه ذنوب المريض المتألم، يبعد عن البلاد ويحظر عليه العودة إليها. وفي أوتش كير غا ن في تركستان شاهد السيد شويلر عجوزا قيل إنه كان يكسب قوته من تحمل ذنوب الموتى وتكريس حياته للدعاء لأرواحهم.

وفي أوغندة، وبعد أن يعود الجيش من الحرب، وتنذر الآلهة الملك من خلال العرافين بأن بعض الشرور قد لحقت بالجنود، جرت العادة على اختيار إحدى الإماء من الأسيرات ومعها بقرة، وعنزة وطائر، وكلب من الغنائم وإعادتهم تحت حراسة مشددة إلى حدود البلاد التي أتوا منها حيث تكسر أطرافهم ويتركون ليموتوا بعد أن أصبحوا عاجزين عن العودة زحفا إلى أوغندة. ولضمان انتقال الشرور إلى هذه البدائل، تفرك حزم من الأعشاب فوق الناس والحيوانات ثم تربط إلى أجسام الضحايا. بعدئذ يتم الإعلان عن طهر الجيش ويسمح له بالعودة إلى العاصمة. وهكذا نرى أن ملك أوغندة الجديد كان يقوم عند اعتلائه العرش بجرح رجل ليكون كبش الفداء ثم يرسله إلى بونيورو ليحمل معه أية أدران تكون قد علقت بالملك أو الملكة.

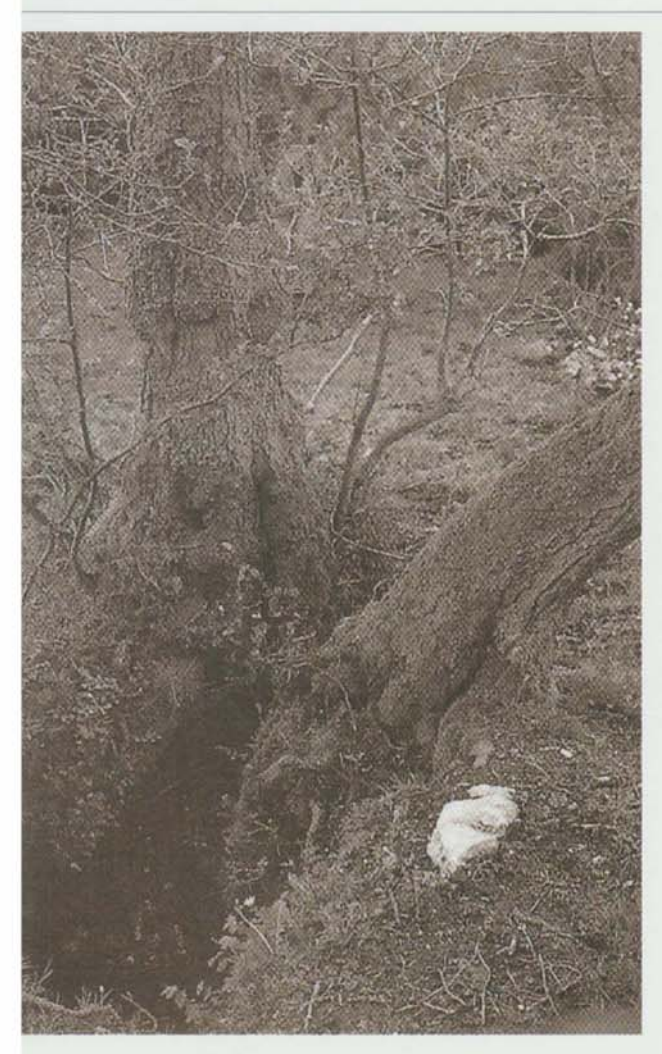
(38) إحدى ولايات الهند «المترجم».

صحيح أن معظم الأمثلة عن نقل الشر التي سقناها حتى الآن مستمدة من عادات شعوب بدائية أو بربرية، لكن محاولات مشابهة لنقل أعباء المرض وسوء الحظ والذنوب إلى الآخرين كانت شائعة أيضا بين الأمم المتحضرة في أوروبا سواء في العصور القديمة أو الحديثة. فثمة علاج روماني للحمى يقوم على تقليم أظافر المريض ولصق القصاصة بالشمع على باب أحد الجيران قبل شروق الشمس، وبذلك تنتقل الحمى من المريض إلى جاره. ومن المؤكد أن اليونانيين مارسوا أعمالاً مشابهة. فحين وضع أفلاطون قوانين جمهوريته الفاضلة رأى أن من غير المقبول أن يتوقع المرء ألا يفزع الناس إذا عثروا على تماثيل من الشمع مثبتة على أبوابهم أو على شواهد قبور آبائهم، أو ملقاة على مفارق الطرق. وفي القرن الرابع من الفترة التاريخية التي نحن بصددها وصف مارسيلوس البوردوني علاجا للثآليل لا يزال شائعا بين المؤمنين بالخرافات في مختلف أنحاء أوروبا. ويتوجب عليك لمس الثآليل بعدد من الحصى يماثل عدد ما في جسمك من ثآليل ثم لفها بورق اللبلاب ورميها في طريق عام، ومن يلتقطها يصاب بالثآليل وتشفى أنت منها.

أما سكان جزر أوركني [39] فيغسلون المريض أحياناً ويرمون الماء عند البوابة اعتقاداً منهم بأن المرض يخرج من جسد المريض وينتقل إلى أول من يمر عبرها. وفي بافاريا علاج للحمى يعتمد على كتابة عبارة تقول: «ابتعدي أيتها الحمى، فأنا لست بالبيت،» ثم توضع قصاصة الورق في جيب أحدهم فيصاب بالحمى ويشفى المريض الأصل. وتطلب منك إحدى الوصفات البوهيمية لعلاج المرض ذاته أن تأخذ وعاء فارغا وتحمله إلى مفترق طرق فترميه وتهرب؛ وأول من يرفس الوعاء يصاب بالحمى وأنت تشفى منها.

وفي أوروبا، كما هي الحال بين الشعوب البدائية، كثيرا ما يحاول الناس نقل آلامهم أو أمراضهم إلى الحيوان، وقد نصح قدماء الكتاب من تلسعه العقرب أن يركب حماراً بالمقلوب أو أن يهمس في أذن الحيوان: «لدغتني العقرب»، وفي كلتا الحالتين ينتقل الألم حسب زعمهم من الإنسان إلى الحمار. وروى مارسيلوس أساليب علاج كثيرة من هذا النوع؛ فهو يخبرنا على سبيل المثال بالعلاج التالي لألم الأسنان: أمسك بضفدع من رأسه وأنت واقف تحت السماء المفتوحة، ثم ابصق في فمه واطلب منه أن يخلصك من الألم ثم أطلقه. لكن من الضروري أن تتم هذه العملية في يوم

(39) هي جزر تقع قبالة الساحل الشمالي لأسكتلندا. تتكون من مجموعة من 67 جزيرة، والعديد من الجزر الصغيرة، وهناك حوالي 21 جزيرة منها آهلة بالسكان. وأكبر هذه الجزر مينلاند التي تضم مُعظم السكان، بما في ذلك مدينتي كيركوول وسترومنيس «المترجم».



في الأعلى: البئر المقدسة في لاندغلا في ويلز، حيث كان مرض السقوط يعالج من خلال نقله إلى طائر.

الطرف المقابل: كان الناس يعتقدون أن الصفصاف يشفي من مختلف الأمراض. جزء من لوحة للفنان تشارلز أرنست بتلر.

وساعة يحالفك فيها الحظ.

وفي تششر من الشائع استخدام طريقة مشابهة في علاج مرض القلاع الذي يصيب الفم والحلق عند الأطفال، حيث يمسك بضفدع صغير ويوضع رأسه لبضع لحظات في فم المصاب الذي يفترض أن يتعافى بعد أن يأخذ الضفدع المرض منه. وقالت إحدى العجائز التي كثيراً ما كانت تشرف على هذه العملية: «أوكد لك أننا كنا نسمع الضفدع المسكين يشهق ويسعل بشدة لأيام عدة بعد ذلك؛ وكان سعال المخلوق المسكين يقطع نياط القلوب وهو يقفز في الحديقة».

ومن الطرق المتبعة في علاج السعال في نورثامبتونشير وديفونشير وويلز وضع شعرة من المصاب بين شريحتي خبز مطليتين بالزبد وإعطاء الشطيرة إلى كلب. وبذلك ينتقل السعال إلى الحيوان ويختفي من المريض. وينتقل المرض أحياناً إلى الحيوان من خلال مشاطرته الطعام. ففي أولدنبرغ إذا أصبت بالحمى عليك أن تضع وعاء من الحليب المحلى أمام كلب وتقول: «حظاً سعيداً أيها الكلب! أتمنى أن تصاب بالمرض وأشفى أنا منه». بعدئذ، يلعق الكلب شيئاً من الحليب، وتشرب أنت منه، ثم يلعق الكلب الحليب مرة أخرى، وتشرب أنت منه ثانية، وحين يلعق الحليب للمرة الثالثة، تنتقل إليه الحمى وتشفى أنت منها.

وثمة علاج بوهيمي للشفاء من الحمى يقوم على الخروج إلى الغابة قبل شروق الشمس والبحث عن عش طائر الشنقب، فإذا عثرت عليه خذ أحد الفراخ وضعه إلى جانبك لمدة ثلاثة أيام، ثم عد بعدها إلى الغابة وأطلق الشنقب. وفي العهد الفيداوي كان قدماء الهندوس يتخلصون من مرض السل بإرساله مع طائر أبو زريق وهم يقولون: «أيها السل، طر بعيداً مع أبو زريق! واختف مع هبوب العواصف والرياح».

وفي قرية لاندغلا الويلزية كنيسة مكرسة إلى الشهيدة العذراء القديسة تكلا حيث يمكن، أو كان من الممكن الشفاء من المرض بنقله إلى طائر. ويقوم المريض أولاً بغسل يديه ورجليه في بئر مقدسة ويلقي أربعة بنسات فيه تقرباً، ثم يمشي ثلاث مرات حول البئر مكرراً صلاة الرب ثلاثا أيضاً. ثم يوضع الطائر، ويكون إما دجاجة أو ديكاً، تبعاً لكون المريض رجلاً أو امرأة، في سلة، ويطاف به حول البئر أولا ثم حول الكنيسة. بعدئذ يدخل المريض إلى الكنيسة ويستلقي تحت طاولة القربان المقدس حتى بزوغ الفجر. بعد ذلك يتقرب بستة بنسات ثم ينصرف، تاركاً الطائر في الكنيسة. فإذا مات الطائر، يفترض أن المرض قد انتقل من المصاب أو من المصابة إليه وأنه قد تم شفاء المريض أو المريضة. وفي أواخر عام 1855 تذكر كاتب أبرشية القرية العجوز تماماً أنه شاهد الطيور تترنح من تأثير النوبات التي انتقلت إليها.

وكثيراً ما يسعى المصاب إلى نقل مرضه أو حظه العاثر إلى شيء من الجوامد. ففي أثينا كنيسة صغيرة تدعى كنية القديس يوحنا المعمدان شيدت مقابل عمود قديم، ويقصدها المصابون بالحمى، ويعتقدون أنهم ينقلون الحمى من أجسادهم إلى العمود من خلال ربطهم خيطاً مشمعاً بطرفه الداخلي. وفي مارك براندبيرغ يقولون إذا كنت تعاني من الدوار عليك أن تركض عارياً



تماماً ثلاث مرات حول حقل كتان بعد الغروب، وبذلك تنتقل الدوخة منك إلى الكتان.



لكن أكثر ما يستخدم في أوروبا بديلا للمرض والمتاعب من شتى الأنواع هو الشجرة أو الأجمة. ففي بلغاريا تعالج الحمى بالركض ثلاث مرات حول شجرة الصفصاف عند الشروق والصراخ: «الحمى سوف تهز الشجرة، والشمس سوف تدفئني». وفي جزيرة كارباثوس اليونانية، يربط كاهن خيطاً أحمر حول عنق المريض، ويقوم أصدقاء المريض بنزعه صباح اليوم التالي ويخرجون به إلى حافة التل حيث يربطونه بإحدى الأشجار وهذا في اعتقادهم سينقل المرض إلى الشجرة. ويحاول الإيطاليون شفاء الحمى بطريقة مشابهة من خلال ربطها بشجرة حيث يربط المريض خيطا حول معصمه الأيسر في الليل ثم يعلقه على إحدى الأشجار في صبيحة اليوم التالي. ويعتقد بأن الحمى ستربط بالشجرة، وبأن المريض سيشفى منها، لكن عليه أن يتجنب المرور بتلك الشجرة مرة أخرى، وإلا انطلقت الحمى من معقلها وهاجمته من جديد.

وهناك علاج فلمنكي [40] للبرداء يعتمد على الخروج في الصباح الباكر إلى شجرة صفصاف قديمة وربط ثلاث عقد في إحدى أغصانها مع القول: «صباح الخير أيتها العجوز، إنني أعطيك البرد؛ صباح الخير أيتها العجوز». ثم يعود المريض ويسرع دون أن ينظر وراءه. وفي سونبرغ إذا أردت التخلص من داء النقرس عليك أن تذهب إلى شجرة تنوب وتربط عقدة في أحد أغصانها وتقول: «حياك الله، أيتها الشجرة النبيلة. إنني أحضر إليك نقرسي. وهنا

(40) نسبة إلى الفلمنك، وهم من سكان بلجيكا حاليا «المترجم».

سأعقد عقدة وأربط نقرسي فيها. باسم.... الخ».

ومن وسائل نقل النقرس من رجل إلى شجرة الطريقة التالية: قلم أظافر المريض وقص بعض الشعيرات من ساقيه. ثم احفر في شجرة بلوط وأدخل الأظافر والشعر في الحفرة، ثم سد الحفرة من جديد واطلها بروث البقر. فإذا شفي المريض من النقرس خلال ثلاثة شهور، فهذا دليل أكيد على إصابة الشجرة بالنقرس بدلا عنه. وفي تششر، إذا أردت التخلص من الثآليل، افركها بقطعة من لحم الخنزير، ثم اقطع شقا في لحاء شجرة دردار وضع قطعة اللحم تحت اللحاء، وستختفي الثآليل سريعا من يدك، لكنها تظهر في شكل نتوءات خشنة أو عقد على لحاء الشجرة. وفي بارك هامستد في هاتفوردشير كانت هناك بعض أشجار البلوط المشهورة بفعاليتها في الشفاء من البرداء. وكانت عملية نقل المرض إلى الشجرة بسيطة لكنها مؤلمة. وكانت تؤخذ خصلة من شعر المريض وتثبت في شجرة بلوط، بعدئذ، وبحركة مفاجئة يخلف وراءه شعره والبرداء في الشجرة.

وقد اتبعت وسائل مشابهة لتخليص مجتمع بأكمله من مختلف أنواع الكوارث التي تنزل به. وليست هذه المحاولات التي تبذل للتخلص الفوري من أحزان الناس المتراكمة نادرة ولا استثنائية، بل على العكس، نراها شائعة في كثير من الأقاليم، وقد أصبحت موسمية وسنوية بعد أن كانت تحدث على فترات متباعدة.

ويحتاج الأمر منا إلى بعض الجهد لندرك الإطار العقلي الذي حفز هذه المحاولات. وبما أننا نشأنا في فلسفة تجرد الطبيعة من الشخصية وتختزلها إلى السبب المجهول وراء سلسلة منتظمة من الانطباعات التي تعلق بأحاسيسنا، فإننا نجد صعوبة في وضع أنفسنا مكان الإنسان البدائي الذي تتراءى له الانطباعات ذاتها في هيئة أرواح أو أعمال الأرواح. وقد أصبح جيش الأرواح منذ زمن طويل في تراجع مطرد بعد أن كان قريبا منا، بعد أن أبعدته عصا العلم السحرية عن المأوى وعن البيت، وعن الزنزانة الخربة والبرج المكسو باللبلاب، وعن الغابة والبركة المسكونة، وعن السحابة المعتمة الكثيفة التي ترسل البرق، وعن تلك السحب الخفيفة التي تحجب القمر الفضي أو تبدد المساء الذهبي برقائق حمراء متوهجة. لقد ولت الأرواح حتى من آخر معاقلها في السماء التي لم يعد أحد ينظر إلى قبتها الزرقاء (إلا الأطفال) على أنها الحجاب الذي يحجب مجد السماء عن أعين البشر. ولم يعد ثمة مجال سوى في أحلام الشعراء أو شطحات الخطابة الحماسية لإعطائها مهمة لمح آخر خفقة من خفقات رايات جيشها المتقهقر، وسماع



في الأعلى: كان الهدف من السحر إبعاد جيش من الأرواح غير المرئية. أرنب بين الحوريات لوحة للفنان أنستر فيتزجيرالد.

الطرف المقابل: أعتقد الناس أن باستطاعتهم استعادة عصر ذهبي من خلال اصطياد الأشباح والشياطين. تبين هذه الصورة كيف كان الناس يتخيلون العصر الذهبي في العصور الكلاسيكية بناء على رواية الشاعر اليوناني هسيود والشاعر الروماني أوفيد. لوحة على الخشب، حوالي 1530 للفنان لوكاس كراناك. معرض الصور القديمة، ميونيخ.

رفرفة أجنحتها الخفية، وأصوات ضحكاتها الساخرة، أو موسيقى الملائكة الصداحة وهي تتلاشى من بعيد. لكن الأمر مختلف تمام الاختلاف عند الإنسان البدائي. فالعالم بالنسبة إلى خياله ما زال يعج بتلك المخلوقات المتنافرة التي تخلصت منها الفلسفة الأقرب إلى العقل. فالحوريات والجن والأشباح والشياطين لا تزال تحوم حوله في نومه وفي يقظته. فهي تتبع خطواته، وتبهر حواسه، وتدخل جسمه، وتؤرقه وتخدعه وتعذبه في ألف طريقة شريرة وغريبة. فهو يعزو كل مصيبة تحل به، وكل خسارة يتعرض إليها، وألم يلم به إلى كراهية الأرواح له أو غضبها منه إن لم يكن إلى سحر أعدائه. فوجودها المستمر يضنيه ويقض مضاجعه، وشوقه إلى التخلص منها بشكل نهائي لا يوصف. ويضطر من وقت إلى آخر للدفاع عن نفسه، بعد أن ينفد صبره فينقلب على مضطهديه ويبذل جهدا يائسا لمطاردة القطيع بأكمله من الأرض، وتطهير الجو من جموعه المحتشدة حتى يتمكن من التنفس بحرية أكبر ويمضي في سبيله دونما مضايقة لبعض الوقت على الأقل. وهكذا نجد أن جهود البدائيين للتخلص من متاعبهم نهائيا تتخذ بصفة عامة شكل رحلة لصيد الشياطين والأشباح وطردها. ويعتقدون

أنهم لو استطاعوا التخلص من معذبيهم الملاعين، لبدؤوا حياتهم من جديد وهم سعداء وأبرياء، وسوف تتحقق قصص جنة عدن والعهد الذهبي الشاعري القديم.

لذلك يمكننا أن نفهم لمَ تتخذ عمليات إبعاد الشر التي يلجأ إليها البدائيون بين فينة وأخرى، شكل طرد للشياطين بالقوة. فالإنسان البدائي يرى في هذه الأرواح الشريرة سبباً لكثير من



في الأعلى: كان الناس ينظرون إلى الساحرات على أنهن مصدر تهديد في كثير من مراحل التاريخ الإنساني. وتبين هذه الصورة تحضير عقار الهلوسة. سبت الساحرات، حفر على الخشب من عام 1510 للفنان هانز بالونغ.

الطرف المقابل: ساحرات يجتمعن لطرد الشياطين. لوحة «كونجورو» للفنان جويا تعود لعام 1798 لمكتب المقر الملكي الصيفي في ألاميدا. متحف لازارو جالديانو، مدريد.

مآسيه، إن لم نقل كلها، ويظن أنه لو استطاع التخلص منها، لتحسن كل شيء بالنسبة إليه. ومن الممكن تقسيم محاولات الناس طرد المآسي المتراكمة في المجتمع إلى فئتين تبعاً لكون الشرور المطرودة غير حسية وغير مرئية أو مجسدة في وسيط مادي أو كبش فداء. أما الحالة الأولى فتسمى بطرد الشرور المباشرة أو الفورية، وأما الحالة الثانية فتسمى بالطرد غير المباشر أو طرد الوسيط أو طرد كبش الفداء. وسنبدأ بأمثلة من الحالة الأولى.

في جزيرة روك، بين غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة، إذا حلت مصيبة معينة، تراكض الجميع معاً وهم يصرخون ويلعنون ويزمجرون ويضربون الهواء بالعصي لكي يطردوا الشيطان الذي يفترض أنه وراء هذه المصيبة – ويسوقوه خطوة خطوة نحو البحر، فإذا وصلوا إلى الشاطئ، ضاعفوا صراخهم وضرباتهم حتى يطردوه من الجزيرة. ويتراجع الشيطان بالتدريج نحو البحر أو نحو جزيرة لوتين. أما سكان بريطانيا الجديدة، فيردون المرض والجفاف ونقص المحاصيل، والمصائب بكافة صنوفها إلى تأثير الأرواح الشريرة. فإذا مرض الناس وماتوا، كما يحدث في بداية فصل الأمطار، خرج سكان المنطقة إلى الحقول في ضوء القمر وهم مسلحون بالأغصان والهراوات ويضربون الأرض ويطرقونها بأقدامهم، وهم يطلقون عويلهم الصاخب حتى الصباح اعتقادا منهم أن هذا يطرد الشياطين، كما يتراكضون في دروب القرية والمشاعل بأيديهم للسبب ذاته.

وفي كانيو كاليدونيا الجديدة يقال إن السكان يعزون الشرور كافة إلى روح شريرة خبيثة. وللتخلص من هذه الروح يحفرون بين فينة وأخرى أخدودا كبيرا تتجمع حوله القبيلة بأسرها. وبعد إطلاق اللعنات على الشيطان، يملؤون الأخدود بالتراب ويطؤونه بأقدامهم وهم يصيحون بأعلى أصواتهم. ويقول هؤلاء إنهم بذلك يدفنون الروح الشريرة. أما إذا ظهر مرض خطير في قبيلة ديري في وسط استراليا، عمل الأطباء الدجالون على طرد كوتشي، أو الشيطان، وذلك بضرب الأرض داخل المخيم وخارجه بذيل كنغجر محشو حتى يبعدوه عن المخيم.





في الأعلى: في رقصة البارونغ البالينيزية، التي تستخدم غالبا وسيلة لطرد الشياطين، تقاتل الساحرة الشريرة رانغدا البارونغ، وهو مخلوق مقدس يشبه التنين وظيفته حماية البشرية من مؤامراتها الشريرة.

الطرف المقابل: خلال مراسم إحراق جثمان الميت في بالي، يحرق الجثمان ويؤخذ الرماد إلى نهر أو بحر ليتطهر الميت من الآثام.

وحين تصاب قرية بسلسلة من الكوارث أو بوباء خطير، يلقي سكان ميناهاسا [41] باللوم على الشياطين الذين ابتليت بهم القرية ولابد من طردهم منها. لذلك، يخرج جميع السكان باكراً في صباح أحد الأيام رجالاً ونساء وأطفالاً، من بيوتهم يحملون معهم بعض الطيبات فيقيمون في أكواخ مؤقتة في ظاهر القرية لأيام عدة يقدمون خلالها القرابين ويستعدون للاحتفال النهائي. وفي نهاية المطاف، يبدأ الرجال في العودة خلسة إلى القرية المهجورة وقد وضع بعضهم الأقنعة على وجوههم، أو دهنوها بالأسود وهكذا، وتسلحوا بالسيوف والبنادق والرماح والمكانس. بعد ذلك يعطي الكاهن الإشارة فيندفع الجميع بصخب في شوارع القرية ليدخلوا منازلهم أو تحتها (وهي مرفوعة فوق أعمدة فوق الأرض) وهم يتصايحون ويضربون على الجدران والأبواب والنوافذ لكي يطردوا الشياطين. بعد ذلك يأتي الكهنة وبقية الناس يحملون النار المقدسة ويطوفون تسع مرات حول كل منزل وثلاثا حول السلم الذي يؤدي إليها. ثم يحملون النار إلى المطبخ ويجب أن تظل مشتعلة ثلاثة أيام دون انقطاع. والآن يتم طرد الشياطين، وتعم الفرحة العارمة سائر أنحاء القرية.

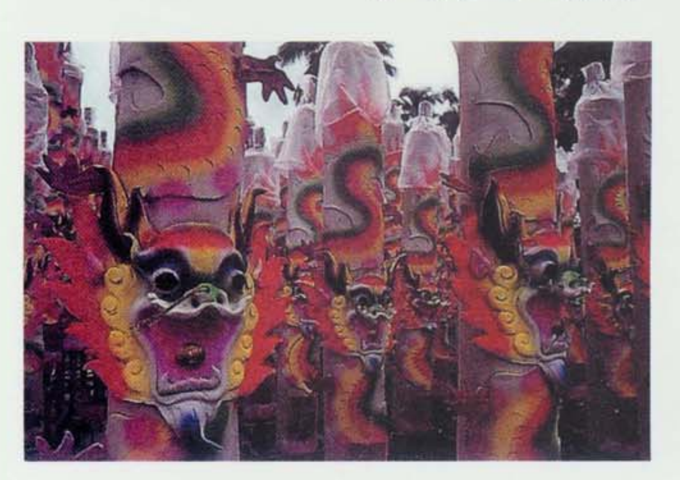
وقد يحدث أحياناً أنه بدلاً من مطاردة شيطان المرض من بيوت البدائيين، يفضل هؤلاء تركه في تقمص مسالم، ثم يولونه الأدبار ويحاولون منعه من اللحاق بهم. فحين تعرض الباتاغونيون [42] لوباء الجدري الذي عزوه إلى تدبيرات روح شريرة، كانوا يتخلون عن مرضاهم ويهربون وهم يضربون الهواء بأسلحتهم ويرشون الماء في شتى الاتجاهات لإبعاد المطارد المخيف. وبعد مسيرة أيام عدة، وعند وصلوهم إلى مكان يأملون أن يكونوا فيه في مأمن، كانوا يوجهون كل أسلحتهم القاطعة الحادة نحو المنطقة التي أتوا منها، كما لو كانوا يقارعون كتيبة مهاجمة من سلاح الفرسان. وبالمثل، كان اللول أو الهنود التونوكوت في غران تشاكو إذا تعرضوا إلى وباء سعوا إلى الخلاص منه بالهرب، وكانوا يتبعون دائما مسارا متعرجا وليس مستقيما، ويقولون إنه إذا لحق بهم المرض أصيب بالإرهاق بسبب المنعطفات في الطريق، وبذلك لن يتمكن من اللحاق بهم أبدا. وإذا أصيب هنود نيو مكسيكو بالجدري أو بالأمراض المعدية الأخرى غيروا مكان إقامتهم كل يوم، وتراجعوا إلى المناطق المنعزلة في الجبال، واختاروا أكثر الأحراش شوكاً على أمل أن يخاف الجدري من أن يخدش نفسه بالأشواك ويعدل عن مطاردتهم. أما إذا أصيب بعض الصينيين بالكوليرا في أثناء زيارتهم رانغون، امتشقوا سيوفهم لإخافة الشيطان، وأمضوا النهار مختبئين في الأحراش حتى لا يعثر عليهم.

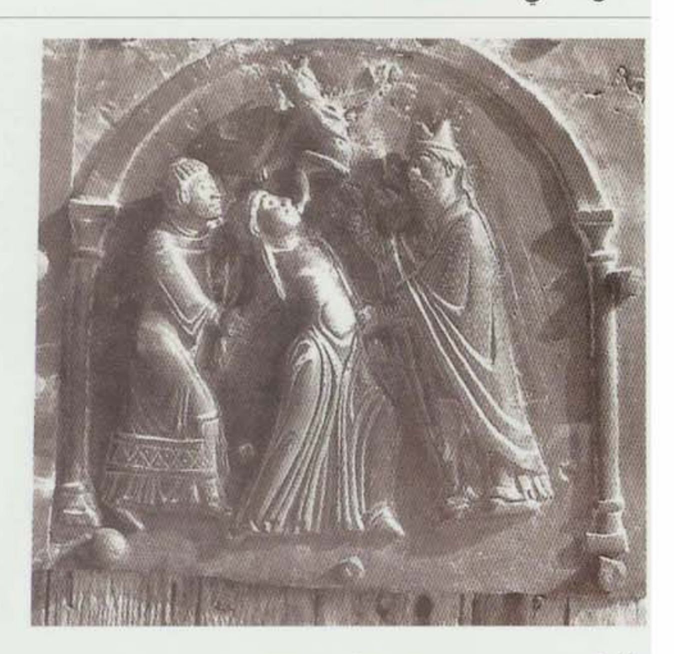
(41) إحدى جزر إندونيسيا «المترجم».

(42) سكان باتاغونيا التي يقع معظمها في الأرجنتين وجزء منها في شيلي. أشهر أقاليم شيلي، وتتميز بالمناظر الطبيعية الخلابة وهي جزء من نهاية اليابسة، حيث نهاية قارة أمريكا الجنوبية حيث الجبال والجبال الجليدية والمناطق المتجمدة «المترجم».

ويميل طردِ الشرور نحو التحول من كونه عارضاً إلى كونه دورياً. وقد أصبح من المحبذ التخلص من الأرواح الشريرة في أوقات محددة هي في الغالب سنوية لكي يتمكن الناس من الشروع في بداية جديدة في حياتهم، خالية من جميع التأثيرات الخبيثة التي تراكمت من حولهم. فقد دأب بعض سكان استراليا الأصليين على طرد أشباح الموتى من أراضيهم كل سنة. وشهد الاحتفال الراهب ريدلي Ridley على ضفاف نهر باروان حيث كانت «جوقة قوامها عشرون شخصا من الشباب والشيوخ ينشدون ويضربون الإيقاع بعصي البومرانغ وفجأة، ومن تحت غطاء من الفلين، اندفع رجل صبغ جسمه بالأبيض، ولوّن وجهه ورأسه بخطوط حمر وصفر، وعلى رأسه قلنسوة من الريش مثبتة بعود طوله قدمان فوق رأسه فوقف ساكنا دون حراك مدة عشرين دقيقة وهو يحدق نحو

في الأسفل: في بينانغ، ماليزيا، تقام طقوس «الأشباح الجائعة» سنويا لراحة أرواح الموتى عند إطلاقها من المطهر.





في الأعلى: القديس زينو يخلص امرأة من الشيطان الذي تقمصها. القرن الثاني عشر، من المدخل البرونزي لكنيسة سان زينو في فيرونا، إيطاليا.

الطرف المقابل: مشعوذ يؤدي طقوسه لإخراج الأرواح الشريرة، في بونهان، بهوتان.

الأعلى. وأخبرني أحد السكان المحليين، وكان واقفا بالقرب مني، أنه كان يبحث عن أشباح الموتى. وأخيرا بدأ يتحرك ببطء شديد، ثم ما لبث أن اندفع جيئة وذهابا بأقصى سرعته وهو يلوح بغصن بيده كما لو أنه يطرد أعداء لا نراها. وحين ظننت أن إيماءاته انتهت، ظهر فجأة من وراء الأشجار عشرة غيره لهم الهيئة ذاتها، وانخرط الجميع في عراك عنيف مع مهاجميهم الغامضين. وأخيرا، وبعد بعض الحركات السريعة التي استنفذوا فيها كل قواهم، نالوا قسطاً من الراحة بعد الجهد المثير الذي بذلوه طوال الليل ولساعات عدة بعد شروق الشمس، وبدا عليهم الاقتناع بأنهم طردوا الأشباح لمدة اثني عشر شهرا. وكان هؤلاء يؤدون الاحتفال ذاته في كل محطة على النهر، وعلمت أن هذه عادة سنوية».

في السنة مواسم تبرز بصورة طبيعية على أنها لحظات مناسبة لطرد الشياطين. وتأتي هذه اللحظات بنهاية شهر قطبي، حين تظهر الشمس في الأفق بعد غيابها لأسابيع أو لأشهر. ففي بوينت بارو، وهي أبعد نقطة في ألاسكا، وتقريبا في أمريكا، يختار الإسكيمو لحظة ظهور الشمس لاصطياد تونا، الروح الشريرة، من كل بيت. وقد شهد أعضاء الهيئة القطبية الأمريكية هذا الاحتفال بعد أن قضوا الشتاء في بوينت بارو. أضرمت النار أمام مبنى المجلس البلدي، وجلست عجوز عند مدخل كل منزل أما الرجال فتجمعوا حول مبنى المجلس البلدي في حين كانت البنات والصبايا يطردن الروح الشريرة من كل منزل بالسكاكين وهن يطعن بضراوة تحت السرير وجلود الغزال وينادين على تونا لكي تخرج. فإذا غلب على ظنهن أن الروح قد خرجت من كل جحر وكل زاوية، حصرنها في حفرة في الأرض وطاردنها إلى الفضاء الفسيح بالصراخ أو الحركات العنيفة. في تلك الأثناء، تلوح العجائز على مدخل البيت في الهواء بسكين طويلة لمنع الروح الشريرة من العودة. كانت كل مجموعة تسوق الروح الشريرة نحو النار وتدعوها إلى الولوج فيها. في تلك الأثناء يقف الجميع على شكل نصف دائرة حول النار. وبعد أن يفرغ عدد من الأعيان من هجماتهم على الروح، وبعد أن ينظف كل منهم ملابسه بشدة بعد إلقاء كلمته، ويطلب من الروح الابتعاد عنه والتوجه نحو النار، يتقدم رجلان ومعهما بندقيتان محشوتان بطلقات فارغة في حين يأتي ثالث بوعاء من البول ويرمي به فوق اللهب. في ذلك الوقت يطلق أحد الرجلين رصاصة في النار؛ وحين تعلو سحابة البخار، تطلق رصاصة أخرى، التي يفترض أن تقضي على تونا.

ويتحدد أحياناً موعد طرد الشياطين السنوي تبعاً للموسم الزراعي. فقبائل الهوس في توغولاند في غرب إفريقيا تحتفل بطرد الشياطين قبل موسم اليام الجديد من كل عام. ويقوم الزعماء باستدعاء الكهنة والسحرة ويخبرونهم بأن على الناس تناول ثمرات اليام الجديدة والتمتع بالسرور والحبور لذلك عليهم تطهير المدينة وتخليصها من الشرور. وهكذا تستدعى جميع الأرواح الشريرة، والساحرات وكل الآلام التي يعاني منها الناس وتدخل في حزم من أوراق الأشجار والنباتات المتسلقة، ثم تربط بأعمدة قبل أن تؤخذ لتغرز في التراب على مختلف الطرق خارج المدينة. وفي الليلة التالية يحظر إشعال النار وتناول الطعام. وتقوم النسوة في الصباح التالي بمسح منازلهن ومواقدهن ويضعن المخلفات على أطباق خشبية مكسورة. بعد ذلك يبتهل الناس قائلين: «أيتها الأمراض التي في أبداننا والتي تؤذينا، لقد جئنا اليوم لنطردك إلى الخارج». ثم يسرعون بكل ما أوتوا من قوة باتجاه جبل أداكلو وهم يضربون أفواههم ويصرخون: «أخرجي اليوم، أخرجي اليوم!» يا من تقتل أيا كان، أخرج اليوم! أيتها الأرواح الشريرة، أخرجي اليوم! كل ما يجلب لنا الصداع، أخرج اليوم!» آنلو وأداكلو هما المكانان اللذان ستذهب إليهما كل الآلام». فإذا وصلوا إلى



شجرة معينة في جبل أداكلو، ألقوا كل شيء ثم عادوا أدراجهم.

وفي كيريوينا في جنوب غينيا الجديدة، وبعد حصاد اليام الجديد، يحتفل الناس ويرقصون أياما عدة، وتعرض كميات كبيرة من الممتلكات مثل الأساور والنقود المحلية وغيرها فوق منصة تقام لهذا الغرض. وبعد انتهاء الاحتفالات يجتمع الناس ويطردون الأرواح من القرية وهم يصرخون ويضربون على أعمدة المنازل ويقلبون كل ما يمكن لروح شريرة أن تختبئ تحته. وقد فسر الناس هذا التصرف لأحد المبشرين قائلين: إنهم قدموا إلى الأرواح كل وسائل الترفيه والطعام الشهي، وزودوها بأسباب الثراء، وقد حان الوقت الآن لكي ترحل. ألم تشهد الرقص وتسمع الغناء، وتلتهم أرواح اليام وتستول على أرواح النقود وجميع الأشياء الجميلة الأخرى المعروضة على المنصة؟ فماذا تريد أكثر من هذا؟ لذلك يجب أن تخرج!

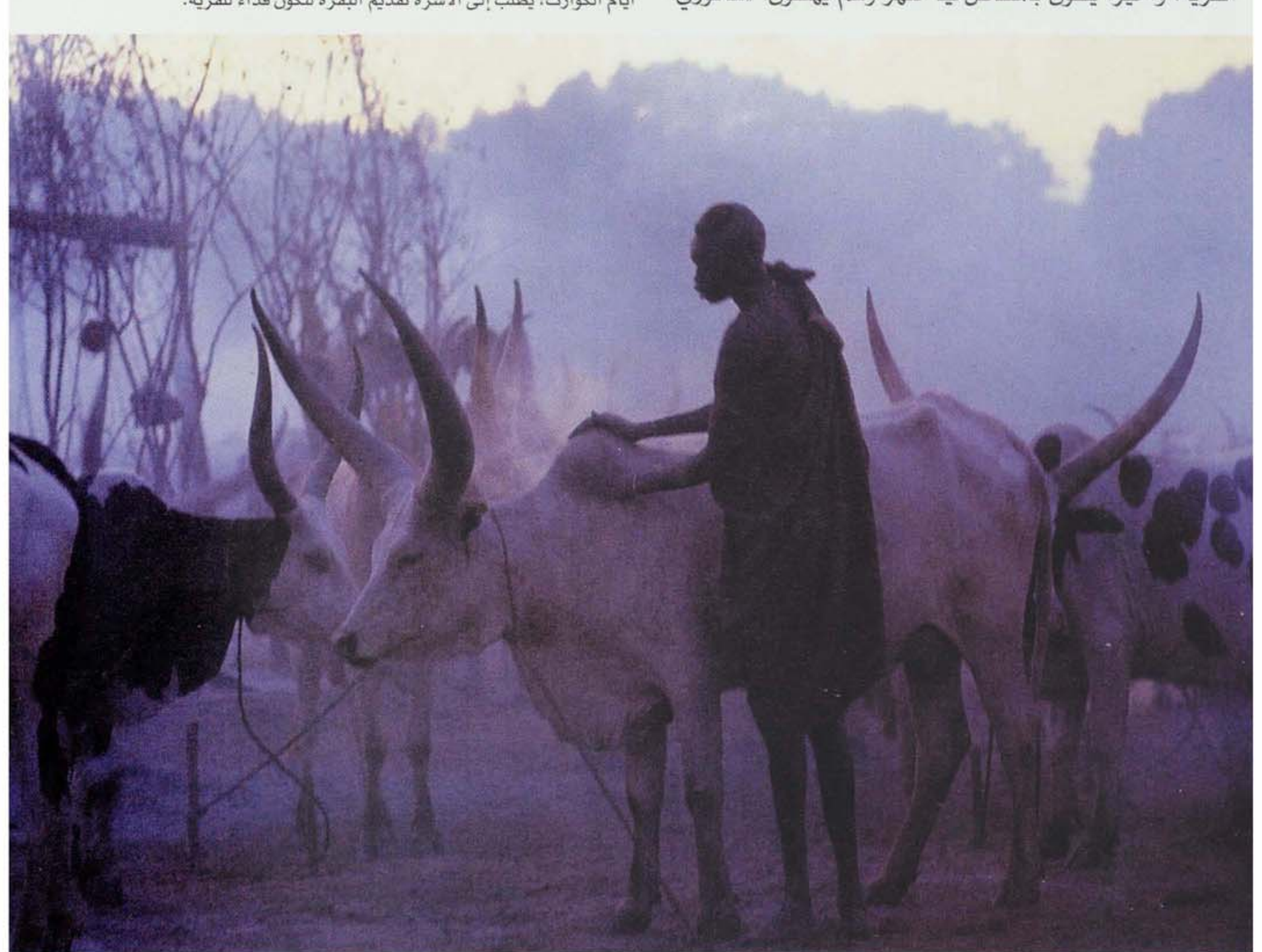
وفي قبيلة كوش الهندوسية، كما هي الحال في قبيلتي هوس ومنداريس، تطرد الشياطين بعد الحصاد. فبعد الانتهاء من حصاد آخر جزء من المحصول، يرى الناس أن من الواجب طرد الأرواح الشريرة من المخازن. ويتناول الناس نوعا من الثريد ويأخذ رب الأسرة بندقيته ويطلق رصاصة في الأرض. بعدئذ يخرج من المنزل ويبدأ في حشو بندقيته وإطلاقها إلى أن ينفد ما في جعبته من البارود. في الوقت ذاته يكون جيرانه منهمكين بالعمل ذاته. ويقضي الناس اليوم التالي في المرح والسرور. ويطلق على هذا الاحتفال في شيترال اسم «طرد الشيطان».

أما سكان جزيرة بالي الواقعة إلى الشرق من جزيرة جاوة، فلديهم احتفالات دورية لطرد الشياطين تقام في يوم «القمر المظلم» في الشهر التاسع. فإذا مر وقت طويل دون مضايقة الشياطين قيل إن البلاد «دافئة» فيصدر الكهنة الأوامر بطردهم بالقوة لئلا تصبح جزيرة بالي بأكملها غير قابلة للسكن. وفي اليوم الموعود يجتمع سكان القرية أو المنطقة في المعبد الرئيس. وهناك تقدم القرابين للشياطين عند مفترق طرق. وبعد أن يتلو الكهنة صلواتهم ينادي صوت البوق الشياطين كي تأتي وتشترك في تناول الوجبة التي أعدت لهم. وفي الوقت ذاته، يتقدم عدد من الرجال ويشعلون مشاعلهم من مصباح مقدس يشتعل أمام كبير الكهنة. بعد ذلك مباشرة، يتفرق حملة المشاعل في شتى الاتجاهات يتبعهم المتفرجون ويسيرون عبر الشوارع والأزقة وهم يهتفون «ارحل، اخرج!» وحيثما مر الموكب، سارع الناس الذين آثروا المكوث في بيوتهم إلى المشاركة في طرد الشياطين بقرع على الأبواب والأعمدة وأخشاب الأرز يصم الآذان. وهكذا تهرب الشياطين المطرودة من المنازل وتتوجه نحو الوليمة التي أعدت لها، لكن الكهنة يستقبلونها باللعنات التي تخرجها من المنطقة في آخر الأمر. وبعد رحيل آخر الشياطين، يحدث سكون مطبق بعد الضوضاء، يستمر حتى اليوم التالي. ويعتقد أن الشياطين حريصة على العودة إلى بيوتها القديمة، لذلك يحرص الناس على جعل الشياطين تظن أن بالي ليست بالي بل جزيرة مهجورة، فيحظر على أهلها التحرك من مساكنهم مدة أربع وعشرين ساعة، كما تتوقف النشاطات المنزلية كافة بما فيها الطبخ. ولا يسمح لأي كان بالظهور في الشوارع سوى الحراس، وتعلق أكاليل من الشوك وأوراق الشجر في جميع المداخل تحذيرا للغرباء من مغبة الدخول. وتستمر حالة الحصار هذه ثلاثة أيام كاملة، وحتى بعد رفع الحصار يحظر على الناس العمل في حقول الأرز أو ممارسة البيع والشراء في الأسواق، فيمكثون في بيوتهم ويمضون الوقت في لعب الورق والنرد.

أما في أوروبا المسيحية فقد استمرت عادة طرد الشياطين القديمة في أوقات معينة من السنة حتى يومنا هذا. ففي بعض القرى في كالابريا [43] يحتفل الناس بقدوم شهر مارس بطرد الساحرات. ويحدث هذا ليلا وعلى أصوات أجراس الكنائس حيث يتراكض الناس في الشوارع وهم يهتفون «جاء مارس!» ويقولون إن الساحرات يتجولن في شهر مارس، ويتكرر الاحتفال مساء كل يوم جمعة من الشهر. وكثيرا ما ارتبط الطقس الوثني القديم باحتفالات الكنيسة مثلما هو متوقع. وفي ألبانيا، وعشية عيد الفصح، يشعل الشباب المشاعل من خشب راتنجي ويسيرون في مواكب في شوارع القرية. وأخيرا يلقون بالمشاعل في النهر وهم يهتفون: «هاكوري! إننا نلقي بك في النهر مثلما نلقي بهذه المشاعل، حتى لا تعود إلينا أبدا». ويعتقد الفلاحون السيليزيون أن الساحرات يقمن بجولاتهن يوم الجمعة العظيمة ويكتسبن قوة كبيرة على إلحاق الأذى بالناس. لذلك يتسلح الناس في أولز Oels بالقرب من ستريليتز بالمكانس

الطرف المقابل: قناع وخوذة تستعملها جماعة نغونغتانغ في أداء الطقوس المضادة للسحر. قبيلة فانغ، غابون، إفريقيا الاستوائية.

في الأسفل: في قبيلة الدنكا في شمال إفريقيا، تمتلك كل أسرة بقرة مقدسة. وفي أيام الكوارث، يطلب إلى الأسرة تقديم البقرة لتكون فداء للقرية.



(43) قَلَوْرِيَة أو كالابريا إقليم في إيطاليا، يقع أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وتبلغ مساحته 15.082 كيلومتر مربع وعدد سكانه يتجاوز مليوني نسمة، وهو على شكل شبه جزيرة يحيط به شرقا البحر الأيوني وغربا البحر التيراني يحده من الشمال إقليم بازيليكاتا ويفصله عن صقلية مضيق ميسينا، عاصمته كاتنزارو «المترجم».



القديمة ويطردون الساحرات من المنازل والبيوت ومن ساحة المزرعة وزرائب الماشية وهم يصدرون جلبة وضوضاء.

عرضنا فيما سبق تلك الفئة من طرد الشياطين العام التي وصفناها بأنها مباشرة أو فورية. وفي تلك الفئة تكون الشياطين غير مرئية، على الأقل بالنسبة إلى الأعين العادية، وطريقة الخلاص منها تتألف في معظم الحالات من ضرب الهواء وإحداث ضوضاء عالية تخيف الأرواح الشريرة وتجعلها تهرب.

بقي علينا شرح الفئة الثانية من طرد الشياطين، حيث يتجسد التأثير الشرير في شكل مرئي، أو على الأقل يفترض أن يكون مجسدا في وسيط مادي يكون بمثابة أداة، تبعده عن سكان القرية أو المدينة.

وكثيرا ما تكون الأداة التي تبعد الشياطين أو الآلام المجتمعة في المجتمع بأكمله حيوانا أو كبش فداء. فإذا انتشر وباء الكوليرا في إحدى قرى الأقاليم الوسطى من الهند، عاد الجميع إلى بيوتهم بعد غروب الشمس، ثم طاف الكهنة في الشوارع وأخذوا قشة من سقف كل منزل لتحرق مع قربان من الرز والسمن والكركم عند نصب مقدس شرق القرية. وتساق طيور الدجاج المصبوغ باللون القرمزي نحو الدخان، ويعتقد أنها تحمل المرض معها. فإذا فشل الدجاج، جربوا الماعز، وأخيرا الخنازير. وإذا تفشت الكوليرا بين قبائل البار والمالان والكرمي، أخذوا عنزة أو جاموسة (يشترط أن تكون أنثى حالكة السواد في الحالتين) وبعد أن يربطوا بعض الحبوب والقرنفل والرصاص الأحمر بقماشة صفراء على ظهرها، يطلقونها في القرية. ويوجه الحيوان إلى خارج حدود القرية ولا يسمح له بالعودة. وتوضع على الجاموسة أحيانا علامة حمراء وتقاد إلى القرية المجاورة حاملة الوباء معها.

وفي قبائل الدنكا، وهم من الرعاة سكان منطقة النيل البيض، تمتلك كل أسرة بقرة مقدسة. فإذا ما تعرضت البلاد إلى خطر الحرب أو المجاعة أو أي كارثة عامة أخرى، طلب زعماء القرية من أسرة بعينها تسليمهم بقرتهم المقدسة لتكون قربانا. وتسوق النساء البقرة إلى حافة النهر ويعبرن بها إلى الضفة الأخرى حيث يطلقنها في البراري لتكون فريسة للحيوانات المفترسة. وتعود النساء بعدها في صمت دون أن ينظرن وراءهن. ويعتقدن أنهن لو ألقين نظرة واحدة وراءهن، لفقدت العملية كل تأثيرها. في عام 1857 حين تفشى الطاعون بين هنود أيمارا في بوليفيا وبيرو وضع الناس كمية من ملابس المصابين بالوباء على ظهر حيوان أسود من اللاما، ورشوه بالبراندي ثم أطلقوا الحيوان في الجبال أملا في أن يبعد ذلك الوباء عنهم.

في الأعلى: سيلينوس، روح البراري، تقدم أضحية على مذبح ملتهب. جزء من نقوش رخامية رومانية. سكافي دي أوستيا، إيطاليا.

الطرف المقابل: اليومينيد من العصر اليوناني القديم، ويعرفن أيضا باسم الإريني، كن آلهة يثأرن للدم ضمن الأسر. وكثيرا ما كان قتلة الأقرباء يصابون بالجنون بسبب شعورهم بالذنب، وقيل إن الإريني ثأرن لأنفسهن. حفر على الخشب من جمعية الأساطير الوطنية.

وقد يكون القربان رجلاً أحياناً. فالآلهة كانت تنذر ملك أوغندة من وقت إلى آخر بأن أعداءه من قبيلة البانيورو يمارسون أعمال السحر ضده وضد شعبه ليموتوا من الأمراض . ولكي يتجنب الملك هذه الكارثة كان يرسل قربانا إلى حدود البانيورو وهي أراضي الأعداء. أما القربان فإما أن يكون رجلا أو صبيا أو امرأة مع طفلها يقع عليهم الاختيار بسبب علامة ما أو تشوه جسدي، لاحظته الآلهة وبموجبه تتحدد هوية الضحايا. ويرسل برفقة الضحايا بقرة وعنزة وطائر وكلب، كما يرافقهم حارس قوي إلى الأرض التي حددتها الآلهة حيث تكسر أطراف الضحايا ويتركون ليموتوا موتا بطيئا في بلاد الأعداء لعجزهم عن الرجوع زحفا إلى أوغندة. وبهذه الطريقة كان يعتقد أن الوباء أو المرض انتقل إلى الضحايا ومنهم إلى الأرض التي جاء منها في الأصل.





في الأعلى: جزارون يعملون عند أوبا، أو الملك، في بينين وهم يذبحون بقرة، وهي أثمن الحيوانات، لتكون قربانا. لوحة نحاسية من قصر ملوك بينين، نيجيريا، أوائل القرن السابع عشر. المتحف البريطاني، لندن.

الطرف المقابل: جزء من أشكال شيطانية، من لوحة هندية بوذية تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر.

وفي الصين تختار بعض القبائل الأصلية رجلاً ذا قوة عضلية هائلة ليؤدي دور القربان حماية من الوباء. فبعد أن يطلي الرجل وجهه، يؤدي كثيراً من الحركات الغريبة ليجتذب إليه الوباء والمؤثرات الضارة الأخرى لتحل به دون غيره، وأخيراً يساق كبش الفداء هذا إلى خارج المدينة أو القرية يطارده الرجال والنساء وهم يقرعون الطبول والأجراس. أما في منطقة البنجاب، فيعتمد علاج طاعون الماشية على تكليف رجل من الكامار بهذه المهمة فيوجه وجهه بعيدا عن القرية، وتوضع على جسمه علامة بمنجل سُخن إلى درجة الاحمرار، ثم يتركونه يهيم على وجهه في الغابة آخذا معه الطاعون.

وربما كان القربان أحد الصالحين. ففي نوفمبر يعبد أبناء قبيلة الجوند Gond الهندية غانسيام ديو حارس المحصول، ويقال إن الإله بالذات ينزل في أثناء احتفال على رأس أحد المصلين فتنتابه فجأة نوبة من نوع ما، ويترنح ويتمايل قبل أن يسرع إلى الغابة حيث يعتقد أنه إذا ترك وشأنه مات مجنونا. لكنهم يعيدونه إليهم مع أنه لا يرجع إلى حالته الطبيعية قبل يوم أو يومين. ويعتقد الناس أن الاختيار يقع على شخص واحد ليحمل أوزار بقية القرية.

في معبد القمر يحتفظ ألبان شرق القوقاز بعدد من العبيد المقدسين، وكثير منهم ملهمون وقادرون على التنبؤ. وحين يبدي أحدهم أعراضا تفوق المألوف من الإلهام أو الجنون، ويهيم على وجهه وحيدا في الغابات، مثل الجوند في الغابة، يعمل الكاهن الأكبر على شد وثاقه بسلسلة مقدسة ويعتني به جيدا مدة سنة كاملة. وفي نهاية السنة يدهن جسمه بالمراهم ويساق ليذبح قربانا للآلهة. ويخرج من بين الحشود رجل مختص بقتل هذه الضحايا البشرية ويتمتع بمهارة عالية اكتسبها بالخبرة فيغرز رمحا مقدسا في جنب الضحية ينفذ إلى قلبه. وتستخرج النبوءات حول خير الناس أجمعين من طريقة سقوط القتيل، ثم يحمل جثمان الضحية إلى مكان معين ليقف الكل فوقه في طقس طهوري. ويدل هذا الحدث الأخير على انتقال ذنوب الناس إلى الضحية، تماما مثلما يحول الكاهن اليهودي ذنوب الناس إلى الأضحية من خلال وضع يديه على رأس الحيوان، وبسبب الاعتقاد بأن الرجل كان يجسد روحا إلهية فإننا أمام مثل عن إله بشر يذبح ليخلص الناس من ذنوبهم ومصائبهم.



في الأعلى: حزمة طبية من قبيلة نسر الغراب من السهول الأمريكية. إذا رأى الساحر طائرا أو حيوانا في منامه، وجب الحصول على جلده واستعماله وسيطا في تحقيق قوته.

الطرف المقابل: تم اختيار حيوان ليكون الواسطة لإبعاد آثام المجتمع. القربان، لوحة للفنان وليم هولمان هنت. (1827 – 1910) متحف الليدي ليفر للفنون، بورت سنلايت.

إن اختيار إله أو حيوان ليكون قرباناً جدير بالملاحظة. فنحن معنيون مباشرة هنا بعادة إبعاد الشرور التي يعتقد أنها تنقل إلى إله يقتل لاحقا. أما إذا تساءلنا عن سبب اختيار إله على وشك أن يموت ليحمل ذنوب الناس وأحزانهم، فإن الجواب قد يكون أننا باستخدام إله ليكون الضحية نحصل على مزيج من عادتين كانتا ذات يوم متميزتين ومستقلتين. فقد جرت العادة على قتل الحيوان أو الإله – البشر حماية لحياته الإلهية من الضعف بسبب الكبر في السن. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، رأينا أن العادة جرت أيضا على الاحتفال بالتخلص من الشرور والآثام مرة في السنة. ولو خطر ببال الناس الجمع بين العادتين، لكانت النتيجة استخدام إله على وشك أن يموت ليكون الضحية . فهو أصلا لا يقتل ليخلص الناس من آثامهم، بل لينقذ الحياة الإلهية من متاعب الشيخوخة.

وبما أنه سيقتل في كل الأحوال، اعتقد الناس أن بإمكانهم استغلال الفرصة لكي ينقلوا إليه آلامهم وأوزارهم فيأخذها معه إلى عالم المجهول وراء القبر.

وكان قدماء اليونان على معرفة باستخدام الأضحية أيضا. ففي مسقط رأس بلوتارك كان يقام احتفال مشابه برئاسة كبير القضاة في المجلس البلدي، ورب كل أسرة في بيته. وقد أطلق على الاحتفال اسم «التخلص من الجوع» وفي ذلك الاحتفال يضرب أحد العبيد بعصي من شجرة فلفل الرهبان agnus castus فيخرج من الباب وهم يقولون: «أخرج أيها الجوع وادخلي أيتها الثروة وأيتها الصحة». وحين تولى بلوتارك [44] منصب كبير القضاة في مسقط رأسه كان يقيم هذا الاحتفال في مجلس المدينة، وقد سجل النقاش الذي نتج فيما بعد عن هذه العادة.

(44) بلوتارك Plutarch – الاسم الإغريقي ميستريوس بلوتاركاس Mestrius Plutarchus – مؤرخ إغريقي وكاتب سير ذاتية وكاتب مقالات «المترجم».



أما في اليونان المتحضرة، فقد اتخذت عادة اختيار القربان أشكالاً أقبح مما كانت عليه حين كان يشرف عليها بلوتارك التقي المحبوب. فكلما حل داء في مارسيليا وهي من أشد المستعمرات اليونانية ازدحاماً وثراء، تقدم رجل من الطبقات الفقيرة وعرض نفسه قرباناً. وكانت الخزانة العامة تتكفل بنفقاته على مدى سنة كاملة، ويقدم إليه الطعام النظيف الذي يريد. وفي نهاية السنة، تخلع عليه ملابس مقدسة، ويزين بالأغصان الإلهية، ثم يطاف به في شوارع المدينة بأكملها، ترافقه الابتهالات بأن تقع كل آثام الناس على رأسه. بعدئذ يطرد من المدينة أو يرجم خارج أسوارها حتى الموت. أما أهل أثينا فكانوا يحتفظون بعدد من الحثالات، ويتكفلون بالإنفاق عليهم من المال العام، فإذا نزلت بهم نازلة، كالوباء أو الجفاف على سبيل المثال، قدموا اثنين من هؤلاء الحثالة قربانين أو كبشي فداء؛ واحداً عن الرجال، والآخر عن النساء. ويحيط الأول عنقه بوق من التين الأسود، بينما يحيط الثاني عنقه بطوق من التين الأبيض. وربما تكون الضحية التي تقتل فداء للنساء امرأة. ويطاف بالضحيتين في الشوارع ثم ترجمان حتى الموت خارج المدينة. ولم تقتصر هذه القرابين على المناسبات الاستثنائية مثل الكوارث العامة. ويبدو أن أضحيتين واحدة للرجال والأخرى للنساء في كل عام، وفي احتفال ثرجيليا في مايو، كانتا تؤخذان إلى خارج أثينا وترجمان حتى الموت. كما كانت مدينة أبديرا في ثرايس تطهر مرة كل عام، حيث كان أحد المواطنين الذي ينتقى خصيصا لهذا الغرض، يرجم حتى الموت ليكون فداء لحياة الآخرين كافة. وقبل موعد إعدام الرجل بستة أيام كان يحرم دينيا «لكي يتحمل وحده آثام الناس كافة».

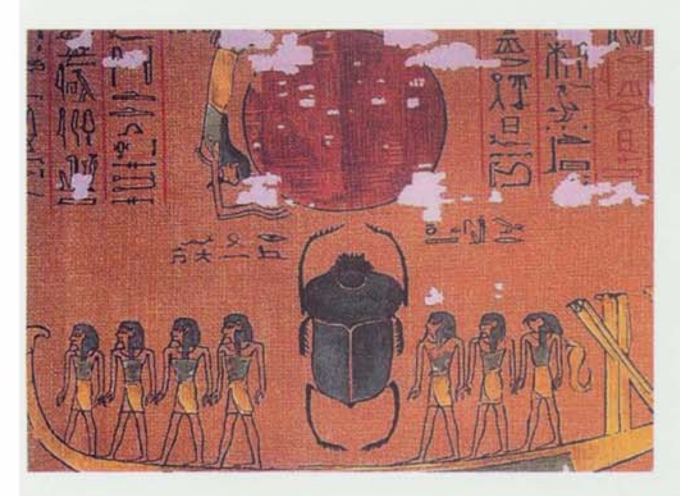


الفصل التاسع

أعياد النار

دأب الفلاحون من قديم الزمان وفي جميع أنحاء أوروبا على إشعال نار احتفالية في أيام معينة من السنة والرقص حولها والقفز من فوقها. وترجع هذه العادات إلى العصور الوسطى بحسب الدليل التاريخي، كما أن الشبه بينها وبين العادات القديمة يتفق مع الدليل الداخلي القوي الذي يثبت أن أصلها يرجع إلى ما قبل انتشار المسيحية بزمن طويل. فأقدم دليل على إقامة هذه الاحتفالات يأتينا من محاولات المجلس الكنسي المسيحي في القرن الثامن إلغاءها باعتبارها عادات وثنية.

وفي جبال إيفل في بروسيا الراينية، كان الشباب في أول يوم أحد من الصوم الكبير يجمعون القش وخشب الأحراش من منزل إلى آخر، ويضعونها في كومة هائلة حول شجرة زان باسقة ونحيلة تربط إليها قطعة من الخشب بزوايا قائمة بحيث تشكل صليبا، ثم تضرم النار بهذا الهيكل الذي يطلق عليه اسم «الكوخ» أو «القلعة». ويطوف الشباب حول البناء الملتهب حاسري الرؤوس، وهم يحملون المشاعل ويجهرون بالدعاء. وقد تحرق أحيانا دمية من القش داخل «الكوخ». ويرقب الناس اتجاه الدخان المنبعث من النار. فإذا اتجه صوب حقول الذرة، كان ذلك علامة على وفرة المحصول. وفي اليوم ذاته، وفي بعض المناطق من جبال إيفل، يصنع الناس عجلة هائلة من القش تجرها ثلاثة من الخيل إلى قمة التل. وعند حلول الظلام يصعد أولاد القرية إلى العجلة ويضرمون بها النيران ثم يدحرجونها إلى أسفل التل. أما في أوبرستاتفلت فيقع تقديم العجلة على آخر من تزوج من الشباب. وفي منطقة إخترناخ في لوكسمبورغ يطلق على الاحتفال ذاته اسم«إحراق الساحرة». وفي فورلبرغ في تيرول، وفي أول يوم أحد من الصوم الكبير، تحاط شجرة دردار باسقة بكومة من القش والحطب، وتربط في أعلاها دمية آدمية تدعى «الساحرة» مصنوعة من الملابس القديمة ومحشوة بالبارود، ثم تضرم فيها النيران ويرقص حولها الأولاد والبنات وهم يلوحون بالمشاعل وينشدون الأناشيد التي تحوي عبارات مميزة مثل «الذرة في الغربال، والمحراث في الأرض». وفي سوابيا، وفي أول يوم أحد من الصوم الكبير، يصنع الناس



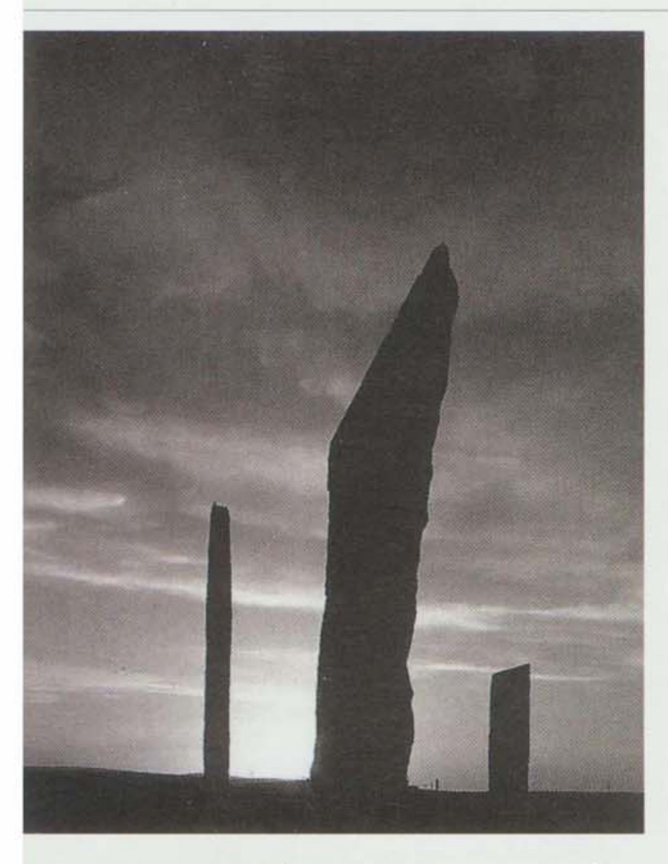
الطرف المقابل: ورد ذكر أعياد النار الأوروبية في القرون الوسطى، ويحتمل أن تعود بداياتها إلى العصور القديمة. مهرجان تنين النار في برشلونة، إسبانيا.

في الأعلى: قارب الشمس الذي يحمل سبعة آلهة مع الرمز المقدس للخنفساء السوداء. ولأنها تلف بيضتها بكرة من الطين، اتخذها قدماء المصريين رمزا للشمس وللتوالد الذاتي. من كتاب البردي الميت لأناي.

دمية يسمونها «الساحرة» أو «الزوجة العجوز» أو «جدة الشتاء» من الملابس ويربطونها إلى عمود يثبت وسط كومة من الخشب تضرم فيها النيران. وفي أثناء احتراق «الساحرة» يقذف الشبان أقراصا مشتعلة في الهواء، وهي مصنوعة من قطع خشبية قطرها بضع بوصات ولها حواف ناتئة تمثل الشمس أو النجوم وفي وسطها ثقب تربط من خلاله بعصا. وقبل قذف القرص، تضرم فيه النار، ويلوح الشاب بالعصا إلى الأمام والخلف، ويزداد العزم الذي يتولد في القرص بتأثير دفع العصا بقوة على لوح مائل. وهكذا يقذف بالقرص ويرسم في انطلاقته عاليا في الهواء خطا منحنيا من النار قبل ارتطامه بالأرض. أما الخشب المتفحم المتخلف عن «الساحرة» والأقراص المحترقة فتحمل جميعها إلى البيت وتغرس في حقول الكتان في الليلة ذاتها لاعتقادهم أنها تبعد الطير والحشرات عن الحقول.

وفي سويسرا، جرت العادة على إشعال نار احتفالية على المرتفعات مساء أول يوم أحد من الصوم الكبير، لذلك يعرف ذلك اليوم «بأحد الشرارة». وقد انتشرت العادة على سبيل المثال في كانتون لوسيرن. ويطوف الأولاد من منزل إلى آخر يطلبون الحطب والقش، ثم يجمعون الوقود على قمة تل أو جبل عال حول عمود يحمل دمية من القش تسمى «الساحرة». فإذا خيم الظلام أضرمت النار بالكومة، وعندها يرقص الشبان حولها بحماسة بالغة، ويفرقع بعضهم بالسياط أو يقرع الأجراس. وحين تخمد ألسنة اللهب إلى حد معقول، يبدأ الشبان بالقفز فوق النار. ويسمى الاحتفال «بإحراق الساحرة». وفي بعض مناطق الكانتون، اعتاد الناس على لف العجلات القديمة بالقش والأشواك وإضرام النار فيها ودحرجتها وهي مشتعلة إلى أسفل التل. وكلما زادت نيران الاحتفال التي تشاهد وهي تتأجج في عتمة الليل، زاد الخير في ذلك العام؛ وكلما زاد علو قفزات الشبان فوق النار، زاد على حد زعمهم طول أعواد الكتان. وفي بعض المناطق، يقع واجب إضرام نار الاحتفال على آخر من تزوج من الرجال والنساء.

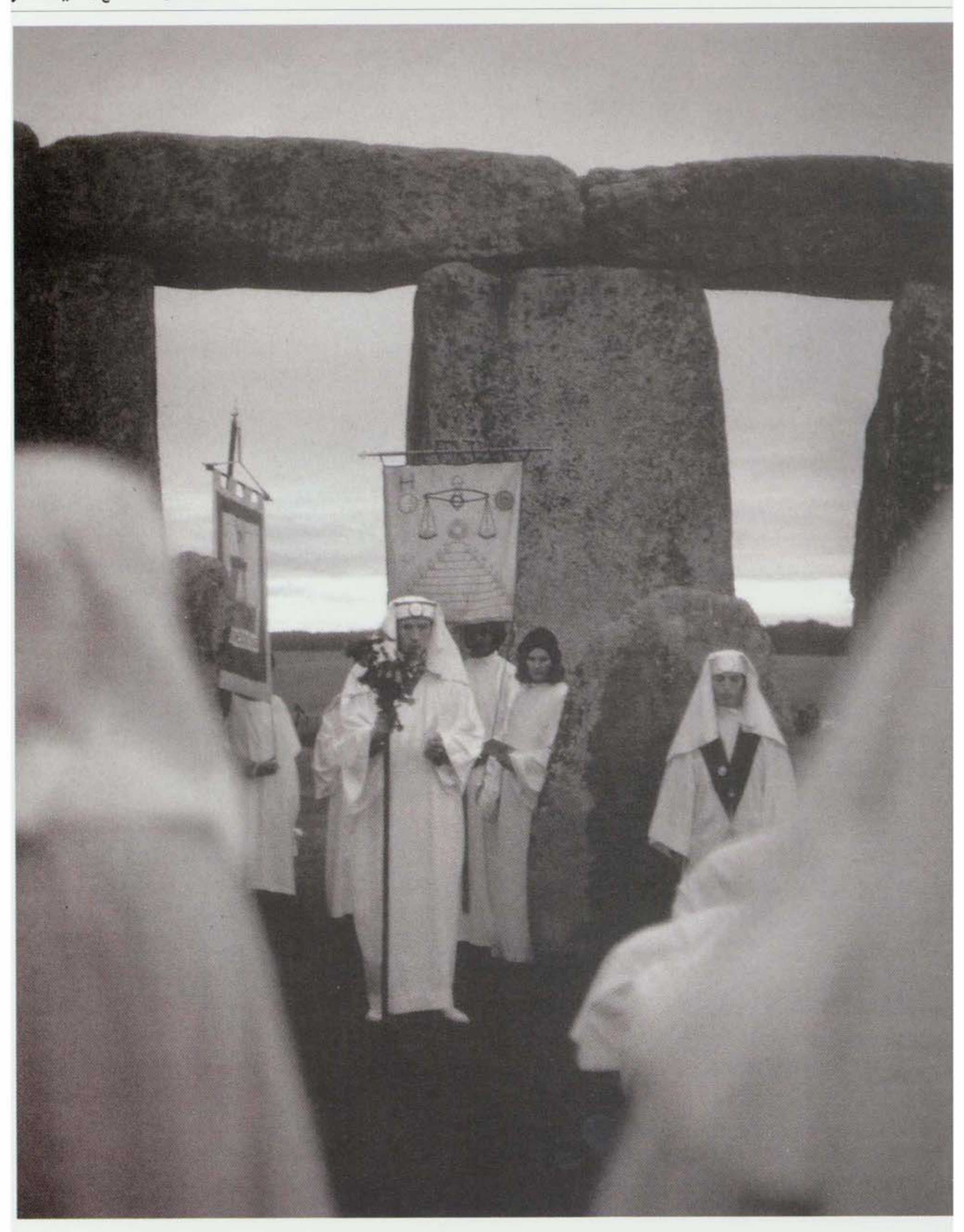
وفي وسط الأراضي المرتفعة في اسكتلندة، كانت نيران الاحتفالات المعروفة باسم «نيران بلتاين» تضرم باحتفال عظيم في أول مايو، كما أن آثار القرابين البشرية ما زالت واضحة جلية فيها. وقد استمرت عادة إشعال نيران الاحتفالات في مختلف المناطق حتى أواخر القرن الثامن عشر، كما أن وصف الكتاب الذين عاصروا تلك الفترة يرسم صورة مثيرة للاهتمام للوثنية القديمة التي بقيت حية في بلادنا حتى إني سأقدم بعضه هنا. إن أقرب وصف وصلنا هو ما قدمه لنا جون رامساي لورد أوكترتاير القريبة من كريف، وراعي برنز، وصديق سير ولتر سكوت. يقول رامساي: «إن أهم احتفالات الدرود هو احتفال بلتاين أو عيد الأول من مايو الذي أقيم مؤخرا على بعض المرتفعات باحتفالات رائعة ... ويبدو أن هذا، مثله مثل العبادات الأخرى عند الدرود، يقام على التلال أو المرتفعات. ويرى هؤلاء أن من المهين لمن كان الكون معبده أن يفترض أنه يسكن في منزل صنع باليد. لذلك كانت قرابينهم تقدم في الهواء الطلق، وغالبا على قمم التلال ليتمتعوا بأجمل المناظر الطبيعية الخلابة ويكونوا الأقرب إلى موئل الدفء والنظام. وتبعا لما تمثله التقاليد، كانت هذه هي الطريقة المتبعة في إقامة هذا الاحتفال على المرتفعات في السنوات المائة الماضية. لكن منذ بدء انحسار الاعتقاد بالخرافات، أخذ سكان كل قرية في إقامة احتفالهم على تل أو مرتفع من الأرض ترعى حوله



في الأعلى: دائرة ستنس الحجرية في جزيرة أوركني، على سواحل اسكتلندة. يعتقد أنها تعود إلى 3000 ق.م. تقريبا.

الطرف المقابل: درود من العصر الحديث يؤدون طقسا في ستونهنج في ويلتشر، إنجلترة عند شروق شمس منتصف الصيف عندما يمكن رؤية الشمس وهي تنحدر فوق حجر الرصد بالضبط الذي يسمى الآن «حجر المَيل» خارج الدائرة.

الحيوانات، فيخرج الشباب في الصباح ليحفروا خندقا، ويعدّوا في أعلاه منطقة عشبية لجلوس الناس. وفي الوسط تجمع كومة من الحطب كانت تضرم فيها النار قديما بوساطة «النار القهرية» أو «نار الحاجة». صحيح أنهم كانوا على مدى السنوات الماضية يكتفون بالنار العادية، لكننا سنصف العملية الآن، لأنهم يرجعون إلى نار الحاجة في الحالات الاستثنائية الطارئة.

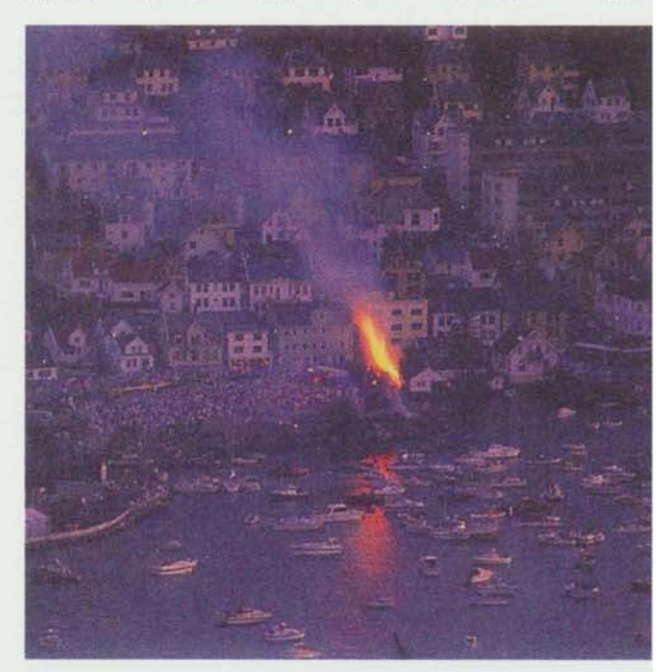




«في الليلة السابقة تطفأ كل النيران تماماً في البلاد، وفي الصباح التالي تحضر المواد اللازمة لإشعال هذه النار المقدسة. ويبدو أن أقدم الطرق لإشعالها هي التي كانت تستعمل في جزر سكاي ومول وتيري. يحضر الشباب قطعة ثقيلة من خشب البلوط فيُحفر في وسطها ثقب تدخل فيه قطعة من الخشب ذاته، لكن هذه التجهيزات قد تختلف في بعض مناطق البر الرئيس حيث يستخدم إطار من الخشب الأخضر مربع الشكل في وسطه محور يشبه محور العربة. ويتطلب الأمر تسعة رجال، وفي أماكن أخرى سبعة وعشرين رجلا لتدوير المحور. فإذا كان واحد منهم ارتكب جريمة قتل، أو زنى أو سرقة أو أية جريمة شنيعة أخرى، لم تشتعل النار بحسب اعتقادهم، أو فقدت فضائلها المعتادة. وما إن يبدأ الشرر يتطاير بسبب الاحتكاك، حتى يضعوا نوعا من الفطريات ينمو على أشجار البتولا ويسمى (الغاريقون) ويمتاز بقدرته العالية على الاشتعال. وتبدو هذه النار وكأنها «مستمدة من السماء مباشرة وأنها تتمتع بفضائل عديدة».

ويبدو أن نيران بلتاين كانت شائعة في إرلندا أيضا، حيث يقول كرماك، أو من يتحدث باسمه، «يستمد بلتاين، أو عيد الأول من مايو، اسمه من «نار الحظ» أو «النارين» اللتين كان سكان إرين الدرود يشعلونهما ذلك اليوم مع تعاويذ عظيمة». ويضيف قائلاً: «كانت الماشية تساق إلى هذه النيران، أو بينها، لتحميها من الأمراض طوال العام». وقد استمرت عادة سوق الماشية عبر هذه النيران أو بينها في الأول من مايو في إرلندا حتى فترة قريبة.

ويعد الأول من مايو عيدا شعبيا كبيرا في وسط السويد وجنوبها. وعشية الاحتفال تؤجج نيران هائلة، تشعل بالضرورة بضرب قطعتي صوان إحداهما بالأخرى، فوق سائر التلال والهضاب. ولكل قرية نار خاصة بها يرقص حولها الشبان بشكل دائري. ويرقب العجائز الجهة التي تتجه نحوها ألسنة النيران إن كانت نحو الشمال أو الجنوب، فإذا كانت نحو الشمال كان الربيع بارداً ومتأخراً، وأما إذا كانت نحو الجنوب كان الربيع لطيفا ومعتدلا. وفي بوهيميا،[45] يشعل الشبان النيران عشية الأول من مايو على التلال والمرتفعات وفي مفترقات الطرق والمراعي ويرقصون حولها، ويقفزون فوق الجمر المتوهج وحتى عبر ألسنة اللهب. ويسمى هذا الاحتفال «إحراق الساحرات». وفي بعض المناطق كان الناس يحرقون في نار الاحتفالات دمية تمثل الساحرة. وينبغي أن نتذكر أن عشية الأول من مايو هي ليلة ولبرجيس حيث تمر الساحرات سريعا في الهواء دون أن يلحظهن أحد وهن منطلقات للقيام بأعمالهن الجهنمية. وفي ليلة الساحرات تلك، يشعل الأطفال في فويجتلاند نيران احتفالات أيضاً فوق المرتفعات ويقفزون فوقها، ويلوحون بالمكانس المشتعلة أو يقذفون بها في الهواء. وتتناسب البركة التي تحل في الحقول مع ضوء نيران الاحتفالات. ويسمى إشعال نيران الاحتفالات في ليلة ولبرجيس «بطرد الساحرات». وعادة إشعال نيران الاحتفالات ليلة الأول من مايو أو ما يعرف بليلة ولبرجيس بهدف إحراق الساحرات واسعة الانتشار، أو هكذا كانت فيما مضى، في تيرول، ومورافيا، وسكسونيا، وسيليسيا.



في الأعلى: نار منتصف الصيف وهي تشتعل في مدينة بيرغن النرويجية.

الطرف المقابل: ليلة نار الاحتفالات (الخامس من نوفمبر). لا يزال الناس يحرقون دمية تمثل البابا الروماني في لويس بإسكس، إنجلترة.

(45) منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى. تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك. مساحتها تقدر بنحو 52.750 كم ويقطنها 6.25 مليون شخص من أصل 10.3 مليون شخص هم سكان التشيك «المترجم».

أما الفصل الذي كانت تكثر فيه أعياد النار هذه بصورة عامة في سائر أنحاء أوروبا فهو يوم انقلاب الشمس الصيفي – أي ليلة منتصف فصل الصيف (ويوافق 23 يونيو)، أو يوم منتصف الصيف (24 يونيو). وقد اكتسبت هاتان المناسبتان طابعا مسيحيا إذ دعي يوم منتصف الصيف بعيد القديس يوحنا المعمدان، لكننا على ثقة بأن الاحتفال يرجع إلى ما قبل زماننا بوقت طويل. ويوم الانقلاب الصيفي – أو يوم منتصف الصيف، هو نقطة تحول عظيمة في مسيرة الشمس، فبعد أن ترتفع عاليا يوما بعد يوم تتوقف لتعود القهقرى في فلكها السماوي. ومن الحتمي أن ينظر الإنسان البدائي إلى هذا التحول بقلق منذ أن بدأ يلحظ مدارات النجوم والكواكب في القبة السماوية ويتفكر فيها. ولما كان في مرحلة إدراك مدى عجزه أمام تغيرات الطبيعة الدورية الهائلة، فربما خطر بباله أنه قادر على مساعدة الشمس وهي في انحدارها الظاهر – أي على دعم خطواتها المترنحة وإعادة الحرارة إلى الشعلة التي تخبو نارها في السراج الأحمر بيده الضعيفة.

ظهرت الاحتفالات بمنتصف الصيف عند فلاحي أوروبا في أفكار مثل هذه. ومهما كان أصلها، فإنها سيطرت على هذا الربع من الكرة الأرضية من إرلندا غربا إلى روسيا شرقا، ومن النرويج والسويد شمالا إلى إسبانيا واليونان جنوبا. وطبقا لما أورده أحد كتاب العصور الوسطى فإن السمات الثلاث الأساس في احتفال منتصف الصيف هي نيران الاحتفالات، وحمل المشاعل والسير بها حول الحقول، وعادة دحرجة العجلة. ويذكر لنا الكاتب أن الأولاد كانوا يحرقون مختلف أنواع العظام والقمامة لإصدار دخان كريه الرائحة، وأن الدخان كان يطرد تنينات شريرة معينة تثيرها حرارة الصيف في ذلك الوقت فتتزاوج في الهواء وتسمم الآبار والأنهار من خلال إلقاء بذورها فيها. كما يفسر عادة دحرجة العجلة بانحدار الشمس بعد بلوغها أعلى نقطة في مدارها.



ويذكر لنا أحد كتاب القرن السادس عشر أن الناس في كل قرية ومدينة ألمانية تقريبا كان يشعلون نيران الاحتفالات عشية عيد القديس يوحنا، وأن الناس كبارا وصغارا كانوا يجتمعون حولها يرقصون ويغنون، وأكاليل الزهور على رؤوسهم، وهم ينظرون إلى النار من خلال حزم نبات العايق المزهر التي حملوها في أيديهم اعتقادا منهم بأن هذا يحمي عيونهم طوال السنة. وحين ينصرف كل منهم يرمي بإكليل الزهور في النار وهو يقول: «ليذهب عني النحس ويحترق باحتراق هذا الإكليل». وفي كونز السفلى، وهي قرية على سفح تل يطل على نهر موسل، كانت احتفالات منتصف الصيف تجري على النحو التالي: تجمع كومة من القش وتوضع على قمة تل سترومبرغ شديد الانحدار. وينبغي كل فرد في القرية، أو كل رب أسرة على الأقل، أن يسهم بنصيبه من القش. وحين يخيم الظلام، يجتمع سائر الذكور في القرية رجالا وصبيانا على قمة التل. أما النساء والبنات فلم يكن يسمح لهن بالانضمام إلى الذكور، بل يأخذن مواقعهن عند نبع معين في منتصف المنحدر. وفي القمة عجلة هائلة ملفوفة بإحكام ببعض القش الذي تبرع به أهل القرية. أما بقية القش فتصنع منه المشاعل. ويبرز محور العجلة مسافة ثلاثة أقدام من كل جانب ليكون مقبضا يسهّل على الصبيان التحكم بها عند اندفاعها نحو الأسفل. وحين يعطي عمدة مدينة سيرك القريبة الإشارة (وهو يتلقى دائما سلة من الكرز لقاء خدماته) تضرم النار بالعجلة وتتأجج فيها ألسنة اللهب، ويمسك اثنان من الأشداء، أبطال الجري، بطرفي المحور ويسرعان بها نحو أسفل المنحدر، فيعلو الهتاف، والكل من رجال وصبيان يلوح بشعلة في الهواء، ويحرص على إبقائها مشتعلة مادامت العجلة تتدحرج إلى أسفل التل. ويسعى الرجلان اللذان يوجهان انحدار العجلة إلى دفعها مشتعلة نحو ماء نهر الموسل. لكنهما نادرا ما ينجحان في ذلك، لأن كروم العنب التي تكسو الجزء الأعظم من المنحدر تعيق تقدمهما، وغالبا ما تنطفئ النار قبل بلوغها النهر. وحين تمر العربة في انحدارها بالنساء والبنات يعلو صراخهن من الفرح، فيرد عليهن الرجال من أعلى التل بصراخ مماثل، كما

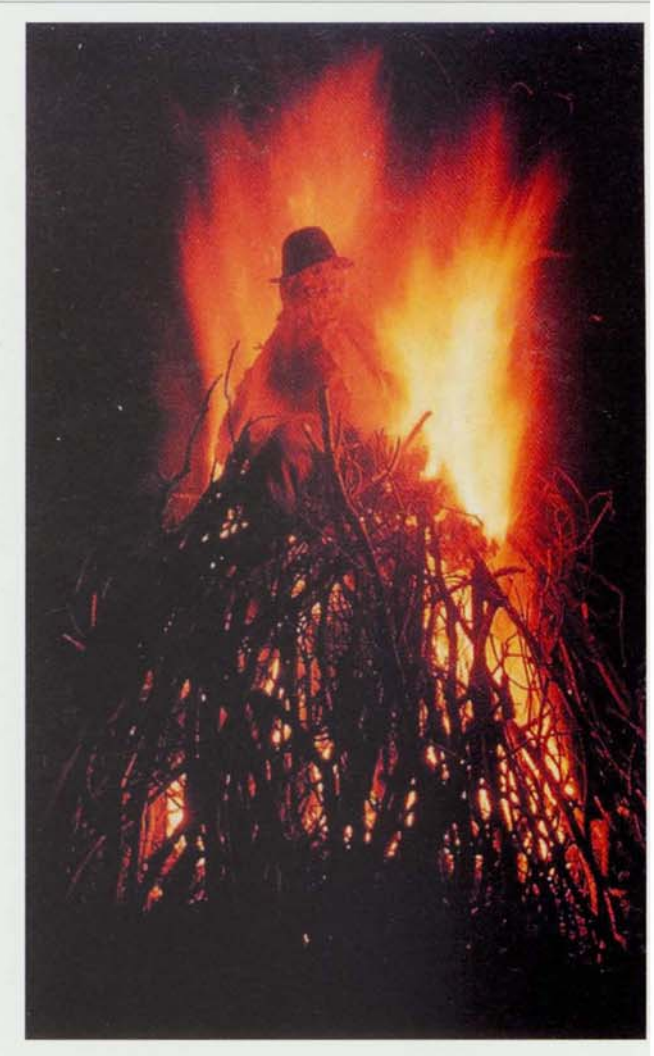


في الأعلى: تجسيد لعشبة vervain أي «اللويزة» التقليدية المقدسة عند الدرود التي تستخدم في طقوسهم. ويجب عدم الخلط بينها وبين عشبة lemon vervena «رعي الحمام» التي تستخدم في إعداد مشروب ساخن يسميه الفرنسيون «فيرفان». للفنان غراندفيل، من الزهور الحية.

الطرف المقابل: عشبة الميرمية» التقليدية المقدسة (أرتميسيا فولغاريس)، التي يقال إنها تحفز الغدة الصنوبرية وتجلب الرؤى التنبؤية. كان الناس في ألمانيا يضعون على رؤوسهم أكاليل من الميرمية واللويزة ليلة عيد القديس يوحنا.

يردد الهتافات سكان القرى المجاورة الذين يرقبون الاحتفال من أعالي تلالهم على الضفة المقابلة للنهر. أما إذا وصلت العجلة الملتهبة بنجاح إلى ضفة النهر وانطفأت في مياهه، تطلع الناس إلى محصول وافر من العنب في تلك السنة، وكان لأهالي كونز الحق في جباية ملء عربة من النبيذ الأبيض من الكروم المجاورة. ومن ناحية أخرى، يعتقد الناس أنهم إذا أهملوا الاحتفال، أصيبت مواشيهم بالدوار والتشنجات والرقص في حظائرها.

ولغاية منتصف القرن التاسع عشر على الأقل دأب الناس على إشعال نيران منتصف الصيف في شتى أنحاء بافاريا العليا، لاسيما في أعالي الجبال، وفي أماكن كثيرة من الأراضي المنخفضة أيضا. ويوصف منظر الظلام الحالك ومواكب الناس واللهب المتوهج الذي يضيء الظلام الدامس بأنه منظر أخاذ. وكانت قطعان الماشية تساق عبر النار لشفاء الحيوانات المريضة ولحماية السليمة منها من مختلف الأمراض والأوبئة طوال السنة. ويقوم كثير من أرباب الأسر في ذلك اليوم بإطفاء النار في مواقد بيوتهم وإشعالها من جديد بوساطة جذوة مشتعلة من نيران منتصف الصيف. ويربط الناس بين طول أعواد الكتان في تلك السنة وارتفاع ألسنة لهب نار الاحتفال. وكل من قفز فوق الكومة الملتهبة، ضمن سلامته من آلام الظهر عند حصاد الذرة في موسم الحصاد. وفي مناطق كثيرة من بافاريا كان الناس يعتقدون أن طول أعواد الكتان يماثل أقصى ارتفاع حققه الشبان في قفزاتهم فوق النار. وفي أماكن أخرى جرت العادة على أن يقوم الناس بغرز ثلاث عصي متفحمة من نار الاحتفالات في الحقول، لاعتقادهم أن هذا يزيد أعواد الكتان طولا. وفي أماكن أخرى توضع قطعة خشب بعد إطفائها على سطح المنزل لحمايته من الحريق. ففي المدن المحيطة بمدينة فورزبورغ كان الناس يوقدون نيران الاحتفالات في الأسواق، وكان الشبان الذين يقفزون فوقها يضعون أكاليل الزهور على رؤوسهم، لاسيما أكاليل الميرمية (الأرطماسيا) mugwort واللويزة (رعي الحمام) vervain ويحملون أغصان «العالق» في أيديهم لاعتقادهم أن من ينظر إلى النار من خلالها لا يصيبه مرض طوال العام. وجرت العادة في ورزبورغ في القرن السادس عشر على أن يقذف أتباع راعي الأبرشية أطباقا خشبية مشتعلة في الهواء من جبل يشرف على المدينة. وتطلق الأطباق المشتعلة بوساطة عصي مرنة، فيبدو كل منها كأنه تنين يقذف اللهب.



في الأعلى: نار «جاي فوكس» الاحتفالية مثل التي يشعلها الناس في جميع أنحاء إنجلترة في الخامس من نوفمبر من كل عام احتفالا بفشل محاولة إحراق البرلمان بما يعرف «بمؤامرة البارود» في العصر الإليزابيثي.

الطرف المقابل: مهرجان الربيع في سويسرا. عند اقتراب الصيف يخرج الرعاة الأوروبيون بقطعانهم إلى الحقول المفتوحة. وتوافق احتفالات مايو هذا الموعد المهم في سنة الرعاة.

وفي سوابيا أيضاً، يقفز الأولاد والنسوة فوق نار منتصف الصيف ويرفعون أصواتهم بالدعاء بأن ينمو القنب لارتفاع ثلاثة أذرع، ويوقدون النار في عجلات يدحرجونها أسفل التل. ويهتف الناس أحيانا وهم يقفزون فوق النار: «أيها الكتان، ليتك تنمو لتصبح سبعة أذرع!» أما في روتنبرغ، فكان الناس يصنعون دمية على شكل إنسان يسمى أنجلمان، تغطى بالزهور قبل أن يحرقها الأولاد في نار منتصف الصيف ويقفزون فوق الجمر المتوهج.

وفي النمسا، تشبه عادات منتصف الصيف والتمسك بالخرافات تلك السائدة في ألمانيا. ففي بعض مناطق تيرول، توقد نيران الاحتفالات ويشعل الناس الأطباق ويقذفونها في الهواء. وفي الوادي السفلي من نهر إن Inn تحمل دمية رثة الملابس على عربة ويطاف بها في أنحاء القرية في يوم منتصف الصيف ثم تحرق. ويطلق على الدمية اسم لوتر الذي تحول فيما بعد إلى لوثر. وفي أمبراس، وهي إحدى القرى التي تحرق فيها دمية تمثل مارتن لوثر، يقال إنك لو مشيت في القرية بين الحادية عشرة والثانية عشرة في ليلة القديس يوحنا واغتسلت من ثلاثة آبار، رأيت كل من سيموتون في السنة القادمة. وفي غراتس عشية عيد القديس يوحنا، (الثالث والعشرين من يونيو)، كان الناس يصنعون لعبة تسمى تاترمان ويجرونها إلى ساحة التبييض ويقذفونها بالمكانس الملتهبة حتى تشتعل. وفي روت في تيرول، كان لدى الناس اعتقاد بأن الكتان ينمو بطول الارتفاع الذي يصلون إليه حين يقفزون فوق نار منتصف الصيف، وكانوا يأخذون قطعا من الخشب المتفحم من النار ويغرسونها في حقول الكتان في الليلة ذاتها، ويتركونها في مكانها حتى يتم حصاد الكتان. وفي النمسا السفلى توقد نيران الاحتفالات في المرتفعات، ويجتمع الصبية حولها وهم يحملون المشاعل المغموسة في القطران. وكل من قفز ثلاث مرات فوق النار نجا من الإصابة بالحمى على مدار السنة، فكانوا يطلون عجلات العربات بالقطران ويضرمون فيها النار، ثم يدفعونها لتتدحرج إلى أسفل التل.

وفي كثير من مناطق بروسيا وليتوانيا، توقد نيران عظيمة عشية منتصف الصيف، حتى ليتراءى للناظر أن المرتفعات بأكملها تلتهب على مدى النظر. ويفترض أن تدفع النيران خطر السحر والرعد والبرد وأمراض الماشية لاسيما إذا سيقت الماشية صباح اليوم التالي فوق الأماكن التي اشتعلت فيها النيران. وقبل هذا وذاك، تضمن نيران الاحتفالات سلامة الفلاح من أعمال الساحرات اللواتي يحاولن سرقة الحليب من أبقاره بالتعاويذ والسحر. لذلك ترى في صبيحة اليوم التالي الشبان الذين أوقدوا النيران وهم يطوفون من بيت إلى آخر يجمعون أوعية من الحليب. ويقوم هؤلاء بغرز الأشواك والميرمية على البوابات أو السياجات التي تمر بها الأبقار وهي في طريقها إلى لمرعى لأن هذا يفترض أن يحميها من أعمال السحر.

في ماسورن، وهي إحدى مقاطعات بروسيا الشرقية التي يسكنها فرع من العائلة البولندية، جرت العادة على أن يطفئ الناس عشية منتصف الصيف كل النيران في القرية، ثم يدق عمود من البلوط في الأرض وتثبت عليه عجلة بحيث يكون العمود محورا لها. ويتناوب القرويون على تدوير العجلة بسرعة كبيرة حتى تندلع النيران بفعل الاحتكاك. ويحمل كل فرد إلى بيته جذوة مشتعلة من النار الجديدة ويشعل النار في موقد بيته. أما في صربيا فيعمد الرعاة عشية منتصف الصيف إلى إشعال النار بالمشاعل من لحاء البتولا ويمشون بها حول زرائب الغنم والماشية، ثم يتسلقون التلال ليتركوا المشاعل تنطفئ.

ويحتفل الماغيار في هنغاريا بعيد منتصف الصيف بطرائق مشابهة للتي نراها في كثير من أنحاء أوروبا. ففي عشية منتصف الصيف، وفي العديد من المناطق، يشعل الناس النيران على المرتفعات ويقفزون فوقها. ويستنتج المتفرج من طريقة قفز الشبان ما إن كانوا سيتزوجون عما قريب. في ذلك اليوم أيضا، يوقد كثير من رعاة الخنازير الهنغاريون النار باستخدام عجلة تدور حول محور خشبي ملفوف بالقنب، ويسوقون خنازيرهم عبر هذه النيران لحمايتها من الأمراض.



ويحتفل أهالي أستونيا الروسية، وهم من العائلة الطورانية مثل الماغيار، بمنتصف الصيف بالطريقة المعهودة. وفي اعتقادهم أن نار القديس يوحنا تبعد شر الساحرات عن الماشية، ويقولون إن من لا يأتي إليها يمتلئ محصوله من الشعير والشوفان بالشوك والأعشاب الضارة. وفي جزيرة إيزل في أستونيا، يهتف الناس، وهم يلقون الوقود فوق نار منتصف الصيف: «الأعشاب للنار، والكتان للحقل»، أو يقذفون بثلاث قطع خشبية في اللهب قائلين: إنمُ أيها الكتان!» ثم يأخذون بعض الأغصان المتفحمة إلى البيت ويحتفظون بها لتكثر بها أعداد الماشية. وفي بعض أجزاء الجزيرة تتألف النار من تجميع الحطب من الأحراش مع المواد المشتعلة الأخرى حول شجرة ترفرف فوقها راية، وكل من استطاع أن يوقع العلم مستخدما قطعة خشبية قبل أن يحترق يكون الحظ حليفه. وكانت الاحتفالات فيما مضى تستمر حتى طلوع الفجر وتنتهي بمشاهد من الفسوق يزيد من هولها طلوع الضوء في صباح ذلك اليوم الصيفي.

ومع انتقالنا من شرق أوروبا إلى غربها نرى أن طقوس الاحتفال بيوم منتصف الصيف واحدة بصفة عامة. فحتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت عادة إشعال النيران احتفالا بمنتصف الصيف شائعة جدا في شتى أنحاء فرنسا، وتشترك فيها كل مدينة وقرية تقريبا. وكان الناس يرقصون حولها ويقفزون فوقها، ويأخذون منها قطعا متفحمة إلى البيت لتحميهم من البرق، والحريق والسحر.

أما في بريتانيا فيبدو أن عادة الاحتفال بمنتصف الصيف ما زالت تمارس حتى يومنا هذا. وحين ينطفئ اللهب، يركع الجميع حول النار ويبدأ أحد كبار السن بالدعاء جهرا، ثم ينهض الجميع ويطوفون ثلاث مرات حول النار. وفي الشوط الثالث يتوقفون ويلتقط كل منهم حصاة ويرميها على الكومة الملتهبة، ثم يتفرقون بعدها. ويسود الاعتقاد في بريتانيا وبيري بأن الفتاة التي ترقص حول تسع من نيران منتصف الصيف تتزوج خلال العام. أما في وادي أورن Orne فقد اعتاد الناس أن يوقدوا النار لحظة غياب الشمس وراء الأفق، وكان الفلاحون يسوقون قطعانهم عبر النيران لحمايتها من السحر، لاسيما من تعاويذ الساحرات والسحرة الذين يحاولون سرقة الحليب والزبد. وفي جوميج في النورمندي، وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان الناس يحتفلون بعيد منتصف الصيف بأداء طقوس معينة ذات طابع مغرق في القدم. ففي كل عام، وفي الثالث والعشرين من يونيو، عشية عيد القديس يوحنا، كانت أخوية الذئب الأخضر تنتخب رئيسا جديدا لها، ومن قرية كونيهو حصرا. ويحمل رئيس الأخوية بعد انتخابه لقب الذئب الأخضر، ويرتدي زيا يتألف من عباءة خضراء طويلة، وقبعة خضراء طويلة جدا ومخروطية الشكل. ويسير الذئب الأخضر وهو بهذا الزي بوقار على رأس الأخوة وهو ينشد ترنيمة القديس يوحنا يتقدمهم الصليب والراية المقدسة إلى مكان اسمه شوكيه حيث يستقبلهم الكاهن، والمنشدون، والجوقة فيرشدون الأخوية إلى كنيسة الأبرشية. وبعد الانتهاء من سماع القداس ينتقل الجمع إلى منزل الذئب الأخضر لتناول وجبة خفيفة. وفي الليل، يوقد شاب وشابة، وقد تزين كلاهما بالزهور، نار الاحتفال على أصوات الأجراس اليدوية. بعدئذ يركض الذئب الأخضر وأخوته، وقد تدلت قبعاتهم على أكتافهم وتشابكت أيديهم، حول النار ليلحقوا بالرجل الذي اختير ليكون الذئب الأخضر في السنة التالية. وبما أن الرجل الأول والأخير هما الوحيدان اللذان تبقى إحدى يديهما حرة، فيناط بهما مهمة الإمساك بالذئب الأخضر ثلاث مرات، وفي تلك الأثناء يحاول الرجل الإفلات فيهاجم الأخوة بعصاه الطويلة. وبعد الإمساك به أخيرا يحمل إلى الكومة الملتهبة ويتظاهر الأخوة بأنهم يهمون بإلقائه فيها. وبعد الفراغ من هذا الاحتفال، يعود الجمع إلى منزل الذئب الأخضر، لتناول العشاء، وهو من أبسط أنواع الطعام. ويسود جو من الوقار الديني حتى منتصف الليل. لكن ما إن تعلن دقات الساعة منتصف الليل حتى يتغير هذا كله، فالانضباط يتحول إلى تحرر، والترانيم الدينية تصبح قصائد إباحية، وتختفي نغمات الكمان المرتعشة أمام صخب الأخوة وهم يمرحون في أخوية الذئب الأخضر. وفي اليوم التالي– أي الرابع والعشرين من يونيو أو يوم منتصف الصيف – يحتفل الناس بأن يؤدي الأشخاص ذاتهم احتفالات صاخبة مماثلة ومنها حفل يعرض فيه رغيف هائل الحجم من الخبز المقدس على أصوات الطلقات النارية، ويحيط بالرغيف المؤلف من طبقات عدة، هرم من الخضرة المزينة بالأشرطة. بعدئذ، تسلم الأجراس اليدوية المقدسة الموضوعة على درجة المذبح، إلى الذئب الأخضر المنتخب دلالة على تسلمه منصبه للسنة التالية.

في الطرف المقابل: يشارك «المقنعون الخضر» في كثير من الأعياد الأوروبية. ويعود تاريخ هؤلاء الذين يتزينون بأوراق الأشجار إلى الطقوس الوثنية التي غالبا ما ترتبط بالخصوبة. مهرجان الربيع في أورناش في سويسرا.





في الأعلى: صينيون يحتفلون بعيد الشعلة.

الطرف المقابل: مهرجان معبد ياباني يلبس فيه المشاركون أقنعة تمثل حيوانات ويطوفون أرض المعبد وهم يحملون المشاعل لتضيء دربهم.

وعشية عيد القديس يوحنا توقد نار الاحتفالات في سائر القرى في بواتو. وكان الناس يطوفون بها ثلاث مرات وفي أيديهم أغصان الجوز. وتقوم الراعيات والأطفال بتمرير أغصان نبات آذان الدب والجوز، ويفترض بحبات الجوز أن تشفي ألم الأسنان، في حين توفر آذان الدب الحماية للماشية من الأمراض والسحر. وبعد أن تنطفئ النار، يأخذ الناس شيئا من رمادها معهم إلى البيت، للاحتفاظ به وقاية لهم من الرعد، أو لنثره في الحقول لكي يقضي على عشبة الكوكل والزوان. وجرت العادة في بواتو أيضا عشية عيد القديس يوحنا على دحرجة عجلة ملفوفة بالقش فوق الحقول لتخصيبها.

أما في بروفنس [46]، فلا يزال لنيران منتصف الصيف شعبيتها، حيث يطوف الأطفال من منزل إلى آخر يجمعون الحطب، ونادرا ما يخرجون صفر اليدين. وفيما مضى كان الكاهن والعمدة والأعيان يسيرون في موكب نحو نار الاحتفال، ويتكرمون بإشعالها. بعد ذلك يطوف الجمع حول النار ثلاث مرات. أما في آكس، فيترأس احتفالات منتصف الصيف ملك إسمي ينتخب من بين الشباب لمهارته في صيد نقار الخشب (الأخيل). وينتقي الملك مساعديه، ويمشي مصحوبا بحاشيته الرائعة إلى النار، فيوقدها، ثم يكون أول من يرقص حولها. وفي اليوم التالي يوزع هباته على أتباعه. ويدوم حكم الملك سنة واحدة يتمتع خلالها بمزايا معينة، فيحضر القداس الذي يحتفل به رئيس فرسان القديس يوحنا في يوم عيد القديس يوحنا، كما يُمنح حق الصيد، ويحظر على الجنود السكنى في منزله. وفي مرسيليا، وفي ذلك اليوم أيضا، تنتخب النقابات ملك الفأس المزدوجة. لكنه لا يقوم على ما يبدو بإشعال نار الاحتفال إذ يقال إنها كانت توقد باحتفال مهيب من قبل المحافظ والسلطات الأخرى.

ولطالما احتفل الناس بإشعال نار منتصف الصيف في أنحاء كثيرة من بلادنا، وكان الناس كما جرت العادة يرقصون حولها ويقفزون فوقها. ففي ويلز يحافظ الناس وبحرص بالغ على ثلاثة أو تسعة أنواع من الخشب والحزم المتفحمة من منتصف الصيف الأخير يعتبرونها ضرورية لبناء نار الاحتفال الذي يقام عادة على مرتفع من الأرض. وفي وادي جلا مورجان كان الناس يضرمون النار بعجلة عربة ملفوفة بالقش ثم يدحرجونها إلى أسفل التل. فإذا حافظت على إشعالها طوال المسافة وظلت مشتعلة فترة طويلة، تفاءل الناس بموسم خير وفير.



واعتاد الناس في جزيرة مان على إضرام النار في مهب الريح في كل حقل بحيث تمر سحب الدخان فوق الذرة، كما كانوا يعصبون عيون الماشية ويدورون حولها بأغصان الرتم furze المشتعلة مرات عدة. أما في إرلندا، فكانت الماشية، لاسيما العقيمة منها، تساق عبر نار منتصف الصيف. أما الرماد فكان ينثر فوق الحقول لتسميدها، أو ينقل إليها الفحم الحار لوقايتها من الآفات. لكن آثار نيران منتصف الصيف قليلة في اسكتلندة، لكن في ذلك الموسم في مرتفعات بيرثشاير، اعتاد رعاة البقر على الدوران حول حظائرها ثلاث مرات، باتجاه الشمس، وهم يحملون المشاعل بهدف تطهير قطعانهم وحمايتها من المرض.

نستنتج مما سبق أن أكثر أعياد النار السنوية شعبية وانتشارا بين أجداد الشعوب الأوروبية الوثنية كان الاحتفال الكبير بليلة منتصف الصيف، أو يوم منتصف الصيف. ولا يمكن للتوافق بين العيد والانقلاب الشمسي أن يكون وليد الصدفة. بل علينا أن نفترض أن أجدادنا الوثنيين تعمدوا جعل توقيت النار على الأرض متوافقا مع وصول الشمس إلى أعلى نقطة في مدارها في السماء. فإذا صح هذا الإدعاء، فإن المؤسسين الأوائل لطقوس منتصف الصيف لاحظوا الانقلاب الشمسي أو نقاط التحول في مسار الشمس الظاهري في السماء، ووضعوا تقويم احتفالاتهم تبعا لاعتبارات فلكية إلى حد ما.

صحيح أن هذا قد يبدو مؤكدا لمن ندعوهم بالسكان الأصليين في أماكن كثيرة من القارة، لكنه لا ينطبق على ما يبدو على الشعوب الكلتية التي سكنت على طرف القارة الأوروبية، أي الجزر ورعون الجبال التي تمتد داخل المحيط الأطلسي في الشمال الغربي. أما احتفالات النار الرئيسة عند الكلتيين التي بقيت حية حتى العصور الحديثة بل حتى زمننا الحاضر، ولو في مناطق محدودة وبشكل متواضع، فحددت على ما يبدو في معزل عن موقع الشمس في السماء. وكان هناك احتفالان بينهما ستة أشهر، الأول يقام عشية الأول من مايو، والثاني يوم الهلوين كما يعرف اليوم، ويقع في الحادي والثلاثين من أكتوبر، وهو اليوم السابق لعيد جميع القديسين. ولا تتوافق هاتان المناسبتان مع أي من المفاصل العظيمة الأربع التي تدور حول السنة الشمسية، وهي يوما الانقلاب



الشمسي ويوما الاعتدال الربيعي والخريفي. كما ولا تتوافق مع الفصول الرئيسة للسنة الزراعية، أي البذار في الربيع والحصاد في الخريف. فحين يأتي الأول من مايو يكون قد مضى على البذور وقت طويل في التراب، وحين يطل نوفمبر، يكون الحصاد قد انتهى ودخلت الغلال إلى المخازن، وتكون الحقول عارية، وأوراق أشجار الفاكهة المصفرة قد سقطت وأخذت تتراقص على الأرض. ومع ذلك يعد الأول من مايو والأول من نوفمبر نقطتي تحول في السنة في أوروبا، فالأولى تبشر بقدوم حرارة الصيف وخضرته الثرية والثانية تبشر بقدوم برد الشتاء وعقمه إن لم تكن جزءا منه. فهذه المواعيد المحددة من السنة، كما أشار أحد كبار الكتاب المطلعين، تهم مربي المواشي الأوروبيين إلى حد كبير، ولو أنها لا تعني الكثير بالنسبة إلى المزارع. فمربي الماشية يسوق قطيعه في مطلع الصيف إلى البراري ليرعى العشب الأخضر، ثم يعود به في مطلع الشتاء إلى الأمان والملجأ في الزريبة. لذلك ليس مستبعدا إذن أن يكون تقسيم الكلتيين السنة إلى نصفين في بداية مايو وبداية نوفمبر يعود إلى حقبة كانوا فيها شعبا رعويا يعتمد في عيشه على المواشي، حين كانت أهم حقبتين زمنيتين في السنة عندهم محددتين بخروج القطيع من الزريبة في أوائل الصيف وعودته إليها من جديد في أوائل الشتاء. وحتى في وسط أوروبا وفي مناطق بعيدة عن تلك التي يقطنها الكلتيون الآن، يمكن العثور على تقسيم منصف مماثل للسنة في الشعبية الكبيرة التي يحظى بها يوم الأول من مايو وليلته أيضا من جهة، (ليلة ولبرجيس) وفي عيد جميع القديسين في الأول من نوفمبر الذي يخفي وراء عباءة مسيحية رقيقة عيدا وثنيا قديما للموتى. من هنا نستنتج أن تقسيم السنة تقسيما سماويا في كافة أنحاء أوروبا بحسب يوم الانقلاب الشمسي سبقه ما يمكننا تسميته بتقسيم أرضي لها بحسب بداية الصيف وبداية الشتاء.

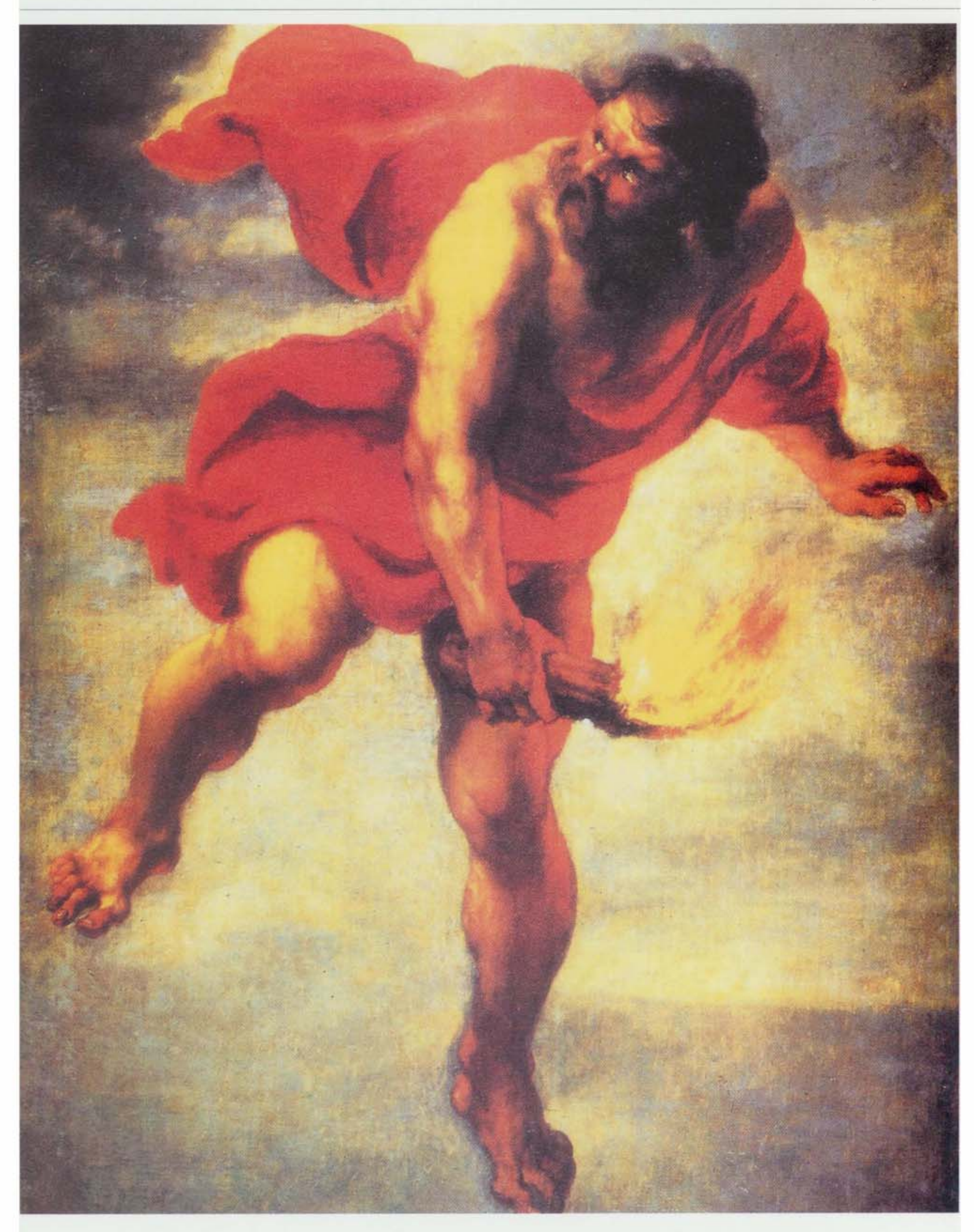
ومهما كان الأمر، هناك شبه كبير بين العيدين الكبيرين عند الكلتيين وهما الأول من مايو والأول من نوفمبر، أو ليلة هذين اليومين إذا أردنا الدقة، من حيث أسلوب الاحتفال بهما والطقوس الخرافية التي ارتبطت بهما، كما أن السمة الموغلة في القدم التي طبعت كليهما تنم عن أصلهما الوثني البحت. فلو أن وثنيي أوروبا القديمة احتفلوا بموسم منتصف الصيف، ولدينا ما يحمل على الاعتقاد بأنهم فعلوا ذلك، بإشعالهم نارا عظيمة، وأن آثار الاحتفالات ما زالت باقية حتى اليوم في أماكن كثيرة، لكان من الطبيعي أن نفترض بأنهم احتفلوا أيضا في موسم مقابل وهو موسم منتصف الشتاء. فمنتصف الصيف ومنتصف الشتاء، أو



في الأعلى: توافق ليلة منتصف الصيف الانقلاب الشمسي الصيفي الذي كان أعظم أعياد السنة. لوحة للفنان إدوارد روبرت هيوز.

الطرف المقابل: يوافق عيد الهالوين مهرجانات النار الكبيرة عند الكلتيين. لوحة للفنان جيمس هـ إدغار، 1864.

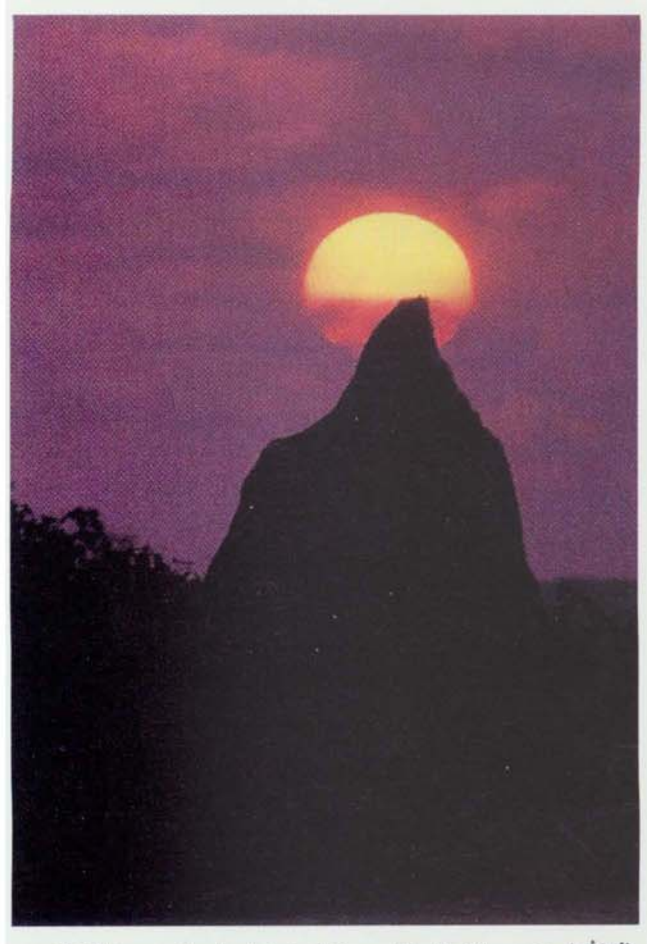
الانقلاب الشمسي الصيفي و الانقلاب الشمسي الشتوي إن شئنا استعمال اللغة العلمية، هما نقطتا التحول الكبيرتان في مسار الشمس الظاهر عبر السماء. ومن وجهة نظر الإنسان البدائي، ليس ثمة شيء يلائم تلك المناسبة أكثر من إشعال النيران في الأرض في هاتين اللحظتين، حين تبدأ حرارة النجم العظيم في السماء في الانخفاض أو الارتفاع.



وفي العالم المسيحي الحديث، يبدو أن عيد النار القديم الذي كان يقام احتفالا بالانقلاب الشتوي قد استمر حتى السنوات الأخيرة في عادة قديمة تسمى حطبة الميلاد على اختلاف تسمياتها في إنجلترة. صحيح أن هذه العادة كانت واسعة الانتشار في أوروبا، لكنها ازدهرت على نحو خاص في إنجلترة وفرنسا وبين الشعوب السلافية. فالروايات الكاملة عن هذه العادة تأتينا على الأقل من هذه المناطق. ولقد أشار الباحث في العاديات الإنجليزي جون براند John Brand منذ زمن طويل إلى أن حطبة الميلاد كانت المقابل الشتوي الوحيد لنار منتصف الصيف، التي كانت توقد داخل المنزل بدلا من أن توقد في العراء بسبب البرد ورداءة الطقس في ذلك الوقت من السنة. ويؤيد هذا الرأي كثير من الاعتقادات الخرافية الطريفة المرتبطة بحطبة الميلاد، وهي اعتقادات لا علاقة لها على ما يبدو بالمسيحية، لكنها تحمل بصمات أصلها الوثني بشكل واضح. وبالرغم من ارتباط النار باحتفالي الانقلاب الشمسي، لكن ضرورة إقامة الاحتفال الشتوي داخل البيوت، أو الرغبة في ذلك، أكسبته سمة الاحتفال الخاص أو البيتي، في تناقض صارخ مع شعبية الاحتفال الصيفي الذي يتجمع الناس لإحيائه في مكان مكشوف أو مرتفع من الأرض ليوقدوا معا نارا عظيمة، ويطوفوا حولها.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر ظل الناس متمسكين بعادة حطبة الميلاد في بعض أنحاء وسط ألمانيا. ففي وادي سيج ووادي لان كانت حطبة الميلاد، وهي قطعة غليظة من خشب البلوط تثبت في أرض الموقد، ليحول عليها الحول دون أن تتحول إلى رماد مع أنها تتوهج تحت النار. وحين توضع الحطبة الجديدة في السنة التالية، يطحن ما تبقى من الحطبة الأولى حتى يصبح مسحوقا ناعما وينثر فوق الحقول في الليالي الاثنتي عشرة، على أمل أن يساعد هذا على نمو المحصول. وفي بعض قرى وستفاليا، اعتاد الناس على سحب حطبة الميلاد من الموقد حالما تبدأ بالتفحم، ثم تحفظ بعناية حتى توضع على النار من جديد كلما هبت عاصفة رعدية، نظرا لاعتقاد الناس أن البرق لا يضرب منزلا تشتعل فيه حطبة الميلاد. أما في بعض القرى الأخرى من وستفاليا فقد جرت العادة على ربط حطبة الميلاد في آخر حزمة يتم حصادها.

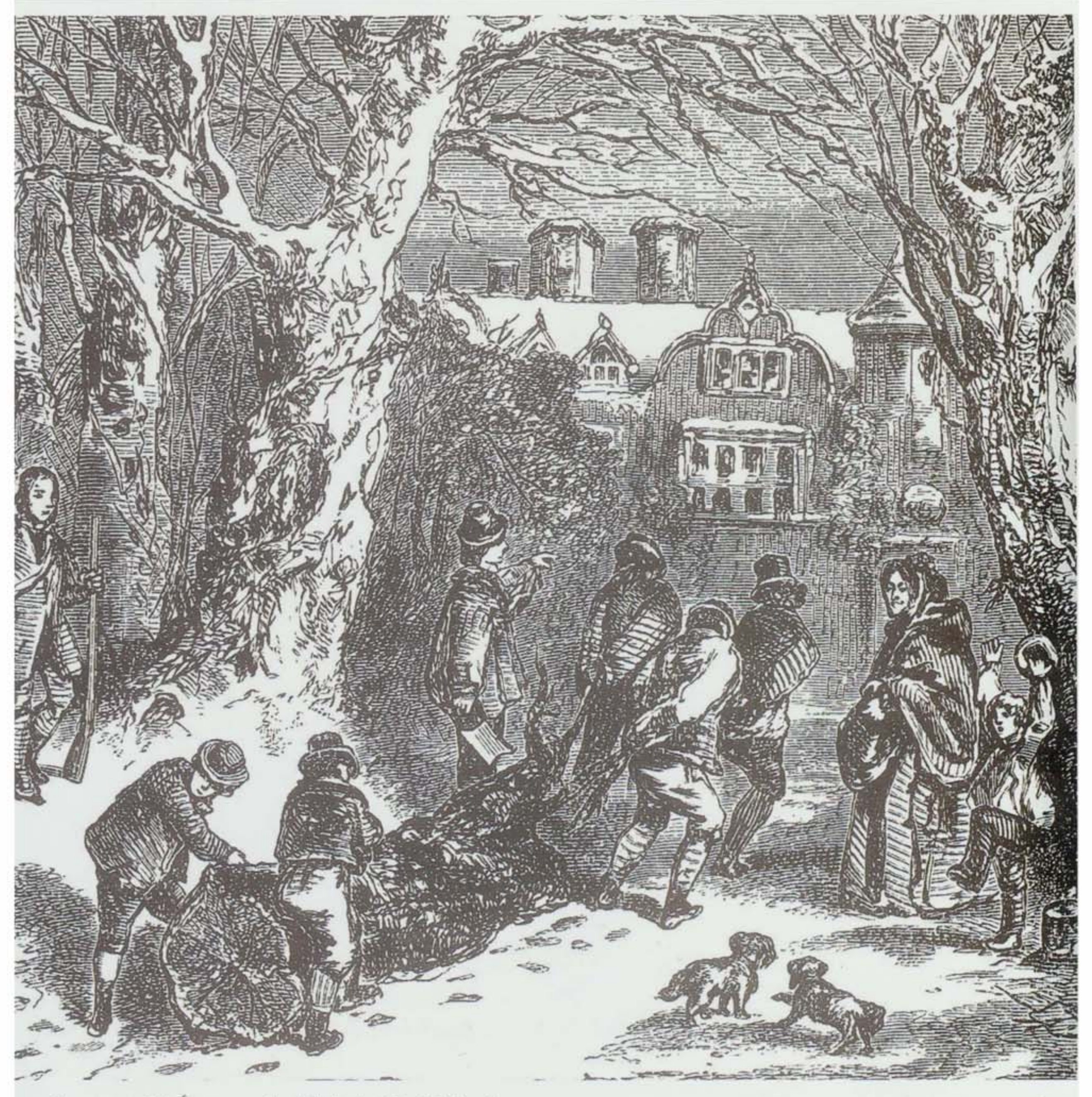
إن تمسك الفرنسيين في العديد من الأقاليم الفرنسية، ولاسيما في إقليم بروفنس، بحطبة الميلاد (وتسمى تريفوار) عادة موغلة في القدم. وقد شجب أحد الكتاب الفرنسيين في القرن السابع عشر عادة حطبة الميلاد قائلا: إنها دليل على الاعتقاد بالخرافات، وهي



في الأعلى: غروب الانقلاب الشمسي كما يرى فوق ما يعرف «بعمود الانقلاب الشمسي الشتوي» في تل الأسرار، سالم الشمالية، نيو هامشر، الولايات المتحدة. وتتألف من مجموعة كبيرة من التشكيلات الحجرية التي تعرف باسم «ستونهنج الأمريكية».

الطرف المقابل: سرق برميثيوس النار من السماء وجاء بها إلى رجال مختبئين في جذع شجرة شمرة عملاقة، وهي من نباتات السواحل الليبية. بروميثيوس وهو يحمل النار، للفنان جان كوستر، القرن السابع عشر.

«الاعتقاد بأن حطبة تسمى تريفوار، أي حطبة الميلاد، تضعها فوق النار للمرة الأولى ليلة عيد الميلاد وتبقيها على النار فترة قصيرة كل يوم حتى الليلة الثانية عشرة، إذا ما وضعت تحت السرير، وفرت الحماية للمنزل لمدة سنة كاملة من الحريق والرعد، وأبعدت عن سكانه الإصابة بقروح البرد في أكعاب أقدامهم في الشتاء، وكانت قادرة على شفاء الماشية من أمراض عدة، وإذا ما وضعت قطعة منها في الماء الذي تشرب منه الأبقار، ساعدتها على الحمل، وإذا ما نثر رمادها فوق الحقول، أنقذت القمح من العفن الفطري».



في الأعلى: حطبة الميلاد أثناء جرها إلى البيت لاحتفالات عيد الميلاد. كانت الحطبة توقد في عيد الميلاد وتحترق ببطء طوال العام لتحمي المنزل من الحريق والبرق. نقوش من «كتاب الأيام» لتشامبر، لندن، 1862.

وفي بعض أنحاء فلندرة وفرنسا كانت بقايا حطبة الميلاد تحفظ في المنزل تحت أحد الأسرّة حماية للبيت من البرق والرعد. وفي بري إذا سمع هزيم الرعد، هب أحد أفراد العائلة فأخذ قطعة من الحطبة ثم قذفها في النار التي يعتقد أنها تحمي من البرق. وفي بيريغورد، يجمع الرماد والفحم بعناية ويحفظ لشفاء أورام الغدد، أما الجزء الذي لم يحترق من الحطبة فيستعمله الفلاحون لصنع أسافين لمحاريثهم، لاعتقادهم أن هذا يحسن إنتاش البذور. أما النساء فيحتفظن بقطع منها حتى الليلة الثانية عشرة من أجل دجاجاتهن. ويتخيل بعضهم أنه سيكون لهم من الدجاج بعدد الشرر المتطاير من جذوات النار التي تتكسر من حطبة الميلاد عند

تحريكها، كما يضع آخرون الحطبات المنطفئة تحت السرير لإبعاد الحشرات والهوام. ويعتقد الناس في أنحاء كثيرة من فرنسا أن الحطبة المتفحمة تحمي المنزل من السحر والبرق.

وفي إنجلترة كانت العادات والمعتقدات الخاصة بحطبة الميلاد شبيهة بما ذكرناه. ففي ليلة عيد الميلاد، كما يخبرنا الباحث في الآثار جون براند، «اعتاد أجدادنا على إشعال شموع بأحجام غير مألوفة تسمى شموع الميلاد، ووضع قطعة غليظة من الخشب على النار تسمى حطبة الميلاد لإضاءة المنزل وتحويل الليل إلى نهار». وجرت العادة القديمة على إشعال حطبة الميلاد بقطعة من سابقتها يحتفظون بها طوال العام خصيصا لهذا الغرض، ولا تستطيع الشياطين أن تلحق أي أذى في مكان حفظها. ويعتقد الناس أن بقايا الحطبة تحرس المنزل من الحرائق والبرق.

وحتى يومنا هذا لا يزال الناس يتمسكون بإعداد حطبة الميلاد بكثير من الجدية في المناطق السلافية الجنوبية لاسيما الصربية منها. ومع أن الحطبة تكون عادة من خشب البلوط، لكنها قد تكون أيضا من الزيتون أو الزان. ويعتقد هؤلاء على ما يبدو أنهم سيحظون بعدد من العجول، والحملان، والخنازير، والجديان بعدد الشرر المتطاير من الحطبة المحترقة. ويحمل بعضهم قطعة من الحطبة إلى الحقول لحمايتها من البرد». وفي ألبانيا وحتى سنوات قريبة اعتاد الناس أن يحرقوا حطبة الميلاد في تلك المناسبة، وكانوا ينثرون رمادها فوق الحقول لتخصيبها. أما الهزول، وهم من الشعوب السلافونية الكارباتية، فيوقدون النار بطريقة الاحتكاك ليلة عيد الميلاد (التقويم القديم، في الخامس من يناير) ويبقونها مشتعلة حتى الليلة الثانية عشرة.

ومما يسترعي الانتباه تشابه المعتقدات بشأن حطبة الميلاد، فإذا حفظها الناس طوال العام، كان لها القدرة على حماية المنزل من الحريق وبالأخص من البرق. ومن الممكن أن يكون هذا الاعتقاد استمرارا لمبدأ آري قديم يربط شجرة البلوط بإله الرعد على اعتبار أن حطبة الميلاد هي في الغالب من خشب البلوط. أما إذا لم تكن التأثيرات الشافية والمخصبة التي تنسب إلى رماد حطبة الميلاد ويفترض أنها تشفي الماشية والناس على حد سواء، وتساعد البقر على الحمل والإنجاب، وتزيد من قدرة الأرض على طرح الثمار ناشئة من مصدر قديم واحد، فهذا موضوع يستحق البحث.

ويوحي الاستعراض السابق لأعياد النار الشائعة في أوروبا ببعض الملحوظات العامة. فبادئ ذي بدء، لا يسعنا إلا ملاحظة التشابه بين الاحتفالات بصرف النظر عن موعد إقامتها أو المكان الذي تقام فيه من أوروبا. فإشعال نار عظيمة والقفز فوقها وسَوق الماشية عبرها أو حولها يبدو أنه عادة منتشرة في أوروبا بأكملها، ويمكننا أن نقول الشيء عينه عن المواكب أو السباقات بالمشاعل حول الحقول والبساتين والمراعي أو زرائب الحيوانات. أما عادات رمي الأطباق المشتعلة في الهواء أو دحرجة عجلات مشتعلة إلى أسفل التل فتبدو أقل انتشارا. وتختلف عادة الاحتفاظ بحطبة الميلاد عن غيرها من أعياد النار بأنها عادة خاصة وبيتية، وهذا ما يميزها. لكن هذا التميز قد يكون بسبب رداءة الطقس في منتصف الشتاء الذي يجعل من العسير على النساء التجمع في مكان مفتوح يمكنه في أية لحظة القضاء على الهدف من التجمع إذا ما انطفأت نار الاحتفال رغم أهميتها الكبرى بتأثير وابل من المطر أو عاصفة ثلجية. وبصرف النظر عن هذه الفوارق الموسمية أو المحلية، فإن التشابه كبير بصفة عامة بين أعياد النار في جميع أوقات السنة وفي شتى الأماكن. والتشابه بين الاحتفالات يعني التشابه بين الفوائد التي يتوقع الناس الحصول عليها منها. فمن المعتقد أن النار، سواء أكانت احتفالية تتأجج في مواعيد معينة، أو في شكل مشاعل يحملها الناس من مكان إلى آخر، أو جمرا ورمادا من كومة حطب مشتعلة، تزيد من نمو المحصول وتزيد الخير بالنسبة للإنسان أو الحيوان على حد سواء إما إيجابيا من خلال تحفيزهم، أو سلبيا من خلال تجنبهم الأخطار والكوارث التي تهددهم مثل الرعد والبرق والحرائق والآفات والعفن والهوام، والعقم والأمراض وقبل هذا وذاك السحر.

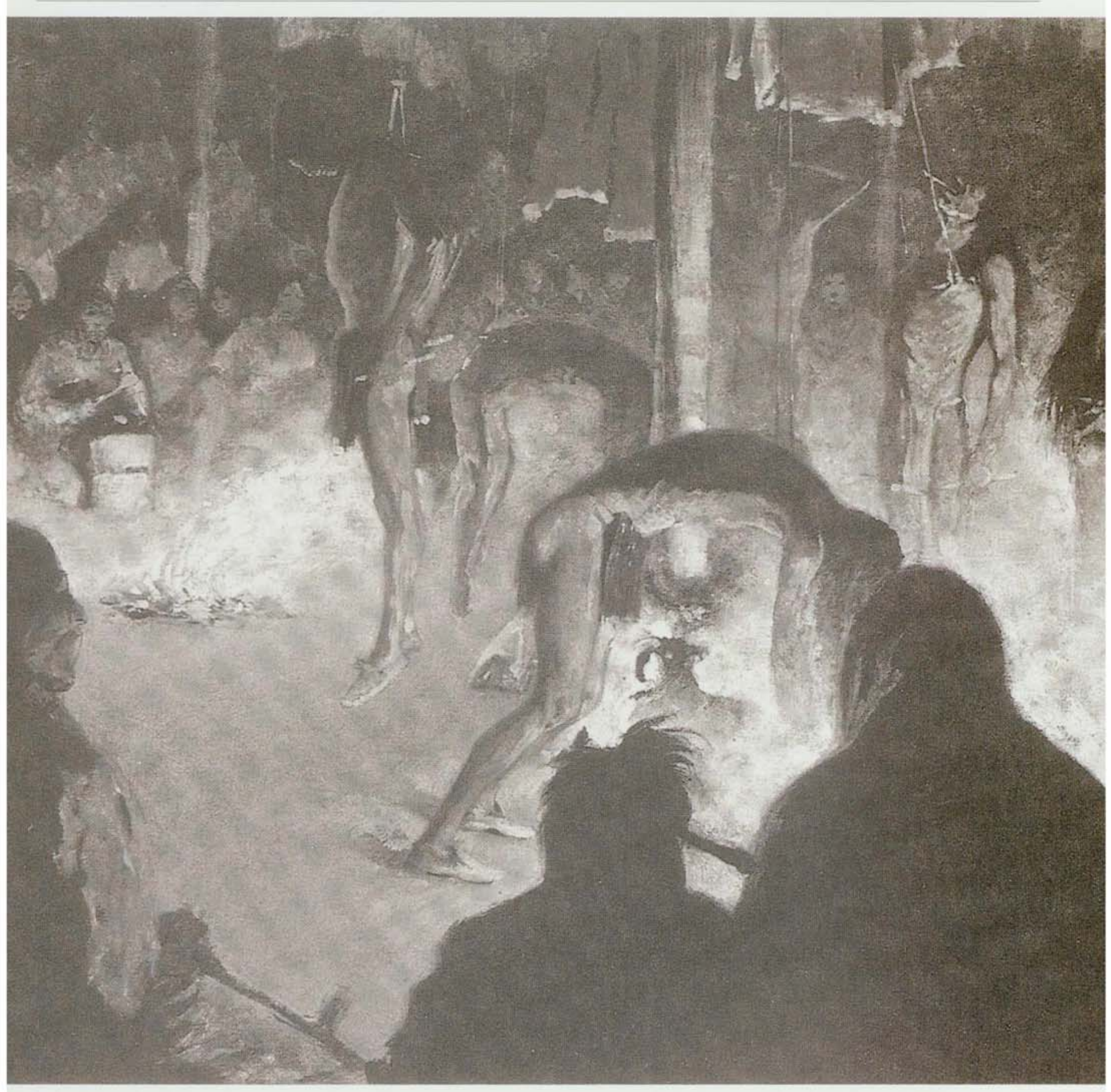


لكن من الطبيعي أن نسأل كيف يمكن للناس أن يحصلوا على هذا العدد من الفوائد المتنوعة بوسائل في منتهى البساطة؟ وكيف تخيل الناس أن بإمكانهم الحصول على كل هذه الفوائد الكثيرة أو تجنب هذا الكم الكبير من ألوان الضرر باللجوء إلى النار والدخان المنبعث من الحجر والرماد؟ ففيما يخص مواعد الأعياد، يمكننا أن نلغي احتمال الصدفة من احتفالين هما من أهم الاحتفالات وأوسعها انتشارا، فقد أختير موعد كل منهما ليتوافق بدقة تقريبا مع الانقلاب الشمسي الصيفي والشتوي، أي مع نقطتي التحول في حركة الشمس الظاهرية حين تصل أعلى نقطة وأخفض نقطة على التوالي عند الظهر. أما بالنسبة إلى عيد الميلاد فلم يعد ثمة داع للتخمين، لأننا نعلن من الشهادة الواضحة للأقدمين أن الكنيسة حددت موعده ليحل محل احتفال وثني قديم بمولد الشمس التي اعتقد الناس أنها تولد من جديد في أقصر يوم من أيام السنة الذي يلاحظ بعده ازدياد ضوئها وحرارتها حتى يصلا إلى أعلى مستوى في منتصف الصيف. لذلك ليس من المبالغة القول إن حطبة الميلاد التي تظهر بشكل بارز في الاحتفال بعيد الميلاد، صممت أصلا لمساعدة شمس منتصف الشتاء المتثاقلة على استعادة ضوئها الذي بدأ يخبو.

وليس موعد بعض الأعياد وحده الذي يوحي بتقليد واع للشمس، بل نرى ذلك في طريقة الاحتفال بهذه الأعياد. فعادة دحرجة العجلة المحترقة إلى أسفل التل التي تجري في تلك الاحتفالات تحاكي مسار الشمس في السماء. وتزداد المحاكاة قوة في احتفال يوم منتصف الصيف حين يبدأ انحدار الشمس السنوي. ولقد قام بعض الذين سجلوا هذه العادة بتفسيرها فعلا على هذا النحو. والشيء عينه يمكن أن يقال عن محاكاة دورة الشمس الظاهرية من خلال أرجحة برميل من القار المشتعل حول المحور. وبالمثل يمكن أن نقول إن قذف الأطباق الملتهبة في الهواء، وكثيرا ما يكون شكلها على شكل الشمس، في الاحتفالات قد يكون من قبيل سحر المحاكاة. ففي هذه الحالات، وكثير غيرها، يفترض أن تحدث القوة السحرية تأثيرها من خلال المحاكاة أو التعاطف. فبالمحاكاة تحدث أنت النتيجة المرغوبة؛ ومن خلال تقليد تقدم الشمس في السماء فإنك تساعدها على متابعة رحلتها بدقة وسرعة. فاسم «نار السماء» الذي يطلقه الناس على نار منتصف الصيف أحيانا، يتضمن بوضوح وعيا بالعلاقة بين اللهب الأرضي واللهب السماوي.

ومن ناحية أخرى، قيل إن طريقة إشعال النار في تلك المناسبات في الأصل تؤيد ما ذهب إليه بعضهم من أنه أريدَ بها محاكاة الشمس. وقد أوضح بعض المفكرين أن من المحتمل جدا أن النار كانت في الاحتفالات الدورية القديمة تتولد من الاحتكاك بين قطعتي خشب. وما زالت هذه الطريقة تتبع في إشعال النار في بعض الأماكن في أعياد الفصح ومنتصف الصيف، وقيل بوضوح إنها كانت تتبع في احتفال بلتاين سواء في اسكتلندة أم في ويلز. لكن ما يؤكد تقريبا أن هذه الطريقة كانت الوحيدة المتبعة في إشعال النار في تلك الاحتفالات الدورية هو مقاربة نار الحاجة التي كانت توقد على الدوام بالاحتكاك بين قطعتين من الخشب وأحيانا بتدوير عجلة. ويمكننا أن نستنتج أن العجلة المستخدمة لهذا الغرض تمثل الشمس، وأنه إذا كانت النيران التي تشتعل في الاحتفالات المتكررة بانتظام توقد بالطريقة ذاتها من قبل، أمكن اعتبارها دليلا على أنها كانت في الأصل تعويذات شمسية. وهناك ما يثبت، كما أوضح كون Kuhn، أن نار منتصف الصيف كانت توقد بهذه الطريقة. وقد رأينا أن كثيرا من رعاة الخنازير في هنغاريا يشعلون النار ليلة منتصف الصيف بتدوير عجلة حول محور خشبي ملفوف بالقنب، ويسوقون خنازيرهم عبر النار المشتعلة. وفي أوبرمدلينجن في سوابيا، كانت «نارالسماء» توقد في عيد القديس فيتوس (أي في الخامس من يونيو) بإشعال عجلة عربة مطلية بالقار وملفوفة بالقش تربط إلى عمود ارتفاعه اثنا عشر قدما، بحيث ترتكز قمته إلى مركز العجلة. وكانت النار تضرم في قمة أحد الجبال، ومع تصاعد ألسنة اللهب، يتمتم الناس بكلمات معينة وعيونهم وأيديهم متجهة نحو السماء. وهنا نجد أن تثبيت العجلة على العمود وإشعالها يوحي بأن النار كانت توقد قديما، كما هي الحال في نار الحاجة، بطريقة تدوير العجلة. ويوم الاحتفال (الخامس من يونيو) قريب من منتصف الصيف. وفي ماسورن توقد النار، أو كانت توقد، في يوم منتصف الصيف بتدوير عجلة بسرعة حول محور من خشب البلوط؛ لكن ليس ثمة ما يشير إلى أن النار المشتعلة بهذه الطريقة كانت تستخدم في إشعال نار الاحتفال.

الطرف المقابل: عربة الشمس الخاصة بأبولو. لوحة للفنان أوديلون ريدون. 1907 – 10. متحف الفنون الجميلة، بوردو، فرنسا.



إن التأثير الذي يفترض أن تمارسه هذه النيران الدورية منها أو العارضة في الطقس والمزروعات يمكن أن يؤيد من يقول إنها تعاويذ شمسية، على اعتبار أن التأثيرات المنسوبة إليها تشبه ضوء الشمس. وهكذا نرى أن اعتقاد الفرنسيين بأن إشعال نار الاحتفالات يوقف المطر في يونيو ماطر يفترض على ما يبدو أن لها القدرة على تفريق السحب الممطرة وجعل الشمس تطل بوجهها المشرق لتجفف الأرض الرطبة والأشجار المبللة. وبالمثل يمكن تفسير استخدام نار الحاجة التي يوقدها الأطفال في سويسرا في أيام الضباب لتبديده بأنه تعويذة شمسية. ففي جبال فوسغز يعتقد الناس أن نيران منتصف الصيف تساعد على حفظ ثمار الأرض

الطرف المقابل: رقصة الشمس تؤديها جماعة من الهنود الحمر. لوحة للفنان فريدريك رمنغتون، 1909. متحف رمنغتون للفنون.

وضمان وفرة المحاصيل. وفي السويد يتكهن الناس بدفء الشتاء القادم أو شدة برودته من اتجاه لهيب النار في الأول من مايو. فإذا هبت ألسنة اللهب نحو الجنوب، كان الشتاء دافئا، وأما إذا هبت نحو الشمال كان الشتاء قارسا. ولا شك في أن اتجاه اللهب يعد الآن مجرد عامل من عوامل التنبؤ بالأحوال الجوية، وليس للتأثير فيها. لكن بوسعنا التأكد من أن هذه ليست سوى إحدى حالات تراجع السحر إلى العرافة. ففي جبال إيفل إذا هب الدخان نحو حقول الذرة، دل ذلك على وفرة المحصول. لكن النظرة القديمة لم تر أن أثر الدخان وألسنة اللهب ينحصر في التنبؤ بوفرة المحصول، بل يكون مسببا لها، فحرارة اللهب هي بمثابة ضوء الشمس بالنسبة إلى الذرة. ولعل هذا هو ما جعل سكان جزيرة مان يشعلون النار في مهب الريح بحيث يتجه الدخان نحو حقولهم. وهكذا نرى أن المتابيل في جنوب إفريقيا يشعلون نيرانا عظيمة في حوالي شهر إبريل، ويجعلون الدخان يهب باتجاه بساتينهم، «والفكرة هي أن الدخان، حين يمر فوق المحاصيل، يساعد على إنضاجها». ويقوم أبناء قبيلة الزولو [47] بإحراق دواء على نار توقد في مهب الريح نحو البستان. ويعتقد الناس أن الدخان الذي تتلقاه النباتات يحسن المحصول». أما اعتقاد الفلاحين الأوروبيين بأن الذرة تنمو إلى المسافة التي يمكن رؤية نار الاحتفالات منها فيمكن تفسيره بأنه من رواسب الاعتقاد بأثر نيران الاحتفال المخصب والمسرع. ويلاحظ الاعتقاد ذاته في فكرة أن للجمر المأخوذ من نيران الاحتفال والمغروس في الحقول القدرة على زيادة نمو المحاصيل، وربما كانت الفكرة ذاتها وراء عادة بذر بذور الكتان في الجهة التي تهب منها ألسنة اللهب، أو مزج الرماد من نار الاحتفال ببذور الذرة عند بذرها، أو نثر الرماد فوق الحقل لتخصيبه ووضع قطعة من حطبة الميلاد في المحراث لتنشيط البذور. أما القول بأن عيدان الكتان أو القنب تنمو حتى تصبح بطول اللهب، أو بعلو قفزات الناس فوق النار فيندرج تحت الفئة ذاتها من الأفكار. ففي كونز على ضفتي نهر موسيل إذا استطاعت العجلة المشتعلة المتدحرجة إلى أسفل التل الوصول إلى النهر دون أن تنطفئ، فرح الناس واستبشروا بمحصول مضاعف من العنب. وكان هذا الاعتقاد راسخا تماما في أذهان الناس حتى إن نجاح هذه الطقوس كان يخول القرويين جباية ضريبة من أصحاب الكروم القريبة. وهنا نرى أن من الممكن اعتبار أن العجلة التي لا تنطفئ تمثل الشمس الساطعة، وهذا بدوره يبشر بمحصول وافر من العنب. لذلك فإن عربة النبيذ الأبيض التي يأخذها القرويون من الكروم المجاورة يمكن أن تعتبر رسما يأخذونه لقاء جلبهم أشعة الشمس إلى العنب. وفي وادي غلامورغان نلاحظ الشيء عينه، حيث كان الناس يدحرجون عجلة مشتعلة إلى أسفل التل في عيد منتصف الصيف، فإذا ما انطفأت النار قبل أن تصل العجلة سفح التل، توقع الناس محصولا سيئا، أما إذا ظلت مشتعلة واللهب متأججا لمدة طويلة، امتلأت قلوب المزارعين بالأمل في محصول وافر في ذلك الصيف. ومن الطبيعي هنا أيضا افتراض أن العقل البدائي وجد علاقة مباشرة بين نار العربة ونار الشمس، التي يعتمد عليها المحصول.

(47) قبيلة الزولو أحد الشعوب الرئيسية الناطقة بلغة البانتو في قارة إفريقيا. ويعيش نحو سبعة ملايين نسمة من قبيلة الزولو في إقليم كوازولو - ناتال الواقع في جمهورية جنوب إفريقيا. وتعد قبيلة الزولو أكبر الجماعات اللغوية في جنوب إفريقيا. ويعيش أغلبها في المناطق الحضري «المترجم».



في الأعلى: يقام مهرجان النار في هيذرلي، إنجلترة، يوم الأربعاء الأقرب إلى الخامس من نوفمبر من كل عام.

الطرف المقابل: لوحة من قدر جندرستروب الفضية التي هي كِلتية في الأصل، واستولى عليها الفايكنغ كجزء من الغنائم. تارانيس، إله الرعد، يقذف بعجلة من النار. تفصيل من داخل القدر. المتحف الوطني، كوبنهاجن.

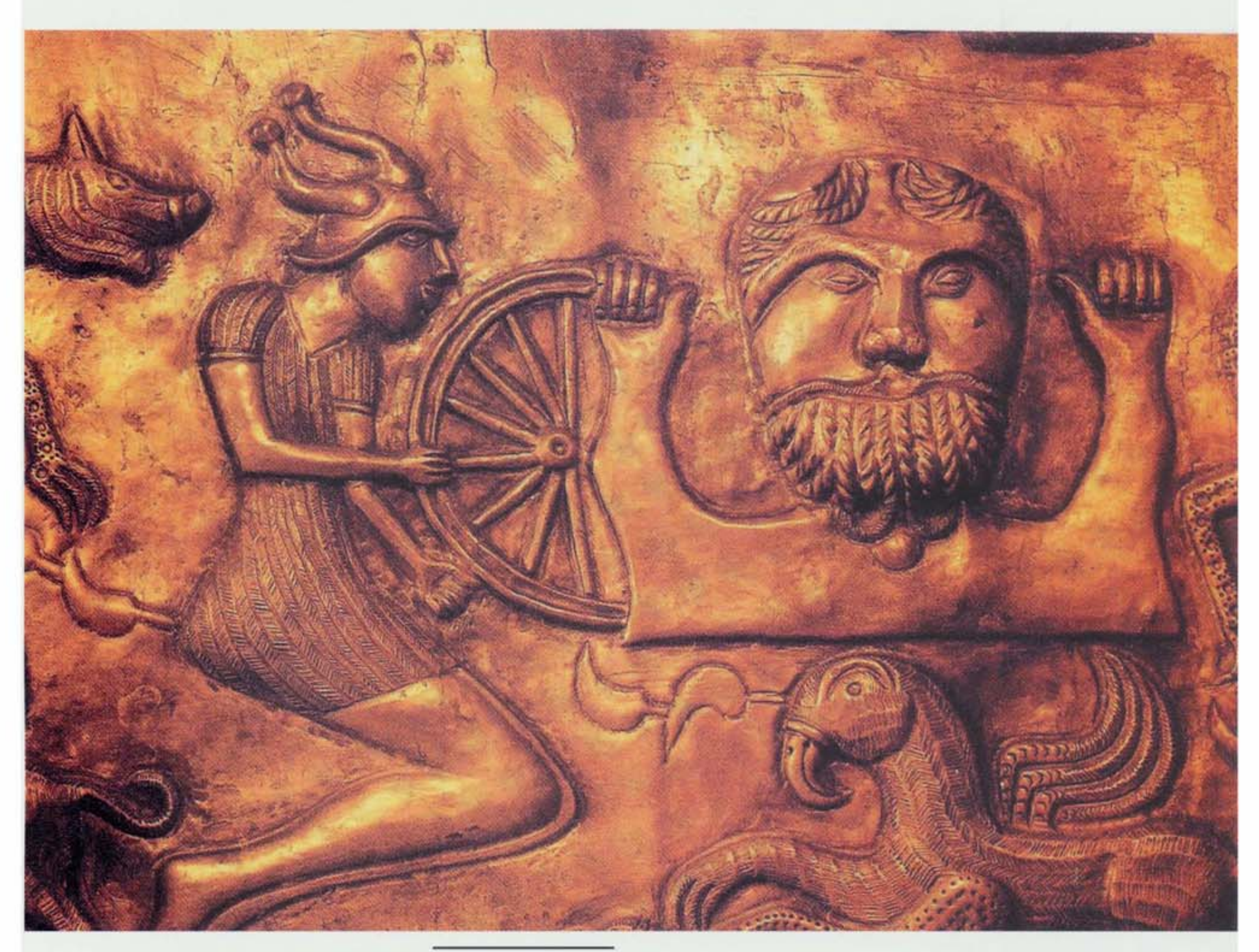
ولا يقتصر تأثير نار الاحتفالات المخصبة والمسرعة على عالم النبات وحسب، بل يمتد إلى عالم الحيوان أيضا، وهذا ما يظهر لنا من عادة سَوق الماشية عبر نيران منتصف الصيف التي يمارسها الإيرلنديون، ومن اعتقاد الفرنسيين بأن حطبة الميلاد المغموسة بالماء تساعد الأبقار على الحمل، ومن اعتقاد الفرنسيين والصرب بأن عدد الدجاج والعجول والحملان والجديان سيكون بمثل عدد الشرر المتطاير من حطبة الميلاد، ومن عادة الفرنسيين نثر رماد نيران الاحتفال على أعشاش الطير ليكثر بيض الدجاج، ومن عادة الألمان مزج رماد نار الاحتفالات بالماء الذي يقدم إلى الحيوانات لكي تزداد قوة ونشاطا. يضاف ذلك وجود دلائل واضحة على الافتراض بأن حرارة النيران السحرية ترفع نسبة الخصوبة عند البشر. وفي المغرب يعتقد الناس أن بإمكان الذين لم يرزقوا بالأطفال الحصول على الذرية بالقفز فوق نار الاحتفال بمنتصف الصيف. ويعتقد أهل إرلندا بأن الفتاة التي تقفز ثلاث مرات فوق نار الاحتفال بمنتصف الصيف سرعان ما تتزوج وترزق بكثير من الأولاد والبنات. وفي فلندرة تقفز النسوة فوق نار منتصف الصيف لضمان سهولة الولادة. وفي أماكن شتى من فرنسا يعتقد الناس أنه إذا رقصت فتاة حول تسع نيران، ضمنت زواجها في سنة واحدة، وفي بوهيميا يعتقدون بأنها تحقق هذا بمجرد رؤيتها تسع نيران. ومن ناحية أخرى، يقول الناس في ليشرين إنه إذا نجا شاب وشابة يقفزان فوق نار منتصف الصيف معا من لفح النار، فإن الشابة لن تصبح أماً في الاثني عشر شهرا التالية، فاللهب لم يلمسها ويخصبها. وفي بعض أنحاء سويسرا وفرنسا، وفي أثناء إشعال حطبة الميلاد، يدعو الناس للنساء بأن يلدن أطفالا، والماعز جديانا، والشياه حملانا. ويبدو لنا أن عادة جعل آخر المتزوجين يوقد نار الاحتفال تندرج تحت مجموعة الأفكار ذاتها التي تفيد بأن شخصا ما يفترض أن يستمد من النار، أو يمنحها، تأثيرا مخصبا مولدا. وربما نشأت عادة قفز العاشقين ويداهما متشابكة فوق النيران من فكرة أنهما بعملهما هذا يباركان زواجهما بذرية كبيرة. ونرى أن الدافع ذاته يفسر لنا عادة إجبار من تزوجوا خلال السنة على الرقص في ضوء المشاعل. ولعل مشاهد الإباحية والتهتك التي طبعت على ما يبدو احتفالات منتصف الصيف في أستونيا، مثلما طبعت احتفالات الأول من مايو عندنا، لم تنشأ من مجرد الرخصة التي يتمتع بها الناس في إجازتهم، بل من الاعتقاد بأن ثمة رباطا غامضا بين حياة الإنسان والأفلاك السماوية في لحظة التحول السنوية تلك يبرر هذه الحفلات الماجنة، إن لم نقل يطلبها.

وفي الأعياد التي نحن بصددها، تترافق عادة إشعال نيران الاحتفالات عادة بحمل المشاعل حول الحقول والبساتين والمراعي وقطعان الماشية، ولا يسعنا أن نشك في أن العادتين هما في الواقع طريقتان مختلفتان للوصول إلى هدف واحد، ألا وهو الفوائد التي يعتقد أنها تتولد عن النار سواء أكانت ثابتة أم متحركة. لذلك إذا قبلنا نظرية الشمس في تفسير نيران الاحتفالات اضطررنا لتطبيقها على المشاعل أيضا. ولا بد من الافتراض أن عملية السير أو الركض بالمشاعل في سائر أنحاء البلاد ما هي إلا وسيلة لنشر تأثير ضوء الشمس الذي يعد هذا اللهب المتراقص محاكاة ضعيفة له وحسب.

ومع ذلك علينا أن نتساءل عن معنى إحراق الدمى بالنار في تلك الأعياد. فبعد البحث السابق تتضح لنا الإجابة عن السؤال. فبما أن النيران توقد بهدف إحراق الساحرات، على اعتبار أن الدمية فيها تسمى «الساحرة»، فإننا نميل بالطبع نحو استنتاج أن كل الدمى التي تأكلها ألسنة اللهب في تلك المناسبات تمثل ساحرات

أو مشعوذين، وأن عادة إحراقهم تمثل بديلا عن إحراق الأشرار والشريرات بالذات على اعتبار أن مبدأ سحر المحاكاة يجعل من إحراق الدمية في الواقع تدميرا للشخصية التي تمثلها بالفعل. ومع ذلك ربما لا ينطبق هذا التفسير على كل الحالات، فهناك حالات بعينها قد تحتمل أو تتطلب تفسيرا آخر.

ومن بين العادات المرتبطة بأعياد النار في أوروبا سمات خاصة تشير على ما يبدو إلى عادة تقديم القرابين البشرية التي كانت سائدة فيما مضى. ولدينا ما يحمل على الاعتقاد بأن أشخاصا أحياء في أوروبا لعبوا دور الممثلين لروح الشجرة، أو روح الذرة، ودفعوا حياتهم ثمنا لذلك. ولقد رأينا فيما سبق أن من الآثار التي لا يرقى إليها الشك لهذه القرابين البشرية التي كانت تقدم في تلك المناسبات هي التي كانت موجودة قبل مائة عام في نيران بلتاين في مرتفعات اسكتلندة، أي بين الشعوب الكلتية التي تمسكت بوثنيتها أكثر من أي شعب آخر في غرب أوروبا لكونها تسكن في أبعد زاوية من أوروبا ومعزولة عزلا تاما تقريبا عن التأثيرات الخارجية. ومن اللافت أن الشعوب الكلتية كانت تمارس تقديم القرابين البشرية حرقا بالنار بحسب دليل لا يرقى إليه الشك. وقد جاءنا أول وصف لهذه القرابين من يوليوس قيصر.[48] فبوصفه فاتحا



(48) ولد غيوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar عام 100 ق.م. في عائلة عريقة من الأشراف الرومان، عايش في مرحلة مراهقته عهد الحرمان (الحرمان من حماية القانون) الذي فرضه ماريوس صهر أبيه. كما عايش عهد ديكتاتورية سولا وأوائل عهد بومبي (قائد روماني) Pompey. ويعتبر يوليوس قيصر من أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ وسبب ثورة تحويل روما من جمهورية إالى امبراطورية «المترجم».



في الأعلى: تزكاتليبوكا و ويتزيلوبوكتلي اثنان من آلهة المكسيك في هذه النقوش الأزتكية. ويمثل تزكاتليبوكا شمس الصيف الضرورية للحصاد، لكنه ينطوي على خطر الجفاف أيضا. متحف الأنثروبولوجيا الوطني، مكسيكو سيتي.

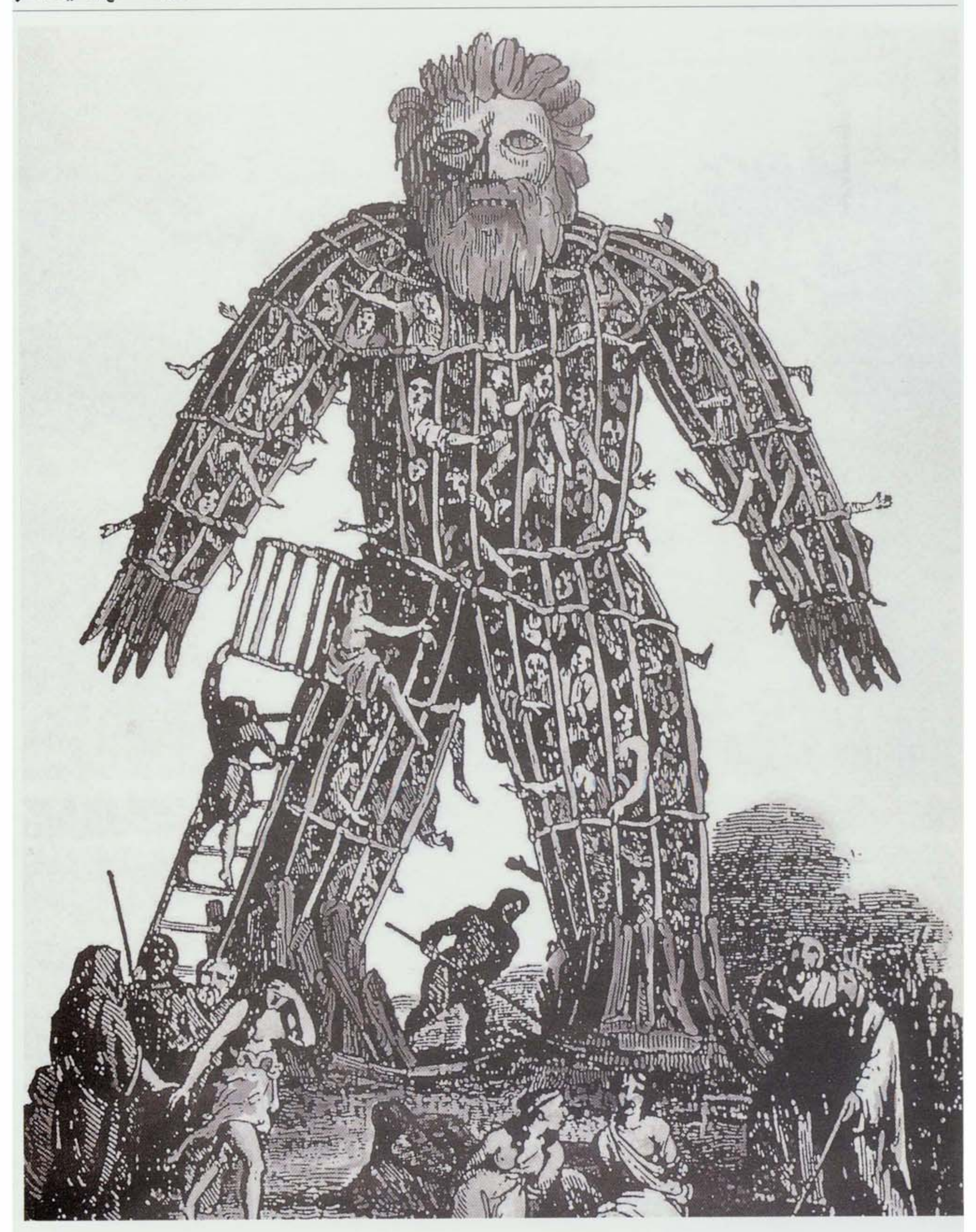
الطرف المقابل: يقول المؤرخون الرومان إن الكلتيين كانوا يصنعون تماثيل عملاقة من الأماليد (أغصان الأشجار المرنة) يضعون فيها أناسا أحياء ثم يحرقونهم كقرابين.

لما كان حتى ذلك الحين الكلتيين المستقلين في بلاد الغال، كانت لديه فرصة كبيرة لمراقبة دين الكلتيين الوطني وأنماط سلوكهم، حين كانت هذه لا تزال جديدة ونقية قبل أن تنصهر مع غيرها في بوتقة الحضارة الرومانية. ويبدو أن قيصر ذكر ضمن ملاحظاته الخاصة ملحوظات المكتشف اليوناني المعروف باسم بوسيدونيوس الذي قام برحلات في بلاد الغال قبل أن يعبر قيصر بجيوش الرومان القنال الإنجليزي بخمسين عاما. ويبدو أيضا أن الجغرافي اليوناني سترابو والمؤرخ ديودوروس استوحيا وصفهما للقرابين الكلتية من عمل بوسيدونيوس، ولكن بشكل مستقل بعضهما عن بعض وعن يوليوس قيصر، لأن كلا من الروايات الثلاث المشتقة يحتوي على تفاصيل غير الموجودة عند الآخرَين. وبجمع هذه الروايات الثلاث نستطيع استعادة الوصف الأصلي لبوسيدونيوس بشكل تقريبي، وبالتالي الحصول على صورة القرابين التي كان الكلتيون في بلاد الغال يقدمونها في نهاية القرن الثاني قبل الفترة التي نحن بصددها. وفيما يلي ما يبدو أنه النقاط الرئيسة لتلك العادة. كان الكلتيون يحتفظون بالمجرمين الذين يحكم عليهم بالإعدام لتقديمهم قرابين للآلهة في احتفال عظيم يقام مرة كل خمس سنوات. وبحسب الاعتقاد السائد فإنه كلما زاد عدد الضحايا ازدادت الأرض خصوبة. أما إذا لم يكن هناك ما يكفي من المجرمين ليقدموا قرابين، أخذ أسرى الحرب وقدموا قرابين لسد النقص.

وفي الموعد المحدد، يقوم الدرود أو الكهنة بتقديم الضحايا فبعضهم يرمي بالسهام، وبعضهم يترك لينزف حتى الموت، وبعضهم يحرق حيا بالطريقة التالية: تصنع دمى هائلة من الأماليد (الأغصان) المجدولة والخشب والعشب، ثم تملأ بالرجال الأحياء والماشية والحيوانات الأخرى، ثم تضرم النار بهذه الدمى بكل ما تحويه من الأحياء.

لذلك يبدو لنا أن من الممكن تلمس آثار طقوس القرابين عند الكلتيين [49] في بلاد الغال القديمة في الأعياد الشعبية في أوروبا الحديثة. ومن الطبيعي أن تكون هذه الطقوس قد تركت أوضح آثارها في إحراق دمى هائلة الحجم من الأماليد والحيوانات الحبيسة في سلال مغلقة في فرنسا، أو بالأحرى في المنطقة الواسعة التي تشمل بلاد الغال القديمة، وفي إقامة هذه الاحتفالات كما رأينا في منتصف الصيف أو في زمن قريب منه. من هنا نستنتج أن الطقوس الأصلية التي تعد هذه الاحتفالات نسخة مشوهة منها كانت تتم في منتصف الصيف. ويتفق هذا الاستنتاج مع النتيجة التي خلص إليها مسح شامل للعادات الأوروبية الشعبية وهي أن عيد منتصف الصيف بصفة عامة كان الأكثر انتشارا والأهم بين الأعياد التي كانت تحتفل بها شعوب أوروبا الآرية.

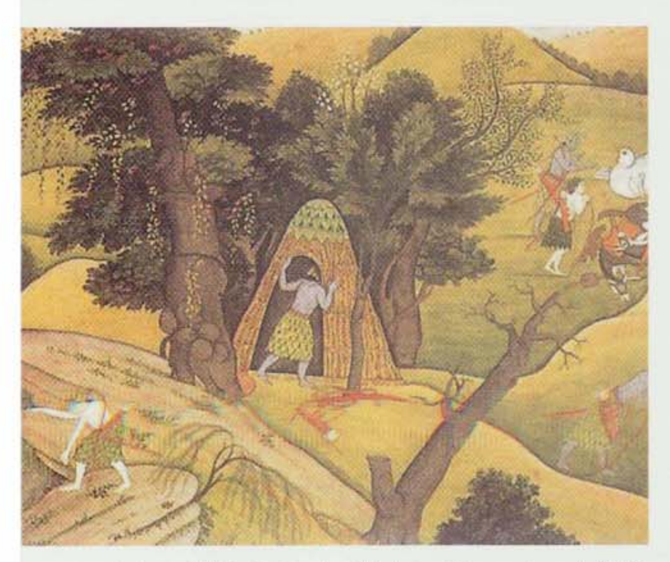
(49) الكلت أو القلط أو السلت (باللاتينية: Celtae، (بالإنكليزية: Celts، تلفظ /kelts/) (بالفرنسية: Celtes، تلفظ /selt/) هم أي مجموعة أوروبية تستخدم اللغة الكلتية التي تعتبر فرعاً من اللغات الهندو-أوروبية. بالرغم من أن الكلت اليوم منحصرون في الحافة الكلتية المزعومة في ساحل الأطلسي من جهة غرب أوروبا، فإن اللغة الكلتية كانت اللغة المهيمنة على أوروبا، من إرلندا حتى البرتغال وشمال إيطاليا وسلوفاكيا. تشير المصادر الأثرية والتاريخية إلى أن أقصى امتداد للكلت كان في القرون السابقة للميلاد، وأنهم وُجدوا أيضاً في شرق أوروبا وآسيا على شكل أقليات «المترجم».





الفصل العاشر

الروح الهائمة



في الأعلى: مشهد من الملحمة رامايانا يظهر فيه البطل الهندي راما وهو يبحث عن حبيبته سيتا. لوحة هندية من عام 1780. المتحف الهندي الوطني، نيو دلهي.

الطرف المقابل: سيركيت، إحدى أربع إلاهات كن يحمين الموتى، يحرسن الصندوق الذي يحوي أحشاء الفرعون الشاب توت عنخ آمون. خشب مذهب، متحف القاهرة، مصر.

رأينا فيما سبق (ص 95) أن لدى الشعوب البدائية اعتقادا بقدرة الروح على الخروج من الجسد مؤقتا دون أن يؤدي ذلك إلى موته. لكن غياب الروح المؤقت كثيرا ما ينطوي على مخاطرة كبيرة على اعتبار أن الروح الهائمة عرضة لمكائد مختلفة تحيكها أيدي الأعداء وغيرهم. لكن هناك جانب آخر لقوة فصم الروح عن الجسد هذه. فلو أمكن ضمان سلامة الروح في أثناء غيابها، لما كان هناك مانع من غياب الروح لمدة غير محدودة؛ فالإنسان في الواقع، وبناء على حسابات السلامة الشخصية البحتة، ربما لا يرغب في عودة روحه إلى جسده مطلقا. ولما كان الإنسان البدائي عاجزا عن فهم الحياة فهما مجردا باعتبار أنها «إمكانية الإحساس الدائم» أو «الضبط المستمر للترتيبات الداخلية لتتوافق مع العلاقات الخارجية»، فإنه يراها شيئا ماديا ملموسا له كتلة محددة، تراها العين وتمسكها اليد، وقابلة للحفظ في وعاء وللإصابة بكدمات أو الكسر أو التحطم والتحول إلى قطع متناثرة. وليس من الضروري أن تكون الحياة بمفهومها هذا موجودة في الإنسان، بل من الممكن أن تغيب عن جسده وتستمر في منحه الحياة من خلال نوع من التناغم أو العمل من بعيد. فما دام هذا الشيء الذي يسميه حياته أو روحه سليما معافى، ظل الإنسان سليما معافى. أما إذا لحق به الأذى، فإنه يصاب هو أيضا بالأذى والمعاناة، ويموت إذا تحطم. وبعبارة أخرى، فإن مرض المرء أو موته، يفسر بأن الشيء الذي يسمى حياته أو روحه، سواء أكان داخل جسده أو خارجه، إما أصيب بأذى، أو تحطم. لكن ربما كانت هناك ظروف تجعل بقاء الروح في الجسد عرضة للأذى أكثر مما لو حفظت بعيدا عنه في مكان سري آمن. وتبعا لذلك، فإن الإنسان البدائي في مثل هذه الظروف، يخرج روحه من جسده ويودعها في بقعة آمنة على أمل أن يعيدها إلى جسده بعد زوال الخطر، فإن عثر على مكان آمن أمانا مطلق ترك روحه فيه على الدوام. وتكمن الفائدة من هذا الإجراء في أن الروح ما دامت سليمة في المكان الذي وضعها فيه، أصبح الإنسان ذاته خالدا، ولا يمكن لشيء أن يقتل جسده طالما أن حياته ليست فيه.

والدليل على هذا الاعتقاد عند البدائيين نراه في الحكايا الشعبية ومنها القصة النرويجية عن «العملاق الذي ليس له قلب في جسده،» وهي أفضل الأمثلة المعروفة. وتنتشر القصص المشابهة في جميع أنحاء العالم، ونستنتج من كثرة عددها وتنوع أحداثها وتفاصيلها التي تتضمن الفكرة الأساس أن مفهوم الروح الخارجية استحوذ على عقول الناس في مرحلة مبكرة من التاريخ. فالحكايات الشعبية هي مرآة صادقة للعالم كما يراه العقل البدائي؛ وبوسعنا أن نثق تماما بأن كل فكرة خطرت في بالهم بصفة عامة، مهما بدت سخيفة بالنسبة إلينا، كانت بالتأكيد أحد معتقداتهم. هذا التأكيد، فيما يخص القوة المفترضة لفصل الروح عن الجسد لمدة تطول أو تقصر، تدعمه إلى حد كبير مقارنة الحكايات الشعبية المعنية بمعتقدات البدائيين وممارساتهم الفعلية. وسوف نرجع إلى هذه النقطة بعد استعراض بعض العينات من الحكايات الشعبية. وسوف نختار هذه العينات بهدف شرح السمات المميزة لهذه الفئة من الحكايات وانتشار على نطاق واسع.

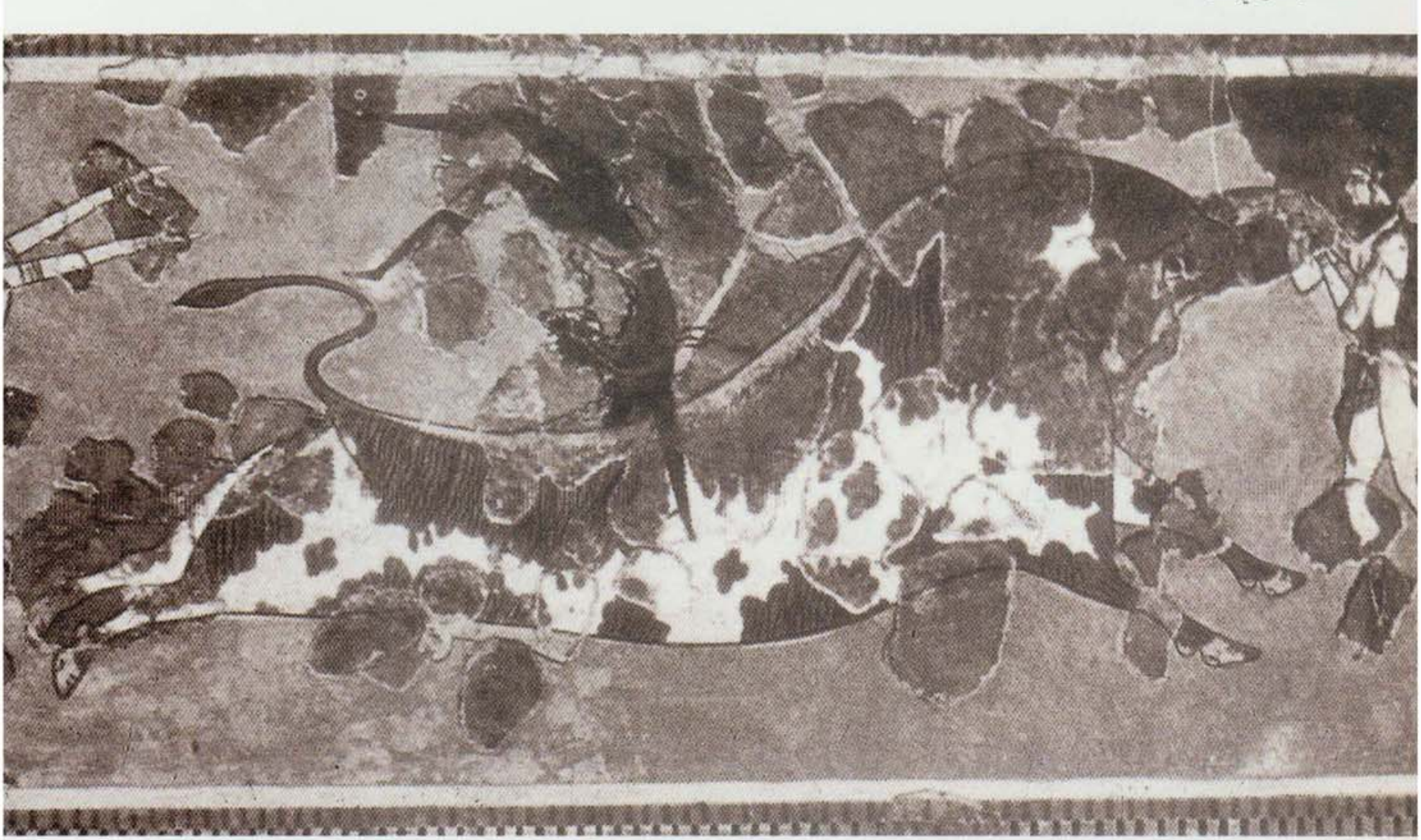
إن لقصة الروح الخارجية، قبل كل شيء، أشكالا عدة تحكيها الشعوب الآرية قاطبة من هندوستان إلى هبرايد، ومن أشكالها الشائعة ما يلي: هناك ساحر، أو عملاق، أو مخلوق خرافي آخر، خالد لا يقهر لأنه يخبئ روحه في مكان سري، لكن أميرة جميلة يحتجزها في قلعته المسحورة تحمله على أن يبوح لها بالسر فتفضي به إلى البطل الذي يبحث عن روح الساحر وقلبه وحياته ويسعى إلى موته (كما تسمى بأسماء مختلفة)، فيحطمها ويحطم الساحر في الوقت ذاته. وهكذا نرى أن قصة هندوسية تحكي كيف أن ساحرا يسمى بنتش كين Punchkin استطاع أن يأسر ملكة لاثني عشر عاما، وأراد الزواج منها بسرور، لكنها رفضته. وأخيرا جاء ابن الملكة لينقذها وخطط الاثنان معا لقتل بنتش كين. فخاطبت الملكة الساحر برقة، وتظاهرت بأنها وافقت أخيرا على الزواج منه، وقالت له: «اخبرني هل أنت بالفعل خالد؟ ألا يدركك الموت؟ هل أنت ساحر عظيم لا يشعر بآلام البشرية؟» فأجابها قائلا: «هذا صحيح. أنا لست كالآخرين. فعلى مسافة بعيدة – على بعد مئات آلاف الأميال من هنا، تقع بلاد مهجورة فيها غابة كثيفة تنمو في وسطها دائرة من أشجار النخيل، وفي وسط الدائرة ستة صناديق مليئة بالمال ومرفوعة بعضها فوق بعض، وتحت الصندوق السادس قفص صغير فيه ببغاء أخضر صغير – وعلى حياة الببغاء تعتمد حياتي؛ فإذا قتل الببغاء، مت أنا بالتأكيد». وأضاف قائلا: «من المستحيل أن يلحق أي أذى بالببغاء بسبب بعد المكان واستحالة الوصول إليه، ولأنني عهدت إلى آلاف الجن بتطويق أشجار النخيل وقتل من يقترب من المكان. لكن ابن الملكة الشاب استطاع أن يقهر كل هذه الصعاب وأن يستولي على الببغاء، فجاء به إلى باب قصر الساحر وبدأ يلعب به. ولما رآه الساحر، خرج من قصره وحاول إقناع الولد بأن يعطيه الببغاء، وقال له: «أعطني الببغاء» ثم أمسك الولد بالطائر وكسر أحد جناحيه؛ عندها سقطت ذراع الساحر اليمنى. فمد بنتش كين ذراعه اليسرى وقال: «أعطني ببغائي!» فما كان من الأمير إلا أن كسر جناح الطائر الثاني فسقطت ذراع الساحر اليسرى. وصاح الساحر: «أعطني ببغائي!» وركع على ركبتيه. فما كان من الأمير إلا أن كسر ساق الببغاء اليمنى، فسقطت ساق الساحر اليمنى، ثم كسر الأمير ساق الببغاء اليسرى فسقطت ساق الساحر اليسرى. ولم يبق منه سوى الجذع والرأس، لكنه كان لا يزال يحرك عينيه ويصيح: «أعطني ببغائي!» فقال له الولد: «خذ ببغاءك إذن!» مع هذه الكلمات قطع عنق الطائر وقذف به نحو الساحر، وفي تلك الأثناء التف رأس الساحر ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يطلق صرخة مدوية! وتحكي قصة هندوسية أيضا أن غولا سألته ابنته ذات مرة: «أين تخبئ روحك يا أبي؟» فأجابها: «على بعد ستة عشر ميلا من هذا المكان هناك شجرة تحيط بها ستة نمور ودببة وعقارب وأفاع. وفي قمة الشجرة ثعبان مخيف هائل الحجم على رأسه قفص صغير فيه طائر، وروحي في ذلك الطائر». أما نهاية الغول فشبيهة بنهاية الساحر في القصة السابقة. فعلى أثر كسر جناحي الطائر وساقيه، تسقط ذراعا الغول وساقاه، وحين ينفتل عنق الطائر، يسقط الغول ميتا. وتقول إحدى الحكايات البنغالية إن الغيلان كافة تعيش في سيلان، وأن أرواحها جميعا موجودة في ليمونة واحدة، وأن ولدا يقطع الليمونة إلى قطع عدة فتموت كل الغيلان.

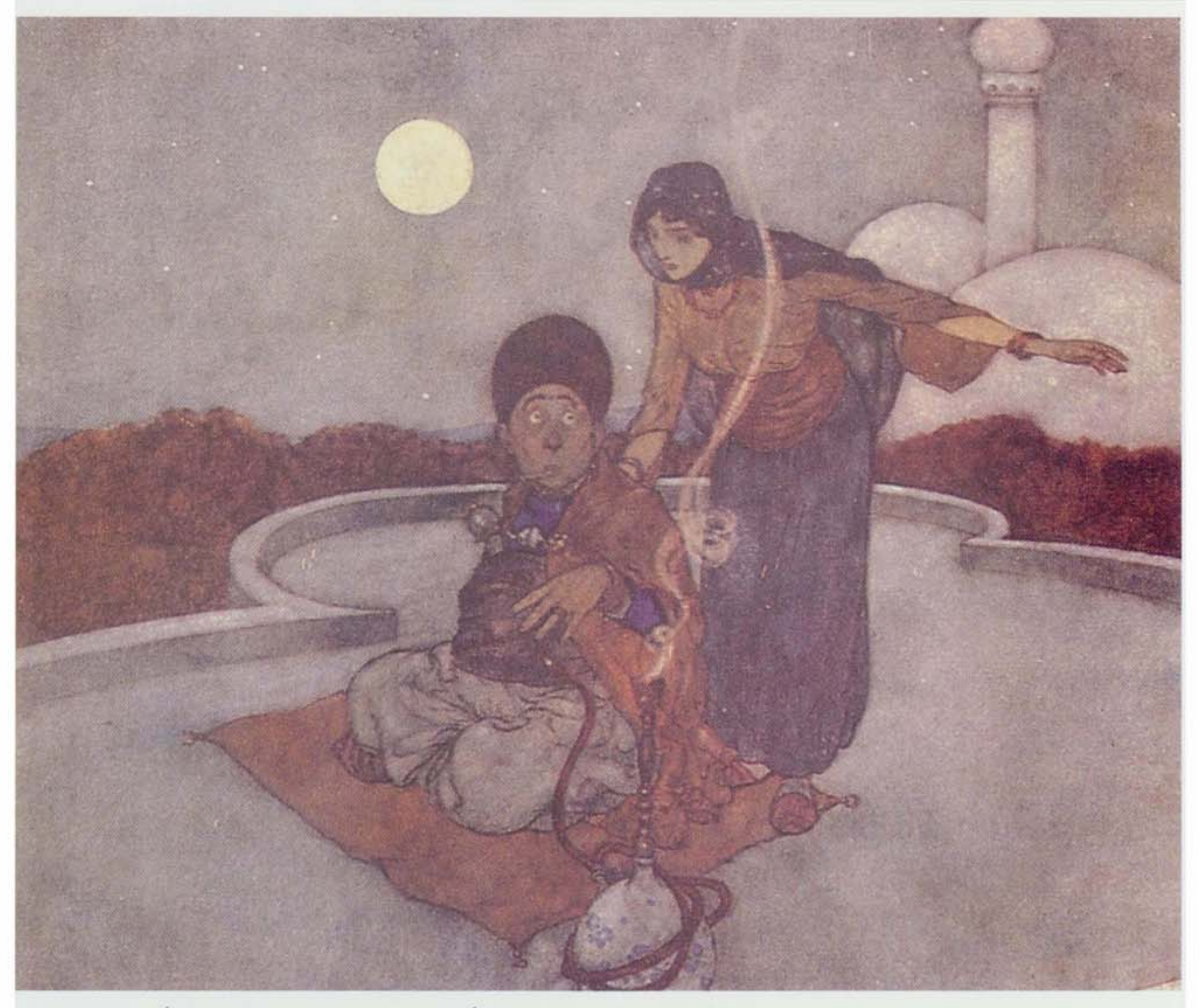
وتروي إحدى الحكايات السيامية أو الكمبودية التي ربما تكون مأخوذة من الهند، أن ثوساكان أو رافانا ملك سيلان تمكن بفضل السحر من إخراج روحه من جسده ووضعها داخل صندوق في بيته حين يخرج إلى الحرب، وبذلك كان منيعا على القتل في المعارك. ولما كان يهم في خوض معركة مع راما، أودع روحه مع راهب يدعى عين النار ليحفظها له. لذلك دهش راما حين رأى أن سهامه تصيب الملك دون أن تؤذيه. لكن أحد حلفاء راما، وكان يعرف مناعة الملك من الأذى، حول نفسه بالسحر إلى صورة الملك، ثم ذهب إلى الراهب وطلب منه تسليمه روحه. وما إن تسلمها حتى طار بها عائدا إلى راما، ففتح الصندوق وضغط على الروح بشدة حتى خرج آخر نفس من جسد ملك سيلان، وفارق الحياة.

وتروي إحدى الحكايات البنغالية أن أميرا أراد السفر إلى بلاد بعيدة زرع بيديه شجرة في فناء قصر والده وقال لوالديه: هذه الشجرة حياتي. حين ترونها خضراء يانعة تعرفان أنني بخير، وحين ترون بعض أجزائها ذابلة تعرفان أنني في ضيق. أما إذا رأيتما الشجرة كلها ذابلة تعرفان أنني قد فارقت الحياة». وتروي حكاية هندية أخرى أن أميرا انطلق في رحلاته وخلف وراءه نبتة من الشعير ومعها تعليمات توصي برعايتها ومراقبتها، فإذا أينعت النبتة، كان حيا يرزق وبخير، أما إذا ذوت، دل ذلك على أن مكروها يوشك أن يحل به. وهكذا سقطت النبتة لأن رأس الأمير قطع، وحين تدحرج رأسه، انكسرت نبتة الشعير إلى نصفين وسقطت سنبلة الشعير على الأرض.

وفكرة الروح الخارجية شائعة أيضا في الحكايات اليونانية القديم منها والجديد. فحين بلغ مليجر Meleager من العمر سبعة أيام ظهر القدر لأمه وأخبرها بأن مليجر سيموت حين تنطفئ الحطبة المشتعلة في الموقد. فما كان من الأم إلا أن انتزعت الحطبة من الموقد ووضعتها في صندوق. لكنها حين غضبت من ابنها بعد ذلك بسنوات لأنه قتل أخويه أخرجت الحطبة من الصندوق وأحرقتها، فلفظ مليجر أنفاسه الأخيرة وهو يتألم كما لو كان يحترق بالنار.

في الأسفل: جدارية مينونية من قصر نوسوس في كريت تبين رجلا يحاول حفظ توازنه على ظهر ثور في وضع أكروباتي. «جدارية توريادور» حوالي 1500 ق.م. متحف الآثار القومي، أثينا.





في الأعلى: صورة من علاء الدين والمصباح السحري.

الطرف المقابل: «خرج الملك وابتدأت المعركة». صورة من الملك بلا روح، من الغصن الذهبي، لندن، 1925.

وتروي قصة أخرى أنه كان في وسط رأس نيسوس ملك ميجارا شعرة قرمزية أو ذهبية، وأن قدره كان يكمن في تلك الشعرة فانتزاعها يؤدي إلى موته. وحين حاصر الكريتيون ميجارا، وقعت سيلا، وهي ابنة الملك، في غرام ملكهم مينوس، وانتزعت الشعرة التي تمثل حياة والدها من رأسه ففارق الحياة. ونقرأ في إحدى القصص الشعبية اليونانية الحديثة كيف كانت قوة رجل في ثلاث شعرات ذهبية في رأسه، وحين انتزعتها والدته من رأسه ضعف وجبن فقتله أعداؤه. وتروي حكاية يونانية حديثة أخرى قصة ساحر ارتبطت حياته بثلاث حمائم موجودات في بطن دب بري. فحين تقتل الحمامة الأولى، يصاب الساحر بالمرض، وحين تقتل الثانية يشتد عليه المرض كثيرا، وحين تقتل الثالثة، يفارق الحياة. وجاء في قصة يونانية أخرى من النوع ذاته، أن قوة غول كانت في ثلاثة طيور مغردة موجودة في خنزير بري. فيقتل البطل اثنين منها، ثم يأتي إلى منزل الغول فيجده مستلقيا على الأرض وهو يعاني من آلام مبرحة، فيريه الطائر الثالث؛ عندها يتوسل إليه الغول لكي يطلقه أو يعطيه إياه ليأكله، لكن البطل يكسر عنق الطائر فيموت الغول لساعته.

وفي نسخة رومانية حديثة من قصة «علاء الدين والمصباح السحري» يقول الساحر للأميرة التي يحتجزها على صخرة عائمة



"The King stepped out and the fight began"
THE SOULLESS KING



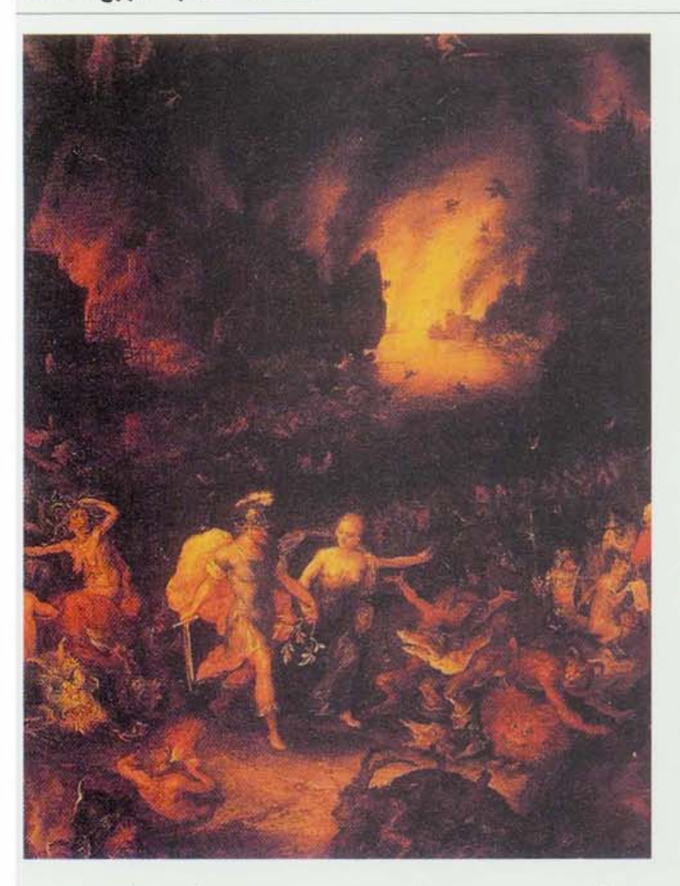
وسط المحيط إنه لن يموت أبدا. فتنقل الأميرة ذلك إلى زوجها الذي حضر لإنقاذها، فيجيبها: «هذا مستحيل! لابد من أن يكون هلاكه في شيء معين». وهكذا تسأل الأميرة الساحر فيخبرها أن في الغابة أفعوانا له سبعة رؤوس، في الرأس الأوسط أرنب فتي، وفي رأس الأرنب طائر، وفي رأس الطائر جوهرة، فإذا وضعت الجوهرة تحت وسادته، فارق الحياة. وينجح الأمير في إحضار الجوهرة، فتضعها الأميرة تحت وسادة الساحر. وما إن يضع الساحر رأسه على الوسادة حتى يطلق صرخة مريعة ويتلفت ثلاث مرات ثم يفارق الحياة.

وما أكثر القصص الشبيهة بهذه بين الشعوب السلافونية. فهناك قصة روسية تحكي كيف أن ساحرا يدعى كوشتشي الخالد خطف أميرة واحتجزها في قلعته الذهبية. لكن أميرا وصل إليها ذات يوم، فيما كانت تسير وحيدة حزينة في حديقة القلعة، فذهبت إلى الساحر، والفرحة تغمر قلبها بقرب خلاصها وهربها مع الأمير، وخدعته بمعسول الكلام وقالت له: «يا أعز أصدقائي، أخبرني أرجوك، ألن تموت أبدا؟» فأجابها الساحر: «بالتأكيد لا». فقالت: «حسنا إذن أين يكمن موتك؟ هل هو في بيتك؟» فأجابها: «هو كذلك بالتأكيد. إنه في المكنسة تحت العتبة». عندئذ أمسك الأمير بالمكنسة ورماها على النار، لكن الساحر كوشتشي ظل حيا بالرغم من احتراقها، ولم تمس النار شعرة واحدة من رأسه. فأظهرت الأميرة المخادعة الاستياء من الساحر وقالت له: «أنت لا تحبني حقا، فأنت لم تخبرني أين يكمن هلاكك. ومع ذلك فأنا

لست غاضبة، لأني أحبك من صميم قلبي». وطلبت من الساحر بهذه الكلمات المتملقة أن يخبرها بحق عن مكمن موته. فضحك وقال: «لمَ تريدين أن تعرفي؟ حسنا، سأخبرك بموقعه لأنني أحبك. في حقل معين هناك ثلاث شجرات من البلوط؛ تحت جذور أكبرها دودة فإذا عثر على هذه الدودة وقتلت، فارقت الحياة». حين سمعت الأميرة هذه الكلمات أسرعت على الفور إلى عشيقها لتخبره بما سمعت؛ فبحث حتى وجد شجرات البلوط، وأخرج الدودة وقتلها ثم أسرع عائدا إلى قلعة الساحر، لكن عرف من الأميرة أن الساحر ما زال حيا يرزق. وهكذا رجعت من جديد إلى خداع كوشتشي، وفي هذه المرة، وبعد أن رضخ إلى غوايتها أخبرها بالحقيقة قائلا: «إن موتي بعيد عن هذا المكان ولا يمكن العثور عليه في المحيط المترامي الأطراف. في ذلك البحر جزيرة، وفي الجزيرة شجرة بلوط خضراء، تحتها صندوق حديدي، وفي الصندوق سلة صغيرة، وفي السلة أرنب بري، وفي الأرنب بطة، وفي البطة بيضة، ومن يعثر على البيضة ويكسرها، يقتلني في الوقت ذاته». وبعد أن ينجح الأمير في الحصول على البيضة بالطبع، يأتي إلى الساحر الخالد والبيضة في يده، فيهمّ الوحش بقتله، لكن الأمير يبدأ في الضغط على البيضة، فيصرخ الساحر من الألم ويلتفت إلى الأميرة الخائنة التي تقف مبتسمة ويقول لها: «أليس حبي لك هو ما جعلني أبوح لك بمكان موتي؟ أهذا جزائي؟» ثم أسرع لانتزاع سيفه المعلق على الجدار وهو يتفوه بهذه الكلمات، لكن الأمير كسر البيضة قبل أن يتمكن من الوصول إلى السيف، وبذلك فارق الساحر الحياة على الفور. «وفي إحدى الروايات التي تصف موت كوستشي، يقال إنه قتل من جراء ضربة على جبينه أتته من البيضة الغامضة — وهي آخر حلقة في السلسلة السحرية التي ارتبطت بها حياته. وفي رواية أخرى للقصة ذاتها، لكنها تحكى قصة ثعبان بدلا من ساحر، تأتي الضربة القاضية من حجر صغير في صفار بيضة موجودة في بطة، والبطة في أرنب، والأرنب في حجر والحجر في جزيرة».

وما أكثر قصص الروح الخارجية عند الشعوب التيوتونية![50] فقد ورد في إحدى قصص القبائل السكسونية في ترانسيلفانيا أن شابا أطلق النار على إحدى الساحرات المرة تلو الأخرى، وفي كل مرة كانت الرصاصة تخترق جسمها لكن دون أن تصيبها بأذى، بل كانت الساحرة تضحك ساخرة منه. وصاحت به قائلة: «يا دودة الأرض السخيفة! أطلق النار ما شئت، فلن تؤذيني البتة. اعلم بأن حياتي لا تسكن في جسدي، بل في مكان بعيد بعيد، في

(50) قبائل جرمانية كانت تسكن شمالي ألمانيا واحتل قسم منها الجزر الإنجليزية «المترجم».



في الأعلى: نزول إينياس إلى العالم السفلي للتشاور مع الأموات بشأن المستقبل، كما وردت في الكتاب الرابع من الإنياذة لفيرجيل. يان بروغل الأكبر. متحف الفنون الجميلة، بودابست.

الطرف المقابل: حين ماتت زوجة أورفيوس متأثرة بلدغة ثعبان، تبعها إلى العالم السفلي وسحر سكانه بغنائه. أورفيوس وموزيته، للفنان إدموند أمان-جان.

جبل فيه بحيرة، وفي البحيرة تسبح بطة، وفي البطة بيضة، وفي البيضة يشتعل ضوء، والضوء هو حياتي. فإذا استطعت أن تطفئ ذلك الضوء، عندئذ تنتهي حياتي. لكن هذا لا يمكن أن يحدث أبدا». لكن الشاب ينجح في العثور على البيضة، ويحطمها، ويطفئ الضوء، ويطفئ معه حياة الساحرة أيضا.

وتقول إحدى الروايات الألمانية إن أحد آكلي لحوم البشر، ويدعى «جسد بلا روح» كان يخبئ روحه في صندوق موضوع فوق صخرة وسط البحر الأحمر. لكن أحد الجنود ينجح في العثور على الصندوق، فيمضي به إلى «جسد بلا روح» الذي يتوسل إليه لكي يسلمه روحه. لكن الجندي يفتح الصندوق ويخرج منه الروح ثم

يقذفها وراءه. وفي تلك اللحظة يخر آكل لحوم البشر على الأرض ميتا.

وتروي قصة ألمانية أخرى أن ساحرا كان يعيش مع فتاة وحيدين وسط غابة كئيبة موحشة واسعة. وتخشى الفتاة أن تترك وحيدة في الغابة إذا مات، لكنه يطمئنها قائلا: «يا ابنتي الغالية، أنا لا أموت، فليس في صدري قلب». ولما ألحت في سؤالها عن مكان قلبه، قال لها: «بعيدا عن هذا المكان وفي بقعة موحشة منعزلة مجهولة، هناك كنيسة عظيمة. وهذه الكنيسة محمية جيدا بأبواب حديدية ومحاطة بخندق عريض وعميق. وفي تلك الكنيسة طائر يطير، وفي ذلك الطائر قلبي. فأنا باق على قيد الحياة مادام ذلك الطائر حيا. والطائر لا يموت من تلقاء نفسه، ولا يمكن لأحد أن يمسكه، لذلك فإنني لا أموت، فهوني عليك». لكن الشاب الذي كانت الفتاة ستصبح عروسه قبل أن يسحرها الساحر ويأخذها منه تمكن من الوصول إلى الكنيسة والإمساك بالطائر. فجاء به إلى الفتاة واختبأ تحت سرير الساحر. وحين رجع الساحر كان يشكو من الألم وأخبرها بذلك، فبكت الفتاة وقالت: «واحسرتاه! إن والدي يحتضر، فإن له قلبا في صدره رغم كل شيء». فأجابها الساحر: « على رسلك يا بنيتي! أنا لا أموت. وما بي من الألم سوف يذهب عني سريعا». في تلك اللحظة ضغط الشاب تحت السرير على الطائر قليلا، فشعر الساحر بوعكة وجلس، ثم ضغط الشاب على الطائر بقوة هذه المرة، فسقط الساحر من كرسيه. وصرخت الفتاة: «والآن اضغط أكثر حتى يموت،» فأطاع عشيقها كلماتها، وحين مات الطائر كان الساحر أيضا ميتا على الأرض.

وفي القصة النرويجية «العملاق الذي ليس له قلب في جسده» يقول العملاق لأميرته السجينة: «على مسافة بعيدة جدا، هناك جزيرة في بحيرة، وفي تلك الجزيرة كنيسة، وفي تلك الكنيسة بئر، وفي تلك البئر تسبح بطة، وفي تلك البطة بيضة، وفي تلك البيضة قلبي». ويتمكن البطل في القصة من الحصول على تلك البيضة وسحقها بمساعدة حيوانات كان قد أحسن إليها، وحين ضغط البطل على البيضة صرخ العملاق صرخة تثير الشفقة وتوسل إليه كي لا يقتله. لكن البطل كسر البيضة فانفجر العملاق على الفور. وفي قصة نرويجية أخرى، يقول غول التل إلى الأميرة السجينة إنها لن تستطيع العودة إلى بيتها ما لم تعثر على حبة من الرمل مخبأة تحت اللسان التاسع في الرأس التاسع من تنين معين. وإذا وصلت حبة الرمل تلك إلى الصخرة التي تعيش فوقها الغيلان، انفجروا جميعا، وأصبحت الصخرة ذاتها قصرا من الذهب،

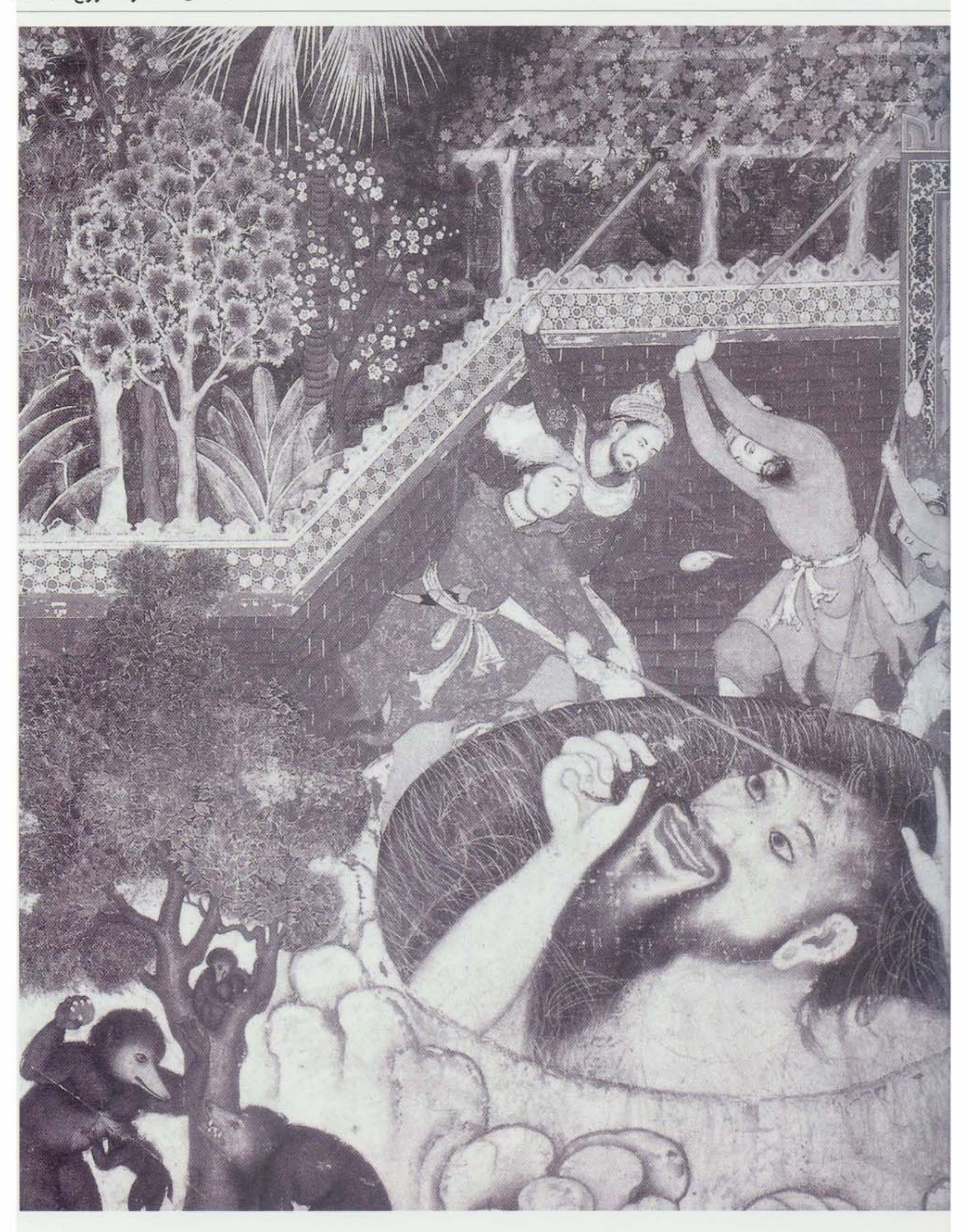
الطرف المقابل: تروي بعض الحكايات الشعبية أن عملاقا أو غولا كان يخبئ روحه في مكان سري، لكنه يتحطم حين يكتشف أمير سره.

والبحيرة مروجا خضرا». ويعثر البطل على حبة الرمل ويحملها إلى قمة الصخرة العالية حيث تعيش الغيلان، فتنفجر كلها مثلما تنبأ أحدها.

وفي قصة كلتيه سجلت في المرتفعات الغربية من اسكتلندة، تسأل سجينة العملاق الذي يسجنها أين يخبئ روحه. فيسر إليها أخيرا وبعد مراوغات عدة بموقع سره القاتل: « تحت العتبة لوح حجري، وتحت اللوح كبش مخصي، وفي بطن الكبش بطة، وفي بطن البطة بيضة، وفي البيضة تكمن روحي». وفي الصباح، وبعد أن خرج العملاق، تحايلت الملكة حتى حصلت على البيضة فسحقتها بيدها، وفي تلك اللحظة بالذات سقط العملاق ميتا وهو في طريقه إلى المنزل عند حلول الظلام.

وتروي حكاية كلتية أخرى أن وحشا خطف ابنة الملك، وأعلن حداد طاعن في السن أن هناك وسيلة واحدة إلى قتل الوحش: «في جزيرة وسط البحيرة تسكن غزالة بيضاء القوائم، رشيقة القوام، سريعة الجري، ومع أن من الضروري الإمساك بها، لكن سيخرج منها غراب، وبالرغم من ضرورة الإمساك بالغراب، سيخرج منه سمكة ترويت، وفي فم الترويت بيضة، وفي تلك البيضة تكمن روح الوحش». وتكسر البيضة كالعادة، ويموت الوحش.

ونقرأ في إحدى القصص الإرلندية كيف أن عملاقا سجن حسناء في قلعته في قمة مرتفع أبيض اللون شكلته عظام الأبطال الذين حاولوا عبثا إنقاذها. وأخيرا يكتشف البطل، بعد عدة محاولات فاشلة، أن الطريقة الوحيدة للقضاء عليه هي أن تُحك شامة على الجانب الأيمن من صدر العملاق ببيضة معينة موجودة في بطة، والبطة في صندوق مقفل ومربوط في قاع البحر. وبمساعدة بعض الحيوانات الودودة، يتمكن البطل من الحصول على البيضة فيقتل بذلك العملاق فور حكها بالجانب الأيمن من صدره. وهناك قصة مماثلة أخرى من بريتانيا تروي حكاية عملاق لا تؤثر فيه النار ولا الماء. ويقول لزوجته السابقة التي تزوجها للتو بعد أن قتل كل سابقاتها: «إنني خالد، ولا يمكن لمخلوق أن يلحق بي الأذى إلا إذا سحق على صدري بيضة موجودة في حمامة، والحمامة في بطن أرنب، والأرنب في بطن ذئب، والذئب في بطن أخي الذي يسكن على مسافة ألف فرسخ من هنا. لذلك أنا مطمئن من هذه الناحية». لكن أحد الجنود يحصل على البيضة ويسحقها على صدر العملاق



فيموت لساعته. وتروي حكاية أخرى من بريتانيا أن عملاقا كان يعيش في شجرة قديمة تنمو في حديقة قلعته، ولكي يموت، لا بد من قطع الجذر الرئيس للشجرة بضربة فأس واحدة دون إلحاق الضرر بالجذور الصغيرة الأخرى. وهذا ما ينجح البطل بإنجازه كما هي العادة، ويخر العملاق صريعا في اللحظة ذاتها.

رأينا حتى الآن فكرة الروح الخارجية كما وردت في حكايات الشعوب الآرية من الهند حتى إرلندا، وبقي علينا أن نبين أن الفكرة ذاتها ترد عادة في القصص الشعبية عند الشعوب غير الآرية. ففي قصة «الإخوان» المصرية القديمة التي كتبت في عهد رمسيس الثاني قبل الميلاد بحوالي 1300 عام نقرأ كيف سحر أحد الأخوين قلبه ووضعه في زهرة أكاسيا، وكيف سقط صريعا على الفور حين أمرت زوجته بقطع الزهرة، لكنه يبعث من جديد بعد أن يعثر أخوه على القلب المفقود في ثمرة الأكاسيا ويلقيه في كأس من الماء العذب.

وفي قصة سيف الملوك – وهي من قصص ألف ليلة وليلة – يقول الجني لابنة الملك المخطوفة: «حين ولدت، أعلن المنجمون أن القضاء على روحي سيكون على يد أحد أبناء ملوك الإنس. لذلك أخذت روحي ووضعتها في حوصلة عصفور، ثم سجنت العصفور في صندوق صغير، ووضعته في صندوق صغير آخر، وقد وضعت هذا داخل سبعة صناديق صغيرة أخرى، ثم وضعتها جميعا في سبعة صناديق كبيرة، ثم وضعت هذه الصناديق في خزانة من الرخام على حافة هذا المحيط الشاسع. فهذا الجزء بعيد عن بلاد الإنس ولا يمكن لإنسي أن يصل إليه». لكن سيف الملوك يحصل على العصفور ويخنقه، فيخر الجني صريعا على الأرض ويتحول إلى كومة من الرماد الأسود.

وفي إحدى حكايات القبيليين Kabyle [51] يعلن الغول قائلا إن روحه في بيضة بعيدة في حمامة، والحمامة في جمل، والجمل في البحر. ويستطيع البطل الحصول على البيضة ويسحقها في يديه،



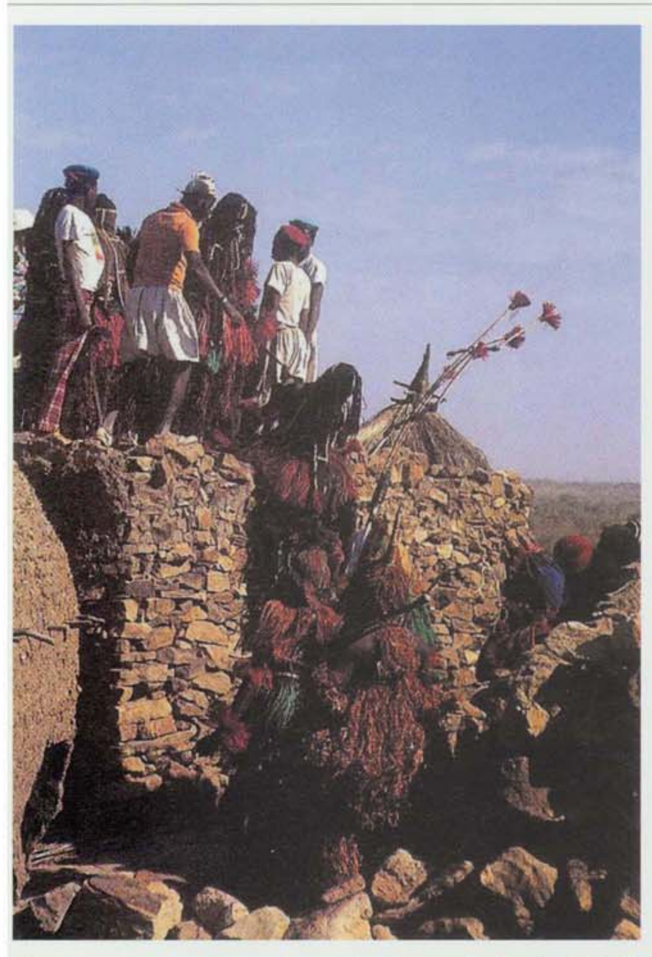
(51) القبيليون من قبائل البربر التي تسكن المنطقة الساحلية بشرقي الجزائر «المترجم».

فيموت الغول. وفي القصص الشعبية عند شعب المغيار تقوم ساحرة شمطاء باحتجاز أمير شاب يسمى أمبروز في باطن الأرض، وأخيرا تخبره بأنها تربي خنزيرا بريا في مرعى ناعم، فإذا قتل الخنزير وجدوا في بطنه أرنبا، وفي بطن الأرنب حمامة، وفي بطن الحمامة صندوق صغير، وفي داخله خنفساء سوداء وأخرى لماعة، وفي الخنفساء اللماعة تكمن روحها، أما السوداء فتحمل قوتها. ولو ماتت هاتان الخنفستان، انتهت حياتها. وحين خرجت الساحرة الشمطاء، قتل آمبروز الخنزير البري، وأخرج الأرنب، ثم أخرج الصندوق من بطن الحمامة، والخنفستين من الصندوق، فقتل السوداء وأبقى على اللماعة، لكن الساحرة فقدت قواها على الفور، وحين عادت إلى المنزل أرادت أن تأوي إلى فراشها. وبعد أن علم أمبروز منها كيف يستطيع أن يفلت من سجنه ويخرج إلى الهواء الطلق، قتل الخنفساء اللماعة، فخرجت روح الساحرة من جسدها على الفور.

وتروي حكاية قلموقية [52] أن خانا تحدى أحد الحكماء أن يظهر مهاراته من خلال سرقة جوهرة تتوقف عليها حياة الخان. فتمكن الحكيم من الحصول على الجوهرة بينما كان الخان وحراسه نائمين؛ ولم يكتف بهذا، بل قدم دليلا آخر على مهارته حين وضع على رأس الملك النائم كيسا. لكن هذا كان لا يحتمل بالنسبة إلى الملك، ففي اليوم التالي، أخبر الحكيم بأنه يستطيع أن يتغاضى عن كل شيء إلا أن يوضع كيس على رأسه فهذا أمر لا يطاق، وأمر بإعدام صديقه الظريف على الفور. فما كان من الحكيم إلا أن قذف بالطلسم الذي في حوزته إلى الأرض وقد آلمه جحود الملك هذا، وفي تلك اللحظة بالذات انبجس الدم من أنف الخان، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

وتأتينا قصة أخرى عن الروح الخارجية من نياس، وهي جزيرة تقع غربي سومطرة. يحكى ذات مرة أن ملكا وقع في قبضة أعدائه الذين حاولوا قتله لكن دون جدوى. فلا الماء يغرقه، ولا النار تحرقه، ولا الرماح الفولاذية تخترقه. وأخيرا أفشت زوجته سره. فقد كان في رأسه شعرة بقوة سلك نحاسي تتوقف عليها حياته. فلما انتزعت الشعرة من رأسه فارق الحياة على الفور. وتروي لنا حكاية من غرب إفريقيا ومن نيجيريا تحديدا أن ملكا وضع روحه في طائر صغير بني اللون يحط على شجرة باسقة بالقرب من بوابة القصر. وكانت حياة الملك مرتبطة بذلك الطائر بحيث يتمكن من يقتل الطائر من قتل الملك واعتلاء عرش المملكة. وأفشت الملكة

(52) القلموق من القبائل المغولية البوذية القاطنة في منطقة تمتد من غرب الصين إلى وادي نهر الفولغا الأدنى «المترجم».



في الأعلى: احتفال بالموت، حيث يحاول الجميع اعتلاء سقف بيت المتوفى حديثا. قبيلة دوغون في غرب إفريقيا.

الطرف المقابل: في الأساطير اليونانية، كان شارون صاحب زورق العالم السفلي الذي كان ينقل خيالات الموتى عبر نهر ستيكس. لوحة للفنان هواكيم باتريني، القرن السادس عشر، برادو، مدريد.

هذا السر إلى عشيقها الذي يقتل الطائر بسهم ويتمكن بذلك من قتل الملك أيضا واعتلاء العرش بدلا عنه.

وتحكي قصة يرويها أهل بارونغا في جنوب إفريقيا أن حياة أسرة كاملة كانت في قطة واحدة. وحين تزوجت بنت من بنات هذه العائلة واسمها تيتيشان، توسلت إلى أسرتها بأن تسمح لها باصطحاب القطة الثمينة إلى بيتها الجديد. لكنهم رفضوا قائلين: «تعلمين أن أرواحنا مرتبطة بها» وعرضوا عليها اصطحاب غزال أو حتى فيل بدلا عن القطة. لكنها لم تكن لترضى عن القطة بديلا. وهكذا حملت القطة معها وحبستها في مكان حيث لا يمكن لأحد أن



يراها. حتى زوجها لم يعلم شيئا عن القطة. وذات يوم، وبعد أن خرجت للعمل في الحقل، هربت القطة من مخبئها، ودخلت الكوخ، ولبست حلي الحرب الخاصة بالزوج، ورقصت وغنت. واكتشف بعض الأطفال القطة وهي في هذه الحال بعد أن استرعت الضجة انتباههم. وحين عبروا عن دهشتهم، زادت القطة من قفزاتها، وفوق هذا وجهت إليهم شتى الإهانات، فذهبوا إلى صاحبها وقالوا: «في منزلك شخص يرقص، وقد وجه إلينا الإهانات». فأجابهم قائلا: «كفوا عن هذا الكلام» سأضع حدا لكذبكم بسرعة». وذهب واختبأ وراء الباب واختلس النظر، وتأكد بأم عينه أن هناك قطة تقفز وتغني. فأطلق عليها النار فأرداها قتيلة. وفي تلك اللحظة سقطت زوجته على أرض الحقل حيث كانت تعمل، وقالت: «لقد قتلت في البيت!» لكن بقي لها من القوة ما استطاعت به أن تسأل زوجها ليذهب معها إلى قرية والديها، وأخذا معهما القطة الميتة ملفوفة بحصير. وتجمع كل أقاربها وأخذوا يلومونها على إصرارها على أخذ الحيوان معها إلى قرية زوجها. وما إن فتحت الحصير الملفوف ورأوا القطة الميتة حتى وقعوا جثثا هامدة الواحد تلو الآخر. وهكذا انتهت عشيرة القطة، وأغلق الزوج الثاكل بوابة القرية بغصن وعاد إلى بيته ليخبر أصدقاءه كيف قتل العشيرة بأكملها حين قتل القطة لأن حياتهم كانت تعتمد على حياة القطة.

ونصادف أفكارا مماثلة في القصص المتداولة بين الهنود في أمريكا الشمالية. فقبائل النافاهو تروي قصة مخلوقة خرافية تدعى «الفتاة التي تحولت إلى دب» تعلمت من ذئب البراري كيف تحول نفسها إلى دب. وكانت محاربة شديدة البأس ولا تقهر. وإذا خرجت إلى الحرب أخرجت أعضاءها الحيوية وخبأتها بحيث لا يمكن لأحد أن يقتلها ثم أعادتها إلى مكانها من جديد بعد انتهاء المعركة. أما هنود الكواكيولت في كولومبيا البريطانية فيحكون

الطرف المقابل: حين قص شعر شمشون، فقد قوته. شمشون ودليلة، نقش للفنان جونارد.

حكاية غولة لا يمكن قتلها لأن حياتها في غصن من أغصان الشوكران. ولما رآها ولد شجاع في الغابة، حطم رأسها بحجر، وبعثر دماغها، وكسر عظامها، وألقى بها في الماء، وظن أنه بذلك قد تخلص من الغولة. لكنه حين عاد إلى بيتها وجد امرأة جالسة فحذرته قائلة: «لا تطل المكوث الآن. أعرف أنك حاولت أن تقتل الغولة، فهي المحاولة الرابعة لقتلها. إنها لا تموت أبدا، وعادت إلى الحياة تقريبا. إن حياتها هناك في غصن الشوكران المغطى ذاك. اذهب إلى هناك، وبمجرد أن تراها أطلق سهمك على حياتها وعندئذ تموت». ولم تكد المرأة تنهي كلامها حتى جاءت الغولة تغني. لكن الولد أصاب روحها، فخرت صريعة على الأرض. وهكذا نرى أن إمكانية الحفاظ على الروح لمدة تطول أو تقصر في مكان آمن خارج الجسد، أو في الشعر موجودة في القصص الشعبية عند كثير من الأعراق. ويبقى لدينا أن نبين أن الفكرة ليست مجرد خيال صمم لزخرفة حكاية، لكنها ركن حقيقي من أركان المعتقدات البدائية التي أدت إلى نشوء مجموعة مقابلة من العادات.

ولقد رأينا في القصص الشعبية أن روح رجل أو قوته ترتبط بشعره، فإذا قُص شعره مات الرجل أو فقد قوته. فالناس في أمبوينا يعتقدون أن قوتهم في شعرهم، وأنها ستذهب عنهم إذا قص شعرهم. ويحكى أن مجرما يُعَذب في محكمة هولندية في تلك الجزيرة أصر على إنكار جريمته، لكنه اعترف على الفور حين قص شعره.

ويحكى أن رجلا كان يحاكم بتهمة ارتكابه جريمة قتل استطاع أن يتحمل أقسى ألوان التعذيب دون أن يرف له جفن إلى أن شاهد الساحر واقفا والمقص في يده. ولما سأل عن ذلك الشيء وعلم أنه سيستخدم في قص شعره، توسل إليهم ألا يفعلوا، واعترف بكل شيء. بعد ذلك كانت السلطات الهولندية تلجأ في كل الحالات إلى قص الشعر إذا فشلت وسائل التعذيب الأخرى في انتزاع الاعتراف من السجناء.

وهنا في أوروبا، كان الناس يعتقدون أن قوى الشر التي يتمتع بها السحرة والساحرات تكمن في شعرهم، وأنه لا شيء يؤثر في هذه المخلوقات الشريرة ما دامت تحتفظ بشعرها. وهكذا جرت العادة في فرنسا على حلق شعر جسد كل من يتهم بممارسة السحر والشعوذة قبل تسليمهم إلى الجلاد. وقد شهد ميليوس تعذيب عدد من الناس في طولوز،[53] وفشلت كل المحاولات لانتزاع أي اعتراف منهم إلى أن جردوا من ملابسهم وحُلق شعر أجسادهم بالكامل. عندئذ اعترفوا بارتكابهم الجريمة المنسوبة إليهم. ويحكى أن امرأة تبدو صالحة عُذبت للاشتباه بممارستها السحر، وتحملت آلامها بثبات لا يصدق، لكنها اضطرت بعد إزالة شعرها بالكامل للاعتراف بذنبها. أما المحقق الشهير سبرنغر فكان يكتفي بحلق شعر المتهم أو المتهمة بالسحر والشعوذة؛ لكن زميله كيمانوس أصر على حلق أجساد أربع وسبعين امرأة قبل إلقائهن في النار. وكان يتمتع بسلطات عالية لممارسة هذا الإجراء الصارم، على أساس أن الشيطان ذاته طمأن خادميه الكثيرين في موعظة ألقاها من منبر كنيسة نورث بيريك مؤكدا لهم أنه لا يمكن أن يصيبهم مكروه «ما دام شعرهم موجودا، وأن عليهم ألا يدعوا شعرة واحدة تسقط من جسمهم». وبالمثل، نرى في بستار، وهي مقاطعة في الهند، أنه إذا «وجد رجل مذنبا بتهمة ممارسة السحر، ضربه الناس، وحلقوا شعره على أساس أن الشعر يشكل قوة الشر عند المتهم، وكسروا أسنانه الأمامية لمنعه، كما يقال، من التمتمة بالتعاويذ. أما النساء اللواتي يشتبه بأنهن يمارسن الشعوذة، فيتعرضن للمحنة ذاتها؛ فإذا ثبتت التهمة عليهن، عوقبن بالعقاب ذاته. فتحلق أجسادهن، ثم يعلق شعرهن في مكان عام».

وعند قبيلة بيل في الهند، إذا أدينت امرأة بتهمة ممارسة السحر، وتعرضت لمختلف أنواع الضغط مثل تعليقها من قدمها ورأسها مدلى نحو الأسفل من شجرة، ووضع الفلفل في عينيها، أخذت خصلة من شعرها ودفنت في باطن الأرض « حتى تنقطع آخر حلقة بينها وبين قواها الشريرة السابقة». ونرى الشيء عينه عند قبائل الأزتك في المكسيك. فبعد أن يفرغ السحرة والساحرات من أعمالهم الشريرة، ويؤون الأوان لوضع حد لحياتهم المقيتة، يقوم شخص بالإمساك بهم وبقص شعر رؤوسهم، لتجريدهم من كل قوى الشعوذة والسحر، قبل أن يضع الموت حدا لحياتهم البغيضة».

أما من الناحية العلمية، كما هي الحال في الحكايات الشعبية، فإن المرء لا يعتقد أنه متحد مع الجوامد والنباتات برباط التوافق المادي وحسب. فالرابطة ذاتها، كما هو مفترض، قد توجد بين إنسان وحيوان، بحيث تعتمد سلامة أحدهما على سلامة الآخر، فإذا مات الحيوان، مات الإنسان أيضا. ويزداد الشبه بين العادة والحكاية قوة لأن القدرة على انتزاع الروح من الجسد وإيداعها

(53) مدينة في جنوب فرنسا[المترجم].



في الأعلى: التجديف في سينفيورد، النرويج، وفي مقدمة الزورق غصن شجرة. كان هذا أحد الخلجان التي فيها محمية الإله بولدر في عصر الفايكينغ. الرحلة السعيدة، لوحة للفنان هانز دال.

في حيوان في كلتا الحالتين، هي في الغالب ميزة يتمتع بها السحرة والساحرات.

فشعب الياكوت في سيبيريا يعتقدون أن كل ساحر أو مشعوذ يودع روحه، أو إحدى أرواحه، في حيوان ويخبئه عن العالم بأسره بحرص بالغ. وقال أحد مشاهير السحرة: «لا يستطيع أحد أن يعثر على روحي الخارجية لأنها في مكان بعيد في جبال إيجيغانسك». ولا تظهر أرواح السحرة في هيئة حيوانات تتجول بين مساكن الناس إلا مرة في السنة حين يذوب الثلج عن آخره وتسوَد الأرض. ومع أن الحيوانات هذه تتجول في كل مكان، لكن لا يراها أحد سوى السحرة. فالحيوانات القوية تسير وهي تزمجر بصوت عال، أما الضعاف فتسير بهدوء وصمت. وكثيرا ما تتقاتل الأرواح فيما بينها، والساحر الذي تمنى روحه بالهزيمة يصيبه المرض أو يفارق الحياة. أما أضعف السحرة وأجبنهم فهم الذين تتجسد أرواحهم في هيئة الكلاب، لأن الكلب لا يمنح قرينه الإنسي أية راحة أو سلام، بل ينهش قلبه ويمزق جسده. أما أقوى السحرة فهم الذين تتخذ أرواحهم الخارجية هيئة سباع، أو أيائل، أو دببة سود، أو نسور، أو خنازير برية. ومرة أخرى نجد أن قبيلة الساموييد التي تسكن طوروخنسك تعتقد أن لكل مشعوذ روحا مألوفة على هيئة خنزير

يقوده بحزام سحري. فإذا مات الخنزير فارق المشعوذ الحياة هو أيضا. وهناك روايات عن معارك تدور بين سحرة يرسلون أرواحهم للقتال قبل أن يواجه أحدهم الآخر شخصيا. وفي الملايو يعتقد الناس أن «روح المرء يمكن أن تنتقل إلى شخص آخر أو إلى حيوان، أو أن هذه العلاقة الغامضة يمكن أن تنشأ بين اثنين يعتمد مصير أحدهما على مصير الآخر اعتمادا كاملا».

وتروي الحكايات الشعبية أن حياة إنسان يمكن أن ترتبط أحيانا بحياة نبات بحيث يتبع ذبولَ النبات موتُ ذلك الشخص أو يسبقه. أما في قبيلة مبينغا في غرب إفريقيا قرب الغابون، إذا ولد طفلان في اليوم ذاته، زرع الناس شجرتين من النوع ذاته ورقصوا حولهما. ويعتقد الناس أن حياة كل واحد من الطفلين مرتبطة بحياة إحدى الشجرتين؛ فإذا ماتت الشجرة أو قطعت، مات الطفل بالتأكيد عما قريب. وفي الكاميرون أيضا يعتقد الناس أن حياة الإنسان مرتبطة روحيا بحياة شجرة. وكان زعيم أولد تاون في كالابار يخبئ روحه في أجمة مقدسة على مقربة من ينبوع ماء. فحين أقدم بعض الأوروبيين على قطع جزء من تلك الأجمة بدافع اللهو أو الجهل، غضبت الروح إلى أبعد الحدود، وهددت مرتكبي هذا العمل، بحسب رواية الملك، بأن تلحق بهم أفدح الأضرار.

ويجمع بعض البابويين روحيا بين حياة الوليد الجديد وحياة شجرة من خلال إدخال حصاة في لحائها. ويفترض أن يمنحهم ذلك سيطرة كاملة على حياة الطفل. فإذا قطعت الشجرة، فارق الطفل الحياة. واعتاد الماوريون أن يدفنوا الحبل السري في مكان مقدس بعد الولادة ويزرعوا شجرة صغيرة فوقه. وحين تنمو الشجرة تصبح علامة الحياة للطفل. فإذا نمت وأينعت، كبر الطفل وترعرع؛ أما إذا ذبلت وماتت، خشي الوالدان على طفلهما من أشد أنواع الأذى. أما في فيجي فيزرع الناس الحبل السري للوليد الذكر مع جوزة هند أو فسيلة من شجرة الخبز، ويفترض أن تصبح حياة الطفل وثيقة الارتباط بحياة تلك الشجرة.

وجرت العادة عند الدياك في لاندك وطاجان، وهما مقاطعتان في جزيرة بورنيو الهولندية، على زرع شجرة مثمرة لكل طفل اعتقادا منهم أن مصير الطفل يرتبط بمصير الشجرة. فإذا كبرت الشجرة واشتد عودها بسرعة، جرت الأمور بشكل جيد بالنسبة إلى الطفل. أما إذا بقيت الشجرة قزمية الشكل أو ذابلة، فلا ينتظر لذلك الطفل سوى المآسي.

ويقال إنه ما زال في روسيا وألمانيا وإنجلترة وفرنسا وإيطاليا بعض الأسر التي تحافظ على عادة زرع شجرة عند ولادة الطفل.



في الأعلى: رجل من الدرود في غابة بلوط بالقرب من ستونهنج وهو يحمل منجلا وشجيرة هدال. نقش للفنان فرنسيس جروز، آثار إنجلترة وويلز، 1773 – 87.

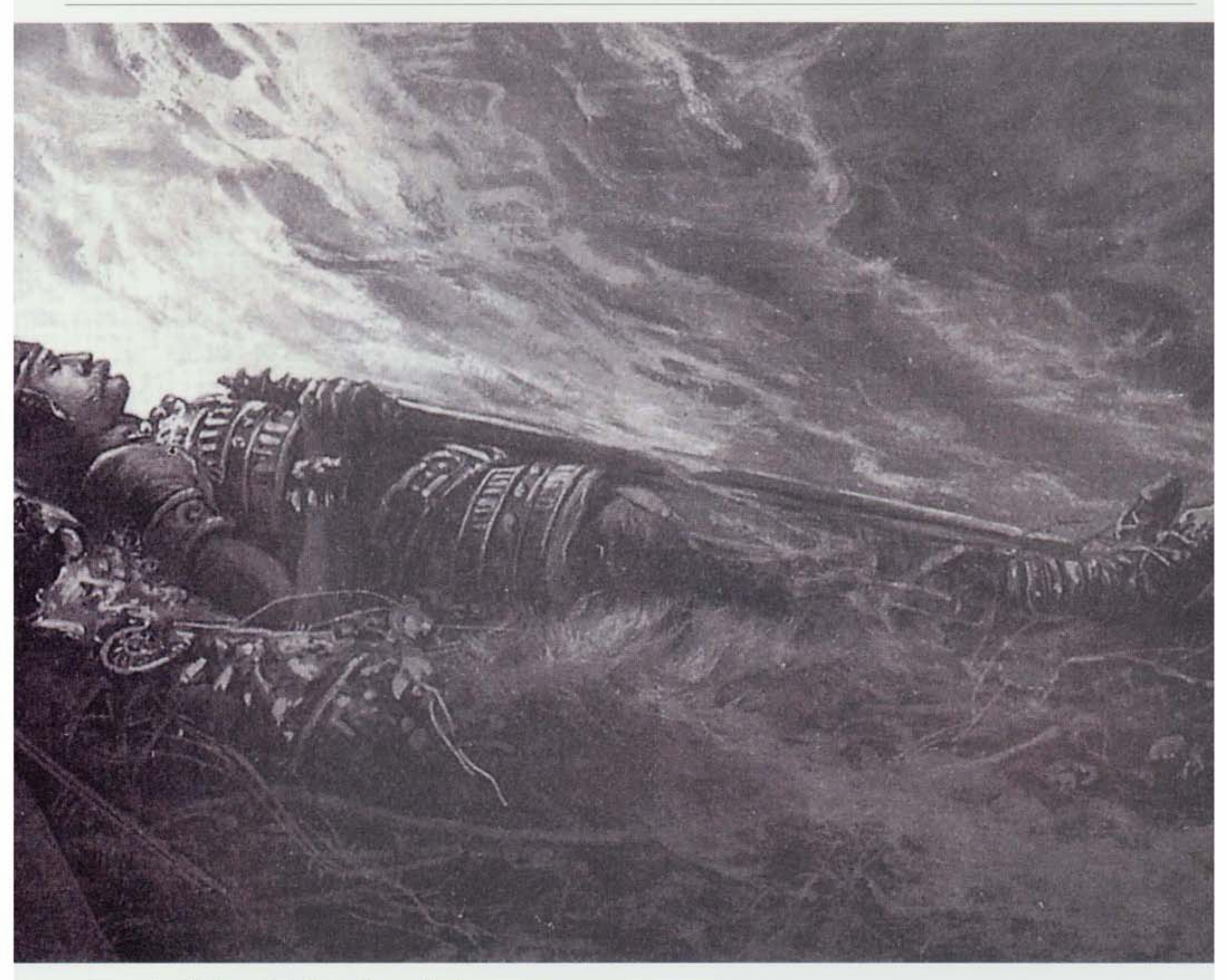
ويأمل الناس بأن تكبر الشجرة مع الطفل، فيحيطونها بكل رعاية واهتمام. وهذه العادة ما زالت متبعة في كانتون آرجاو في سويسرا حيث تزرع شجرة تفاح للمولود الذكر وشجرة إجاص للأنثى، ويعتقد الناس أن الوليد يتمتع بصحة جيدة أو يصاب بالمرض وفقا لحالة الشجرة. وفي مكلنبرغ ترمى بقايا الولادة في أسفل شجيرة، ويقال إن الوليد بعد ذلك يكبر مع الشجرة ذاتها. وبالقرب من قلعة دالوزي على مشارف إدنبرة، هناك شجرة بلوط تسمى شجرة إجْول يعتقد الناس أنها على اتصال غامض بمصير الأسرة، ويقال إنه إذا مات أحد أفراد الأسرة، أو كان على وشك الموت، سقط غصن من شجرة إجول. وهكذا حين رأى حطاب عجوز غصنا كبيرا يسقط من الشجرة في يوم هادئ ساكن من أيام يوليو عام 1874، هتف قائلا: «لقد مات اللورد الآن». بعد ذلك بقليل وصلت أنباء عن موت فوكس مول إيرل دالوزي الحادي عشر.

وتعد سكنى الروح في إحدى الأشجار فكرة أساسا في أسطورة بولدر إله النرويج. فهو إله يمكننا أن نقول إن روحه لم تكن لا في السماء ولا في الأرض، بل فيما بينهما، وهو الإله الطيب والجميل، ابن أودن الإله العظيم، وهو الحكيم والرقيق، والأقرب إلى الناس دون سائر الآلهة. أما قصة موته، كما رواها إيدا الصغير فهي كمايلي: ذات مرة رأى بولدر في أحلامه المزعجة ما ينبئ بقرب موته. فعقدت الآلهة اجتماعا وقررت حمايته من كل الأخطار. فالإلهة فريغ أخذت عهدا من النار والماء والحديد ومن كل المعادن والأحجار والتراب والشجار ومن الأمراض والسموم، ومن كل ذوات الأربع والطير والزواحف بأنها لن تؤذي بولدر. بعد ذلك

اعتقد الجميع أن بولدر أصبح منيعا، فأخذوا يستمتعون بوضعه بينهم، وكان بعضهم يرميه بالسهام، وبعضهم يضربه بفأس، وآخرون يرشقونه بالحجارة. لكن هذا كله لم يكن ليصيبه بأذى، وسر الجميع من ذلك، إلا لوكي الشرير الذي ذهب متخفيا في زي عجوز إلى الإلهة فريغ وعلم منها أن أسلحة الآلهة لا يمكنها أن تلحق الأذى بالإله بولدر لأنها أقسمت على عدم إيذائه بناء على طلب الآلهة. عندئذ سأل لوكي «هل أقسمت الأشياء كلها على عدم إيذاء بولدر؟» فأجابت: «في شرق فالهالا شجرة تسمى الهدال (الدبق) بدا لي أنها أصغر من أن تقسم على ذلك». وهكذا ذهب لوكي وقطع الهدال وأخذها إلى مجلس الآلهة.

وهناك وجد الإله الأعمى هوذر واقفا خارج الدائرة، فسأله يوكي: «لم لا تطلق السهام على بولدر؟ «فأجابه هوذر: «لأنني لا أستطيع أن أرى أين يقف، بالإضافة إلى أنني لا أملك سلاحا». عندها قال يوكي: «أفعل كما يفعل الآخرون، وكرّم بولدر كما يكرّمه الجميع، وسأخبرك أنا أين يقف، وأنت ارمه بهذا الغصن». وأصاب غصن الهدال بولدر واخترق جسمه فسقط على الأرض جثة هامدة. وكانت تلك أفدح كارثة حلت بالآلهة وبالبشر على حد سواء. ووقف الآلهة برهة صامتين، ثم علت أصواتهم وبكوه بكاء مريرا. وحملوا جثمان بولدر وجاؤوا به إلى الشاطئ حيث كانت سفينة بولدر راسية. كان اسمها رينغهورن وهي أضخم السفن على الإطلاق. وأرادت الآلهة إطلاق السفينة وإحراق جثمان بولدر فيها، لكن السفينة أبت أن تتحرك. فأرسلوا عملاقة اسمها هيروكين جاءت تركب على ذئب ودفعت السفينة دفعة هائلة اهتزت لها الأرض وتطاير الشرر من أخشاب الدحرجة. بعدها أخذ جثمان بولدر وسُجي على كومة الجنازة في سفينته. ولما شاهدت زوجته نانا هذا المنظر، انفطر قلبها حزنا وفارقت الحياة. فسجيت إلى جانب زوجها ثم أضرمت النار بهما، كما أحرق حصان بولدر أيضا بكل زينته وحليه على المنصة. وسواء أكان بولدر شخصية حقيقية أم أسطورية فقد عبده الناس في النرويج. وفي إحدى الخلجان في فيورد سوجني الجميل الذي يتغلغل في عمق الجبال النرويجية بغاباتها الصنوبرية القاتمة وشلالاتها العالية التي تتحول رذاذا قبل أن تصب في مياه الفيورد القاتمة في الأسفل، كان لبولدر محمية عظيمة، كانت تدعى «أجمة بولدر». وتتألف المحمية من أرض مقدسة يحيط بها سور من الأوتاد الخشبية، وفي وسطها معبد فسيح الأرجاء فيه صور لآلهة كثيرة، لكنها لم تكن تعبد بمثل الإخلاص والتفاني الذي كان يحظى به بولدر. كان الوثنيون يقدسون ذلك المكان إلى درجة كبيرة حتى إنه لم يكن يسمح لأحد بإيذاء غيره فيه، أو يسرق قطيعه، أو يدنس نفسه بالنساء مع أن النسوة كن يعتنين بالتماثيل في المعبد، فيوقدون النار لتدفئتها ويدهنونها بالزيت ويجففونها بالأقمشة.

ومنذ القديم كانت شجيرات الهدال محل تقديس ممزوج بالتطير في أوروبا. فقد عبدها الدرود حسبما علمنا من نص شهير وضعه بلني Pliny. فبعد إحصاء مختلف أنواع الهدال يضيف قائلا: «عند التعاطي مع هذا الموضوع، يجب ألا نهمل الإعجاب الذي يحظى به نبات الهدال (الدبق) في شتى أنحاء بلاد الغال. فالدرود، وهو الاسم الذي يطلقونه على سحرتهم، يحيطون نبات الهدال والشجرة التي ينمو عليها بقدسية لا يضاهيها شيء آخر، شريطة أن تكون تلك الشجرة شجرة بلوط. وفيما عدا ذلك، فإنهم يختارون غابات البلوط لتكون غاباتهم المقدسة، ولا يقيمون أية طقوس مقدسة بدون أوراق البلوط، حتى إن اسم الدرود في حد ذاته يمكن اعتباره تسمية يونانية مشتقة من عبادة البلوط (كلمة دروس drus تعني البلوط في اليونانية). فباعتقادهم أن كل ما ينمو على هذه الأشجار هبة من السماء، ودلالة على أن الإله اختار هذه الشجرة بنفسه. وحين يعثر عليها يجتمع الناس حولها باحتفال مهيب لندرتها. وهذا ما يفعلونه بشكل خاص في اليوم السادس من الشهر القمري، حيث يؤرخون بداية أشهرهم، وسنواتهم، والدورة المؤلفة من ثلاثين سنة عندهم، لأن القمر يكون في أوج نشاطه في اليوم السادس من الشهر القمري، ولم يقطع نصف مساره بعد. وبعد الانتهاء من الاستعدادات لتقديم الأضحية وإقامة الاحتفال تحت الشجرة، يقدمون لها الاحترام والتبجيل بوصفها «الشافي الشامل،» ثم يأتون بثورين أبيضين لم تربط قرونهما من قبل قط.



في الأعلى: بولدر وهو جثة هامدة، بعد إصابته بغصن الهدال، وهو النبات الوحيد الذي لم يكن عنده مناعة منه. صورة من كتاب دوروثي هاردي «الأسطورة ورجال الشمال»، لندن.

الطرف المقابل: لوكي: المكر والخداع مجسدا، وهو مكبل بالأغلال بعد تدبيره عملية قتل بولدر. كيركبي ستيفن، إنجلترة.

فيتسلق الشجرة كاهن يرتدي ثوبا أبيض ويقطع شجيرة الهدال بمنجل من ذهب فيتلقاها الناس بقطعة قماش بيضاء. ثم ينحرون الأضحيتين وهم يبتهلون إلى الإله أن يتم نعمته على من وهبها إليهم. ويعتقد هؤلاء الناس أن جرعة من نبات الهدال تجعل الحيوانات العقيمة تحمل، وأن النبات علاج لشتى أنواع السموم».

وبحسب معتقدات الدرود التي نقلها بليني فإن كل ما ينمو على شجرة البلوط هبة من السماء، ودلالة على أن الشجرة قد اختارها الله بالذات. وهذا الاعتقاد يفسر عدم استخدام الدرود السكين العادية في قطع الهدال، واستخدامهم سكينا ذهبية، والسبب في عدم ملامسته للأرض بعد قطعها. فربما رأوا أن النبات السماوي قد يتدنس، ويفقد ميزته العظيمة إذا ما لامس الأرض. ويعزو الناس في فرنسا والسويد مزايا خاصة لنبات الهدال الذي يقطف في منتصف الصيف. وتنص القاعدة في السويد على وجوب قطف الهدال عشية ليلة منتصف الليل حين يكون القمر والشمس في برجي قوتهما». وفي ويلز أيضا، كان الاعتقاد السائد أن غصنا من الهدال يقطف ليلة عيد القديس يوحنا (ليلة منتصف الصيف)، أو في أي وقت قبل ظهور الثمار، يجلب للنائم الرؤى الجيدة منها

عيد منتصف الصيف العظيم في اسكندنافيا. أما الحدث الثاني من الأسطورة، وهو إحراق جثمان بولدر فوق النار فله ما يماثله في نار الاحتفالات التي توقد، أو كانت توقد حتى عهد قريب، في الدانمارك والنرويج والسويد عشية منتصف الصيف. ولا نعرف في الحقيقة إن كان الناس يحرقون أية دمى في نيران الاحتفالات هذه أم لا، لكن من الممكن التخلي عن إحراق الدمية بسرعة بعد نسيان معناها. فاسم «نار بولدر»، وهو الاسم الذي كان يطلق قديما على نيران منتصف الصيف في السويد، يبعد أي شك بعلاقتها ببولدر، كما يزيد احتمال إحراق قرين حي لبولدر أو دمية تمثله سنويا في تلك النيران. كان منتصف الصيف موسما مقدسا لبولدر، كما أن الشاعر السويدي تيغنر، ربما تبع في وصفه إحراق بولدر في منتصف الصيف، تقليدا قديما يفيد بأن حياة الإله الطيب انتهت قبل أوانها في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي.

وهكذا رأينا أن للأحداث الرئيسة في أسطورة بولدر ما يقابلها في أعياد النيران التي يحتفل بها الفلاحون في أوروبا التي نعرفها والتي سبقت المسيحية بزمن طويل، ومن الممكن تفسير التظاهر بإلقاء الأضحية التي اختيرت بالقرعة في نار بلتاين، ومعاملة الرجل الذي سيصبح الذئب الأخضر معاملة مماثلة في نار منتصف الصيف في نورمندي، بأنها بقايا عادة قديمة كانت تقوم على إحراق أناس أحياء في تلك المناسبات. أما الثوب الأخضر الذي يرتديه الذئب، ومعه الكسوة المصنوعة من أوراق الأشجار التي يرتديها الشاب الذي يخرج من نار منتصف الصيف، فترمز على ما يبدو إلى أن الأشخاص الذين قضوا في تلك الأعياد كانوا في هيئة أرواح الشجر أو آلهة النبات.

نستنتج من كل ما سبق، وبشكل معقول، أن في أسطورة بولدر من جهة، وأعياد النار وعادة قطف الهدال من جهة أخرى، النصفين المكسورين والمنفصلين للأصل بكامله. وبعبارة أخرى، بوسعنا أن نفترض، وبدرجة معينة من الاحتمال، أن موت بولدر لم يكن مجرد أسطورة، أي وصفا لظواهر مادية في صور مستعارة من حياة البشر، بل كان في الوقت ذاته القصة التي يرويها الناس لتفسير إحراقهم شخصا يمثل الإله وقطف الهدال في احتفال مهيب كل سنة. وإذا صح ظني، فإن قصة النهاية المفجعة لبولدر شكلت النص للدراما المقدسة التي ظلت سنة بعد أخرى تقوم بدور الطقس السحري الذي يجعل الشمس تشرق، والأشجار تنمو، والمحصول يكثر، ويحرس الإنسان والحيوان من أعمال الجنيات والمخلوقات الخرافية المؤذية وأعمال الساحرات والسحرة.



في الأعلى: كان الورق الأخضر ينبت من وجه الرجل الأخضر في الأساطير الإنجليزية. كاتدرائية نوريتش، حوالي القرن الرابع عشر.

الطرف المقابل: نسخة من جداريات مدينة تيوتيواكان في المكسيك، تبين الدار الآخرة كما وصفت في تلالوكان: جنة الموتى. متحف الأنثروبولوجيا الوطني، مكسيكو سيتي.

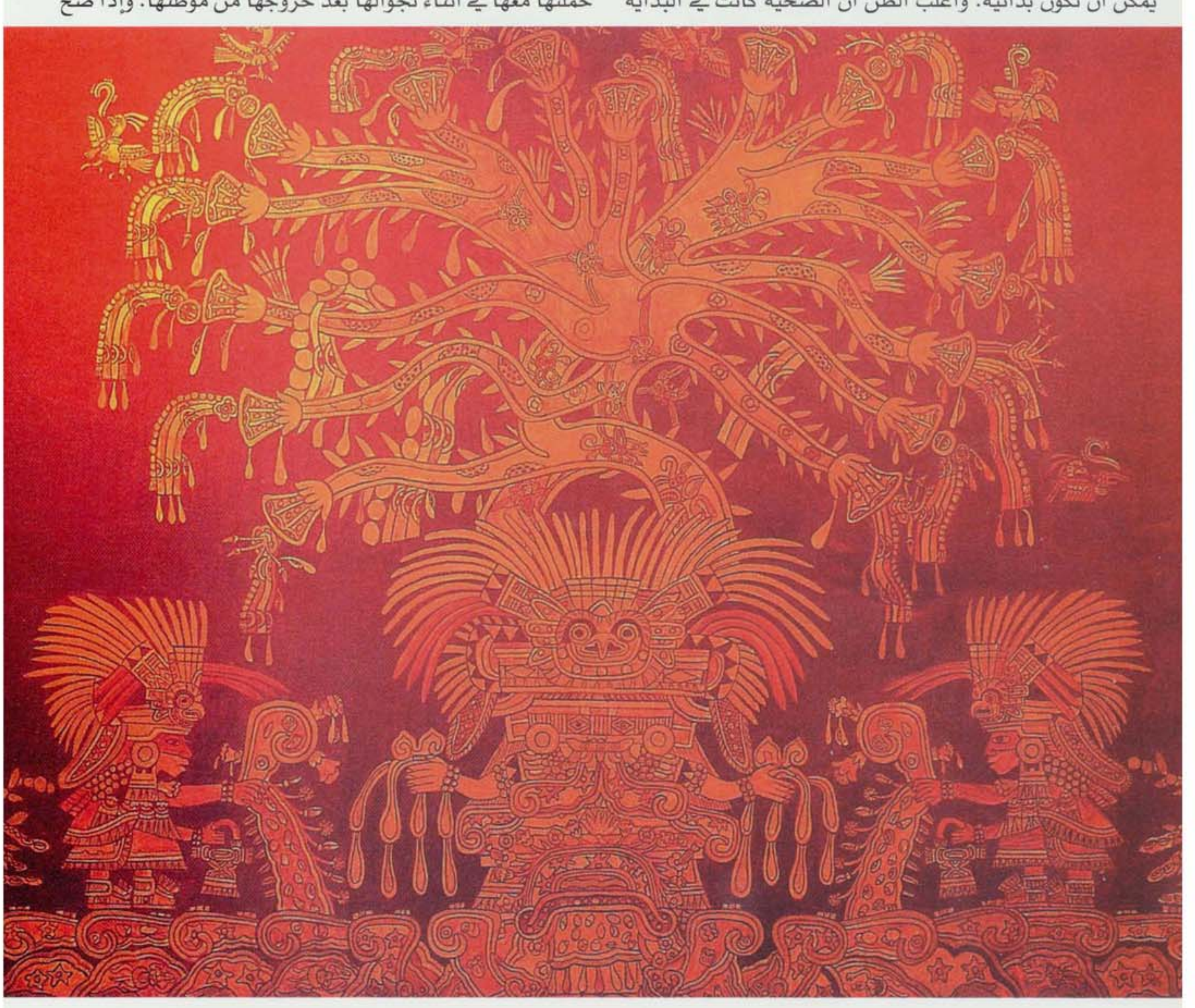
والسيئة إذا وضع الغصن تحت وسائدة النائم. ويعد الهدال أحد النباتات الكثيرة التي يعتقد أن مزاياها السحرية أو الطيبة تبلغ ذروتها حين تبلغ الشمس ذروة مدارها في أطول أيام السنة. وهكذا يحق لنا أن نستنتج أن الهدال المقدس، كما يراه الدرود الذين يقدسونه إلى حد كبير، ربما يكتسب ضعفي مزاياه الغامضة في يوم الانقلاب الشمسي في يونيو، وأنهم يقطفونه بانتظام في حفل مهيب عشية منتصف الصيف.

ومهما كان الأمر، فإن نبات الهدال، الذي استعمل أداة لقتل بولدر، كان يقطف بشكل منتظم لصفاته السحرية عشية منتصف الصيف في اسكندنافيا، موطن بولدر. وينمو الهدال عادة على أشجار الإجاص، والبلوط، والأشجار الأخرى في الغابات الكثيفة الرطبة في أرجاء السويد التي تميل نحو الاعتدال. وهكذا نرى أن واحدا من الحدثين الأساسين في أسطورة بولدر يتكرر في

وباختصار، فإن الحكاية جزء من فئة أساطير الطبيعة التي يدعمها الناس بالطقوس. فهنا، كما كانت الحال غالبا، تنزل الأسطورة من السحر منزلة النظرية من التطبيق.

لكن إن كانت الضحايا – أي من هم بمثابة الإله بولدر – الذين قضوا حرقا في الربيع أو في منتصف الصيف، قتلوا باعتبارهم تجسيدا حيا لأرواح في الأشجار أو آلهة للنباتات، فإن بولدر ذاته كان بالتأكيد روحا في شجرة، أو إله النبات. لذلك يجدر بنا أن نحدد، إن استطعنا، نوع الشجرة أو الأشجار التي أحرق ممثلوها في أعياد النار لأن الضحية التي قضت حرقا لم تكن بالتأكيد تمثل عامة النبات. ففكرة النبات بصفة عامة هي فكرة مجردة لا يمكن أن تكون بدائية. وأغلب الظن أن الضحية كانت في البداية تمثل نوعا بعينه من الأشجار المقدسة. لكننا لا نجد في الأشجار الأوروبية كافة شجرة تنطبق عليها هذه الميزة مثلما تنطبق على شجرة البلوط لتكون الشجرة المقدسة عند الشعوب الآرية. وقد رأينا أن عبادتها موثقة عند سائر فروع العرق الآري في أوروبا؛ من هنا نستنتج أن الشجرة كانت تحظى باحترام الآريين جميعا قبل تفرقهم، وأن موطنهم البدائي كان في منطقة غنية بغابات البلوط.

والآن، إذا أخذنا باعتبارنا الطبيعة البدائية والتشابه الصارخ بين أعياد النار التي تحتفل بها فروع العرق الآري في أوروبا وجدنا أن هذه الأعياد تشكل جزءا من الطقوس الدينية المشتركة التي حملتها معها في أثناء تجوالها بعد خروجها من موطنها. وإذا صح





في الأعلى: لا تزال غابات البلوط القديمة في وادي أيبر في شمال ويلز مثلما كانت في العصر الحديدي.

ظني، فإن إحراق رجل حي يمثل الروح في الشجرة يمثل إحدى السمات البارزة لأعياد النار البدائية تلك. وبالنظر إلى مكانة شجرة البلوط في أديان الشعوب الآرية، نفترض أن الشجرة التي كانت تمثل في أعياد النار لا بد من أن تكون في الأصل شجرة البلوط. هذه النتيجة بالنسبة إلى الكلتيين والليتوانيين، لا تقبل الجدل، لكنها مثبتة بقدر كبير من المحافظة الدينية سواء بالنسبة إليهم أو إلى الألمان. فأول طرائق إشعال النار التي عرفها الإنسان هي حك قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى حتى تشتعلا. وما زالت هذه الطريقة متبعة في أوروبا عند إشعال النيران المقدسة مثل نار الحاجة، وعلى الأرجح أنها كانت تستعمل من قبل في سائر أعياد النار موضع المناقشة.

وقد يتطلب الأمر أحيانا إشعال نار الحاجة أو أنواع النيران المقدسة الأخرى بطريقة حك قطعتين من خشب معين. وحين يوصف ذلك النوع من الخشب، سواء عند الكلتيين أو الألمان أو السلافيين، يبدو أنه البلوط. لكن إذا كانت النار المقدسة توقد عادة من احتكاك خشب البلوط، فلا بد من أن تكون المادة ذاتها هي التي تغذي النار أصلا. وفي الواقع، فإن نار فستا الخالدة في روما كانت على ما يبدو تُغذى بخشب البلوط، وإن البلوط كان الحطب المستعمل في النار الأبدية التي كانت توقد تحت شجرة البلوط المقدسة في محمية روموف الليتوانية العظيمة. ونستدل من تمسك الفلاحين في مناطق كثيرة من ألمانيا بإشعال نار الأكواخ في يوم منتصف الصيف من حطبة بلوط ثقيلة أن خشب البلوط هو الحطب الذي كان فيما سبق يوقد في نيران منتصف الصيف.

وتوضع الحطبة بشكل معين بحيث يكون اشتعالها بطيئا ولا تتحول إلى فحم حتى نهاية العام. بعدئذ، وفي منتصف الصيف التالي، يستبعد ما تبقى من الجمر المتفحم من الحطبة القديمة لإفساح المكان للحطبة الجديدة، ويمزج مع بذور الذرة أو ينثر في أرجاء الحديقة. ويعتقد أن هذا يحرس الطعام الذي يطبخ على الموقد من السحر، ويجلب السعادة إلى البيت، ويقوي نمو المحصول، ويحميه من الحشرات والهوام. وهكذا نرى أن العادة لا تختلف عما رأيناه في حطبة الميلاد التي تؤخذ من أشجار البلوط في أجزاء من ألمانيا وفرنسا وصربيا وأجزاء أخرى من المناطق السلافونية. والنتيجة العامة هي أن الآريين القدامى كانوا في تلك الاحتفالات الدورية أو العارضة يشعلون النار في خشب البلوط المقدس ويغذونها به.

لكن إذا كانت النار في هذه الطقوس المقدسة توقد دائما من خشب البلوط، فإن كل من أحرق فيها باعتباره تجسيدا للروح في الشجرة لا يمكن أن يمثل إلا البلوط. وهكذا نجد أن الشجرة كان تحرق بشكل مضاعف: فقد كان خشب الشجرة يحترق بالنار، ومعه يحترق رجل بصفته تجسيدا لروح البلوط. ومما يعزز هذه النتيجة التي خلصنا إليها بالنسبة إلى الآريين الأوربيين وفي انطباقها بشكل خاص على الشعوب الاسكندنافية أن نبات الهدال يمثل عند هذه الشعوب إحراق الضحية في نار منتصف الصيف. فقد رأينا أن العادة جرت عند الاسكندنافيين على قطف الهدال في منتصف الصيف. لكن ليس في هذه العادة ما يدلنا على ارتباطها بنيران منتصف الصيف التي تحرق فيها دمى أو بشر أحياء. وحتى لو كانت النار توقد في الأصل دائما من خشب البلوط، فما الداعي لقطف الهدال؟

تقدم لنا أسطورة بولدر الحلقة الأخيرة التي تجمع بين عادات منتصف الصيف المتمثلة في قطف الهدال وإشعال نار الاحتفالات التي لا يمكن فصلها عن العادات موضع النقاش. وتوحي الأسطورة باحتمال وجود صلة حيوية بين نبات الهدال والممثل البشري للبلوط الذي كان يحرق بالنار. فطبقا لما جاء في الأسطورة، فإن بولدر ما كان ليقتله شيء لا في الأرض ولا في السماء سوى نبات الهدال. وما دام نبات الهدال على البلوط، لم يكن بولدر خالدا وحسب، بل ومنيعا أيضا. والآن، إذا افترضنا أن بولدر كان شجرة البلوط، اتضح لنا أصل الأسطورة. فالهدال يعد مقر الحياة في البلوطة، وما دام سليما من الأذى، لا شيء يستطيع أن يخدش شجرة البلوط ناهيك عن قتلها. فالبدائيون يستوحون فكرة كون الهدال مقر الحياة من ملاحظتهم أن شجرة البلوط هي من الأشجار النفضية (أي التي تسقط أوراقها في الخريف)، أما الهدال الذي ينمو عليها فهو دائم الخضرة. وفي الشتاء، كان عبدة الأشجار يرون في الأوراق الخضر اليانعة بين الأغصان العارية علامة على أن الحياة المقدسة التي توقفت عن بعث الحياة في الأغصان لا تزال مستمرة في الهدال، مثلها مثل قلب النائم الذي يستمر في النبض وجسده جامد لا حراك فيه. وهكذا نرى أنه إذا أزفت ساعة قتل الإله، أي إذا حانت ساعة إحراق الشجرة المقدسة، كان لا بد من البدء بنزع الهدال. فما دام الهدال سليما معافى، بقيت الشجرة (كما يعتقد بعضهم) منيعة لا يمكن إيذاؤها، وكل ضربات الفؤوس والسكاكين ترتد دون أن تحدث أي أثر في سطحها. لكن ما إن ينزع قلب البلوطة عنها — أي نبات الهدال — فإن الشجرة تستسلم وتسقط. ولما أصبحت شجرة البلوط فيما بعد تُمثل برجل حي، كان من المنطقي افتراض أن الرجل، مثله مثل الشجرة التي يمثلها، لا يمكن أن يقتل أو يجرح ما دام الهدال سليما معافى. وهكذا كان قطف الهدال علامة ودليلا على موته في الوقت عينه.

ووفق هذا التفسير نرى أن بولدر المنيع لم يكن سوى تجسيد لشجرة البلوط التي تحمل الهدال. ومما يعزز هذا التفسير ما يبدو أنه اعتقاد إيطالي قديم مفاده أنه لا يمكن القضاء على الهدال لا بالنار ولا بالماء. فإذا كان النبات الطفيلي منيعا على الأذى، سهل الافتراض بأنه ينقل منعته إلى الشجرة التي ينمو عليها مادام الاثنان متلاصقين. وإن شئنا أن نضع الفكرة في قالب أسطوري، ذكرنا كيف أن إله شجرة البلوط الطيب أودع حياته في نبات الهدال الدائم الذي ينمو بين الأغصان، وكيف أن الإله بالذات ظل منيعا لم يصبه مكروه مادام الهدال في مكانه على الشجرة، وكيف أن عدوا ماكرا استطاع آخر الأمر أن يفشي سر منعة الإله، فنزع الهدال عن البلوطة وبذلك قتل الإله — البلوطة ثم أحرق جثته بعدئذ في نار ما كانت لتؤثر فيه لو أن الطفيلي العصي على النار ظل في موقعه بين الغصون.

لا شك في أن فكرة مخلوق تكمن حياته، إن جاز لنا التعبير، خارج جسده تبدو غريبة لكثير من القراء، لكننا شرحناها شرحا مفصلا من خلال الأمثلة المستمدة من القصص والعادات التي سقناها فيما سبق. فمن خلال الافتراض بأن هذه الفكرة هي تفسير للعلاقة بين بولدر ونبات الهدال نفترض وجود مبدأ محفور في ذهن الإنسان البدائي. أما الأهمية الأخرى لنبات الهدال بصفته الغصن الذهبي فليست بعيدة عن هذا، وسوف نعرضها في فصلنا الأخير.



الفصل الحادي عشر

الغصن الذهبي



في الأعلى: كبير الدرود في ردائه القضائي. حفر مائي من القرن التاسع عشر.

الطرف المقابل: نبات الهدال، كان الدرود يعتبرون «الغصن الذهبي» مقدسا لاسيما إذا عثر عليه فوق شجرة بلوط.

نستنتج مما تعلمنا عن الروح الخارجية أن الاعتقاد بوجود حياة بولدر في نبات الهدال الذي ينمو على شجرة مقدسة ينسجم تماما مع طبيعة التفكير البدائي. وقد يبدو أن ثمة تناقضا في هذا. فإذا كانت حياته في الهدال، فيفترض مع ذلك أن يكون قد قتل بضربة من النبات. أما إذا اعتقدنا أن حياة امرئ مجسدة في شيء معين يرتبط وجوده بوجود الإنسان ذاته ارتباطا لا انفصام له، بحيث إذا هلك ذلك الشيء هلك هو أيضا، فإن من الممكن عندئذ أن يعد الشيء بالذات بمثابة حياته أو مماته سواء بسواء، وأن نتحدث عنهما كأنهما شيء واحد مثلما يحدث في الحكايات الخرافية.

فإذا كان موت رجل في شيء معين، كان من الطبيعي جدا أن يقتل بضربة منه. وجاء في الأساطير أن كوستشي الذي لا يموت قتل بضربة من البيضة أو الحجر الذي يحتوي على سر حياته أو موته، وأن الغيلان تنفجر حين تحمل حبة رمل معينة – والتي تحتوي بلا شك على حياتها أو موتها – فوق رؤوسها، وأن الساحر يموت حين يوضع الحجر الذي يحتوي على حياته أو موته تحت وسادته، وأن بطل التتار يتلقى تحذيرا من أنه قد يقتل بالسهم الذهبي أو السيف الذهبي الذي يحتوي على حياته.

أما فكرة أن حياة شجرة البلوط تكمن في نبات الهدال، فناتجة من ملاحظة احتفاظ الهدال الذي ينمو على شجرة البلوط بخضرته في الشتاء، في حين أن شجرة البلوط ذاتها تتعرى من أوراقها. لكن وضع النبات الذي لا يخرج من الأرض، بل من جذع الشجرة وأغصانها، يمكن أن يثبت هذه الفكرة. وربما ظن الإنسان البدائي أن روح البلوط – مثلها مثله شخصيا – ربما سعت إلى إيداع نفسها في مكان آمن، ولهذا وقع اختيارها على نبات الهدال. فبما أنه ليس من الأرض ولا من السماء، كان بالإمكان الافتراض بأنه بعيد عن الأذى، وبوسعنا أن نفهم القاعدة السائدة في الطب الشعبي قديما وحديثا التي تحظر أن تمس غصون الهدال الأرض. فإذا مست غصونه الأرض فقدت قدرتها على شفاء المرضى. ولعل هذا بقايا معتقدات قديمة تقضي بعدم تعريض النبات الذي تتركز

فيه حياة شجرة مقدسة إلى خطر التماس مع الأرض.

وتروي إحدى الأساطير الهندية، وفيها مقاربة مع أسطورة بولدر، أن إندرا أقسم للشيطان ناموسي على ألا يقتله في الليل ولا في النهار، ولا بعصا ولا بسهم، ولا براحة اليد ولا بقبضتها، ولا بما هو رطب ولا بما هو جاف. لكنه قتله فجرا بأن بلله بزبد البحر. وزبد البحر هو من الأشياء التي قد يختارها البدائي للسلامة. فلا عجب إذن أن يكون زبد النهر طوطما لإحدى العشائر في الهند.

وبالمثل نرى أن الاعتقاد بأن التطير الملازم لشجرة الهدال الذي يعزى لعدم نموها على الأرض يدعمه تطير مشابه يدور حول شجرة الدردار الجبلي أو غبيراء الحابلين (أو شجرة السمن). وفي بلاد الجوت [54] يعتقد أن لشجرة السمن التي تنمو من قمة شجرة أخرى «فعالة جدا في مقاومة السحر إذ تعجز الساحرات عن التأثير فيها لأنها لا تنمو من الأرض. أما إذا أريد لمفعولها أن يبلغ أقصى درجاته، وجب أن تقطع في عيد الصعود». وتوضع شجرة السمن فوق الأبواب لدرء أذى الساحرات. وفي السويد والنرويج، يعتقد الناس بوجود قوى سحرية «لشجرة السمن الطائرة» أي شجرة السمن التي لا تنمو على الأرض كما هو معتاد، بل فوق شجرة أخرى، أو على حواف الأسقف، أو في شقوق الصخور حيث



(54) من القبائل الجرمانية التي سكنت شمالي ألمانيا «المترجم».

تنمو من بذرة رماها الطير. ويقال إن على من يخرج في الظلام أن يصطحب قطعة من «السمن الطائر» يمضغها لكي لا يتعرض إلى خطر السحر الذي قد يحول دون تحركه من مكانه.

وعلى غرار اعتقاد الاسكندنافيين بأن لشجرة السمن الطفيلية تأثيرا معاكسا للسحر والشعوذة، ما زال عامة الناس في ألمانيا يرون في شجرة الهدال الطفيلية وقاية من السحر، كما يعمد السويديون إلى ربط نبتة هدال قطفت عشية منتصف الصيف إلى أسقف المنازل، وإصطبلات الخيل، وزرائب البقر، اعتقادا منهم أن هذا يفقد الغول قدرته على إلحاق الأذى بالإنسان أو الحيوان.

وفي المعتقدات الاسكتلندية الخاصة بالتطير ما يعزز فكرة أن نبات الهدال لم يكن أداة قتل بولدر وحسب، بل كان يحتوي على حياته أيضا. وتروي الحكايات أن مصير أسرة هاي الإيرولية وهي عزبة في بيرتشير بالقرب من فيرث أف تاي ارتبط بنبتة هدال كانت تنمو فوق شجرة بلوط ضخمة. وروى أحد أعضاء أسرة هاي الاعتقاد القديم على النحو التالي:

«لقد طوى النسيان مسألة العلامات المميزة بالنسبة إلى الأسر في البلاد المنخفضة. ولكن يبدو من مخطوطة قديمة، ومن تقاليد عدد من المسنين في بيرتشير، أن الهدال كان العلامة المميزة لأسرة هاي. وفي منطقة إيرول، وعلى مقربة من حجر فولكون، كانت هناك شجرة بلوط عظيمة أكل الدهر عليها وشرب، ينمو فوقها عدد كبير من شجيرات الهدال. ويقال إن كثيرا من الأساطير والتعاويذ حيكت حول تلك الشجرة، حتى قيل إن تاريخ أسرة هاي مرتبط بوجودها. ويعتقد الناس أن في غصن الهدال، إذا ما اقتطع عشية عيد جميع القديسين بخنجر جديد، وبعد الدوران حول الشجرة ثلاث مرات باتجاه الشمس، والتمتمة بتعويذة خاصة، وقاية أكيدة من السحر بكل أنواعه، ومرشد لا يخطئ في يوم المعركة. ويعتقد الناس أنهم إذا وضعوا رذاذا منه جُمع بالطريقة ذاتها في مهد الأطفال منع الجنيات من تحويلهم إلى أبناء الجن. وأخيرا أكد بعضهم أنه حين يموت جذر شجرة البلوط، يظهر العشب في موقد إيرول، ويحط الغراب في عش الصقر. ويقال إن أشد الأعمال جلبا للنحس عند أحد أفراد أسرة هاي هي قتل صقر أبيض وقطع غصن من شجرة البلوط الخاصة بإيرول. ولم أستطع أن أعرف متى تحطمت الشجرة العجوز، فقد بيعت العزبة إلى أغراب عن أسرة هاي، وقيل بالطبع إن شجرة البلوط المصيرية قطعت قبل ذلك بوقت قصير». وذكرت هذه المعتقدات الخرافية في قصائد تنسب عادة إلى توماس النظّام:

إذا نما الهدال فوق بلوطة إيرول
ظلت البلوطة صامدة قوية
وكان الحظ حليف أسرة هاي،
ولم يجفل صقرها الرمادي
أمام الرياح العاتية.
أما إذا جفت البلوطة من جذورها
وذوى الهدال على صدرها
نما العشب في موقد إيرول
وحط الغراب في عش صقرها.

ولا جديد في قولنا إن الغصن الذهبي هو الهدال. صحيح أن فيرجيل [55] لم يذكره بالتحديد، لكنه قارنه بالهدال. وربما كان هذا مجرد صنعة شعرية هدفها إضفاء بريق من الغموض على النبات المتواضع. وربما، وهذا هو الاحتمال الأكبر، اعتمد في وصفه على خرافة تقول إن الهدال كان في أوقات معينة يشع مجدا ذهبيا خارقا للطبيعة. ويخبرنا الشاعر كيف أن حمامتين، وهما ترشدان إينياس إلى الوادي المقفر الذي ينمو في أعماقه الغصن الذهبي، حطتا على شجرة «ينبعث منها بصيص شعاع ذهبي. وكما هي الحال في الغابات في قر الشتاء، فإن الهدال، وهو نبات طفيلي على الشجرة، يبقى أخضر يانعة أوراقه، يلف ثماره الصفراء على الجذع. بحيث يلمع الذهب ذو الأوراق فوق بلوطة الوادي وارفة الظلال، ويسمع حفيف الورقة الذهبية في النسمات العليلة». وهنا نجد أن فيرجل بكل تأكيد يصف الغصن الذهبي الذي ينمو على شجرة بلوط ويقارنه بنبات الهدال. ولا يسعنا إلا أن نستنتج أن الغصن الذهبي ليس سوى الهدال وهو يتراءى خلال ضباب الشعر أو الخرافات الشعبية.

بيّنا فيما سبق أن ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأن كاهن الأجمة الأريسية في نمي، وهو ملك الغابة، كان يجسد الشجرة التي ينمو فوقها الغصن الذهبي. فإذا كانت تلك الشجرة شجرة بلوط، فإن الملك بالتأكيد تجسيد لروح البلوط. وهكذا يسهل علينا أن نفهم لم كان من الضروري كسر الغصن الذهبي قبل قتل الملك. فبوصفه روح

الطرف المقابل: احتل زبد البحر مكانة متوسطة بين السماء والأرض وهو المكان الذي اختاره الإنسان البدائي ليضع روحه فيه. لوحة للفنان ديفيد جيمس، 1897.

(55) بيليوس فرجيليوس مارو أو فيرجيل Publius Vergilius Maro؛ ولد 15 أكتوبر 70 ق.م. - 21 سبتمبر 19 ق.م. شاعر روماني. اعتبر الرومان الإنياذة التي نشرت بعد وفاته بسنتين إحدى القصائد الوطنية «المترجم».

شجرة البلوط فإن روحه موجودة في نبات الهدال على البلوطة، وما دامت الهدالة سليمة معافاة، كان قتله مستحيلا، مثله مثل بولدر، ولا بد دون قتله من كسر الهدال، وربما رميه به، كما رأينا في قصة بولدر. ولكي نكمل المقاربة ما علينا سوى الافتراض بأن ملك الغابة كان فيما مضى يحرق، حيا أو ميتا، في عيد نار منتصف الصيف، الذي كان يقام كما رأينا في الأجمة الآريشينية. وربما كان البلوط يوقد في النار الأبدية التي تشتعل في معبد فستا في روما، وهكذا كان ملك الغابة فيما مضى يلقى حتفه في نار هائلة تستعر بخشب البلوط.

وبمرور الزمن، وكما أسلفت، كانت حياته تطول أو تقصر، حسب الظروف، بمقتضى القاعدة التي مكنته من البقاء على قيد الحياة ما دام قادرا على إثبات حقه الإلهي بقوة ذراعه. لكنه ما نجا من النار إلا ليموت بالسيف!

وهكذا نرى كيف كانت المأساة الملتهبة ذاتها، وفي سالف



العهد والأوان في قلب إيطاليا، وعلى ضفة بحيرة نمي الساحرة، تتكرر سنويا وهي ما سيراه التجار والجنود الإيطاليين يحدث بين أقربائهم الكلتيين البدائيين في بلاد الغال، والتي يمكن أن تكون قد تكررت بشكل مشابه بين القبائل الآرية البربرية في الشمال لو أن نسور روما حلقت بالفعل في سماء النرويج. ولربما كان هذا الطقس من السمات الأساس لدى قدماء الآريين في عبادتهم لشجرة البلوط.

ويبقى لنا أن نسأل عن سبب تسمية الهدال بالغصن الذهبي. فثمار الهدال الصفراء المائلة إلى البياض ليست سببا كافيا للتسمية لأن فيرجيل يقول إن الغصن كان من الذهب بأكمله، ساقا وأوراقا. ولعل الاسم مشتق من اللون الذهبي الضارب إلى الصفرة الذي يصبغ غصن الهدال حين يقطف ويترك لشهور عدة. فالصبغة البراقة لا تقتصر على الأوراق، بل تنسحب على الأغصان أيضا، بحيث يبدو الغصن بأكمله ذهبيا. ويعلق فلاحو بريتانيا باقات من الهدال أمام أكواخهم، بحيث تُرى بوضوح في شهر يونيو بسبب أوراقها الذهبية البراقة. وفي تلك المناطق من بريتانيا، لاسيما في موربهان، تعلق باقات الهدال فوق أبواب الإصطبلات والحظائر لحماية الخيل والماشية من السحر.

وربما يفسر اللون الأصفر الذي يكسو الغصن الذابل، ولو بشكل جزئي، السبب في افتراض أن للهدال ميزة الكشف عن الكنوز في الأرض. فوفق مبدأ سحر التماثل هناك شبه طبيعي بين الغصن الأصفر والذهب الأصفر. ومما يؤكد هذا الاقتراح القياسُ على الخصائص الرائعة التي ينسبها العامة إلى أبواغ السرخس الأسطورية التي يفترض أنها تزهر مثل الذهب أو مثل النار عشية منتصف الصيف. فيقال في بوهيما إن «لأبواغ السرخس في عيد القديس يوحنا زهورا ذهبية تتوهج مثل النار». ومن مزايا أبواغ السرخس الأسطورية هذه أن من يمتلكها، أو من يصعد جبلا وهو يمسكها بيده عشية منتصف الصيف، يكتشف عرقا من الذهب أو يرى كنوز الأرض تتلألأ بلهب ضارب إلى الأزرق. أما في روسيا فيقال إنك إذا نجحت في الإمساك بزهر السرخس عشية منتصف الصيف، ما عليك إلا أن تقذفه عاليا في الهواء فيسقط كالنجم على البقعة التي فيها الكنز. ويتخيل فلاحو تيروليا أن من الممكن رؤية الكنوز المخبأة تتوهج كاللهب عشية منتصف الصيف، وأن أبواغ السرخس التي تجمع في ذلك الفصل المقدس وبالحرص المعهود، تساعد على إخراج الكنوز الدفينة من باطن الأرض. وفي الكانتون السويسري فرايبورغ دأب الناس على البحث بالقرب من



في الأعلى: الجايزر يارل من ليريك يقف أمام قارب طويل تتأجج فيه نار لإحراق الموتى. في هذه الاحتفالات السنوية التي تقام في ليريك في جزر شتلاند الاسكتلندية يتم الجمع بين أعياد النار ودفن الزعيم.

الطرف المقابل: يعد نبات ثؤلل القمر (بوتريتشيوم لوناريا) أصغر أنواع السراخس في العالم، إذ لا ينمو أعلى من نصلة العشب. في القديم كان المفضل عند الساحرات ومحضري الأرواح بسبب رمزه للقمر. وكان مهما عند أهل السيمياء لأنه يشبه التركيبة البلورية التي تسمى «الشجيرة الذهبية».

شجرة السرخس في ليلة عيد القديس يوحنا أملا في الفوز بكنز كان الشيطان بالذات يجبله إليهم أحيانا. ويقال في بوهيميا إن من يحصل على الزهرة الذهبية من شجرة السرخس في ذلك الموسم يملك مفتاح الكنوز الدفينة كلها، وإنه إذا مدت الصبايا قطعة القماش تحت الزهرة التي تذبل بسرعة، سقط فيها ذهب أحمر. وفي التيرول وبوهيميا يقال إنك إذا وضعت بذرة سرخس بين النقود لم تنقص نقودك قط مهما أنفقت منها. ويفترض أحيانا أن تزهر بذور السرخس ليلة عيد الميلاد، وكل من يحظى بها يصيب ثراء فاحشا. وفي ستيريا يقال إن باستطاعتك أن تجبر الشيطان على أن يجلب إليك كيسا من المال إذا جمعت بذور السرخس في ليلة عيد الميلاد.



في الأعلى: يعثر إينياس على الغصن الذهبي في الغابة فيحمله معه في رحلته إلى العالم السفلي لكي يضيء له الطريق. وتحوم حول رأسه الحمائم السحرية. من نسخة عام 1925 المصورة من «الغصن الذهبي».

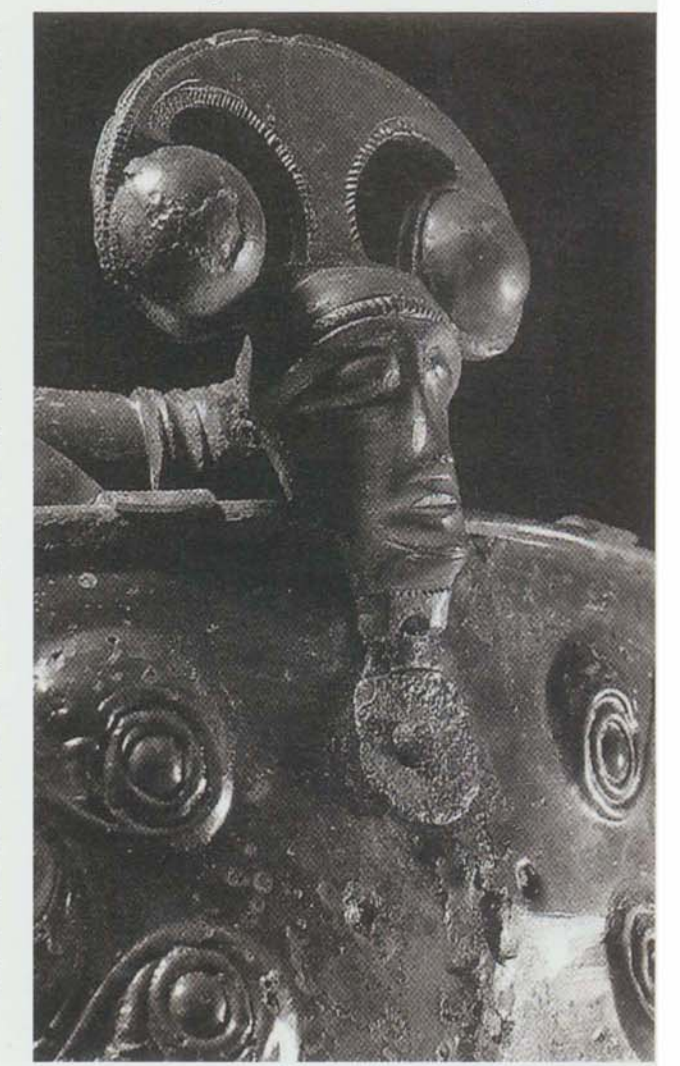
الطرف المقابل: رأس على مقبض دلو كلتي من البرونز يمثل الإله الكلتي المختص بشجرة الحياة. الجزء المنقوش على الرأس هو نبات الهدال. القرن الأول ق.م. عثر عليه في أيلزفورد، كنت، إنجلترة. المتحف البريطاني، لندن.

وهكذا نرى أنه وفقا للمبدأ القائل إن الشيء يأتي بمثله، يفترض في بذور السرخس القدرة على الكشف عن الذهب لأنها هي ذهبية اللون، وهي تجلب الثراء لمالكها بكمية لا حد لها من الذهب للسبب عينه. صحيح أن بذور السرخس توصف بأنها ذهبية، لكنها توصف أيضا بأنها متوهجة ونارية. لذلك حين نفكر في أن أفضل يومين عظيمين لجمع هذه البذور الرائعة هما ليلة منتصف الصيف وليلة عيد الميلاد، - أي يومي الانقلاب الشمسي (فعيد الميلاد ليس سوى احتفال وثني قديم بيوم الانقلاب الشمسي) نرى أن العنصر الناري في بذور السرخس هو العنصر الرئيس، وأن العنصر الذهبي ثانوي ومشتق. ويبدو أن بذور السرخس هي في واقع الأمر مستمدة من نار الشمس وهي في نقطتي الانعطاف في مسارها وهما الانقلاب الصيفي والشتوي. ومما يؤكد هذه النظرية قصة ألمانية تروي حكاية صياد حصل على بذور السرخس بتصويبه سهما إلى الشمس في منتصف نهار يوم صيفي، فسقطت ثلاث قطرات من الدم، تلقاها الصياد بقطعة من قماش أبيض، وكانت هذه النقاط الثلاث بذور السرخس. ومن الواضح أن الدم هنا هو دم الشمس التي خرجت منها بذور السرخس مباشرة. من هنا نرى احتمال أن تكون بذور السرخس ذهبية، بسبب الاعتقاد بأنها ناشئة عن نار الشمس الذهبية.

ونبات الهدال، مثله مثل بذور السرخس، يقطف إما في منتصف الصيف أو في عيد الميلاد – أي إما في الانقلاب الصيفي أو الشتوي، ويفترض أن تكون له القدرة على كشف الكنوز الدفينة في الأرض، مثله مثل بذور السرخس. ففي ليلة منتصف الصيف، يصنع الناس في السويد عصيا مقدسة (عصي التفتيش عن الكنوز) من الهدال أو من أربعة أنواع مختلفة من الخشب، من بينها الهدال. ويقوم الباحث عن الكنز بوضع العصا على الأرض بعد مغيب الشمس، فإذا وقعت مباشرة فوق الكنز، بدأت بالتحرك كما لو دبت بها الحياة. فإذا كان باستطاعة الهدال اكتشاف الذهب، فلا بد من أن يكون هذا في طبيعة الغصن الذهبي؛ فإذا كان قطف النبات يتم في يومي الانقلاب الشمسي أفلا يجدر بالغصن الذهبي إذن أن يكون مستمدا من نار الشمس أيضا مثله مثل بذور السرخس الذهبية؟ ويتعذر الرد عن هذا السؤال بالإيجاب وحسب. رأينا فيما سبق أن قدماء الآريين ربما كانوا يشعلون نيران الانقلاب الشمسي ونيران الاحتفالات الأخرى بصفتها من أنواع السحر الشمسي، أي بنية تزويد الشمس بنار جديدة؛ وبما أن هذه النيران كانت توقد من احتكاك خشب البلوط أو احتراقه، فربما ظن قدماء الآريين أن الشمس تتجدد من النار الكامنة في البلوط المقدس. وبعبارة أخرى، ربما بدا لهم أن البلوط هو المخزن الأصل للنار التي كانت تخرج بين حين وآخر لتغذي الشمس. لكن إذا كان من المعتقد أن شجرة البلوط تكمن في نبات الهدال، فلا بد للهدال بحسب تلك العقيدة من أن يحتوي على بذرة النار التي تخرج من احتكاك خشب البلوط. فبدلا من القول إن نبات الهدال مستمد من نار الشمس، ربما كان القول إن نار الشمس تخرج من نبات الهدال أقرب إلى

الصواب. لا عجب إذن إذا كانت شجرة الهدال تلمع ببهاء ذهبي حتى أطلق عليها اسم الغصن الذهبي. ومن الممكن على أية حال، أن يرى بعضهم أن هذه الصفة الذهبية لا تظهر إلا في تلك الأوقات المحددة، مثلها مثل شجرة السرخس، لاسيما في منتصف الصيف، حين تؤخذ النار من البلوط كي تضيء الشمس.

في بلفرباتش في شروبشير ظل الناس حتى عهد قريب يعتقدون أن شجرة البلوط تزهر في ليلة منتصف الصيف وأن الزهور تذبل قبل طلوع الفجر. فإذا ودت فتاة أن تعرف حظها في الزواج وجب عليها أن تفرد قطعة من القماش الأبيض تحت الشجرة في الليل، فتجد عليها بعض الغبار في الصباح هو كل ما تبقى من الزهرة. وعليها أن تضع هذا الغبار تحت وسادتها فيأتيها زوج المستقبل في المنام. وربما كانت زهرة البلوط قصيرة الأمد هذه، إن لم أجانب الصواب، هي الهدال بصفته الغصن الذهبي. ومما يثبت هذا



الاستنتاج ما نلحظه في ويلز إذ يوضع غصن من الهدال قطف في منتصف الصيف تحت الوسادة لرؤية المستقبل في الحلم، زد على ذلك، أن طريقة الإمساك بزهرة البلوط الخيالية بقطعة من القماش الأبيض هي بالضبط الطريقة التي يستخدمها الدرود (الكهنة) في الإمساك بالهدال الحقيقي عند سقوطه من غصن البلوط بعد قطعه بالمنجل الذهبي. وحيث إن شروبشير تقع على حدود ويلز، ربما كان أصل الاعتقاد بأن شجرة البلوط تزهر ليلة منتصف الصيف يعود إلى ويلز، مع احتمال أن يكون هذا الاعتقاد جزءا من المعتقدات الآرية البدائية.

وفي بعض أجزاء إيطاليا، كما سبق أن رأينا، ما زال الفلاحون يخرجون صباح منتصف الصيف ليفتشوا في أشجار البلوط عن «زيت القديس يوحنا» الذي يشفي كل الجروح، مثله مثل الهدال، والذي ربما كان هو الهدال ذاته في شكله المعظم. من هنا يسهل علينا فهم سبب تسمية هذا النبات الطفيلي بالغصن الذهبي مع أنه يبدو نباتا طفيليا تافها على الشجرة. ونستطيع بالإضافة إلى ذلك أن نعرف سبب اعتقاد الأقدمين بأن لنبات الهدال القدرة على إخماد النيران، والسبب الذي يدعو السويديين إلى الاحتفاظ به في بيوتهم درءا للحرائق. فطبيعته الملتهبة تجعله أفضل السبل لعلاج الحروق والوقاية من الحرائق وفقا لمبادئ سحر التماثل.

وربما تفسر لنا هذه الاعتبارات، لو بشكل جزئي، السبب الذي جعل فيرجيل يعطي إينياس [56] غصنا مقدسا من نبات الهدال يحمله معه في رحلة نزوله إلى عالم الأموات الموحش تحت الأرض. ويصف الشاعر الغابة الموحشة المترامية الأطراف عند بوابة الجحيم، وكيف تابع البطل سيره في أعماق الغابة السحيقة مهتديا بضوء الحمامتين اللتين كانتا تحثانه على التقدم إلى أن شاهد على بعد، ومن خلال ظلال الأشجار، ضوء الغصن الذهبي المتراقص يضيء الأغصان الداكنة فوقه. فلو رأى الناس أن الهدال، بوصفه غصنا ذابلا أصفر اللون في غابات الخريف الكئيبة، يحتوي على بذور النار، فأي صاحب يصطحبه مسافر وحيد في العتمة تحت الأرض أفضل من غصن يكون مصباحا لخطوات قدميه وعصا ليديه؟ فإذا كان هذا سلاحه استطاع أن يواجه الوحوش المخيفة التي تعترض سبيله في رحلته المحفوفة بالمخاطر. وهكذا حين خرج إينياس من الغابة ووصل إلى ضفاف ستيكس الذي يجري بطيئا في جدول راكد عبر مستنقعات الجحيم، ورفض صاحب الزورق

(56) 3 إينياس بطل طروادي في الأساطير الإغريقية والرومانية. كان الرومانيون يعتقدون بأنه سليل لمؤسسي روما الأسطوريين رومولوس وريموس. وقد احتفى الشاعر الروماني فيرجيل بمغامرات إينياس في قصيدته الملحمية الإنيادة «المترجم».

الفظ أن يحمله في زورقه، ما كان على إينياس إلا أن يخرج الغصن الذهبي من صدره ويحمله عاليا حتى يوقع الرعب في قلب ذلك المتبجح بمجرد رؤيته الغصن فيرحب بالبطل في زورقه المجنون

الطرف المقابل: ضوء الشمس يتسلل من وراء شجرة بلوط. من الممكن للنار السماوية وقوة الشمس أن تتجسدا في أشجار البلوط المقدسة وفي نبات الهدال فوقها.

في الأسفل: وميض البرق الذي يمكن أن يجلب النار السماوية إلى الشجرة حيث تظهر في شكل نبات الهدال.

الذي يغطس في الماء تحت الثقل غير المألوف الذي سببه رجل حي. ويرى الناس في نبات الهدال، حتى في الأزمنة الحديثة، وقاية من الساحرات والمشعوذين، وربما رأى فيه القدماء القدرة السحرية ذاتها. لكن إذا كان لهذا النبات الطفيلي القدرة على فتح جميع الأقفال بحسب اعتقاد فلاحينا، فلماذا لم يؤد دور «افتح يا سمسم» بيد إيناس ويفتح له أبواب الموت؟

هنا أيضا نستطيع أن نخمن سبب الخلط بين فيربيوس وبين الشمس في نمي. فلو كان فيربيوس روحا شجرية، كما حاولت أن أبين، لكان بالتأكيد روح شجرة البلوط التي ينمو عليها الغصن الذهبي، لأن التقاليد المتوارثة تمثله على أنه أول ملوك الغابات.





وبصفته روحا في بلوطه يفترض به بكل تأكيد أن يكرر إشعال نار الشمس، فيسهل الخلط بينه وبين الشمس. وبالمثل، نستطيع أن نفسر سبب وصف بولدر – وهو روح بلوطة بأنه «جميل الطلعة، براق الوجه حتى إن النور ليشع منه» والسبب الذي جعل كثيرا من الناس يحسبونه الشمس. وبصفة عامة يمكننا أن نقول إنه في المجتمعات البدائية، وحين تكون الطريقة الوحيدة المعروفة لإشعال النار هي احتكاك الخشب، لا بد للرجل البدائي من أن يفهم النار على أنها من الخواص المخزونة في باطن الأشجار مثل النسغ أو العصير التي لا تنال إلا بالتعب والجهد.

أما هنود السينال في كاليفورنيا فيجاهرون باعتقادهم بأن

«العالم كله كان في يوم من الأيام كرة من النار وأن النار انتقلت بعد ذلك إلى الأشجار، لتخرج عند الاحتكاك بين قطعتين من الخشب». كما يعتقد هنود المايدو في كاليفورنيا بأن «الأرض كانت في الأصل كرة من مادة مصهورة، ومن هنا صعد عنصر النار من الجذور إلى جذوع الأشجار وأغصانها حيث يستطيع الهنود استخلاصها بما يملكونه من الأدوات الثاقبة».

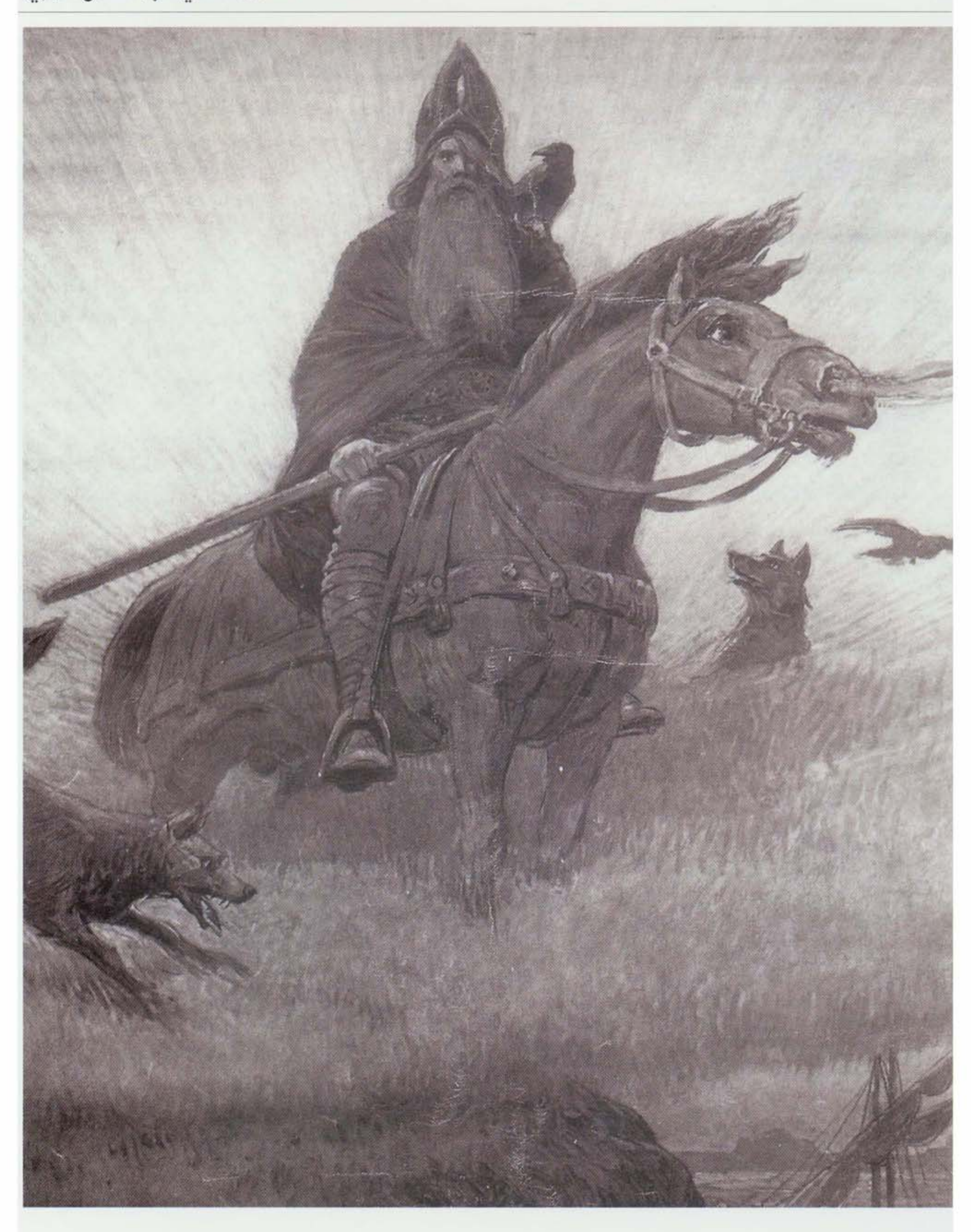
وفي ناmولوك، وهي إحدى جزر كارولين، يقال إن الآلهة علمت البشر فن إشعال النار. فأولوفيت، وهو سيد اللهب الماكر، أعطى النار إلى الطائر موي وطلب إليه أن يحملها إلى الأرض بمنقاره. فأخذ الطائر يتنقل من شجرة إلى أخرى ليخزن قوة النار النائمة في الخشب الذي يستطيع الناس استعادة النار منه بواسطة الاحتكاك. وفي الترانيم الفيديكية الهندية يوصف إله النار أجني «بأنه مولود في الخشب مثل جنين نباتي، أو بأنه موزع في النباتات. ويقال أيضا إنه دخل سائر النباتات أو إنه يطاردها. وربما يرجع السبب في تسميته بجنين الأشجار أو الأشجار والنباتات إلى النار التي تشتعل في الغابات بسبب الاحتكاك بين أغصان الأشجار».

ويرى الإنسان البدائي أن الشجرة التي ضربتها الصاعقة تحمل ضعفين أو ثلاثة أضعاف من كمية النار، أولم ير بأم عينه الوميض الهائل يدخل جذع الشجرة؟ من هنا يمكنه أن يفسر بعض المعتقدات الخرافية المتعلقة بالأشجار التي ضربتها الصواعق. فإذا أراد هنود طومسون في كولومبيا البريطانية إحراق منازل أعدائهم، أطلقوا عليها سهاما صنعت من شجرة ضربتها الصواعق، أو جعلوا في سهامهم شظايا من ذلك الخشب. أما الفلاحون الونديون في مقاطعة سكسونيا فيرفضون أن يوقدوا في مواقدهم خشب أشجار ضربها البرق، ويقولون إن المنزل سيحترق عن بكرة أبيه بمثل هذا النوع من الحطب. وهذا ما نراه أيضا عند قبائل التونغا في جنوب إفريقيا الذين يحجمون عن استخدام هذا الخشب في الوقود والتدفئة، بل على العكس، فحين تشتعل النار في إحدى الأشجار بتأثير البرق، يقوم أبناء قبيلة الوينا موانغا في شمال روديسيا بإطفاء نيران القرية بأكملها وبإعادة طلاء المواقد بالجص في حين يقدم وجهاء القرية إلى زعيمها نارا أشعلها البرق فيصلي عليها. بعدئذ يرسل الزعيم النار الجديدة إلى جميع قراه حيث يقوم القرويون بمكافأة الرسل على حملهم هذه البركة. وهذا يشير إلى أنهم ينظرون إلى النار التي يوقدها البرق نظرة احترام، وهذا الاحترام أمر مفهوم لأنهم يرون في البرق والرعد أن الإله بالذات ينزل إلى الأرض. ويعتقد هنود المايرو في كاليفورنيا أن رجلا عظيما خلق العالم وسكانه أجمعين، وأن البرق ما هو إلا ذلك الرجل العظيم بالذات ينزل سريعا من السماء ويحطم الأشجار بذراعيه الملتهبتين.

ولعل من النظريات المقبولة تلك التي ترى أن الاحترام الذي تكنه شعوب أوروبا القديمة لشجرة البلوط، والعلاقة التي يظنون أنها قائمة بين الشجرة وإله السماء عندهم مشتق من كثرة تعرض تلك الشجرة لضربات الصواعق أكثر من بقية الأشجار في غابات أوروبا. وقد ثبتت هذه الخاصية الغريبة في تلك الشجرة من خلال سلسلة من أعمال المراقبة قام بها في السنوات الأخيرة عدد من العلماء الباحثين ممن لا يتأثرون بأية نظرية ذات صبغة أسطورية. ومهما كان تفسيرنا لهذه الظاهرة، سواء بمرور الكهرباء عبر خشب البلوط بسرعة أكبر من مروره بأنواع الخشب الأخرى، أو بأي تفسير آخر، فإن الحقيقة ذاتها ربما جذبت انتباه أجدادنا البدائيين الذين سكنوا في الغابات الفسيحة التي كانت آنذاك تغطي جزءا كبيرا من أوروبا، وربما فسروها بشكل طبيعي بطريقتهم الدينية البسيطة من خلال افتراضهم أن إله السماء العظيم الذي يعبدونه والذي يسمعون صوته في هزيم الرعد يحب شجرة البلوط أكثر من كل أشجار الغابة، وأنه ينزل فيها من السحابة الحالكة في سنا البرق تاركا آثار وجوده أو مروره في جذع الشجرة المحطم أو المسود وفي الأوراق المحترقة. مثل تلك الأشجار كانت تحاط بهالة من المجد بصفتها الأماكن المرئية لوجود إله السماء والرعد. ومن المؤكد أن الرومان واليونان قد ساووا بين إله السماء العظيم وإله أشجار البلوط من جهة وبين سنا البرق الذي يضرب الأرض من جهة أخرى، وكانوا يحيطون أماكن وقوع الصواعق بسياج ويعدّونها أرضا مقدسة بعد ذلك. ولا أظن أننا نجانب الصواب إذا افترضنا أن أجداد الكلتيين والألمان في غابات أوروبا الوسطى كانوا يكنون التبجيل عينه لشجرة البلوط الذي يضربها البرق وللسبب ذاته.

إن هذا التفسير لمدى تبجيل الآريين لشجرة البلوط والمساواة بين الشجرة وإله الرعد أوإله السماء العظيم سبق أن أشار إليه جاكوب غريم منذ زمن بعيد، وأيده بشدة في السنوات الأخيرة و. ورد فاولر W. Warde Fowler. ويبدو هذا التفسير أبسط وأكثر احتمالا من التفسير الذي تبنيته سابقا، وهو أن الناس عبدوا

الطرف المقابل: اعتقد بعضهم أن لا أحد يحتل مكانة أعلى من إله الرعد ثور سوى وتان (أودين) إله التيوتون الذي يرى هنا ممتطيا صهوة جواده ومعه الغربان. من لوحة للفنان ماكس كوخ، 1905.





في الأعلى: الإله الهندوسي فيشنو فيسفاروبا ممثلا بالعالم أجمع. لوحة هندية من جايبور، أوائل القرن التاسع عشر. متحف فيكتوريا وألبرت، لندن.

الطرف المقابل: تصوير رمزي لمفهوم قدماء المصريين عن الكون. الإلهة نوت ذات الأطراف الطويلة تمثل القبة السماوية الممتدة من أفق إلى آخر والنجوم تتألق فوقها. كانت نوت، وهي شقيقة إله الأرض جب، أم أيزيس وأوزيريس.

شجرة البلوط لكثرة الفوائد التي كانت تجود عليهم بها، لاسيما في استخدامها حطبا للنار التي يشعلونها من أخشابها بطريقة الاحتكاك. أما علاقة شجرة البلوط بالسماء فكانت فكرة ظهرت فيما بعد تقوم على الاعتقاد بأن سنا البرق ما هو سوى شرارة كان إله السماء في عليائه يولدها من حك قطعتين من خشب البلوط إحداهما بالأخرى، تماما كما يفعل عبدته البدائيون على الأرض حين يوقدون النار في الغابة.

وبحسب تلك النظرية فإن إله الرعد والسماء مخلوق من إله البلوط الأصل. أما بحسب النظرية الحالية وهي المفضلة عندي، فإن إله السماء والرعد كان الإله الأصل العظيم عند أجدادنا الآريين، ولم يكن الربط بينه وبين البلوط سوى تخمين مبني على كثرة إصابة أشجار البلوط بالصواعق. ولو تجول الآريون، كما يعتقد بعضهم في هضاب روسيا أو آسيا الوسطى مع قطعانهم ومواشيهم قبل أن يتوغلوا في غابات أوروبا، لعبدوا إله السماء الزرقاء أو الغائمة وإله الصواعق ذات الوميض قبل أن يفكروا بالربط بينه وبين أشجار البلوط التي يضربها البرق بوقت طويل.

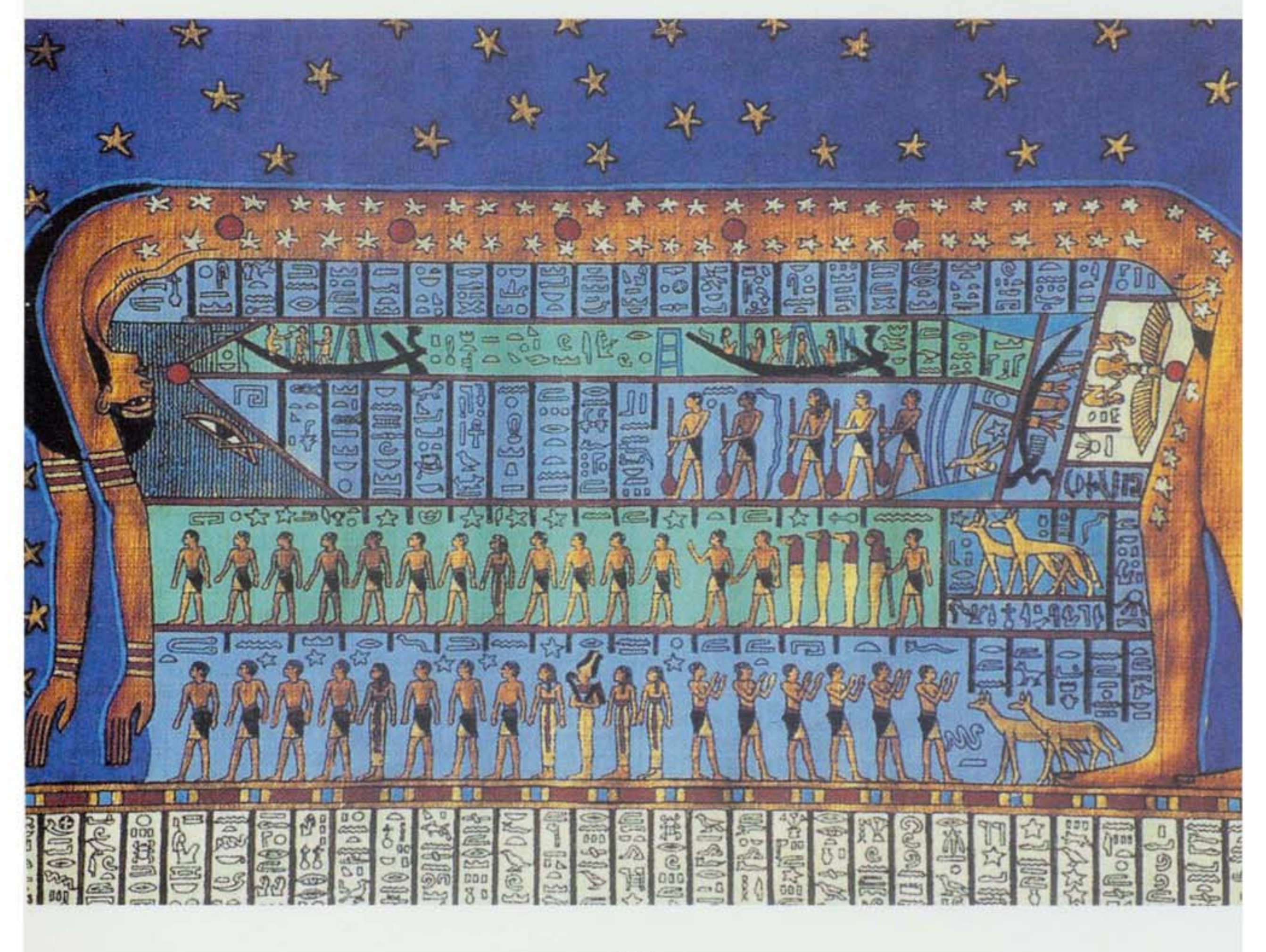
وربما كان للنظرية الجديدة ميزة جديدة مثلها تتجلى في إلقاء الضوء على القدسية الخاصة التي تعزى إلى نبات الهدال الذي ينمو على أشجار البلوط. لكن ندرة هذا النمو على شجرة البلوط لا تكفي في حد ذاتها لتفسير مدى هذا الاعتقاد بالخرافات واستمراريته. وربما نعثر على إشارة إلى أصله الحقيقي في مقولة بلايني التي تخبرنا أن الدرود عبدوا النبات لاعتقادهم أنه نزل من السماء وأنه علامة على أن الشجرة التي ينمو فوقها اختارها الإله بذاته. فهل تراهم ظنوا أن الهدال سقط على البلوط في سنا البرق؟ فمما يؤكد (هذا الاستنتاج اسم «قوطيسوس الرعد» الذي يطلقه سكان كانتون أرجاو في سويسرا على نبات الهدال، لأن هذا الوصف يشير بوضوح إلى العلاقة الوطيدة بين الطفيلي والرعد؛ وبالفعل فإن «قوطيسوس الرعد» اسم شائع في ألمانيا إذ يطلق على كل كتلة كثيفة تشبه العش تنمو على الأغصان لأن الجهلة من الناس يعتقدون أن البرق هو سبب الكتلة الطفيلية هذه.

ولو كان في هذا الاستنتاج أي نصيب من الصحة، فإن السبب الحقيقي الذي يجعل الدرود يعبدون شجرة البلوط التي ينمو عليها نبات الهدال دون غيرها من الأشجار في الغابة هو اعتقادهم بأن البرق ضرب كل أشجار البلوط، وأنها تحمل بين أغصانها علامة مرئية على النار السماوية؛ فإذا قطعوا الهدال وفق الطقوس السحرية ضمنوا لأنفسهم كل الخصائص السحرية للصاعقة. وإذا كانت الحال هذه، خلصنا إلى نتيجة مفادها أن الناس يرون في الهدال ثمرة البرق لا ثمرة شمس منتصف الصيف كما كنت أبين حتى الآن. ولعل بالإمكان الجمع بين هذين الرأيين المختلفين ظاهريا من خلال افتراض أن الهدال بحسب المعتقدات الآرية القديمة نزل من الشمس في منتصف الصيف في سنا البرق. لكن مثل هذا الجمع مصطنع، ولا أجرؤ على القول ما إذا كان من الممكن التوفيق بين هذين التفسيرين بحسب المبادئ الأسطورية أم

لا، لكن حتى لو اختلفت وجهتا النظر، فإن هذا لا يمنع بالضرورة أجدادنا البدائيين من تبني كليهما في الوقت ذاته وبالقدر نفسه من العقيدة المتأججة. فالرجل البدائي، مثله مثل معظم البشر، يسمو فوق قيود المنطق المتحذلق. وحين نحاول تتبع فكره المنحرف عبر غابة الجهل المطبق والخوف الأعمى، علينا أن نتذكر على الدوام أننا ندخل أرضا مسحورة، وأن علينا التزام الحيطة والحذر من أن نأخذ الأشكال الضبابية التي تعترض طريقنا أو تحوم وتثرثر حولنا خلال الكآبة والغم على أنها وقائع ملموسة. ولن نستطيع أبدا أن نضع أنفسنا مكان الرجل البدائي أو أن نرى الأشياء من منظوره أو أن نحس بقلوبنا وهي تنبض بالعواطف التي كانت تحرك قلبه. ومن المؤكد أن نظرياتنا كلها حوله وحول أساليبه لا ترقى إلى مستوى اليقين. وأقصى ما يمكننا أن نصبو إليه في مثل هذه المسائل هو درجة معقولة من الاحتمالية.

وفي ختام هذه الأبحاث، يمكننا القول لو أن بولدر كان بالفعل، كما استنتجت لتوي، تجسيدا لبلوطة عليها نبات الهدال الطفيلي، لأمكن تفسير موته بضربة من الهدال بحسب النظرية الجديدة على أنه موت بضربة من البرق. فما دام الهدال الذي يحترق فيه لهب البرق باقيا بين الغصون، فإن إله البلوط الطيب والخير لا يمكن أن يصاب بأذى، لأنه خبأ حياته في النبات الطفيلي الغامض بين الأرض والسماء توخيا للسلامة. فإذا انتزع مقر حياته، أو موته، من الغصن وألقي به أسفل الجذع، هوت الشجرة — أي مات الإله — فقد أصابته صاعقة وأحرقته.

ربما ينطبق ما أوردناه عن بولدر في غابة البلوط في اسكندنافيا على كاهن ديانا ملك الغابة في غابات البلوط في أريشيا مع كل التحفظ الذي يحيط بموضوع غامض بعيد عن اليقين، ولعله مثل باللحم والدم إله أسماء الإيطالي العظيم جوبتر الذي نزل متواضعا من السماء في سنا البرق ليعيش بين الناس في نبات الهدال — قوطيسوس الرعد — الغصن الذهبي — الذي ينمو على البلوطة المقدسة في وديان نمي. ولو كان الأمر كذلك لبطل عجبنا من الكاهن الذي يشهر سيفه ليحمي الغصن الغامض الذي يحتوي





في الأعلى: يقول فريزر: «إن تقدم المعرفة رحلة لا نهاية لها نحو هدف يبتعد باستمرار». الأرض ليست سوى جزء ضئيل من الكون تهدده قوى لم نفهمها بشكل كامل حتى الآن.

على حياة الإله وحياته هو. فالإلهة التي خدمها وتزوجها كانت هي بالذات، إن لم أكن مخطئا، ملكة السماء، أي زوجة إله السماء المخلصة. فهي أيضا كانت تحب حياة الوحدة في الغابات والتلال المنعزلة والتحليق عاليا في الليالي الصافية مثل القمر الفضي الذي ينظر مسرورا إلى انعكاس خياله الجميل على سطح البحيرة الهادئ اللامع، أي في مرآة ديانا.

دعونا الآن، ونحن نقترب من النهاية، نتأمل الدروس التي تعلمناها من تأمل أنماط تفكير أجدادنا ونقارنها بأنماط تفكيرنا نحن. إن كل تقدم كبير في المعرفة وسع أفق النظام وقلص بالتالي أفق الفوضى الظاهرة في العالم. وحتى الآن نحن على استعداد لتوقع أن يسهم عمل المعرفة الغزيرة في كل مكان في تقليص الفوضى الظاهرة إلى نظام متناغم حتى في المناطق التي يسود فيها الحظ والارتباك. فالعقول المنفتحة التي ما زالت تضغط للتقدم نحو حل أعمق لأسرار الكون، ترفض الاعتراف بفاعلية النظرية الدينية عن الطبيعة، وترجع إلى وجهة النظر القديمة عن السحر من خلال الافتراض صراحة، وهو ما كان السحر يفترضه تلميحا، بوجود انتظام صارم في ترتيب الأحداث الطبيعية التي إذا ما راقبناها بعناية استطعنا التنبؤ بمسارها بكل تأكيد والتصرف تبعا لذلك. وباختصار، فإن العلم حل محل الدين في تفسير الطبيعة.

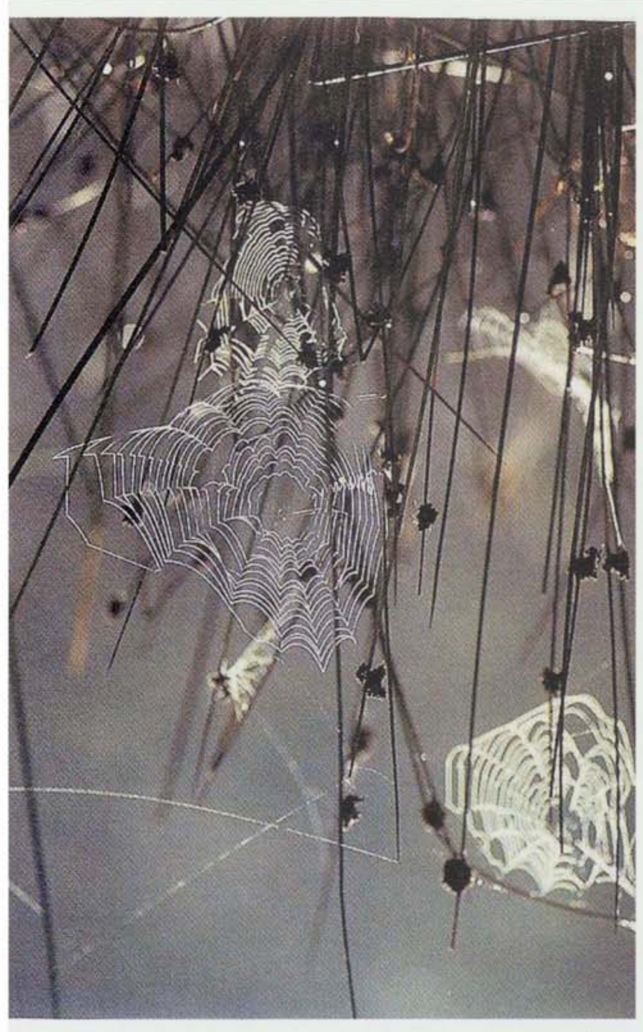
لكن بينما يشترك العلم في كثير من الحالات مع السحر، إذ إن كليهما يعتمد على الإيمان في النظام مبدأ يكمن وراء الأشياء جميعها، فإننا لا نرى حاجة لتذكير القراء بأن النظام الذي يفترض السحر وجوده مسبقا يختلف كثيرا عن النظام الذي يشكل أساس العلم. لكن الاختلاف ينبع بالطبع من اختلاف الطرائق التي أدت إلى التوصل إلى هذين النظامين. فالنظام الذي يعتمد عليه السحر ليس سوى امتداد للنظام الذي تقدم فيه الأفكار ذاتها إلى عقولنا. أما النظام الذي أسسه العلم فمشتق من المراقبة الدؤوبة والدقيقة للظواهر الطبيعية ذاتها. فغزارة النتائج التي توصل إليها العلم وصحتها وامتيازها معدة جيدا لتوحي إلينا بثقة تامة بسلامة أسلوبه. وهنا على الأقل، وبعد البحث في الظلام هنا وهناك على مدى عصور طويلة، عثر الإنسان على دليل يرشده للخروج من المتاهة، وهو مفتاح ذهبي يفتح كثيرا من الأقفال في خزانة الطبيعة. ولا أظن أن ثمة مبالغة في قولنا إن الأمل في تحقيق التقدم في الأمور الأخلاقية والفكرية والمادية في المستقبل رهن

بحظوظ العلم، وأن كل عقبة تعترض سبيل الاكتشافات العلمية هي إثم يرتكب في حق الإنسانية.

ومع ذلك فإن على تاريخ الفكر تحذيرنا من الظن أن النظرية العلمية عن العالم كاملة ونهائية بالضرورة لأنها أفضل ما صيغ حتى الآن. فعلينا أن نتذكر أن في قاعدة التعميمات العلمية، أو بلغة التعبير الدارجة، قوانين الطبيعة ما هي إلا فرضيات أعدت لتفسير التغير الدائم في الأفكار الذي نعظمه نحن من خلال الأشياء الرنانة التي تطلق على العالم وعلى الكون. وفي نهاية المطاف نرى أن السحر والدين والعلم ليست سوى نظريات فكرية، وبما أن العلم حل محل سابقيه فإنه ذاته ربما يتخلى عن مكانه في المستقبل لصالح فرضية أكمل قد تكون طريقة مختلفة في النظر إلى الظواهر الطبيعية، وفي تسجيل الظلال التي تسقط على الشاشة التي لا نستطيع نحن أبناء هذا الجيل أن نكوّن فكرة عنها. إن تقدم المعرفة عملية لا نهاية لها من التقدم نحو هدف لا يكف عن الابتعاد عنا. ولا بأس من السعي الذي لا ينتهي لأنه سيتمخض عن أشياء عظيمة بالرغم من أننا قد لا نستمتع بها. وفي بحار الفكر ستسطع نجوم في سماء رحالة المستقبل، على غرار «أوليس» العظيم، أكثر تألقا من النجوم التي تسطع علينا اليوم. ولعل أحلام السحر تتحول في يوم من الأيام إلى حقائق العلوم المستيقظة. لكن ثمة ظل قاتم يكتنف النهاية البعيدة لهذا المشروع الجميل. فبصرف النظر عن مدى اتساع المعرفة والقوة التي يحملها المستقبل للإنسان، فإنه لا يستطيع أن يأمل في الصمود أمام التيار الجارف لهذه القوة الهائلة التي يبدو أنها تسعى بصمت، لكن دون كلل ولا ملل، لتدمير كل هذا الكون المليء بالنجوم الذي تسبح فيه أرضنا مثل ذرة متناهية الصغر.

سيصبح الإنسان في العصور القادمة قادرا على التنبؤ باتجاهات الرياح والسحب المتقلبة وربما التحكم بها أيضا. لكن ستبقى يداه الضعيفتان عاجزتين عن إعادة السرعة إلى كوكبنا المتباطئ في مساره الفلكي وعن إعادة الحرارة إلى نار شمسنا المتحضرة. ومع كل ذلك، فإن الفيلسوف الذي يرتعد أمام فكرة وقوع هذه الكوارث البعيدة قد يجد العزاء في التفكير في أن هذه المخاوف المريعة، مثلها مثل الأرض والشمس، ليست سوى جزء من ذلك العالم الروحي الذي ابتدعه الفكر من العدم، وأن الساحرة الماكرة التي حضّرت الأشباح اليوم، ربما تحظرها غدا. فربما ذابت هذه الأشباح في الهواء وتبخرت مثلها مثل كثير من الأشياء التي تبدو جامدة للعين العادية.

ويمكننا، دون التعمق كثيرا في المستقبل، أن نشرح المسار الذي



في الأعلى: يقارن فريزر خيوط السحر والدين والعلم المختلفة التي تتشابك في تاريخ البشر بالشبكات العنكبوتية التي يغطيها الندى فوق حزمة من القصب.

سلكه الفكر حتى الآن بتشبيهه بشبكة حيكت من ثلاثة خيوط مختلفة – الأسود وهو السحر، والأحمر ويمثل الدين، والأبيض ويمثل العلم، إذا استطعنا أن ندرج تحت العلم كل الحقائق البسيطة المستمدة من مراقبة الطبيعة التي كان لدى الناس مخزنا لها على مر العصور. فإذا استطعنا استعراض شبكة الفكر من البداية، وجدنا أنها كانت بادئ الأمر مربعات سود وبيض أي مزيجا من الأفكار الحقيقية والزائفة، لا يشوبها حتى تلك اللحظة الخيط الأحمر الذي يمثل الدين. لكنك إذا نقلت عينيك إلى نقطة أبعد في القماش، وجدت بقعة قرمزية داكنة في وسط الشبكة أي في الموقع الذي دخل منه الدين إلى أعمق نقطة في النسيج، مع أن المربعات البيض والسود بقيت في مكانها، لكن البقعة القرمزية الداكنة تفقد

شدتها وتتحول إلى لون فاتح بتأثير دخول الخيط الأبيض الذي يمثل العلم في النسيج بدرجة أكبر فأكبر. ومن الممكن مقارنة حالة الفكر المعاصر بكل أهدافه المتنوعة والمتصارعة بشبكة مربعات ملطخة صنعت من خيوط تختلف درجات لونها لكنها تغير ألوانها بالتدريج كلما فتحت الشبكة. لكن هل ستعود الحركة العظيمة التي دأبت رويدا رويدا على تغيير طبيعة الفكر؟ أم هل ينشأ رد فعل لا يوقف التقدم وحسب، بل يلغي أيضا كل ما تحقق من قبل؟ وإذا شئنا المضي في الاستعارة التي سقناها آنفا، ما سيكون لون الشبكة التي يحيكها القدر الآن على نول الزمن النشيط. هذا ما لا نعرفه. صحيح أن هناك ضوءا خافتا يضيء الجزء الخلفي من الشبكة، لكن الطرف الآخر غارق في السحب والظلام الدامس.

لقد انتهت رحلتنا الاستكشافية، وطوى زورقنا شراعه المتهالك في الميناء أخيرا، وسوف نسلك طريق نمي مرة أخرى. وبدأ الليل يرخي سدوله، ونحن نصعد المنحدر الطويل من طريق أبين Appian Way نحو تلال أولبان Alban Hills، نلقي نظرة إلى الوراء فنرى السماء الملتهبة بألوان الغروب، وإكليلها الذهبي يتوج روما مثل الهالة على رأس قديس يحتضر، ويلامس بقوس من نار قبة كاتدرائية القديس بطرس. يا له من منظر لا ينسى، لكننا ندير له ظهرنا ماضين في طريقنا على رعن الجبل الذي يخيم عليه الظلام حتى نصل إلى نمي ونطل على البحيرة في وهدتها العميقة وهي تذوب الآن سريعا في ظلال المساء. لم يتغير المكان منذ أن تلقت ديانا عهود الولاء والطاعة من عبدتها في الخميلة المقدسة، أما معبد إلهة الأحراش فقد اختفى، ولم يعد ملك الغابة يقف حارسا للغصن الذهبي. لكن غابات نمي ما زالت خضراء يانعة، ومع غروب الشمس عنها في الغرب، تحمل أجنحة النسيم إلى مسامعنا صوت أجراس كنيسة أريشيا تدق ناقوس التبشير: السلام عليك يامريم! يا لحلاوتها ويا لروعتها وهي قادمة من المدينة البعيدة ثم تتلاشى دقاتها في سبخات شمبانيا الفسيحة. مات الملك، عاش الملك! السلام عليك يا مريم!

الطرف المقابل: بحيرة نمي وخميلتها. جزء من لوحة «الغصن الذهبي» للفنان تيرنر. تيت غاليري، لندن.



نبذة عن المؤلف:

يتحدر جيمس جورج فريزر (1854-1941) من أسرة واسعة الثراء عاشت في مدينة غلاسكو في اسكتلندا، حيث تلقى تعليمه في جامعة غلاسكو أولاً حين كانت نظريات تشارلز داروين في أوج انتشارها، والفكر ينعم بالتحرر، فدرس العلوم الكلاسيكية وهي الفلسفة الطبيعية، ثم تابع دراسته في جامعة كامبريدج، ودرس القانون في ميدل تمبل في لندن، وفي عام 1907 أسند إليه منصب رئيس قسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة ليفربول، لكنه ما لبث أن تخلى عنه..يعد أول كاتب حديث يتناول موضوع المحرمات بصورة جدية، ولا تزال آراؤه مرجعًا لعلماء الأنثروبولوجيا حتى يومنا هذا.

نبذة عن المترجم:

د.محمد زياد يحيى كبة . مولود في مدينة حلب في سوريا عام 1951. نال درجة الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها عام 1973. ثم تابع دراسته العليا في جامعة لندن. فحصل على شهادة الدكتوراه من مدرسة اللغات الشرقية والإفريقية SOAS عام 1979.

عمل أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً مشاركاً في جامعة حلب. وأسهم في التدريس أستاذاً زائراً في جامعتي اللاذقية وحمص في سوريا. كما شارك في برنامج الدراسات العليا في كلية سنت جونز الأمريكية في عامي 1980 و 1984. ويعمل حالياً في جامعة الملك سعود في الرياض في المملكة العربية السعودية.

الغصن الذهبي

يعالج كتاب الغصن الذهبي عدداً من المفاهيم الراسخة في ثقافات كثير من الشعوب البدائية ويقارن فيما بينها وبالأخص تلك التي تتعلق بالسحر والشعوذة. حيث يبين الكتاب دور الساحر في المجتمعات البدائية وادعائه القدرة والسيطرة على قوى الطبيعة مثل المطر والشمس والمحاصيل الزراعية. وفي بعض المجتمعات ربما يرتقي الساحر السلم الاجتماعي في قبيلته حتى يصبح ملك القبيلة.

ويبين الكتاب أن كثيراً من الشعوب البدائية تؤمن بتجسد الآلهة في الشجر. لذلك تراهم يقدسون أشجاراً بعينها ويتباركون بها اعتقاداً منهم بأن روح الإله موجودة في هذه الشجرة أو تلك. كما يشرح عن تلك العادة الموجودة عند كثير من الشعوب البدائية التي قد تختار شخصاً بعينه ليكون قرباناً يقبل أن يحمل أوزار القبيلة فيقتلونه أو ينفونه ظناً منهم أنه يخلصهم منها.. يروي الكتاب العديد من القصص المثيرة للجدل بين سطوره.







المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة